

للإمام العلّامة

عبد الحميد بن محمد ابن باديس الصنهاجي

١٣٠٨ - ١٣٥٩ هـ

جمع وترتيب

د. توفيق محمد شاهين
جامعة الأزهر

محمد الصالح رمضان
أستاذ بوزارة التربية الجزائرية

علّق عليه وخرّج آياته وأحاديثه

أحمد شمس الدين

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الثانية
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-0563-9



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

تفسير

ابن باديس

في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لِلّه رَبّ العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الكرام المنتجبين.

أما بعد؛ فلا شكّ أن المسلمين اليوم، أكثر من أي يوم آخر، بحاجة ماسّة إلى التوجّه المباشر نحو القرآن الكريم لاستنباط معانيه وفهم ألفاظه ومبانيه، بعيداً عن ربقة التقليد وجمود التفكير الذي قد يكون أحد أهم الأسباب التي أدّت بهم إلى ما هم عليه اليوم من حالة مُزْرية ووضع لا يُحسدون عليه.

والإمام عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ واحد من مجموعة من المصلحين المسلمين الذين دفعوا العقول في هذا الاتجاه؛ كان أولهم في القرن الماضي جمال الدين الأفغاني، ثم تبعه الإمام محمد عبده، ومن بعدهما جاء في هذا القرن الشيخ رشيد رضا والإمام ابن باديس. وقد رأى هؤلاء الأئمة أن الخلاص من التخلّف والتبعية لا يكون إلا باتخاذ الإسلام منهجاً للحياة في كل زمان وكل مكان؛ ولا يكون ذلك إلا بانتهاج سبيل القرآن علماً وعملاً.

وقد بيّن الإمام ابن باديس في تفسيره ـ الذي نضعه بين يدي القارىء الكريم ـ مختلف نواحي القيم الإسلامية الواجب اتّباعها؛ فركّز على مقاصد القرآن الكريم التي يمكن تلخيصها بما يلي:

أولاً: الناحية العقيدية التي تتناول الجانب الإيماني باللّه والرسل والملائكة واليوم الآخر.

ثانياً: الناحية الأخلاقية التي يدعو القرآن إلى التلبّس بها لتهذيب النفوس وتزكيتها.

ثالثاً: الناحية الحياتية العملية، وهي التي تتناول الأحكام التي تنظم علاقة الفرد بربّه وبنفسه وبغيره من الأفراد وبمجتمعه ككلّ.

وأسفنا الوحيد هو أن هذا التفسير لم يأتنا كاملاً، فاقتصرنا منه على ما وصلنا؛ وما الكمال إلا لِلّه وحده.

والحمد للّه ربّ العالمين، وصلّى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أحمد شمس الدين

بيروت ـ لبنان

تعريف بالإمام عبد الحميد بن باديس*

تمهيد:

في الوطن الإسلامي والعربي حيوية كامنة لا يغلبها شيء، وتلك دلالة تدعو إلى التفاؤل والثقة... فبعد أن عاش الاستعمار الفرنسي في الجزائر أطول من عمره، كان لا بد له من أن يصطدم بشعب الجزائر الباسل في معركة فاصلة، وخاضتها الجزائر صابرة مجاهدة، في حرب ضارية دامت أكثر من سبع سنوات، وقدمت فيها أكثر من مليون شهيد، فكانت الحرية كاملة سابغة، وكان النصر لذيذاً وعزيزاً.

والخطوط العريضة في تقسيم التاريخ الجزائري، منذ الاحتلال حتى اليوم يمكن أن تذكر على هذا النحو:

١ ـ فترة التحول والفرنسة التي أرادها المستعمر لمحو الشخصية الجزائرية والقضاء على اللغة العربية والدين الإسلامي منذ الاحتلال في يوليو سنة ١٨٣٠ هـ، حتى الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ م.

٢ ـ وفترة استرداد هذه الشخصية والمحافظة عليها، والكفاح من أجلها طوال مدة الاستعمار.

٣ ـ وفترة الصمود للثورة الكبرى في أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ م، التي كانت فيها الجزائر مع الله فكان الله معها، وحرصت على الموت فوهبت لها الحياة ثم انبلج نور الحرية الصادق في مارس سنة ١٩٦٢ م، وأصبح الجزائريون أحراراً كما خلقهم الله، وأعزة كما أرادهم الإسلام.

وسواء أكانت الشخصيات تخلق المواقف، أو العكس من ذلك.. فقد برز خلال تلك الفترة شخصيات فذة ورائدة، أدت دورها ببسالة وإقدام، ولقنت الدنيا أعظم الدروس، وضربت أروع الأمثال، ومن أبرز هؤلاء:

١ ـ الأمير عبد القادر الجزائري، الذي قاد ثورة الجزائر من سنة ١٨٣٢ م حتى سنة ١٨٤٧ م.

٢ ـ وبو معزة، الذي قاد ثورته سنة ١٨٤٤ م.

---

* كتب هذا التعريف توفيق محمد شاهين.

٣ ـ وبو بغلة، وثورة سنة ١٨٥٢، واستمرت خمس سنوات، ولعبت فيها المجاهدة (لالا فاطمة) دوراً بطولياً عظيماً.
٤ ـ والمقراني، وثورته سنة ١٨٧١ م.
٥ ـ وشقيق المقراني (بو مزراق)، وثورته سنة ١٨٧٢ م.
٦ ـ وأولاد سيدي الشيخ، وثورتهم التي امتدت من سنة ١٨٦٨ م حتى سنة ١٨٨١ م.
٧ ـ وبو زيان، وثورته سنة ١٩١٤ م.

وغير هؤلاء كثيرون وكثيرون، من الجنود المجهولين، والشهداء الخالدين. وإذا كنا لا نستطيع لهم إحصاء، فحسبهم أن إحصاءهم في السماء مع الأبرار والصديقين والأنبياء.

ولا عجب في ذلك، فهم أحفاد خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وعقبة بن نافع الفهري، وطارق بن زياد، والأمير عبد القادر، والمقراني.

وجاء في إثر هؤلاء الزعماء الذي مهدوا للثورة الكبرى، وحافظوا طويلاً على شخصية الجزائر العربية المسلمة، وقادوا النهضة في نواحيها المختلفة؛ العلامتان: عبد الحميد بن باديس، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي. إذ جلس الأول للتدريس، والجهاد المضني، والإرشاد والوعظ، وخلق الرجال أكثر من ربع قرن، كانت خيراً وبركة على الجزائر والإسلام، فمن هو ابن باديس؟

مولده ونشأته:

عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس الصنهاجي، ولد سنة ١٣٠٨ هـ (١٨٨٩) م من أسرة معروفة بالعلم والجاه والثراء.

وكان والده ملجأ الخائفين، وكان من أبرز الرجال في قسنطينة، وكان درعاً حصيناً لولده، أبعد عنه كيد الاستعمار، ودافع عنه طويلاً. ويحكي ابن خلدون: انه اجتمع أربعون عمامة، من أسرة باديس في وقت واحد، في التدريس والإفتاء والوظائف الدينية.

والأسرة تنحدر من الصنهاجيين، وهي قبيلة ملك وسلطان، اشتهر منها المعز بن باديس.

وأسرة باديس تنتمي إلى الطريقة القادرية.

حفظ عبد الحميد القرآن الكريم على الشيخ محمد المواسي، ثم اختار طريق العلم، فأسلمه والده إلى العالم الورع التقي حمدان الونيسي، فرباه على العلم والفضل والأدب، وأوصاه بالابتعاد عن الوظيف، وقراءة العلم للعلم لا للرغيف.

وتزوج سنة ١٩٠٤ م، وأنجب ولداً أسماه إسماعيل، حفظ القرآن وحضر العلم، ثم توفي وهو صغير، ولم ينجب غيره.

وارتحل إلى جامع الزيتونة في تونس سنة ١٩٠٨ م لطلب العلم وتتلمذ على صفوة علمائه الشيخ محمد النخلي القيرواني، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور، وكان لهذا فضل تكوينه الأدبي

واللغوي. والشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ الصالح النيفر، وغيرهم من أفاضل علماء جامعة الزيتونة.

وتخرج من الزيتونة سنة ١٩١٢ م بشهادة عليا (التطويع).

وذهب إلى الحج سنة ١٩١٢، والتقى في المدينة المنورة بشيخه المهاجر حمدان الونيسي، والشيخ البشير الإبراهيمي، وتدارسوا وضعية الجزائر وضرورة إنشاء «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»، وإن تأخر إنشاؤها حتى سنة ١٩٣١ م.

وزار لبنان وسوريا ومصر، في طريق عودته، وأجازه الشيخ بخيت من كبار علماء الأزهر بشهادة العالمية من الأزهر الشريف.

السمات الأساسية في شخصيته:

كان ابن باديس أبيض اللون مشرباً بحمرة، كث اللحية، نحيل الجسم، واسع العينين، نافذ النظرات، زاهداً عفيفاً، متسامحاً ورعاً، رفيقاً متفائلاً، أواباً تواباً، يعفو عمن أساء إليه، صارماً في الحق، له شجاعة نادرة، وصبر على العمل، جهوري الصوت حسن السمت، نظيف الهندام، في بساطة محببة.

لا ينطق إلا في حق، ولا يسكت على باطل، يرد على معارضيه بطول نفس وسعة صدر، ويتناول الموضوع فيجلي جميع أطرافه، محافظاً على مواعيده، ومنظماً لأوقاته ذاكراً للقرآن، ومتذكراً للسنة في فراغه وراحاته.

له كثير من صفات الأفغاني، والشيخ محمد عبده.

وعلى الجملة، فهو شخصية غنية ثرة فياضة مؤثرة متأثرة:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

العوامل التي أثرت فيه:

من أهم العوامل التي أثرت في تكوينه.

١ ـ أساتذته الذين سبقت الإشارة إليهم، وغيرهم. إذ غرسوا فيه خلق العلماء، وتواضع الحلماء، وصفات القادة والمصلحين.

٢ ـ أسرته وبيئته، ويحدثنا عن ذلك زميله في الجهاد، الشيخ البشير الإبراهيمي:

«الشيخ عبد الحميد بن باديس، من أعلم علماء الشمال الإفريقي ولا أغالي، وباني النهضات العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية بالجزائر... وبيت ابن باديس في قسنطينة بيت عريق في السؤدد والعلم، ينتهي نسبه في سلسلة كعمود الصبح إلى المعز ابن باديس، مؤسس الدولة

الصنهاجية الأولى، التي خلفت الأغالبة على مملكة القيروان، ومدت ظلها على شرق الجزائر حيناً من الدهر».

٣ ـ وتأثر بالحركة الإصلاحية للأفغاني ومحمد عبده، واقتفى أثرهما، وسلك طريق الشيخ عبده في التربية والتعليم، والإصلاح الديني واللغوي. وأعجب بحركة «المنار» والشيخ رشيد رضا، وبعض تلاميذه يقولون: إنه سمع من الشيخ محمد عبده حينما زار الجزائر ودرس بها بعض الدروس، حين عودته من المنفى في باريس.

٤ ـ وتأثر بابن تيمية وسلفيته، ويعتبره بحق المجدد الواعي والمصلح في شيخوخة الفكر الإسلامي.

٥ ـ وتأثر وأثر في كثير من زملائه المخلصين العاملين معه مثل: الشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العقبي، والشيخ العربي التبسي، والشيخ مبارك الميلي وغيرهم.

٦ ـ فضلاً عن أن نفسه كانت خيرة، وهمته عالية، وعقله مستنيراً، وقلمه سيالاً، ومعلوماته وفيرة ومنظمة، وبديهته حاضرة، وذكاءه وقّاداً.

٧ ـ واتخذ من القرآن الكريم، والسنة الشريفة نبراساً ومنهاجاً، وتملكه الفضل والنبل، وأسره الخير والفضل.

إمكانياته وجهوده:

إمكانياته كبيرة، وجهوده عظيمة، أعطى الجزائر الكثير، واكتفى بالقليل قوتاً ومتاعاً، ومن جوانب جهوده، ما يلي:

١ ـ كان في الحق عاصفة لا تهدأ إلا إذا انتصر العدل، وفي الخير نفحة لا تسكن إلا إذا تنفس الإحسان.

٢ ـ وهو مدرس ماهر، لا يكل ولا يمل، يدرس من بعد صلاة الفجر إلى صلاة العشاء مع قسط ضئيل للراحة والصلاة والغداء، ثم يعظ الناس في مسجده بعد صلاة العشاء إلى ما شاء الله؛ لأنه أشفق على ينبوع الثقافة الإسلامية ان يصُدّ تيّاره ما تراكم فيه من غثاء وحطام، فانبرى بالتدريس والإصلاح ليجعل للإسلام النقي الواضح قولاً في كل مسألة، ورأياً في كل معضلة، وتوجيهاً في كل قصد.

ودرس في الجامع الأخضر في قسطينة من سنة ١٩١٣ م حتى لقي ربه في إبريل سنة ١٩٤٠ م.

٣ ـ وهو كاتب ممتع، وسلفي النزعة في كتابته، ومهذب في كتاباته، قليل السخرية بالأعداء والمبغضين، ولكن قلمه فيهم أمضى من السنان، وأسلوبه من السهل الممتنع، تدرج أسلوبه حتى

بلغ منزلة رفيعة، له بصر بالأدب وباع في اللغة وفقهها، محب للأدب القديم والحديث، يرتجل الشعر على البديهة ولكن شعره أقل جودة بكثير من نثره.

وصفه شاعر الجزائر المجيد الشيخ محمد العيد بقوله:

يراعك في التحرير أمضى من الظبا وأقضى من الأحكام أيان يشهر
قبست من القرآن مشعل حكمة ينار به السر اللطيف ويبصر

ولا يتكلم ولا يدرس إلا بالعربية الفصحى، غير متكلف فيها، ولا متقعر.

٤ ـ وهو فقيه من الطراز الأول، خبير بمذهب مالك، متفقه على غيره من المذاهب ويمقت التعصب لمذهب معين، وله فتاوى عظيمة، تحس منها أنه إهاب ملىء علماً منظماً.

٥ ـ وهو مفسر ممتاز، له استقلاليته في الفهم والرأي، يقرأ التفاسير، ثم يجعل من عقله مصفاة لها، فلا يخرج منها إلا ما صح ونفع، ولاءم العصر، وصدق الخبر، مع حسن عرض، واستنباط واع، واستنتاج للعبرة، وحث على سنة، وإخماد لبدعة، في أسلوب عصري، وتطويل غير ممل، وإيجاز غير مخل.

فسر القرآن الكريم كله في خمس وعشرين سنة، أي ما يوازي مدة نزوله، واشتغل بتأليف الرجال عن تأليف الكتب، فلم يبق من تفسيره سوى هذا القدر الباقي في مجالس التذكير، مما كان ينشر في مجلة الشهاب، وهناك فرق كبير بين التفسير الخاص لطلابه، والعام في الوعظ والإرشاد، وما كان يكتب في مجالس التذكير ليقرأه العام والخاص. وهكذا اجتمعت عنده عدة الجهاد والاجتهاد، وأنار الله بصيرته، فأحيا شريعة، وأقام مجتمعاً، وأنقذ شرفاً وأمة ولغة.

٦ ـ وهو محدث بصير، شرح موطأ مالك رضي الله عنه كله، ولم يبق من هذا الشرح أيضاً إلا ما جمعناه في كتاب بعنوان: «من هدي النبوة» وهذا يشهد له بطول الباع، والفهم التام لسنة الرسول ﷺ.

٧ ـ وهو أديب ذواقة، يعشق الأدب القديم والحديث، وينقده، ويعطي لطلابه وزائريه زبدة ما قرأ، ويوازن بين شعر وشعر، وينشر الملح والطرائف وله باب في الشهاب بعنوان «من أحسن القصص والأدب» جمع فيه بين كل طريف وظريف.

٨ ـ وهو صحفي وقور، هادىء رزين، يختار الموضوع، ويحدد المشلكة ويصف الدواء ويهتم بمصالح المسلمين في جميع أنحاء الدنيا، ومشاكل بلاده في المقام الأول، ويقرأ الصحافة المحلية والأجنبية ويشيد بالصحافة الإسلامية، ويحمل على الباطل في غير هوادة، وينتصف للحق أينما كان.

وأصدر المجلات الآتية: «المنتقد»، و«السنة»، و«الصراط»، و«الشريعة»، و«البصائر»، وأنشأ «الشهاب». وكان قوياً في الحق، ولم يطق الاستعمار ذلك، فعطل كل صحفه، وبقيت الشهاب طويلاً حتى جاءت الحرب العالمية الثانية.

٩ ـ وهو مرب من الطراز الأول: أسس المدارس الابتدائية الحرة العربية في طول البلاد وعرضها، ودعا إلى تعليم البنت الجزائرية، وأخذ بيد تلاميذه وأبنائه، وعين النابهين منهم في المدارس المذكورة بأجر ضئيل يفي أو لا يفي بضروريات الحياة. ويحث المواطنين على احترامهم، ومساعدتهم، وكان لوالده فضل كبير في هذا الميدان.

١٠ ـ وأسس النوادي في العواصم الجزائرية لنشر الثقافة والتربية الدينية والوطنية.

١١ ـ وأسس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» وانتخب رئيساً لها طول حياته، تقديراً لخدماته وجهوده، وكفاءته.

١٢ ـ ونقى الدين من البدع والخرافات والأباطيل، وحمل على البدع حملة شعواء ولم تأخذه في الحق لومة لائم، حتى عاد للدين صفاؤه ونقاؤه.

١٣ ـ ونشر الكتب السلفية القيمة، وعمل على إحياء الكتب العربية القديمة، واحتفل باللغة العربية لتحيا رغم أنف الاستعمار.

١٤ ـ وأسس جمعية التجار المسلمين، والجمعيات الاقتصادية لإنعاش الاقتصاد والمحافظة على الثورة ودعا أبناء الوطن إلى ولوج باب التجارة بشتى الطرق.

١٥ ـ وأسس «الميتم الإسلامي»: (جمعية رعاية الأيتام) والجمعيات الخيرية لإنقاذ الطفولة والنشء من التشرد والضياع.

١٦ ـ واشتغل بالسياسة، وخاض حقلها في براعة وذكاء، وناهض الاستعمار وما مالأه طول حياته رغم المغريات والمرهبات. وكان يحتج باسمه الخاص في أحرج المواقف، وباسم جمعية العلماء في المواقف العادية، حفظاً للجمعية وصوناً لها من القلاقل، وتفادياً لها من الغلق والكيد والبطش.

١٧ ـ وأنشأ مطبعة عربية في قسنطينة طبعت صحفه ومجلاته، وما يحييه ويختار من كتب ومنشورات.

١٨ ـ وعني بتأسيس الكشافة الإسلامية، والمنظمات القومية.

١٩ ـ وأنشأ جمعية الشباب الفني للموسيقى والفنون الجميلة!!

٢٠ ـ وهو خطيب مفوه، شبهه بعضهم بـ« ميرانت، وميرابو».

٢١ ـ وجعل معهده فرعاً لجامع الزيتونة، واعترفت له الزيتونة بذلك تقديراً لعلمه وفضله وجهوده.

٢٢ ـ وأرسل طلابه إلى الأزهر، أو إلى جامعة الزيتونة أو إلى جامعة القرويين في المغرب، فعادوا علماء عاملين في الجزائر.

تلكم هي أهم الخطوط البارزة في جهاده، ذكرناها مجملة في هذه العجالة.

منهاج ابن باديس العلمي وصعاب لقيها:

خلق المستعمر أوزاراً كثيرة، ولذا كان على ابن باديس أن يبدأ من الصفر:

فجلس للتدريس في قسنطينة متطوعاً ابتغاء وجه الله منذ (١٩١٣م - ١٩٤٠ م). وتسامع الناس به، فتقاطروا إليه يتعلمون دينهم ولغتهم، حتى ضاقت بهم قسنطينة، وأقض ذلك مضاجع الاستعمار، وحث على التعليم وإنشاء المدارس وسارعت الأمة إلى تلبية الدعوة، وبنت حوالي ١٧٠ مدرسة حرة عربية، كان فيها ما يزيد على خمسين ألف طالب وطالبة، فهو لم يملك ولم ير سلاحاً أقوى من تعليم المغلوبين المستضعفين، يقودهم إلى النصر المبين.

وفي سنة ١٩٢٢ م تأكد الشيخ أن الطرقية المنحرفة في الجزائر سبب من أسباب البدع والخرافات، ومساعدة المستعمر، فرأى مناوأتها ومنازلتها وجهاً لوجه، وحمل عليها حملات قاسية، وأنشأ لذلك جريدة «المنتقد» ومن اسمها يظهر غرضها، فكانت ناراً ونوراً، ولكن المستعمر أخرس الجريدة بسرعة، وأصدر الشيخ غيرها.

وفي مقالاته الصحفية ردد كثيراً أن مقومات الجزائر ثلاثة: الإسلام، والعربية، والأرض الجزائرية بحدودها. ودعا إلى وحدة المغرب العربي الكبير (من طرابلس الغرب حتى المحيط الأطلسي). ودعا إلى القومية العربية، ووحدة الوطن العربي الكبير، وأشاد في كل مناسبة بالعرب والعربية والإسلام والوطنية.

وعاونه المجيدون والنابهون من أصدقائه وأبنائه الطلاب، وانبثوا في أنحاء التراب الوطني، يحملون رسالة العربية والإسلام، فما انقضت مدة حتى كان الفوج الأول من تلاميذه مستكمل الأدوات من فكر صحيحة، وعقول نيرة، ونفوس طامحة، وعزائم صادقة، وألسن صقيلة، وأقلام كاتبة، وكانت تلك الكتائب الأولى من تلامذته هي طلائع العهد الجديد الزاهر.

وإن «لعبد الحميد بن بادس» منة على كل من يحمل بين جنبيه روحاً جديدة أو فكرة سديدة من أبناء الجزائر أينما كانوا، لا فرق في ذلك بين طلاب العلم، وبين غيرهم من طلاب الحياة في جميع فروعها.

ورأى ابن باديس أن مصائب الجزائر هي: الاستعمار الضاري، المعتمد على الحديد والنار. والاستعمار الروحي الذي يمثله بعض مشايخ الطرق المضلين أو الجاهلين المتغلغلين في الشعب والمهالئين لفرنسا.

فخطب ابن باديس وحاضر، وكتب وناظر وناقش وجادل في الصحافة، والمساجد، والأندية، والمحافل والأسواق.. ونادى بضرورة تعليم الصغار ولو في بيوت آلهم، وطالب برد أوقاف المسلمين التي استولى عليها المستعمر، احتراماً لشرط الواقف، وليكون للمسلمين عزة وكرامة، ولتنفق في سبيل الله الذي أوقفت من أجله، ونادى باستقلال القضاء، وحرية التعليم،

وإباحته للجنسين، وعدم التدخل الحكومي في تعيين رجال الدين. ولم يعرض الإسلام كقطعة من التاريخ، للعرض وليست للمس، وإنما عرضه حياً يوائم الحياة القائمة ويواكبها في واقع الأحياء.

ولم يكن طريقه مفروشاً بالورود، وإنما كان محفوفاً بالمخاطر والأهوال، ولكنه توكل على الله، واعتمد عليه، وعمل بوصية شيخه أحمد الهندي حينما قال:

«أذكر أنني ـ ابن باديس ـ لما زرت المدينة المنورة، واتصلت فيها بشيخي الأستاذ حمدان الونيسي، وشيخي أحمد الهندي، أشار عليّ الأول بالهجرة إلى المدينة، وقطع كل علاقة لي بالوطن، وأشار عليّ الثاني وكان عالماً حكيماً بالعودة إلى الوطن، وخدمة الإسلام والعربية فيه بقدر الجهد. فحقق الله رأي الشيخ الثاني، ورجعنا إلى الوطن بقصد خدمته. فنحن لا نهاجر، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية... في هذا الوطن»..

وتصدى له الاستعمار، وحماه والده كثيراً وطويلاً في أول الأمر، ولكن والي قسنطينة ضغط على والده، ليجبر ولده على السكوت وقبول وظيف كبير ديني، ويترك ما هو فيه... وهدده والده بالمقاطعة، وقبلها عبد الحميد وفضل المقاطعة على الوظيف والسكوت، وقال لوالده: «لا اتصال لنا بعد اليوم إلا ما يوجبه الإسلام». وهكذا عاش مخلصاً في القول والعمل، وجريئاً وحراً في الرأي، صافي النفس والقلب.

وأصدر «شوطان» وزير داخلية الجزائر قراراً في مارس سنة ١٩٣٨ م بمنع تعليم العربية في الجزائر، واعتبارها لغة أجنبية، فشرد القراد ٩/ ١٠ من أبناء الشعب، لولا أن استمرت مدارس جمعية العلماء مفتوحة رغم العنت والإرهاق والتضييق، فكانت نافذة للرحمة والعلم... ويعتبر عبد الحميد بن باديس زيادة الضغط على الجمعية أمارة نجاحه، ونجاح زملائه، إذ يقول: «إنا بالأمس حين لم نلتفت هذه اللفتة إلى ماضينا وقوتنا السماوية ما كنا نرهب أحداً، ولا نستطيع أن نشعر بوجودنا أحداً. أما اليوم فبهذه اللفتة القصيرة إلى تراثنا المجيد استطعنا أن نعلن عن وجودنا، ونخيف بعد أن كنا نخاف». وأبى أن يسلم مدرسة التربية إلى فرنسا إلا إذا مات في هذا السبيل.

ويعلن الكردينال «لا فيجري» سنة ١٩٣٠: «أن عهد الهلال في الجزائر قد غبر، وأن عهد الصليب قد بدأ، وأنه سيستمر إلى الأبد».

فيعلن ابن باديس تأسيس جمعية العلماء المسلمين سنة ١٩٣١ م، لا على أساس تعصبي ولكن على أساس تعايش سلمي.

ويهدد الوزير الفرنسي، وفد المؤتمر الإسلامي سنة ١٩٣٦ م بأن «لدى فرنسا مدافع طويلة» ويرد عليه ابن باديس بأن لدينا مدافع أطول و«إنها مدافع الله».

وكان يتمنى أن يرى التعليم العالي في الجزائر، ويفتح كلية لذلك، فكان يقول لزملائه: «أنا أستكفيكم في كل أمر يتعلق بالكلية إلا الاستعمار فأنا أكفيكموه، فخلوا بيني وبينه».

وعندما لاحت نذر الحرب العالمية الثانية، وطُلب من جمعيته أن ترسل برقية تأييداً لفرنسا قال ابن باديس: «لن أمضيها ولو قطعوا رأسي» وترفض أغلبية الأعضاء، ثم يعلن ابن باديس: «ولو كان أغلبيتكم تؤيد إرسال البرقية ما كنتم تروني في مجلسكم هذا بعد اليوم» ثم قال: «تقطع يدي، ولا أوافق المجرم على إجرامه، والظالم على ظلمه».

وهكذا عاش من نفسه الكبيرة في جيش، وإن خيل أنه إنسان.

ويستدعيه حاكم قسنطينة (الفرنسي) والحرب الثانية على الأبواب، ليسأله عن مصيرها ومصير الجزائر معها؟

وفي موقف صلب، وتقريع مؤلم، وتوبيخ بيّن، يجيبه ابن باديس:

«إن الجزائر ثلاث طبقات: طبقة الأكثرية وقد قتلتم إحساسها بالحياة، فهي لا تفرق بين فرنسا وبين ابن باديس.

وطبقة الأقلية الواعية، وقد ملأتم أفواهها بعظم الوظيف تلوكه بين أشداقها وهي تحسب أنه غذاء.

وطبقة المعزولين (يقصد أعضاء جمعية العلماء المسلمين المضطهدين المطاردين) يعيشون للمستقبل، ولا خطر منهم على دولتكم اليوم» ثم انصرف الشيخ.

وتضيق به الطرقية والاستعمار، فيوعزون إلى مجرم بالترصد للشيخ ابن باديس لقتله ليلاً بعد انصرافه من مسجده، ويشهر المجرم السكين على الشيخ ويمسك الشيخ بتلابيب المجرم والسكين في يده، ويتقاطر الناس لنجدته، ثم يعفو الشيخ عن الجاني، لأنه جاهل، ولأنه آلة في يد غيره.

ويسجل هذا الحادث في قصيد طويل شاعر الجزائر الشيخ محمد العيد، فيقول في مطلعه:

حمتك يد المولى وكنت بها أولى فيا لك من شيخ حمته يد المولى

وتنبأ بإعلان الثورة الكبرى على فرنسا، وعبأ لها الجهود، وأشار إلى جبال (أوراس) الحصينة، وقال لأبنائه وطلابه: من هنا تبدأ الثورة.

بل وحدثني بعض أصدقائه وطلابه، بأنه بايع بعضهم فرداً فرداً، استعداداً للتعبئة ولإعلان الجهاد الإسلامي والحرب ضد فرنسا، ولكن المنية عاجلته.

وهكذا ظل ابن باديس طول حياته مجاهداً، فكان الحركة التي لا تهدأ في خدمة الإسلام بالتعليم والتوجيه، ولا نظن عالماً من علماء العصر ـ في وقته ـ بذل من الفكر والجهد في إعلاء كلمة الله، وإنقاذ تراثنا وتوجيه مجتمعنا ما بذل هذا الإمام العظيم.

آثار ابن باديس:

أثر عنه قوله: «شغلنا تأليف الرجال عن الكتب». ولم يخلف لذلك كتباً كثيرة، ولكن ما خلفه فيه قوة وعظمة، وأصالة وتجديد، وكفاح مجسد لجهاد هذا الإمام في سبيل الله والوطن.

وكان الاستعمار يحرق كل مجلة يعثر عليها إبان الثورة، أو كتابات عربية، ومن ثم فقد ضاعت كتابات كثيرة لابن باديس غير أن بعض الغيورين والمحبين دفن بعض هذه المجلات في التراب، وبعد سبع سنوات ونصف كشف عنها، فبقي البعض، وأكلت الأرضة والأتربة والطين البعض الآخر. غير أن المجلات الباقية وفيها آثاره الباقية، أمكن أن نستخلص منها ما يلي:

١ ـ تفسير ابن باديس في مجالس التذكير — طبع سنة ١٩٦٤ م
٢ ـ من الهدي النبوي — طبع سنة ١٩٦٥ م
٣ ـ رجال السلف ونساؤه — طبع سنة ١٩٦٥ م
٤ ـ عقيدة التوحيد من القرآن والسنة — طبع سنة ١٩٦٤ م
٥ ـ أحسن القصص — لم يطبع بعد
٦ ـ رسالة في الأصول — لم يطبع بعد
٧ ـ مجموعة كبيرة من المقالات السياسية، والاجتماعية، جمعت مع بعض ما سبق، وطبعت في كتاب.

٨ ـ مجموعة خطب ومقالات ابن باديس، طبعت في كتاب سنة ١٩٦٦ م.

وتلاميذ ابن باديس اليوم في الجزائر هم عمد النهضة وعمادها، وهم الذين اصطلوا بنيران الثورة الجزائرية الكبرى، وكثير منهم كان الوقود لها.

وكثير منهم اليوم يفخر بأنه من تلامذة ابن باديس، وتحتفل الجزائر بذكراه في كل عام تخليداً لذكراه.

وعلى الجملة لم تذهب جهود ابن باديس سدى، لأنه لم يكن علماً على شخص، وإنما كان علماً على ثروة ضخمة من علوم القرآن، وفنون السنة تجمعت، وتمحصت، وعرفت طريقها الحق منذ تطوع من الزيتونة، وتصدر للجهاد، فنهض برسالته حفياً وفياً لا يتبرم بها، لأنها حاجة نفسه، ولا يتخفف منها لأنها رسالة حياته، فخلد في الحياتين:

حياة الناس بالذكر الحسن، وفي الباقية بما قدم من صالح الأعمال.

وفاته:

وبعد حياة حافلة بجلائل الأعمال، لقي عبد الحميد بن باديس ربه ـ راضياً مرضياً ـ في ٨ من ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ (١٦ من إبريل سنة ١٩٤٠ م) إثر مرض قصير لم يطل، وحامت الأقاويل حول موته:

فقيل: إنه مات مسموماً، وقيل بل كان موته طبيعياً.

وهكذا الشأن في موت العظماء. وبكته الجزائر كلها، والمغرب العربي، وخرجت الجزائر تشيعه إلى مثواه الأخير - رغم ظروف الحياة القائمة - في قسنطينة ، ودفن بها في احتفال مهيب.

رحمه الله رحمة واسعة، وأمطر عليه شآبيب رحمته ورضوانه، وجزاه عن الإسلام وأهله، وعن عارفي فضله أحسن الجزاء.

الجمعة ٩ من ذي الحجة سنة ١٣٩٠ هـ

٥ من فبراير سنة ١٩٧١ م

توفيق محمد شاهين

خصائص التفسير الباديسي(*)

الحاجة إلى القرآن:

القرآن كتاب الإنسانية العليا، استشرفت إليه قبل أربعة عشر قرناً حين ضامها أبناؤها فعقلوها، فارتكسوا[1] في الحيوانية السفلى، فأخلدوا إلى الأرض، فأكثروا فيها الفساد، فأنزله الله من السماء ليصلح به الأرض وليدل أهلها المستخلفين عليها من بني آدم، على الطريق الواصلة بالله، ويجدد ما رث[2] من علائقهم به.

وما أشد شبه الإنسانية اليوم بالإنسانية قبل نزول القرآن، في جفاف العواطف، وضراوة الغرائز، وتحكم الأهواء، والتباس السبل، وتحكيم القوة، وتغول الوثنية المادية.

وما أحوج الإنسانية اليوم إلى القرآن، وهي في هذا الظلام الحالك من الضلال، وقد عجز العقل عن هدايتها وحده، كما عجز قديماً عن هدايتها، لولا تأييد الله له بالأمداد السماوية من الوحي الذي يقوي ضعفه إذا أدركه الوهن، ويصلح خطأه إذا اختل ميزانه.

وكما أتى القرآن لأول نزوله بالعجائب المعجزات في إصلاح البشر فإنه حقيق بأن يأتي بتلك المعجزات في كل زمان، إذا وجد ذلك الطراز العالي من العقول التي تفهمته، وذلك النمط السامي من الهمم التي نشرته وعممته، فإن القرآن لا يأتي بمعجزاته ولا يؤتي آثاره في إصلاح النفوس إلا إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف، وتولته بالتطبيق العملي نفوس سامية وهمم بعيدة كنفوسهم وهممهم.

أما انتشاره بين المسلمين بهذه الصورة الجافة من الحفظ المجرد، وبهذا النمط السخيف من الفهم السطحي، وبهذا الأسلوب التقليدي من التفسير اللفظي ـ فإنه لا يفيدهم شيئاً، ولا يفيد بهم شيئاً، بل يزيدهم بعداً عن هدايته، ويزيد أعداءهم استخفافاً بهم، وإمعاناً في التكالب عليهم، والتحكم في رقابهم وأوطانهم.

(*) كلمة كتبها العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي قدم بها لآيات من سورة الفرقان، وهي التي جمعها المرحوم السيد «أحمد بو شمال» وطبعها عام ١٣٦٧ هـ.

(١) هبطوا. (٢) ما بلي.

ولو فهمنا القرآن كما فهمه السلف، وعملنا به كما عملوا بـه، وحكّمناه في نفـوسنا كـما حكموه، وجعلنا أهواءنا ومشاربنا تابعة له، وموزونة بميزانه، لو فعلنا ذلك لكنّا به أعزة في أنفسنا وأئمة لغيرنا.

معنى التفسير:

تفسير القرآن، تفهيم لمعانيه وأحكامه وحكمه وآدابه ومواعظه. والتفهم تابع للفهم؛ فمن حسن فهمه أحسن تفهيمه، ومن لم يحسن فهمه لم يحسن تفهيمه، وإن كتب فيه المجلدات، وأملي فيه ألوف المجالس.

وفهم القرآن يتوقف ـ بعد القريحة الصافية، والذهن النير ـ على:

التعمق في أسرار البيان العربي.

والتفقه لروح السنة المحمدية المبينة لمقاصد القرآن، الشارحة لأغراضه بالقول والعمل.

والاطلاع الواسع على مفهوم علماء القرون الثلاثة الفاضلة.

ثم على التأمل في سنن الله في الكائنات.

ودراسة ما تنتجه العلوم الاختبارية من كشف لتلك السنن وعجائبها.

وقـد فهمه السلف حق الفهم ففسروه حق التفسـير، مستعينين بـإرشاده عـلى فقه سنن الأكوان.

ولـو لم ينحسر تيار الفهـوم الإسلاميـة للقرآن، بمـا وقف في سبيله من تـوزع المـذاهب والعصبيات المذهبية، لانتهى بها الأمر إلى كشف أسرار الطبيعة ومكنونات الكون، ولسبق العقل الإسلامي إلى اكتشاف هذه العجائب العلمية التي هي مفاخر هذا العصر.

كان علماء السلف يشرحون الجانب العملي من القرآن على أنه هداية عامة لجميع البشر، يطالب كل مؤمن بفهمها والعمل بها.

وكانوا يتحاشون الجانب الغيبي منه لأنه مما لا يصل إليه عقل المكلف، فلا يطالب بعلمه، ولا يحاسب على التقصير فيه.

وكانوا ينظرون إلى الجانب الكوني منه نظرات مسددة، لو صحبها بحث مسـدد ممن أتى بعدهم.

طرائق المفسرين:

وللمفسرين من عهد التدوين إلى الآن طرائق في فهم القرآن، وأساليب في كتابة تفسيره.

أما الأساليب فقلما تختلف إلا بعض العصور، حين تختلف الأساليب الأدبية فتنحط أو تعلو، فيسري التطور منها إلى الأساليب العلمية.

وأما الطرائق فإنها تختلف باختلاف الاختصاص في المفسرين والعلوم التي غلبت عليهم وعرفوا بها.

أ ـ **فالمحدثون**، يلتزمون التفسير بالمأثور، فإن اختلفت الرواية فمنهم من يروي المتناقضات ويدعك في حيرة، ومنهم من يدخل نظره وفكره في التعديل والترجيح كما يفعل أبو جعفر الطبري.

ب ـ **ومقلدة المذاهب**: يفسرون القرآن بقواعد مذاهبهم، ويحكمونها فيه. فإذا خالف نصه قاعدة من قواعدهم ردوه بالتأويل إليها. وهذا شر ما أصيب به هذا العلم، بل هو نوع من التعطيل، وباب من التحريف والتبديل؛ لأنه في حقيقة أمره وضع لكلام الله في الدرجة الثانية من كلام المخلوق، وفي منزلة الفرع من أصله يرد إليه إذا خالفه، وأعظم بها زلة وإن هذه الزلة هي الغالبة على صنيع المتشبثين بالمذاهب والمتعصبين لها، يتباعدون عن القرآن ما شاء لهم الهوى فإذا تناولوه فبهذه النظرة الخاطئة[1].

ج ـ **والمتكلمون في «معاني القرآن»** معظمهم من اللغويين والنحاة، فهم يتكلمون غالباً على الألفاظ المفردة، وأوجه الإعراب. فهم أقرب الكاتبين في الغريب أمثال الأصفهاني، وأبي ذر الهروي.

وإنما أطلقوا على كتبهم هذا الاسم (معاني القرآن) لأن بساطة الأسماء كانت هي الغالبة في زمنهم.

د ـ **والإخباريون** مفتونون بالقصص، فلا يقعون إلا على الآيات المتعلقة به. ويا ليتهم يحققون الحكمة من القصص، فيجلون العبر منها، ويستخرجون الدقائق من سنن الله في الأمم وجميع الكائنات. ولكنهم يسترسلون مع الرواية، وتستهويهم غرابة الأخبار، فينتهي بهم ذلك إلى الإسرائيليات الخاطئة الكاذبة، وقد أدخلوا بصنيعهم هذا على المسلمين ضرراً عظيماً، وعلى التاريخ فساداً كبيراً.

هـ ـ **وأصحاب المذاهب العقلية** إذا تعاطوا التفسير، لا يتوسعون إلا في الاستدلالات العقلية على إثبات الصفات أو نفيها، وعلى الغيبيات والنبوات وما يتعلق بها.

و ـ **والنحاة والباحثون** في أسرار التراكيب لا يفيضون إلا في توجيه الأعاريب أو نكت البلاغة كما يفعل الزمخشري، وأبو حيان.

هكذا فعل القدماء والمحدثون بالقرآن: حكموا فيه نحلهم ومذاهبهم وصناعاتهم الغالبة عليهم، فأضاعوا هديه وبلاغه، وأبعدوا الأمة عنه؛ وصرفوها عن حكمه وأسراره.

---

(١) لأن الأولى هو العكس فنعرض ما يعن لنا على القرآن ليقول رأيه فيه لا أن نفسره على أن نقول ما يوافق آراءنا وأهواءنا. وطالما نادى ابن باديس والبشير بوجوب نبذ التقليد الأعمى، والتعصب الممقوت.

ولو ذهبنا مذهب التحديد في معاني الألفاظ الاصطلاحية لوجدنا المفسر من هؤلاء قليلاً.

ز ـ أما المفسرون الذين يصدق عليهم هذا الوصف: فهم الذين يشرحون بحقٍّ فقه القرآن، ويستثيرون أسراره وحكمه، معتمدين على القرآن نفسه، وعلى السنة، وعلى البيان العربي، كما أشرنا إلى ذلك قبلاً.

ومن هؤلاء من اقتصر على الأحكام فقط كابن العربي، والجصاص، وعبد المنعم بن الفرس، وهؤلاء الثلاثة هم الذين انتهت إلينا كتبهم.

ومنهم من عمم، ولكن توسعه ظاهر في الأحكام، وأحكام العبادات والمعاملات، كالقرطبي، وابن عطية، وأضرابهما.

وكان جمود، وكان ركود، وضرب التقليد بجرانه[1]، فقضى على ذكاء الأذكياء وفهم الفهماء، إلى أن أذن الله للعقل الإسلامي أن ينفلت من عقال التقليد، ويستقل في الفهم، وللنهضة العلمية الإسلامية أن يتبلج فجرها، ويعم نورها.

فكانت إرهاصات[2] التجديد لهذا العلم ظاهرة في ثلاثة من أذكى علمائنا وأوسعهم اطلاعاً:

الشوكاني[3]، والألوسي، وصديق حسن خان. مع تفاوت بينهم في قوة النزعة الاستقلالية، وفي القدرة على التخلص من الصبغة المذهبية التقليدية.

ثم كانت المعجزة بعد ذلك الإرهاص بظهور إمام المفسرين بلا منازع «محمد عبده» أبلغ من تكلم في التفسير، بياناً لهديه، وفهماً لأسراره، وتوفيقاً بين آيات الله في القرآن، وبين آياته في الأكوان، فبوجود هذا الإمام وجد علم التفسير وتم، ولم ينقصه إلا أنه لم يكتبه بقلمه كما بينه بلسانه، ولو فعل لأبقى للمسلمين تفسيراً لا للقرآن بل لمعجزات القرآن.

ولكنه مات دون ذلك.

فخلفه ترجمان أفكاره ومستودع أسراره «محمد رشيد رضا» فكتب في التفسير ما كتب، ودوّن آراء الإمام فيه، وشرع للعلماء منهاجه، ومات قبل أن يتمه.

فانتهت إمامة التفسير بعده في العالم الإسلامي كله، إلى أخينا وصديقنا، ومنشىء النهضة الإسلامية العلمية بالجزائر، بل بالشمال الإفريقي «عبد الحميد بن باديس».

خصائص التفسير الباديسي:

كان للأخ الصديق «عبد الحميد بن باديس» رحمه الله ذوقاً خاص في فهم القرآن كأنه حاسة

---

(١) أي ثبت واستقر.

(٢) الإرهاصات، علامات تسبق الأمر العظيم.

(٣) محمد الشوكاني (١٧٥٧ ـ ١٨٣٤) من جلة علمائنا له مؤلفات كثيرة.

زائدة خص بها. يرفده ـ بعد الذكاء المشرق، والقريحة الوقّادة، والبصيرة النافذة ـ بيان ناصع، واطلاع واسع، وذرع فسيح في العلوم النفسية والكونية، وباع مديد في علم الاجتماع، ورأي سديد في عوارضه وأمراضه.

يمد ذلك كله شجاعة في الرأي، وشجاعة في القول، لم يرزقهما إلا الأفذاذ المعدودون في البشر.

وله في القرآن رأي بنى عليه كل أعماله في العلم، والإصلاح، والتربية والتعليم: وهو أنه لا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هدايته والاستقامة على طريقته، وهو رأي الهداة المصلحين من قبله.

وكان يرى ـ حين تصدى لتفسير القرآن ـ أن تدوين التفسير بالكتابة مشغلة عن العمل المقدم؛ لذلك آثر البدء بتفسيره درساً تسمعه الجماهير فتتعجل من الاهتداء به ما يتعجله المريض المنهك من الدواء، وما يتعجله المسافر العجلان من الزاد.

وكان ـ رحمه الله ـ يستطيع أن يجمع بين الحسنيين، لولا أنه كان مشغولاً مع ذلك بتعليم جيل، وتربية أمة، ومكافحة أمية، ومعالجة أمراض اجتماعية، ومصارعة استعمار يؤيدها.

فاقتصر على تفسير القرآن درساً ينهل منه الصادي، ويتزود منه الرائح والغادي، وعكف عليه إلى أن ختمه في خمس وعشرين سنة. ولم يختم التفسير درساً ودراية بهذا الوطن غيره، منذ ختمه «أبو عبدالله الشريف التلمساني» في المائة الثامنة.

كان ذلك الأخ الصديق رحمه الله يعلل النفس باتساع الوقت وانفساح الأجل حتى يكتب تفسيراً على طريقته في الدرس. وكان كلما جرتنا شجون الحديث إلى التفسير، يتمنى أن نتعاون على كتابة التفسير، ويغريني بأن الكتابة عليّ أسهل منها عليه.

ولا أنسى مجلساً كنا فيه على ربوة من جبل تلمسان في زيارة من زياراته لي، وكنا في حالة حزن لموت الشيخ «رشيد رضا» قبل أسبوع من ذلك اليوم، فذكرنا تفسير المنار، وأسفنا لانقطاعه بموت صاحبه فقلت له: ليس لإكماله إلا أنت. فقال لي: ليس لإكماله إلا أنت. فقلت له: حتى يكون لي علم رشيد، وسعة رشيد، ومكتبة رشيد، ومكاتب القاهرة المفتوحة في وجه رشيد. فقال لي واثقاً مؤكداً: إننا لو تعاونا وتفرغنا للعمل لأخرجنا للأمة تفسيراً يغطي على التفاسير من غير احتياج إلى ما ذكرت.

ولما احتفلت الأمة الجزائرية ذلك الاحتفال الحافل بختمه لتفسير القرآن عام ١٣٥٧ هـ، وكتبت بقلمي تفسير المعوذتين مقتبساً من درس الختم، وأخرجته في ذلك الأسلوب الذي قرأه الناس في مجلة الشهاب أعجب به أيما إعجاب؛ وتجدد أمله في أن نتعاون على كتابة تفسير كامل، ولكن العوارض باعدت بين الأمل والعمل سنتين.

ثم جاء الموت فباعد بيني وبينه.

ثم ألحت الحوادث والأعمال بعده، فلم تبق للقلم فرصة للتحرير ولا للسان مجال في التفسير . . . وإنا لله.

* * *

لم يكتب الأخ الصديق أماليه في التفسير، ولم يكتب تلامذته الكثيرون شيئاً منها. وضاع على الأمة كنز علم لا يقوّم بمال، ولا يعوض بحال. ومات فمات علم التفسير وماتت طريقة «ابن باديس» في التفسير.

ولكن الله تعالى أبى إلا ان يذيع فضله وعلمه. فألهمه كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس، وكان ينثرها فواتح لأعداد مجلة «الشهاب» ويسميها «مجالس التذكير»، وهي نموذج صادق من فهمه للقرآن وتفسيره له، كما أنها نموذج من أسلوبه الكتابي.

هذه المجالس العامرة هي التي تصدّى الأخ الوفي السيد «أحمد بو شمال»، عضد الإمام المفسر وصفيه، وكاتبه والمؤتمن على أسراره ـ لتجريدها من مجلة الشهاب ونشرها كتاباً مستقلاً؛ قياماً بحق الوفاء للإمام الفقيد، وإحياء لذكراه أخرج أشرف أثر من آثاره، يستروح القراء منه نفحات منعشة من روح ذلك الرجل العظيم؛ ويقرءونه فلا يزيدهم عرفاناً بقدره، فحسبهم ما بنى وشاد، وعلم وأفاد، وما ربى للأمة من رجال كالجبال، وما بث فيها من فضائل وآداب، وما أبقى لها من تراث علمي خالد؛ لا يرثه الأخ عن الأخ، ولا الولد عن الوالد.

وشكراً للأخ الوفي «أحمد بو شمال»[1] على هذا العمل الذي هو عنوان الوفاء

١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م

محمد البشير الإبراهيمي

(١) نشر السيد أحمد بو شمال من هذه المجالس القيمة آيات مختارة من سورة الفرقان فقط، لأسباب خارجة عن الإرادة وقتها.
وقد وفقنا الله تعالى لجمع المجالس القرآنية التي افتتح بها ابن باديس مجلة الشهاب كلها، بعد تعب ومشقة، يراها القارىء الكريم بين يديه كاملة.

حقيقة التذكير والحاجة إليه

في هذا الفصل:

١ ـ التذكير.

٢ ـ حاجة الخلق إليه.

٣ ـ من يذكر؟

٤ ـ تذكير النبي.

٥ ـ ما كان يذكر به النبي.

٦ ـ من كان يذكرهم النبي.

٧ ـ أفضل الأذكار.

٨ ـ أحوال العبد مع نفسه ومع ربه.

٩ ـ الصحابة يستفتون النبي.

١٠ ـ القرآن أفضل الاذكار.

١١ ـ الذكر قلبي ولساني وعملي.

١٢ ـ مقدار التلاوة.

١٣ ـ أحوال حملة القرآن.

١٤ ـ فضل التلاوة.

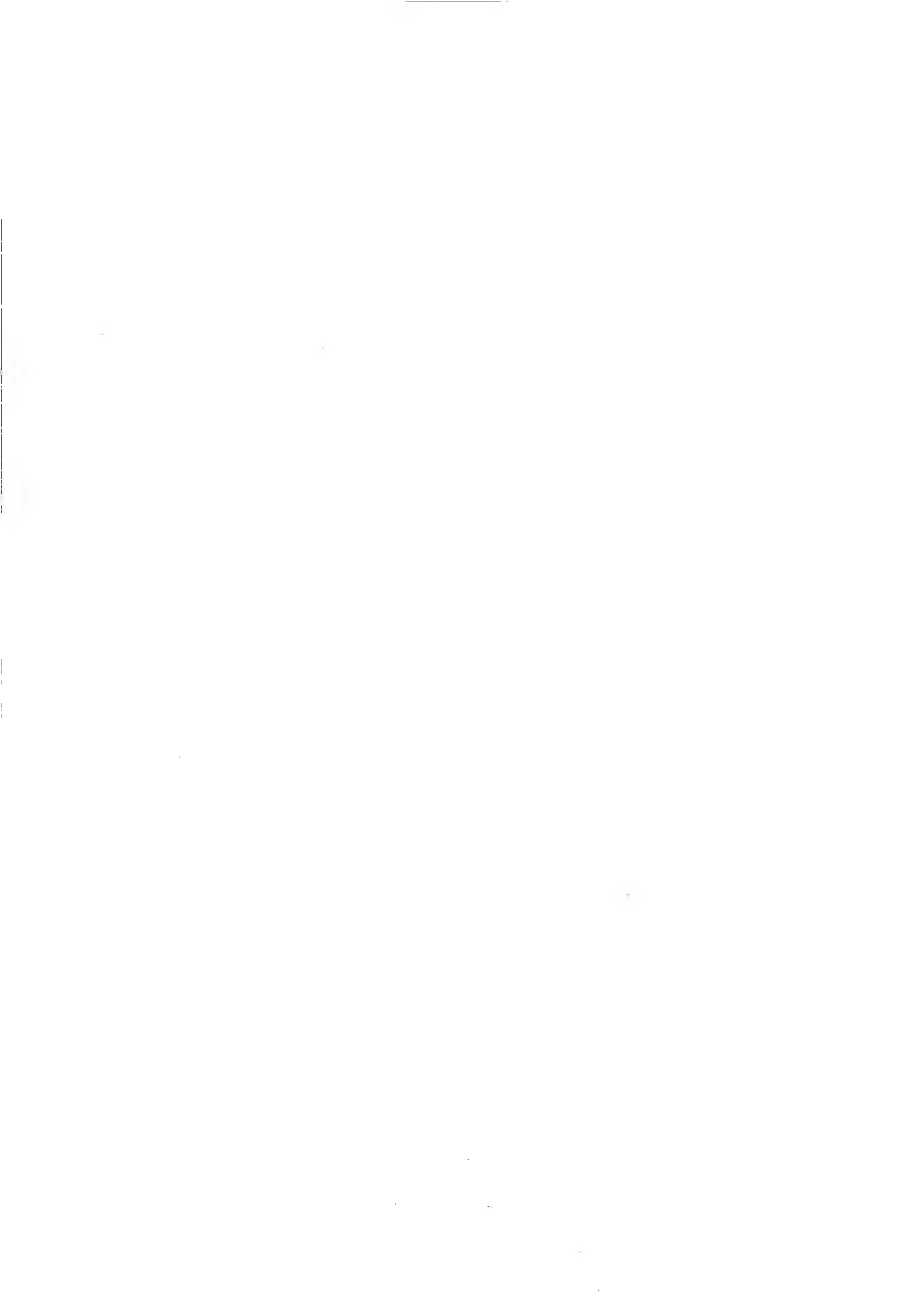
١٥ ـ تحذير: من زعم ... الخ

١٦ ـ وجوه مخالفة هذا الزعم.

١٧ ـ لوازم فاسدة لهذا الزعم.

١٨ ـ حظ التجربة العملية من تلاوة القرآن.

١٩ ـ خطبة افتتاح موسم التفسير، وبيان المراجع التي يعتمد عليها المفسر.



بسم الله الرحمن الرحيم

التذكير

حقيقية التذكير أن تقول لغيرك قولاً يذكر به ما كان به جاهلاً، أو عنه ناسياً، أو غافلاً.

وقد يقوم الفعل والسمت والهدي مقام القول، فيسمى تذكيراً مجازاً وتوسعاً.

ويجمع للثلاثة قولك: عباد الله الصالحون يذكرون الخلق بالخالق، بأقوالهم وأعمالهم وسمتهم.

حاجة الخلق إليه:

وحاجة العباد إلى هذا التذكير أعظم ما يحتاجون إليه وأشرف وألزم. فإن سعادتهم الحقيقية في هذه الحياة بإنارة عقولهم، وزكاة نفوسهم واستقامة سلوكهم.

وفي الحياة الأخرى بنعيم الجنان، وحلول الرضوان ـ إنما هي بإيمانهم بربهم، وشكرهم له.

وإن دلائل وجوده ووحدانيته وقيوميته، وآثار فضله وإحسانه ورحمته ـ ماثلة في الكون بادية للعيان، داعية إلى الشكر، هادية إلى الإيمان. لكن العقول كثيراً ما تكون مغلولة بقيود أهوائها، محجوبة بحجب غفلتها؛ فتعمى عن تلك الدلائل والآثار، فتكفر كفر جحود وعناد، أو كفر عصيان وطغيان؛ ويكون تورطها في كبائر الذنوب وصغائرها على مقدار تلك الحجب وتلك القيود. وليس ـ لغير من عصم الله ـ انفكاك أو خروج منها كلها.

فهم إذن بأشد الحاجة إلى تذكيرهم بتلك الدلائل وتلك الآثار ليحصلوا أسباب سعادتهم بالإيمان والشكر.

القائمون بالتذكير:

قد علم الله حاجة عباده إلى التذكير، فاصطفى منهم رجالاً أنعم عليهم بكمال الفطرة، ووقاية العصمة، وأرسلهم لتذكير العباد: ﴿**رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزاً حكيماً**﴾ [النساء: ١٦٥]، ﴿**وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون، ذكرى وما كنا ظالمين**﴾ [الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩].

فالأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام ـ أولو هذا المقام الجليل: مقام التذكير، ثم من بعدهم ورثتهم من العلماء العاملين.

تذكير النبي:

قد كان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على سنة إخوانه من الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في القيام بتذكير العباد، ممتثلاً أمر ربه تعالى بقوله: ﴿**فذكر إنما انت مذكر. لست عليهم بمسيطر**﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]. إذ السيطرة لا تكون على القلوب؛ والإيمان ـ وهو من أعمال القلب ـ لا يكون بالإكراه، وإنما بذكر الحجج والأدلة، وكذلك سنة المرسلين في الدعوة إلى الله، كما قصها علينا القرآن الكريم في كثير من السور والآيات.

ما كان يذكر به النبي:

كان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يذكرهم بقوله وعمله وهديه وسمته، ذلك كله منه على وفق هداية القرآن وحكمه. وقد قالت عائشة الصديقة رضوان الله عليها، لما سئلت عن خلقه قالت: «كان خلقه القرآن».

فكان تذكيره كله بآيات القرآن: يتلوها، ويبينها بالبيان القولي والبيان العملي، ممتثلاً في ذلك كله أمر ربه تعالى بقوله: ﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾ [ق: ٤٥].

فالقرآن وبيانه القولي والعملي من سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ بهما يكون تذكير العباد، ودعوتهم لله رب العالمين.

ومن حاد في التذكير عنهما ضل وأضل، وكان ما يضر أكثر مما ينفع إن كان هناك من نفع.

من كان يذكرهم النبي:

كان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا يفتأ مذكراً للمؤمنين والكافرين والله يهدي من يشاء ويوفق من يريد. وقد أمر بالتذكير مطلقاً في قوله تعالى: ﴿**فذكر إنما أنت مذكر**﴾.

وكانت سيرته العملية في التذكير هي العمل بهذا الإطلاق، فما كان يخص قوماً دون قوم في الدعوة والتذكير، فكانت هاته السنة العملية، دليلاً على أن ما جاء على صورة التقييد في بعض الآيات ليس المراد منه التقييد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فذكر إن نفعت الذكرى**﴾ [الأعلى: ٩].

فالشرط الصوري هو للاستبعاد، أي استبعاد نفع الذكرى فيهم. ولا يزال من أساليب العربية في لسان التخاطب الدارج بيننا قول الناس لبعضهم: «كلمه في كذا إذا نفع فيه الكلام» استبعاداً لنفعه فيه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾. فليس ذكر المفعول للتقييد، وإنما هو للتنبيه على أنه هو الذي ينتفع بالتذكير، نظير قوله تعالى: ﴿**هدى للمتقين**﴾.

مشروعية التذكير:

ولحاجة العباد للتذكير ومنزلته من الدين شرعه الله للمسلمين شرعاً مؤقتاً في خطب الجمع والأعياد، وشرعاً مرسلاً موكولاً للمذكرين على ما يرونه من نشاط الناس وحاجتهم.

وكما كان يتخول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الناس بالموعظة، وطلبه طلباً عاماً من جميع المؤمنين في قوله تعالى: ﴿**وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾ في صفة المؤمنين العاملين.

وسيكون هذا الباب من «المجلة»[1] مجالاً لفنون من التذكير جعلنا الله والمؤمنين من أهل الذكرى، ونفعنا بها دنيا وآخرة.

(١) أي مجلة «الشهاب» التي نشر فيها هذا البحث.

أفضل الأذكار

تمهيد:

(أ) حالة يعالج فيها شؤون الحياة من أمر نفسه وأهله، وما إلى رعايته من مصالحه، أو مصالح غيره، فيمارس فيها الأسباب، ويباشر فيها ما تقتضيه بشريته.

وهو في هذه الحالة متعبد مأجور ما جرى فيها على حدود الله، وقصد بها امتثال شرعه.

(ب) وحالة ينفرد فيها لربه ويخلص قلبه من هم ذلك كله، ويتوجه بكليته إلى خالقه: بالفكر والاعتبار ودوام المراقبة والإقبال.

وهذه الحالة الثانية هي أشرف وأفضل حالتيه، وهي أساس الاستقامة في الحالة الأولى وأصل الكمال فيها.

كانت هاتان الحالتان للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما كانتا لغيره. وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»، إشارة إلى الحالة الأولى: التي يكون فيها قائماً بمصالح الأمة، وناهضاً بأعباء الرسالة، ومباشرة الشؤون العامة والخاصة، ورآها دون الحالة الثانية: التي يكون [فيها] متفرغ القلب للرب.

وما كان ذلك الغين إلاّ الاشتغال بأمور الخلق في الحالة الأولى التي يحجب [فيها] عن كمال مشاهدة الحق التي في الحالة الثانية، فاستغفر الله تعالى منه.

وما كان استغفاره ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلا لاشتغاله بكامل عن أكمل، وتوجهه للقيام بأمر عظيم عن مقام أعظم.

وقد تفطن الصحابة رضوان الله عليهم لهاتين الحالتين، وسألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنهما، وأفتاهم فيهما: فجاء في الصحيح أن حنظلة الأسيدي ـ وكان من كتّاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال:

«لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عافسنا[1] الأزواج والأولاد والضيعات[2]، فنسينا كثيراً.

---

(١) عافسنا: قال الهرويّ وغيره: معناه حاولنا ذلك ومارسناه واشتغلنا به؛ أي عالجنا معايشنا وحظوظنا.

(٢) الضيعات: جمع ضيعة، وهي معايش الرجل من مال أو حرفة أو صناعة.

قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا.

فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيراً.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي في الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم!! ولكن يا حنظلة ساعة وساعة. ساعة وساعة. ساعة وساعة[1].

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ساعة وساعة» بيان للحالتين وتقرير لهما. وقوله: «والذي نفسي بيده» إلى آخره، بيان لفضلاهما.

هذه الحالة الفضلى الذكر الذي يحصلها العبد على أكمل وجه هو أفضل الأذكار.

وستعرف مما سيأتي بعد أنه هو القرآن، وقد قسمنا ما سنقوله إلى قسمين: علمي وعملي، وختمنا بفصل في التحذير.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب التوبة، حديث ١٢) وفي آخر الحديث بعد قوله «ساعة وساعة...» زيادة لفظ: «ثلاث مرّات». وأخرجه أيضاً الترمذي في جامعه (كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٥٩، حديث ٢٥١٤).

القسم العلمي

(أ) القرآن أفضل الأذكار من طريق الأثر:

١ ـ قال الله تبارك وتعالى:

﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾[الأنبياء: ٥]، ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾[القمر: ١٧]، ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء، وأمرت أن أكون من المسلمين، وأن أتلو القرآن﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

فهذه البركة، وهذا التيسير، وهذا الأمر بالتلاوة المقرون بالأمر بتوحيد العبادة وبالإسلام على طريق الحصر ـ لم ترد إلاّ في القرآن.

٢ ـ وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[1].

وهذه مثوبة لم ترد لغير القرآن من جميع الأذكار.

٣ ـ وروى الترمذي عن أبي أمامة مرفوعاً:

«ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه»[2].

ومن معناه ما ذكره القرطبي عن فروة بن نوفل عن خباب بن الأرتّ قال: إن استطعت أن تقرب إلى الله عز وجل فإنك لا تقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه.

---

(١) انظر الجامع الصحيح للترمذي (كتاب فضائل القرآن، باب ١٦، حديث ٢٩١٠) ولفظه بعد رواية الحديث: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه». وقال قبله: «ويروى هذا الحديث من غير هذا الوجه عن ابن مسعود، ورواه أبو الأحوص عن ابن مسعود، رفعه بعضهم ووقفه بعضهم عن ابن مسعود».

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن، باب ١٧، حديث ٢٩١١. وتمامه: «ما أذن الله لعبد في شيء أفضل من ركعتين يصليهما، وإن البرّ ليُذَرُّ على رأس العبد ما دام في صلاته، وما تقرّب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه». قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

ومثل هذا لا يقال بالرأي فهو في حكم المرفوع.
٤ ـ وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً:

«يقول الربّ تبارك وتعالى: من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»(١).

وهذا الحديث والذي قبله نصان صريحان في المقصود.

٥ ـ وروى البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً:

«قراءة القرآن في الصلاة أفضل من قراءة القرآن في غير الصلاة، وقراءة القرآن في غير الصلاة، أفضل من التسبيح والتكبير»(٢).

٦ ـ وروى أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنه:

«سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل عند الله؟ قال: قراءة القرآن في الصلاة، ثم قراءة القرآن في غير الصلاة، فإن الصلاة أفضل الأعمال عند الله، وأحبها إليه.

ثم الدعاء والاستغفار، فان الدعاء هو العبادة، وان الله تعالى يحب الملح في الدعاء.

ثم الصدقة، فإنها تطفىء غضب الرب.

ثم الصيام فإن الله تعالى يقول: «الصوم لي وأنا أجزي به، والصيام جنة للعبد من النار».

قال القرطبي ـ بعد ما خرج هذا الحديث بسنده ـ قال علماؤنا: هذا حديث عظيم في الدين يبين فيه أن أعظم العبادات قراءة القرآن في الصلاة.

(ب) القرآن أفضل الأذكار من طريق النظر:

إن أشرف حالتي الإنسان ـ وهي حالة انفراده لربه، وتوجهه بكليته إليه، وخلوص قلبه له، وتعلقه به ـ إنما تحصل على أكملها لتالي القرآن العظيم؛ فإن أفضل ما فيه ـ وهو قلبه ـ يكون قائماً بأفضل أعماله وهو التفكير والتدبر في أفضل المعاني، وهي معاني القرآن.

وإن ترجمان ذلك القلب ـ وهو لسانه ـ يكون قائماً بأفضل أعماله وهي البيان بأفضل كلام وهو القرآن.

وجوارحه ـ إذا لم يكن في صلاة ـ كانت محبوسة على قيام القلب واللسان بأفضل الأعمال،

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن، باب ٢٥، حديث ٢٩٢٦. قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/٤١٣) (باب في تعظيم القرآن، فصل في استحباب القراءة في الصلاة، حديث رقم ٢٢٤٣) وتتمته فيه: «... والتسبيح أفضل من الصدقة، والصدقة أفضل من الصوم، والصوم جُنّة من النار».

وإذا كان في صلاة كانت قائمة بأفضل عبادة وهي الصلاة، في أشرف موقف وهو مناجاة الرحمن بآيات القرآن.

فهذا الذكر الحكيم، تنزيل الرحمن الرحيم، الذي يحصل هذه الحال، التي هي أشرف الأحوال، وهي معراج الأرواح لمنازل الكمال، هو أفضل الأذكار.

وأيضاً فإن الذكر قلبي ولساني وعملي، والقرآن محصل لذلك كله على أكمله كما سنبينه.

القرآن، والذكر القلبي:

فالتالي للقرآن المتدبر لآياته، يكون متفكراً في مخلوقات الله وما فيها من حكم ومن نعم، وفي معاني أسمائه وصفاته، وفي مظاهر رحمته وإحسانه وبطشه وانتقامه، وفي أسباب ثوابه وعقابه، وفي مواقع رضاه وسخطه.

كما يكون التالي أيضاً متبصراً في عقائده، خبيراً بأدلتها، ورد الشبه عنها.

كما يكون أيضاً مستحضراً لربه في قلبه باستحضار حقوقه ونعمه وآلائه؛ إذ هذا كله مما تضمنته آي القرآن على أكمل بيان، وأوضح برهان.

القرآن والذكر اللساني:

وكذلك قد اشتمل القرآن على أفضل الأذكار اللسانية: من تهليل، وتكبير، وتحميد، وتسبيح، وتمجيد، واستغفار، ودعاء، وعلى الأسماء الحسنى، والصفات العلى للرب تبارك وتعالى؛ فتاليه يكون ذاكراً بهذه الأذكار كلها.

القرآن، والذكر العملي:

إن تلاوة القرآن بالتدبر تثمر للتالي التوبة والإنابة والرجاء والخوف، وذلك كله مما يكون له خير داع إلى الاستقامة ـ ولو بعض الشيء ـ في سلوكه العملي.

هذا شيء قليل مما للقرآن في الذكر بأنواعه الثلاثة.

إلى ما فيه من علم مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبسط أسباب الخير والشر والسعادة والشقاوة في الدنيا والأخرى. وعلم النفوس وأحوالها، وأصول الأخلاق والأحكام. وكليات السياسة والتشريع. وحقائق الحياة في العمران والاجتماع. ونظم الكون المبنية على الرحمة والقوة، والعدل والإحسان. . إلى ما تقصر عن عده الألسنة وتعجز عن الإحاطة به الأفهام.

وإنما ينال كل تال منها على قدر ما عنده من سلامة قصد، وصحة علم، بتقدير وتيسير من الحكيم العليم.

نتيجة الاستدلال:

لهذه الأدلة الأثرية والنظرية المذكورة وغيرها ذهب الأئمة من السلف والخلف إلى أن قراءة القرآن أفضل من الذكر. قال سفيان الثوري:

«سمعنا أن قراءة القرآن أفضل من الذكر». نقله القرطبي في الباب السابع من كتاب التذكار.

وقال النووي: «واعلم أن المذهب الصحيح المختار الذي عليه من يعتمد من العلماء: أن قراءة القرآن من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار، وقد تظاهرت الأدلة على ذلك». قاله في الباب الثاني من كتاب التبيان.

القسم العملي

مقدار التلاوة:

قد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يخلي ليله ونهاره من تلاوة القرآن، وكان ـ كما قال القرطبي ـ : يختمه في سبع. وهكذا قال لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «واقرأ في كل سبع ليال مرة». وقد كان قال له أولاً: «واقرأ القرآن في كل شهر». فلما قال له: إنه يطيق أكثر من ذلك نقله إلى العشرين، وإلى الخمسة عشر، وإلى العشر، وانتهى به إلى السبع في قول الأكثر[١]. وكان هذا فعل الأكثرين من السلف.

وعند الترمذي وغيره، من حديث ابن عمرو رضي الله عنه مرفوعاً: «لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث»[٢]. وهذا ترخيص فيما دون السبع، وترغيب عما دون الثلاث.

وقد فهم السلف من هذه الأحاديث بيان ما يكون وظيفة وحزباً يستمر عليه؛ فلذا لم يمتنعوا من ختم القرآن في أقل من ذلك في مرات في بعض الأحوال، وقد ثبت عن كثير منهم ختم القرآن في ركعة واحدة.

ولا شك أن أحوال حملة القرآن تختلف في التفرغ للتلاوة والاشتغال بغيرها.

---

(١) حديث عبدالله بن عمرو بن العاص أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب ٣٤، والصوم باب ٥٨. وأبو داود في رمضان باب ٨ و٩. والنسائي في الصيام باب ٧٦ و٧٨. وابن ماجه في الإقامة باب ١٧٨. ولفظ الحديث بتمامه كما رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب ٣٤، حديث رقم ٢٠٥٢): «حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة عن مغيرة عن مجاهد عن عبدالله بن عمرو قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كنّته فيسألها عن بعلها فتقول: نِعْمَ الرجل من رجل، لم يطأ لنا فراشاً ولم يفتّش لنا كنفًا مذ أتيناه. فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي ﷺ، فقال: القني به. فلقيته بعد، فقال: كيف تصوم؟ قال: كل يوم. قال: وكيف تختم؟ قال: كل ليلة. قال: صم في كل شهر ثلاثة واقرأ القرآن في كل شهر. قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: صم ثلاثة أيام في الجمعة. قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: صم أفضل الصوم صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليال مرة. فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ؛ وذلك أني كبرت وضعفت. فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار، والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخفّ عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوّى أفطر أياماً وأحصى وصام مثلهن، كراهية أن يترك شيئاً فارق النبي ﷺ. قال أبو عبد الله: وقال بعضهم في ثلاث وفي خمس، وأكثرهم على سبع».

(٢) أخرجه الترمذي في القرآن باب ١١. وأبو داود في رمضان باب ٨ و٩. وابن ماجه في الإقامة باب ١٧٨. والدارمي في الصلاة باب ١٧٣. وأحمد في المسند (٢/١٦٤، ١٦٥، ١٨٩، ١٩٣، ١٩٥).

وأحوال الشخص الواحد في نفسه تختلف كذلك فيرتب حامل القرآن حزبه من الشهر إلى السبع على حسب حاله.

فإذا لم يكن من حملة القرآن فلا يخل ليله ونهاره من تلاوة شيء مما معه حسب استطاعته، ولا يكن من الغافلين.

ما يقصده من التلاوة:

قراءة القرآن أفضل أعمال اللسان، وتدبر معانيه أفضل أعمال القلب، هذا من حديث أبي أمامة عند الترمذي الذي قدمناه في القسم الأول[١] فليقصد التالي التقرب إلى الله بهما.

والقرآن موعظة ترقق القلوب القاسية فليقصد تليين قلبه.

والقرآن شفاء لأدواء النفوس في عقائدها وأخلاقها وأعمالها؛ فليقصد الشفاء به من ذلك كله.

والقرآن هدى ودلالة على كل حال ما يوصل إلى سعادة الدنيا والأخرى فليقصد الاهتداء بهدايته.

والقرآن رحمة من الله للمؤمنين، فليستنزل بتلاوته وتدبره الرحمة من الله تعالى بإفاضة علوم القرآن على قلبه، وبتوفيقه إلى القيام بمقتضى هدايته.

ولا يسلم تالي القرآن ـ لأنه غير معصوم ـ من ذنوب قد يصدأ لها قلبه، فليقصد بتلاوته جلاء قلبه والتوفيق للتوبة من ذنبه.

وليجعل تلاوته لأجل تحصيل التوبة من أعظم وسائله إلى ربه. وقد مضى لك في الحديث القدسي في القسم الأول: «من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[٢]

تحذير:

زعم قوم أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم خير لعامة الناس من تلاوة القرآن، قالوا: لأن الصلاة ثوابها محقق ولا يلحق فاعلها إثم والقرآن إذا تلاه العاصي كانت تلاوته عليه إثماً لمخالفته لما يتلوه!

واستدلوا على هذا بقول أنس رضي الله عنه الذي يحسبه العامة حديثاً: «رب تال للقرآن والقرآن يلعنه». فأدى هذا معتقديه إلى ترك قراءة القرآن أو التقليل منها، فليحذر من هذا الرأي ومما أدى إليه.

للصلاة منزلتها وفضلها، وللقرآن فضله ومنزلته، فليأت الذاكر من الصلاة ومن غيرها

---

(١) راجع الحاشية ٢ صفحة ٣٠.

(٢) راجع الحاشية ١ صفحة ٣١.

أبواب الذكر بما لا يؤدي إلى ترك أو تقليل تلاوة القرآن الذي هو أفضل الاذكار.

وهذا الرأي المتقدم في تفضيل الصلاة على التلاوة، مخالف تمام المخالفة لما نقلناه في: «نتيجة الاستدلال» عن أئمة السلف والخلف: من أن قراءة القرآن أفضل من جميع الأذكار، ولم يفرقوا في ذلك بين عامة وخاصة. ومخالف كذلك لمقاصد الشرع من تلاوة القرآن، وذلك من وجوه:

الوجه الأول:

أن المذنبين مرضى القلوب: فإن القلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله[1]؛ فكل معصية يأتي بها الجسد هي من فساد في القلب ومرض به.

وإن الله تعالى قد جعل دواء أمراض القلب تلاوة القرآن فقال تعالى:

﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ [يٓس: ٥] **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾** [الإسراء: ٨٢].

فمقصود الشرع من المذنبين أن يتلوه ويتدبروه ويستشفوا به بألفاظه ومعانيه.

وذلك الرأي يصرف المذنبين عن تلاوته!

الوجه الثاني:

أن القلوب تعتريها الغفلة والقسوة، والشكوك والأوهام، والجهالات، وقد تتراكم عليها هذه الأدران كما تتراكم الأوساخ على المرآة فتطمسها وتبطل منفعتها، وقد يصيبها القليل منها أو من بعضها، ولا تسلم القلوب على كل حال من إصابتها فهي محتاجة دائماً وأبداً إلى صقل وتنظيف بتلاوة القرآن. وقد أرشد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا ـ فيما رواه البيهقي في الشعب، والقرطبي في التذكار:

«إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد. قالوا: يا رسول الله فما جلاؤها؟ قال: تلاوة القرآن»[2].

---

(١) من حديث النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من الناس؛ فمن اتّقى المشبّهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه. إلا وإن لكل ملك حِمًى، ألا إن حمى الله محارمه. إلا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، إلا وهي القلب».

أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٩، واللفظ له. ومسلم في المساقاة حديث ١٠٧. وابن ماجه في الفتن باب ١٤. والدارمي في البيوع باب ١. وقوله في الحديث «إلا وإن في الجسد مضغة» قال أهل اللغة: يقال: صلح الشيء وفسد، بفتح اللام والسين وضمها، والفتح أفصح وأشهر. والمضغة: القطعة من اللحم، سميت بذلك لأنها تمضغ في الفم لصغرها. قالوا: المراد تصغير القلب بالنسبة إلى باقي الجسد، مع أن صلاح الجسد وفساده تابعان للقلب.

(٢) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (ج ٢ ص ٢٤١ ـ حديث رقم ٣٩٢٤) من حديث عبدالله بن عمرو، ونسبه لابن شاهين في الترغيب في الذكر. وذكره أيضاً الذهبي في ميزان الاعتدال (٩٠٨٥) وابن حجر في لسان الميزان (٥٧٦/٦) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٤٧/٢) وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٢٥٨/١).

فمقصود الشارع من المذنبين أن يتلوا القرآن لجلاء قلوبهم.
وذلك الرأي يصرفهم عنه!

الوجه الثالث:

أن الوعيد والترهيب قد ثبتا في نسيان القرآن بعد تعلمه، وذهابه من الصدور بعد حفظه فيها: فروى أبو داود عن سعد [(١)].

«ما من امرىء يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله أجذم» [(٢)]. وروى الشيخان عن عبد الله:

«استذكروا القرآن فإنه أشد تَفَصِّيًا [(٣)] من صدور الرجال من النعم» [(٤)].

فمقصود الشرع دوام التلاوة لدوام الحفظ، ودفع النسيان.
وذلك الرأي أدى إلى تقليلها أو تركها الموقع في النسيان!

لوازم فاسدة لهذا الزعم:

وإلى مخالفته لمقصود الشرع بهذه الوجوه فإن له لوازم فاسدة منها:

١ ـ أن صلاة النافلة مرغب فيها على العموم، وهي مشتملة على قراءة القرآن، فماذا يقول أصحاب هذا الرأي؟ فهل يرغبون المذنبين ـ أمثالنا ـ عن النافلة طرداً لأصلهم؟

أم ينهون عن قراءة القرآن في النافلة، فيقولون ما لم يقله أحد؟

أم يقولون بالاقتصار على قراءة سور دون سور، فيتحكمون في الأحكام؟

٢ ـ ومنها: أنه قل من يسلم من مخالفة للقرآن بعمله، فإذا ذهبنا مع ذلك الرأي حرم خلق كثير من تلاوة القرآن.
وكفى بقول يؤدي إلى هذا كله رداً على نفسه.

وأما قولهم: «إن تالي القرآن يأثم بقراءته مع مخالفته». فهي دعوى لم يقيموا عليها من نص صحيح صريح من سنة أو كتاب. بل الدليل قائم على خلافها: فإن المذنب يكتب عليه ذنبه مرة

---

(١) يعني سعد بن عبادة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أبو داود في الوتر (باب ٢١، حديث ١٤٧٤).
(٣) قال أهل اللغة: التفصيّ: الانفصال. وهذا بمعنى الرواية الأخرى: أشدّ تفلتًا. والنعم: أصلها الإبل والبقر والغنم، والمراد هنا الإبل خاصة لأنها التي تعقل؛ ففي بعض روايات الحديث: «أشدّ تفصّياً من صدور الرجال من النعم بعُقُلها».
(٤) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب ٢٣. ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها حديث ٢٢٨ و٢٢٩. والترمذي في القرآن باب ٨. والنسائي في الافتتاح باب ٣٧. والدارمي في الرقاق باب ٣٢، وفضائل القرآن باب ٤. وأحمد في المسند (١/٣٨٢، ٤١٧، ٤٢٣، ٤٢٩، ٤٦٣).

واحدة، ولا يكتب عليه مرة ثانية إذا ارتكب ذنباً آخر، وإنما يكتب عليه ذلك الذنب الآخر. فكيف إذا باشر عبادة التلاوة؟؟! والأصل القطعي ـ كتاباً وسنة ـ أن من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها[١]، وهو يبطل أن تجدد له سيئاته إذا جاء بحسنة تلاوة القرآن.

وأما قول أنس رضي الله عنه:

«رب تال للقرآن والقرآن يلعنه»، فليس معناه أن القرآن يلعنه لأجل تلاوته. وكيف وتلاوته عبادة؟! وإنما معناه: أنه ربما تكون له مخالفة لبعض أوامر القرآن أو نواهيه من كذب أو ظلم مثلاً، فيكون داخلاً في عموم لعنه للظالمين والكاذبين، فخرج هذا الكلام مخرج التقبيح لمخالفة القرآن مع تلاوته، بعثاً للتالي على سرعة الاتعاظ بآيات القرآن، وتعجيل المتاب، لا مخرج الأمر بترك التلاوة والانصراف عنها.

هذا هو الذي يتعين حمل كلام هذا الصحابي الجليل عليه بحكم الأدلة المتقدمة.

وثبت في الصحيح قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه»[٢]. وهذا في المتعبد بالصيام الذي يوقع الزور والعمل به في وقت صيامه؛ فيكون متلبساً بالعبادة والمخالفة في وقت واحد.

ومع هذا فقد قال الشراح في معنى الحديث ـ والعبارة للقسطلاني[٣]:

«وليس المراد الأمر بترك صيامه إذا لم يترك الزور، وإنما معناه التحذير من قول الزور. فهو كقوله عليه الصلاة والسلام: «من باع الخمر فليشقص[٤] الخنازير» ولم يأمره بشقصها، ولكنه على التحذير والتعظيم لإثم شارب الخمر. وكذلك حذر الصائم من قول الزور والعمل به، ليتم له أجر صيامه».

فمن باب أحرى وأولى ألا يكون قول أنس رضي الله عنه، محمولاً على طلب ترك التلاوة من

---

(١) مثال ذلك مما جاء في الكتاب الكريم قوله تعالى في الآية ١٦٠ من سورة الأنعام: ﴿**ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون**﴾، وقوله في الآية ٢٧ من سورة يونس: ﴿**والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها**﴾، وقوله في الآية ٨٤ من سورة القصص: ﴿**ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون**﴾، وقوله في الآية ٤٠ من سورة غافر: ﴿**من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها**﴾. ومن السنّة المشرّفة ما رواه مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، حديث رقم ٢٠٥) عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجلّ: إذا تحدّث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها. وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها».

(٢) من حديث أبي هريرة. أخرجه البخاري في الصوم باب ٨، والأدب باب ٥١. وأبو داود في الصوم باب ٢٥. والترمذي في الصوم باب ١٦. وابن ماجه في الصيام باب ٢١. وأحمد في المسند (٢/٤٥٣، ٥٠٥).

(٣) في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٣/٣٥٣، ٣٥٤).

(٤) قال القسطلاني (٣/٣٥٣): «أي يذبحها».

المذنب، لأنه غير مباشر لذنبه في حال تلاوته، وإنما المقصود تحذيره من الاستمرار على المخالفة، وترغيبه في المبادرة بالتوبة ليكمل له أجر تلاوته بكمال حالته.

هذا حظ العلم في الاستدلال على حاجة المذنبين إلى تلاوة القرآن العظيم.

وأما حظ التجربة: فوالله الذي لا إله إلا هو، ما رأيت - وأنا ذو النفس الملأى بالذنوب والعيوب - أعظم إلانة للقلب، واستدراراً للدمع، وإحضاراً للخشية، وأبعث على التوبة من تلاوة القرآن وسماع القرآن.

عود إلى تتميم الكلام على التحذير:

ليحذر القارىء من السرعة في التلاوة التي تؤدي إلى تخليط كلماته، وتذهب بحلاوته، وتمنع من بقاء أثره في النفس.

وليحذر من ذهاب قلبه مسترسلاً مع خواطره، منصرفاً عن تدبره والتذكر به، وإذا عرضت له الخواطر فليصرفها ليدفعها، وليحمل فكره على تدبر آيات الكتاب، ولا ينقطع عن التلاوة إذا كانت تلك الخواطر لا تفارقه، فإن تصميمه على دفعها مع تكاثرها من جهاد لنفسه، الذي يثاب عليه، وينتهي به في الأخير إلى الانتصار عليها.

وليحذر من الاستمرار على ما عنده من مخالفة لأوامر ونواهي الكتاب ومن عدم الخوف والوجل عند المرور بآيات الوعيد والتقريع على ذلك الذنب، إذا لم يوفق للتوبة في بعضها، فليستحضر الخشية والخضوع عند الآيات المتعلقة بذلك الذنب، وليكررها وليتفهمها. وليقف عندها وقفة العاجز الذليل الفقير المتضرع لربه، المتعرض لرحمته بتلاوة كلامه، فإن هذا من أعظم الوسائل لتيسير التوبة.

فرتل القرآن، وتدبر معانيه، والتزم حدوده، واضرع إلى الله تعالى أن يرزقك التوبة فيما عندك من مخالفة تكن من الفائزين بإذن رب العالمين.

خطبة افتتاح لدروس التفسير

الحمد لله الذي جمل الإنسان بالبيان، وجمل البيان بالقرآن، فالإنسان دون بيان حيوانٌ أبكم، والبيانُ دون قرآن كلام أجذم. وذو البيان والقرآن هو الأكمل الأعظم قدراً وتقديراً، والأحسن الأقوم عملاً وتفكيراً، والأسعد الأكرم حالاً مصيراً.

أحمده، أرسل محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

وأنزل عليه القرآن تبصرة وذكرى، ومعجزة كبرى، حجة وتذكيراً.

وشرع لنا من دينه الحنيف مناهل العز والسعادة، ومهد لنا من شرعه الشريف سبل الحسنى والزيادة، رحمة منه تعالى وفضلاً كبيراً.

وأشكره، هدانا واجتبانا، فرضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، وبالقرآن إماماً، وحبب إلينا ديننا، فوالله لو بذلت لنا الدنيا بحذافيرها في تركه ما ساوت عندنا حبة رغام[1]، توفيقاً منه تعالى ويقيناً صادقاً منا وبصراً بصيراً.

وأستغفره لما كان منا من نقص وتقصير في الوفاء بوعده الحق، وشكر فضله الكبير، إنه كان عفواً غفاراً شكوراً.

وأصلي وأسلم على سيدنا محمد أشرف خلقه وأكرم رسله، فرق بالقرآن بين الحق والباطل، وهدى به الضالّ وعلّم به الجاهل، وجاهد به ـ في الله ـ جهاداً كبيراً.

وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، اقتفوا طريقته، وأحيوا سنته، فوقاهم الله شر ذلك اليوم، ولقّاهم نضرة وسروراً، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً.

وعلى بقية أمته، وأهل ملته، لبوا دعوته، وأمّوا غايته، ناشطاً وحصيراً[2].

صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم نلقى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ونسعد بلقائه، ونحشر بين الأمم تحت لوائه، ونجزى بمحبته ـ إن شاء الله تعالى ـ جزاء موفوراً.

---

(١) الرغام (بفتح الراء): التراب. ويقال: ألقاه في الرغام: أذلّه وأهانه. انظر المعجم الوسيط (ص ٣٥٨).
(٢) الحصير: الضيّق الصدر. (المعجم الوسيط: ص ١٧٨).

فقد عدنا ـ والحمد لله تعالى ـ إلى مجالس التذكير، من دروس التفسير[١].

نقتطف أزهارها، ونجني من ثمارها، بيسرٍ من الله تعالى وتيسير.

على عادتنا في تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية، وربط الآيات، بوجوه المناسبات.

معتمدين في ذلك على صحيح المنقول، وسديد المعقول، مما جلاه أئمة السلف المتقدمون، أو غاص عليه علماء الخلف المتأخرون، رحمة الله عليهم أجمعين.

وعمدتنا فيما نرجع إليه من كتب الأئمة:

١ ـ تفسير ابن جرير الطبري[٢]، الذي يمتاز بالتفاسير النقلية السلفية، وبأسلوبه الترسلي البليغ في بيان معنى الآيات القرآنية، وبترجيحاته لأولى الأقوال عنده بالصواب.

٢ ـ وتفسير «الكشاف»[٣] الذي يمتاز بذوقه البياني في الأسلوب القرآني، وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب، والتنظير لها بكلام العرب، واستعمالها في أفانين الكلام.

٣ ـ و«تفسير أبي حيان الأندلسي»[٤] الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية، وتوجيهه للقراءات.

٤ ـ و«تفسير الرازي»[٥] الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية، مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان، وفي العلوم الكلامية، ومقالات الفرق، والمناظرة والحجاج في ذلك.

إلى غير هذا مما لا بد لنا من مراجعته من كتب التفسير والحديث والأحكام، وغيرها مما يقتضيه المقام.

* * *

نقول هذا؛ ليعرف الطلبة مصادر درسنا، ومآخذ ما يسمعونه منا. ونحن نعلم أننا ـ والله ـ كما قال أخو العرب:

---

(١) هذا درس من دروس التفسير للإمام ابن باديس اخترناه من بين دروسه التي كان يفتتحها بخطبة مرتجلة كل عام. وفيها أسلوب أدبي للإمام معتمداً على السجع.

(٢) وهو المسمى «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» وقد صدر عن دار الكتب العلمية بطبعته الأولى سنة ١٩٩٢ م، باثني عشر مجلداً.

(٣) وهو للزمخشري. وسيصدر هذه السنة (١٩٩٥ م) عن دار الكتب العلمية، إن شاء الله تعالى.

(٤) وهو تفسير «البحر المحيط». وقد صدر عن دار الكتب العلمية بطبعته الأولى سنة ١٩٩٣ م، بثمان مجلدات. بتحقيق الشيخين عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض والدكتور زكريا عبد المجيد النوتي والدكتور أحمد النجولي الجمل.

(٥) هو تفسير الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفّى سنة ٦٠٦ هـ، المسمى «مفاتيح الغيب». وقد صَدر هذا التفسير عن دار الكتب العلمية في طبعته الأولى سنة ١٩٩٠ م، في ستة عشر مجلداً.

لعمــر أبيــك مــا نسب المعــلى إلى كــرم وفي الــدنــيــا كــريــم
ولــكــن الــبــلاد إذا اقــشــعــرَّت وصــوّح نــبتــهــا رُعِيَ الهــشيــم[1]

وكما نقول في المثل:

«إنما نكحل في موضع العينين»[2].

وإذا نظرنا إلى قصورنا، وخطورة مقام الكلام على كلام الله تعالى، أحجمنا.

وإذا رأينا إلى فضل الله، وثقتنا به، وحسن قصدنا ـ في خدمة كتابه ـ أقدمنا.

وهذا الجانب الكريم أرجح عندنا، فنحن نقدم معتمدين على الله تعالى سائلين منه تعالى لنا ولكم أن يوفقنا إلى حسن القصد، وصحة الفهم، وصواب القول، وسداد العمل.

(١) البيتان لأبي عليّ البصير. انظر أمالي القالي (٢/٢٨٧) وفسّر «صَوّح» بمعنى: يبس وتشقّق.
(٢) من الأمثال الشائعة في دول المغرب العربي.

القسم الأول
في سورة الإسراء

في هذا القسم:

١ ـ آية الليل، وآية النهار.
٢ ـ إرادة الدنيا، وإرادة الآخرة.
٣ ـ عموم النوال من الكبير المتعال.
٤ ـ أصول الهداية.
٥ ـ بر الوالدين.
٦ ـ صلاح النفوس وإصلاحها.
٧ ـ إيتاء الحقوق لأربابها.
٨ ـ حفظ النفوس بحفظ النسل، وحفظ الفرج، وعدم العدوان.
٩ ـ حفظ الأموال باحترام الملكية.
١٠ ـ العلم والأخلاق.

آية العلم ـ العقل ميزة الإنسان وأداة علمه ـ العلم هو وحده الإمام المتبع في الحياة في الأقوال والأفعال والاعتقادات ـ سؤال الجوارح يوم الهول الأكبر.

١١ ـ آية الأخلاق ـ العجب أصل الهلاك.
١٢ ـ القول الحسن ـ التحذير من الشيطان ـ التفويض إلى الله في العواقب والسرائر.
١٣ ـ من دعا غير الله عبد ما دعاه، وهو في عبادته من الخاسرين ـ نجاة المعبودين بهداهم، وهلاك العابدين بضلالهم.
١٤ ـ الطور الأخير لكل أمة وعاقبته.
١٥ ـ التكريم الرباني للنوع الإنساني.
١٦ ـ الصلاة لأوقاتها.
١٧ ـ نافلة الليل وحسن عاقبتها.
١٨ ـ القرآن شفاء ورحمة.
١٩ ـ صفتان من صفات النوع الإنساني: الإعراض عن النعمة، واليأس من الرحمة.

آية الليل وآية النهار

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾

[الإسراء: ١٢]

لله تعالى في سور القرآن، وعالم الأكوان، آيات بينات دالة على وجوده، وقدرته، وإرادته، وعلمه، وحكمته. ونعم سابغات موجبة لحمده وشكره وعبادته.

ولما ذكر تعالى آيته ونعمته بالقرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، ذكر آيته ونعمته بالليل والنهار المتعاقبين على هذا الكون الأعظم. فقال تعالى: ﴿**وجعلنا الليل والنهار** آيتين. . . .﴾.

الشرح والبيان:

﴿**جعلنا الليل والنهار**﴾: خلقناهما، ووضعناهما آيتين. وجعل الشيء هو وضعه على حالة أو كيفية خاصة، فهما حادثان مسيران بتدبير وتقدير.

و ﴿**الليل**﴾: هو الوقت المظلم الذي يغشى جانباً من الكرة الأرضية، عندما تكون الشمس منيرة لجانبها المقابل.

و ﴿**النهار**﴾: هو الوقت الذي يتجلى على جانب الكرة المقابل للشمس فتضيؤه بنورها. ولا يزالان هكذا متعاقبين على جوانب هذه الكرة وأمكنتها:

يكور الليل على النهار، بأن يحل محله في جزء من الكرة ـ وجزء الكرة مكور ـ فيكون النهار الحالّ مكوراً بحكم تكور المحل.

وكذلك النهار يكور عليه فيحل محله من الكرة، فيكون أيضاً مكوراً بحكم تكور المحل. وإنما جعلنا تكوير أحدهما على الآخر بحلوله محله؛ لأنه لا يمكن تكويره عليه بحلوله عليه نفسه؛ لأنهما ضدان لا يجتمعان، وليسا جسمين يحل أحدهما على الآخر.

و «**الآية**»: هي العلامة الدالة. وكان الليل والنهار «آيتين» بتعاقبهما مقدرين بأوقات متفاوتة بالزيادة والنقص في الطول والقصر، على نظام محكم وترتيب بديع، بحسب الفصول الشتوية والصيفية، وبحسب الأمكنة ومناطق الأرض: المناطق الاستوائية، والقطبية الشمالية، والجنوبية، وما بينهما. حتى يكونا في القطبين ليلة ويوماً في السنة، ليلة فيها ستة أشهر هي شتاء القطبين، ويوم فيه ستة أشهر هو صيفهم.

فهذا الترتيب والتقدير والتيسير، دليل قاطع على وجود خالق حكيم قدير لطيف خبير.

الليل في نفسه آية، وفيه آيات، وأظهر آياته هو القمر. فيقال في القمر: «آيـة الليل». والنهار في نفسه آية، وفيه آيات، وأظهر آياته هي الشمس، فيقال في الشمس: «آية النهار».

وبعدما ذكر تعالى الليل والنهار آيتين في أنفسهما، ذكر أظهر آيات كل واحد منهما وأضافها إليه. فقال تعالى: ﴿**فمحونا آية الليل**. . .﴾.

وليس محو القمر وإبصار الشمس متأخراً عن الليل والنهار. وكيف؟! وما كان الليل والنهار إلا باعتبار إضاءة الشمس لجانب، وعدم إضاءتها لمقابله.

فليست الفاء في «فمحونا» للترتيب في الوجود، وإنما هي للترتيب في الذكر، وللترتيب في التعقل: فإن القمر والشمس بعض من آيات الليل والنهار، والجزء متأخر في التعقل عن الكل.

وقد اتفق الكاتبون على الآية ـ ممن رأينا ـ على أن المراد من لفظ الآية في الموضعين واحد:

أ ـ فإما أن يراد بها نفس الليل والنهار، والإضافة في «آية الليل» و«آيـة النهار» للتبييـن كإضافة العدد للمعدود.

أو يراد بها الشمس والقمر فيكون: ﴿**وجعلنا الليل والنهار آيتين**﴾، على تقدير مضاف في الأول تقديره هكذا: وجعلنا نيري الليل والنهار.

أو في الأخير مقدراً هكذا: وجعلنا الليل والنهار ذوي آيتين.

ب ـ وإما على تقريرنا المتقدم فإن لفظ «آيتين» صادق على الليل والنهار. ولفظ «آية الليل»، و«آية النهار»، صادق على الشمس والقمر.

وعليه يكون تقدير الآية هكذا: وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا قمر الليل وجعلنا شمس النهار مبصرة.

وهو تقدير صحيح لا معارض له من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى، وسالم من دعوى تقدير محذوف، ومفيد لكثرة المعنى بأربع آيات: بالليل وقمره والنهار وشمسه. فالتقدير به أولى، ولذلك فسرنا الآية عليه.

﴿**فمحونا**﴾ المحو هو الإزالة: إزالة الكتابة من اللوح، وإزالة الآثار من الديار. فمحو «آية الليل» إزالة الضوء منها، وهذا يقتضي أنه كان فيها ضوء ثم أزيل؛ فتفيد الآية أن القمر كان مضيئاً، ثم أزيل ضوؤه فصار مظلماً.

وقد تقرر في علم الهيئة أن القمر جرم مظلم يأتيه نوره من الشمس.

واتفق علماء الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أن جرم القمر ـ كالأرض ـ كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحمو والحرارة ثم برد، فكانت إضاءته في أزمان حموه وزالت لما برد.

لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية: ذلك الكتاب الذي جعله الله حجة لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وبرهاناً لدينه على البشر مهما ترقوا في العلم، وتقدموا في العرفان!!

فإن ظلام جرم القمر لم يكن معروفاً أيام نزول الآية عند الأمم إلا أفراداً قليلين من علماء الفلك. وإن حمو جرمه أولاً، وزواله بالبرودة ثانياً، ما عرف إلا في هذا العهد الأخير.

والذي تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ نحو أربعة عشر قرناً نبي أمي، من أمة أمية، كانت في ذلك العهد أبعد الأمم عن العلم؛ فلم يكن ليعلم هذا إلا بوحي من الله الذي خلق الخلائق وعلم حقائقها!!

كفاك بالعلم في الأمّي معجزة ... في الجاهلية والتأديب في اليتم[1]

* * *

﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾:

فقد وضعت كذلك من أول خلقها «مبصرة» يبصر بها. والإسناد مجازي كما نقول لسان متكلم، أي متكلّم به، فيسند الشيء إلى ما يكون به من آلة وسبب.

والمبصرون حقيقة ذوو الأبصار، ولكنهم لا ينتفعون بأبصارهم إلا في ضوئها، ولا ينتفعون بها في الظلام.

وإذا كان الضوء يكون من النار! فأين ضوء النار من ضوء الشمس في القوة والدوام والعموم؟!!

وكما أفادت الآية زوال نور القمر ـ بعد أن كان بمقتضى لفظة «فمحونا» ومدلولها لغة ـ فإنها تشير إلى أن نوره مكتسب، وتومىء إلى أنه من الشمس، وذاك أننا نرى فيه نوراً، مع علمنا أن نوره قد أزيل؛ فنعلم قطعاً أن ذلك النور ليس منه.

وإذا كان مذكوراً مع الشمس المبصرة في الاستدلال والامتنان، ومعاقباً مصاحباً لها في الظهور، فنوره جاءه منها وهي التي أبصرته.

وقدم الليل وآيته على النهار وآيته في ترتيب النظم، لأنه ظلام، والظلام عدم الضوء. والعدم مقدّم على الوجود في هذه المخلوقات.

﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾:

ذكر تعالى الليل والنهار وآيتيهما استدلالاً على الخلق ليعرفوه، وذكر ما فيهما من النعمة عليهم ليشكروه ويعبدوه.

---

(١) البيت من بردة البوصيري (ص ١٢١٣، ١٢٩٥).

فكانت فائدة خلقها على هذا الوجه راجعة للعباد، ليبتغوا ويطلبوا فضلاً من ربهم بالسعي لتحصيل المعاش، وأسباب الحياة، ووجوه المنافع.

وليضبطوا أوقاتهم بعلم عدد السنين الشمسية والقمرية، وما اشتملت عليه السنون من الشهور والأيام والساعات.

وليعلموا جنس الحساب الذي منه حساب الشمس وتنقلها في منازلها، وحساب القمر وتنقله في بروجه، وحساب أبعادهما، وسعتهما، ومسير نورهما. ثم حساب ما يرتبط بهما من أجرام سابحة في الفضاء.

«والابتغاء»: هو طلب الشيء بسعي إليه ومحبة فيه. ويسمي ـ تعالى ـ طلب أسباب الحياة ابتغاء، تنبيهاً على هذا السعي وهذه المحبة، فهما الشرطان اللازمان للفوز بالمطلوب.

كما يسمي ـ تعالى ـ المطلوب بالابتغاء فضلاً من الرب، وفضله من رحمته. ورحمته واسعة لا تضبطها حدود، ولا تحصرها الأعداد ـ تنبيهاً على سعة هذا الفضل ليذهب الخلق في جميع نواحيه، ويأخذوا بجميع أسبابه مما أذن لهم فيه.

وليكونوا ـ إذا ضاق بهم مذهب ـ آخذين بمذهب آخر من مسالك هذا الفضل الرباني الواسع غير المحصور.

وتنبيهاً أيضاً على قوة الرجاء في الحصول على البغية، لأن طلبهم طلب لفضل رب كريم.

ويقول تعالى: ﴿من ربكم﴾ ـ والرب المالك المدبر لمملوكه بالحكمة فيعطيه في كل حال من أحواله ما يليق به، ليكون الخلق بعد قيامهم بالعمل راضين بما ييسره الله من أسباب، وما يقسمه لهم من رزق، ثقة بعدله وحكمته، فلا يبغي أحد على أحد بتعدّ أو حسد.

فهذه الكلمات القليلة الكثيرة، وهي: **﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾** جمعت جميع أصول السعادة في هذه الحياة:

بالعمل مع الجد فيه، والمحبة له والرجاء في ثمرته، الذي به قوام العمران.

وبالرضا والتسليم للمولى، الذي به طمأنينة القلب وراحة الضمير.

وبالكف للقلب واليد عن الناس، الذي به الأمن والسلام.

ويذكر تعالى علم عدد السنين، المتضمن لعدد الشهور والأيام والساعات تنبيهاً لخلقه على ضبط الأعمال بالأوقات، فإن نظام الأعمال واطّرادها وخفتها والنشاط فيها وقرب إنتاجها.... إنما هو بهذا الضبط لها على دقائق الزمان.

كما ذكر ـ تعالى ـ جنس الحساب تنبيهاً على لزومه لهذا الضبط، وجميع شؤون الحياة من علم وعمل؛ فكل العلوم الموصلة إلى هذا العدّ وهذا الحساب هي وسائل لها حكم مقصدها في الفضل والنفع والترغيب.

﴿وكل شيء فصلناه تفصيلا﴾.

فكل ما يحتاج إليه العباد لتحصيل السعادتين من عقائد الحق، وأخلاق الصدق، وأحكام العدل، ووجوه الاحسان.. كل هذا فصل في القرآن تفصيلاً: كل فصّل على غاية البيان والأحكام.

وهذا دعاء وترغيب للخلق أن يطلبوا ذلك كله من القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في العلم والعمل، ويأخذوا منه ويهتدوا به؛ فهو الغاية التي ما وراءها غاية في الهدى والبيان.

إرادة الدنيا وإرادة الآخرة

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٨ و١٩]

الشرح والمعنى:

كل الناس في هذه الحياة حارث وهمام، عامل ومريد، فسفيه ورشيد، وشقي وسعيد:

مريد الدنيا وجزاؤه:

منهم من يريد بأعماله هذه الدار العاجلة والحياة الدنيا، عليها قصر همه، وعلى حظوظها عقد ضميره. وجعلها وجهة قصده، ونصبها غاية سعيه، لا يرجو وراءها ثواباً، ولا يخاف عقاباً، فهو مقبل عليها بقلبه وقالبه، معرض عن غيرها بكليته، فلا يجيب داعي الله بترغيب ولا ترهيب، ولا يتقيد في سلوكه بشرائع العدل والإحسان.

فمن كانت هذه إرادته، ولهذا عمله، عجل الله له في الدنيا ما مضى في مشيئته تعالى أن يعجله له، إن كان ممن أراد التعجيل لهم، بحكم إبدال الجار والمجرور في قوله: «لمن نريد»، من الجار والمجرور في قوله: «عجلنا له». فالتعجيل منه تعالى لمن يريد، لا لكل مريد.

والشيء المعجل ـ في قدره وجنسه ومدته ـ على ما يشاء الرب المعطي، لا على ما يشاء العبد المريد.

فكم من مريد للدنيا من يقصد الشيء فلا ينال إلا بعضه، فيضيع عليه شطر عمله، فلا في هذه الدار، ولا في تلك الدار.

وكم منهم من سعى واجتهد وانتهى بالخيبة والحرمان، فعاد ـ بعد النصب[1] ـ ولا ثمرة حصلها عاجلاً، ولا ثواباً ادخره آجلاً، وذلك هو الخسران المبين.

(١) النصب (بالتحريك): التعب.

ثم إذا قدم على الله في الآخرة جعل له وحضر له جهنم دار العذاب، واضطره إلى دخولها. فيصليها ﴿مذموماً﴾ مذكوراً بقبح فعله وسوء صنيعه في قلة شكره لربه، وعدم استعماله لما كان أنعم عليه به في طاعته، وعدم نظره لعاقبة أمره. ﴿مدحوراً﴾ مبعداً في أقصى النار مطروداً من الرحمة.

حرم نفسه من استثمار رحمة الله في الدنيا بالشكر عليها، فكان عدلاً أن يحرم منها في الآخرة.

ونظير هذه الآية آية: **﴿ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾** [الشورى: ٢٠]. عمل للدنيا فنال نصيبه منها، ولم يعمل للآخرة فلم يكن له نصيب فيها.

والتقييد بمن في قوله تعالى: **﴿منها﴾** على أن ما يناله ـ سواء أكان كل ما أراد أو بعضه ـ ما هو إلا بعض من الدنيا.

وإذا كانت الدنيا كلها شيئاً زهيداً، بقلتها وفنائها ونغصها بالنسبة لأقل شيء من نعيم الآخرة ـ فما بالك بما هو بعض منها؛ فلقد خاب وخسر من استبدل بنعيم الآخرة هذا القليل الخسيس المنغص الزهيد!

ونظيرها أيضاً آية: **﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾** [هود: ١٥، ١٦].

وتوفيتهم أعمالهم، إنالتهم ثمراتها مكملة في الدنيا، وهم فيها لا يبخسون: لا ينقصون من جزائهم عليها بتحصيل المسببات التي توسلوا إليها بأسبابها. ثم في الآخرة تحبط تلك الأعمال فلا يكون عليها من جزاء ولا لها من ثمرة، لأنها كانت أعمالاً باطلة لا ثبات لها.

عمل لدنيا دار الزوال فزالت بزوالها، وبقي على عمالها إثم عدم شكرهم لربهم فدخلوا به النار، وتلك عاقبة الظالمين.

غير أن هاتين الآيتين مطلقتان في الشيء المعطى والشخص المعطى له. وآية «الإسراء» مقيدة بمشيئة الله تعالى وإرادته فيهما، والمطلق محمول على المقيد في البيان والأحكام.

وقد أفادت هذه الآيات كلها، أن الأسباب الكونية التي وضعها الله تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها، موصلة ـ بإذن الله تعالى ـ من تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه، بمقتضى أمر الله وتقديره وسنته في نظام هذه الحياة والكون، ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدق المرسلين.

ومن مقتضى هذا: أن من أهمل تلك الأسباب الكونية التقديرية الإلهية، ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها ولو كان من المؤمنين، وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم.

نعم لا يضيع على المؤمن أجر إيمانه، ولكن جزاءه عليه في غير هاته الدار، كما أن الآخر لم

يضع عليه أخذه بالأسباب، فنال جزاءه في دار الأسباب وليس له في الآخرة إلا النار.

أقسام العباد:

فالعباد ـ إذن ـ على أربعة أقسام:

١ ـ مؤمن آخذ بالأسباب الدنيوية، فهذا سعيد في الدنيا والآخرة.

٢ ـ ودهري تارك لها، فهذا شقي فيهما.

٣ ـ ومؤمن تارك للأسباب، فهذا شقي في الدنيا وينجو ـ بعد المؤاخذة على الترك ـ في الآخرة.

٤ ـ ودهري آخذ بالأسباب الدنيوية، فهذا سعيد في الدنيا ويكون في الآخرة من الهالكين.

فلا يفتتن المسلمون بعد علم هذا ما يرونه من حالهم وحال من لا يدين دينهم. فإنه لم يكن تأخرهم لإيمانهم، بل بترك الأخذ بالأسباب الذي هو سبب تأخرنا من ضعف إيمانهم. ولم يتقدم غيرهم بعدم إيمانهم، بل بأخذهم بأسباب التقدم في الحياة.

وقد علموا أنهم مضت عليهم أحقاب وهم من أهل القسم الأول بإيمانهم وأعمالهم. وما صاروا من أهل القسم الثالث إلا لما ضعف إيمانهم وساءت أعمالهم وكثر إهمالهم؛ فلا لوم ـ إذن ـ إلا عليهم في كل ما يصيبهم، وربك يقضي بالحق وهو الفتاح العليم.

* * *

﴿وَمَنْ أرادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾.

مريد الآخرة وجزاؤه:

وهذا قسم آخر من الخلق، قصد بعمله الآخرة وإياها طلب، وثوابها انتظر يرجو أن يزحزح فيها عن النار ويفوز بالجنة، ويحل عليه الرضوان.

فهذا كان سعيه مشكوراً بثلاثة شروط:

الشرط الأول:

أن يقصد بعمله ثواب الآخرة قصداً مخلصاً، كما يفيده فعل الإرادة في: «ومن أراد الآخرة»، ولام الأجل في: «وسعى لها».

الشرط الثاني:

أن يعمل لها عملها المعروف في الشرع اللائق بها الذي لا عمل يفضي إلى نيل ثوابها سواه، وهو طاعة الله تعالى وتقواه، بامتثال أوامره ونواهيه، والوقوف عند حدوده.

الشرط الثالث:

أن يكون مؤمناً موقناً بثواب الله تعالى وعظيم جزائه.

فإذا توفرت هذه الشروط الثلاثة لهم «كان سعيهم مشكورا» متقبلاً مثاباً عليه بحسن الثناء، وجميل الجزاء، على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف[1] إلى أضعاف كثيرة: ﴿**والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم**﴾ [البقرة: ٢٦١].

وإذا اختل واحد منها فليس العمل بمتقبل ولا بمثاب عليه، بضرورة انعدام المشروط بانعدام شرطه.

وفي هذه الشروط مباحث:

المبحث الأول:

أن قصد الثواب والجزاء على العمل لا ينافي الاخلاص فيه لله؛ لأن الإخلاص هو أن تجعل عبادتك لله وحده، ورجاؤك الثواب وطمعك فيه، وحذرك العقاب وخوفك منه، هما مقامان عظيمان لك في جملة عبادتك، يجب عليك أن تكون فيهما أيضاً مخلصاً، لا ترجو إلا ثوابه، ولا تخاف إلا عقابه.

وإذا أخلصت في رجائك وخوفك هانت عليك نفسك فقمت في طاعته مجاهداً لا يردك معارض، ولا تأخذك في الله لومة لائم. وصغرت في نظرك العوالم كلها فنطقت بقولك: «الله أكبر» نطق عالم واجد مشاهد.

والمقصود: أن رجاء الثواب وخوف العقاب روحهما الإخلاص فكيف ينافيانه؟.

فالعامل الراجي للثواب الخائف من العقاب المخلص في الجميع، آت بأربع عبادات: عمله، ورجائه، وخوفه، واخلاصه، وهو روح الجميع.

وقد جاء في القرآن ثناء شيخ الأنبياء إبراهيم الخليل، عليه وعليهم الصلاة السلام هكذا:

﴿**والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين**﴾ [الشعراء: ٨٢].

وذكر تعالى دعاء عباد الرحمن الصالحين هكذا:

﴿**ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما**﴾ [الفرقان: ٦٥].

وفي دعاء القنوت: «نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد» إلى غير هذا من أدلة كثيرة تؤيد ما ذكرناه.

---

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا أسلم العبد فحسن إسلامه يكفّر الله عنه كل سيئة كان زَلَفها وكان بعد ذلك القصاص؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها، إلا أن يتجاوز الله عنها». رواه البخاري في الإيمان باب ٣١ (حديث رقم ٤١). ورواه أيضاً في الرقاق باب ٣١. ومسلم في الإيمان حديث ٢٠٤ و٢٠٥ و٢٠٦، والصيام حديث ١٦٤. والترمذي في فضائل الجهاد باب ٤. وابن ماجة في الصيام باب ١. والنسائي في الصيام باب ٤٢. والدارمي في الصوم باب ٥. ومالك في الموطأ (كتاب الصيام، حديث ٥٨) وأحمد في المسند (٤٤٦/١).

المبحث الثاني:

أفاد هذا الشرط أن من لم يرد الآخرة لم يكن سعيه مشكوراً.

وفي هذا تفصيل:

أ ـ لأن العامل إما أن يكون في عبادته لم يرد بها الآخرة أصلاً، بل أراد بها شيئاً دنيوياً من محمدة الخلق، أو استفادة شيء، أو تحصيل منفعة العمل.

أو أراد الآخرة، وشيئاً مما ذكر شركة متساوية أو متفاوتة.

ب ـ وإما أن يكون في عمل عادة، لم يرد بها الآخرة أصلاً؛ بل أراد الغرض الدنيوي.

أو أرادهما معا، والدنيوي وسيلة للأخروي.

فهنالك إذن أقسام:

القسم الأول:

العامل في أمر تعبدي كالصلاة، والصدقة، والحج، والعلم، فهذا إذا لم يرد الآخرة أصلاً فهو موزور غير مشكور، وفيه جاء حديث أبي هريرة في الصحيح قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فماذا عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد. فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار»[1].

وهذا الذي كان من هؤلاء هو الرياء وهو: أن يفعل العبادة ليقال إنه مطيع. وما دخل الرياء في عبادة إلا أحبطها، ولو كان قليلاً؛ لحديث أبي هريرة في الصحيح: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشِّرْك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٥٢. والنسائي في الجهاد باب ٢٢. وأحمد في المسند (٢/٣٢٢).

تركته وشركه»[١]. وإشراك غيره معه صادق بالقليل والكثير، فلا فرق بينهما في الإحباط. والعامل المرائي موزور غير مشكور.

القسم الثاني:

العامل في العبادة الذي يقصد بها ثواب الآخرة وشيئاً آخر من أعراض الدنيا: كالرجل يبتغي الجهاد، وهو يريد من عرض الدنيا. وقد سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا، فقال: «لا أجر له». رواه أبو داوود[٢] وابن حبان.

وعلى وزانه نقول: من قصد الهجرة والتزوج بامرأة معاً.

أو قصد الوضوء والتبرد، أو قصد الصوم والحمية ـ وإن صحت عبادته، لأن الصحة تتوقف على نية القصد، والثواب يتوقف على نية الإخلاص ـ لا أجر له.

هذا إذا سُوِّي ما بينهما في القصد كما هو ظاهر لفظ الحديث. وأما إذا كان الغالب هو قصد العبادة فالظاهر أنه له من الأجر بقدر ما غلب من قصده.

القسم الثالث:

العامل في العبادة الذي يكون قصده إلى ثواب الآخرة، وما عداه من منافع تلك العبادة ملحوظ له على سبيل التبع لها من حيث إنه مصلحة شرعية معتبرة في التشريع.

والأحكام الشرعية المعللة بفوائدها في الآيات والأحاديث لا تحصى كثرة ومنها في الحج [الآية: ٢٨]: ﴿**ليشهدوا منافع لهم**﴾ ومن منافع الحج الحركة الاقتصادية لخير تلك البقاع ومصلحة أهلها، وغزارة عمرانها؛ ولذا قال تعالى: ﴿**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم**﴾ [البقرة: ١٩٨] والفضل هنا هو الاتجار في مواسم الحج.

فكل منفعة تجلبها عبادة، أو مضرة تدفعها، فملاحظتها عند قصد العبادة لا تنافي الإخلاص، ولا تنقص من أجر العامل، وهي مثل الثواب المرتب على العمل: هي في الدنيا وهو في الآخرة، كلاهما من رحمة الله التي نرجوها بأعمالنا. ويشملها لفظ دعاء القنوت: «نرجو رحمتك» إذ هو تبارك وتعالى رحمان الدنيا والآخرة ورحيمها.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق حديث ٤٦، وابن ماجة في الزهد باب ٢١. وقوله: «تركته وشركه» هكذا وقع في بعض روايات الحديث؛ وروي: «وشريكه»، وروي أيضاً: «وشركته». ومعناه أنه غنيّ عن المشاركة وغيرها، فمن عمل شيئاً لي ولغيري لم أقبله بل أتركه لذلك الغير. والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به.

(٢) في الجهاد، باب ٢٤، حديث ٢٥١٦. ولفظه بتمامه: عن أبي هريرة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي غرضاً من عرض الدنيا؟ فقال النبي ﷺ: لا أجر له. فأعظم ذلك الناس وقالوا للرجل: عد لرسول الله ﷺ فلعلك لم تفهمه؛ فقال: يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا؟ قال: لا أجر له. فقالوا للرجل: عد لرسول الله ﷺ. فقال له الثالثة، فقال له: لا أجر له».

القسم الرابع:

العامل لعمل عادي دنيوي، من أكل وشرب ونوم وجماع ونحوها، فهذا إذا قصد بعمله النفع الدنيوي، ولا قصد له في الثواب، فهو غير مأجور ولا مأزور، وهذه هي حالة أهل الغفلة والجهل.

القسم الخامس:

عامل الأعمال العادية الذي يتناولها بنية كونها مباحاً تناوُلها شرعاً. ويقصد بها التوسل إلى ما يتوقف عليها من أعمال واجبة ومندوبة، وإلى الانكفاف بها عن المحرمات والمكروهات.

كمباضعة[١] زوجته للقيام بواجب حقها، وكف نفسه وكفها.

وكالنوم ليقوى على العبادة.

والرياضة ليصح للطاعة. فهذا مثاب وسعيه مشكور، وله ما نوى.

وبهذه السبيل يستطيع العبد الموفق أن تكون حركاته وسكناته كلها لله وفي طاعته، دائم الذكر له يعبده كأنه يراه[٢]، لأن من كان يعبد كأنه يرى مولاه لا يمكن أن يغفل عنه قلبه ويشغل بسواه، حتى إذا اشتغل بشيء كان بإذنه ورضاه فلم يخرج في أيّ عن حضرة قدس الله.

ومن أدلة هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث أبي ذر رضي الله عنه عند مسلم:

«وفي بضع[٣] أحدكم صدقة. قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[٤].

* * *

٣ ـ المبحث الثالث:

من الناس من يخترع أعمالاً وأوضاعاً من عند نفسه، ويتقرب بها إلى الله، مثل ما اخترع المشركون عبادة الأوثان بدعائها، والذبح عليها، والخضوع لديها، وانتظار قضاء الحوائج منها... وهم يعلمون أنها مخلوقة لله، مملوكة له، وإنما يعبدونها ـ كما قالوا ـ لتقربهم إلى الله زلفى[٥].

---

(١) مباضعة الزوجة: مباشرتها.

(٢) في حديث الإيمان والإسلام، سأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام، قال: «فأخبرني عن الإحسان!» قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». أخرجه البخاري في الإيمان باب ٢٧، ومسلم في الإيمان حديث ١ و٥ و٧، والنسائي في الإيمان باب ٥ و٦.

(٣) البضع، بضم الباء: يطلق على الجماع ويطلق على الفرج نفسه، وكلاهما تصحّ إرادته في هذا الحديث.

(٤) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ٥٢، وأبو داود في التطوع باب ١٢، والأدب باب ١٦٠، وأحمد في المسند (١٦٧/٥، ١٦٨).

(٥) كما جاء في الآية ٣ من سورة الزمر: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾. والزلفى: القربى والمنزلة.

وكما اخترع طوائف من الهنود أنواع التعذيب بقتل أنفسهم وإحراقها طاعة ـ زعموا ـ وتقربًا.

وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص، والزمر، والطواف حول القبور، والنذر لها، والذبح عندها، ونداء أصحابها، وتقبيل أحجارها ونصب التوابيت عليها، وحرق البخور عندها، وصب العطور عليها. . .

فكل هذه الاختراعات فاسدة في نفسها، لأنها ليست من سعي الآخرة الذي كان يسعاه محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأصحابه من بعده، فساعيها موزور غير مشكور.

المبحث الرابع:

شكر الرب لعبده هو جزاء شكر عبده له، وإنما يكون العبد شاكراً لربه إذا كان عاملاً بطاعته مؤمناً به؛ فإذا انعدم الايمان لم يُتصوَّرْ شكران وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿وهو مؤمن﴾.

وأفادت الجملة الاسمية ثبوت الإيمان ورسوخه حال العمل.

وعلى قدر ثبوت الايمان ورسوخه يكون الثبات والدوام على الأعمال:

فالمؤمن بالله يعمل موقناً برضاه، موقناً بلقائه وعظيم جزائه، فهو يعمل ولا يفشل، وسواء عليه أوصل إلى الغاية التي يسعى إليها، أم لم يصل إليها: بأن حال بينه وبينها موانع الدنيا أو مانع الموت، كانت مما تجنى ثماره في جيله أو لا تجنى ثماره إلّا بعد أجيال.

فأفادت الجملة المذكورة شرط القبول للعمل، وسر الدوام عليه والمضي بغبطة وسرور فيه.

الجانب العملي في الآية:

إن المسلمين كلهم ـ والحمد لله ـ أهل إيمان، فليستشعروه عند جميع الأعمال، ولا يخلون من عمل لمعاشهم أو لمعادهم، فليقصدوا بذلك كله وجه الله وامتثال أمره وحسن جزائه. وليقتصروا في عبادتهم على ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ليكونوا على يقين من موافقة رضى الله، وسلوك طريق النجاه.

فإذا فعلوا هذا وصمدوا [1] إليه وجاهدوا أنفسهم في حملها عليه ـ كانوا شاكرين مشكورين على تفاوتهم في منازل العاملين عند رب العالمين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(١) صَمَدَ إلى الشيء صَمْدًا: قصده (المعجم الوسيط: ص ٥٥٢).

عموم النوال من الكبير المتعال

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾

[الإسراء: ١٩ و٢٠]

تمهيد:

إن هذه الموجودات كلها علويها وسفليها، مشمولة برحمة الله مغمورة بنعمته. وأول تلك النعم هو وجودها، وذلك الوجود من مقتضى الرحمة.

ثم تتنوع تلك النعم الرحمانية بتنوع أجناس الموجودات وأنواعها وأصنافها وأفرادها، وتتفاوت أيضاً حسب ذلك. وينال كل حظه منها بتقدير الحكيم العليم.

ومن مظاهر هذه الرحمة العامة أن كل موجود قد أعطي من التكوين ما يناسب وجوده، وما يتوقف عليه بقاؤه، أو ارتقاؤه، سواء أكان من عالم الجماد، أو عالم النبات، أو عالم الحيوان.

وقد مضى قبل هذه الآية ذكر مريدي العاجلة الذين لا يعملون إلّا لها، وما أُعد لهم من عذاب النار. وذكر مريدي الآخرة بأعمالهم في الدنيا، وما أعد لهم من حسن الجزاء. فحالتهم في الآخرة متباينة: هؤلاء في النعيم المقيم، وأولئك في العذاب الأليم، هذا في الآخرة.

وأما في الدنيا فإنهم قد أُعطوا من نعم الحياة، ومُكنوا من أسبابها.

فقد تساووا في الخلقة البشرية، وفي العقل المميز المفكر، وفي الإرادة الحرة.

وقد أظلّتْهم السماء، وأصابتهم نعمة الشمس والقمر والكواكب وما ينزل من السماء.

وقد أقلتهم الأرض وشملتهم نعمة الهواء، والماء، والغذاء، والدواء، من النبات والحيوان والجماد، وكل ماء يخرج من الأرض.

وشاهدوا كلهم آيات الله الكونية الدالة عليه.

وجاءتهم كلهم رسل الله بآياته السمعية داعية إليه، فاختار كل بعقله ـ وهو حر في إرادته حرية لا يمكن لأحد أن يكابر فيها ما اختار لنفسه.

وحجة الله بما تقدم قائمة عليه. وبقوا بعد ذلك الاختيار ـ الذي اختلفت به منازلهم عند الله ـ فيما أعد لهم يوم لقاه، سواء في تلك النعم الدنيوية، والتمكن من أسباب بقائها والتقدم فيها، لا فرق في ذلك بين بر وفاجر، ومؤمن وكافر.

وهذا معنى قوله تعالى: **﴿كلًّا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾**.

وليس تعالى مانعاً كافراً لكفره، أو عاصياً لعصيانه من هذه الحياة وأسبابها، وليس أحد على منع ما لم يمنعه الله بقادر.

وهذا معنى قوله تعالى: **﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾**.

(والحظر) المنع، والمحظور الممنوع[١].

وتركيب الآية يفيد أن عطاء الرب لا يمنع، ولا يجوز أن يمنع، لأن من مقتضى ربوبيته دوام عطائه ومدده لعموم خلقه بعلمه وحكمته.

وقدم المفعول، وهو (كلًّا) رداً على من يعتقد أن الله تعالى يمد بعضاً دون بعض. وفيه إيجاز بالحذف، والأصل كلا الفريقين: يعني فريق مريدي العاجلة، ومريدي الآخرة.

و (نمد) من الإمداد وهو المواصلة بالشيء، وذلك الشيء يسمى مدداً. وأصل المدد البسط للشيء، فيستطيل ويتسع ومنه مدّ يده ومدّ شبكته، ومنه مدّ الله لك أسباب السعادة أي بسطها ووسعها. والإمداد بالشيء والمواصلة به يكون به دوام فائدته وامتداد النفع به. والخلق كلهم في حاجة دائمة، وفاقة مستمرة إلى مدد الله وعطائه، وأنواع بره وإحسانه.

وهو تبارك وتعالى لا يزال يواصلهم في كل لحظة من وجودهم بما يحتاجون إليه من فيض عطائه.

وأضاف العطاء للرب لأنه من مقتضى ربوبيته بتكوينه للخلق، وتطويرهم، وإعطائهم ما يحفظهم في تلك الأطوار.

وأضاف الرب إلى ضمير المخاطب، وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتشريفه بهذه الإضافة. ولما تشرف بهذه الإضافة الربانية ـ والرب جل جلاله قد مضى في وصفه في الآية أنه عام الرحمة والنعمة والنوال؛ فمن شكر نعمة هذا الشرف أن يتخلق العبد ـ وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ بما هو من مقتضى وصف ربه.

هذا من فوائد هذه الإضافة في هذا المقام.

وقد كان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ رحمة للعالمين، شديد الشفقة على الخلق أجمعين حريصاً على هدايتهم إلى الصراط المستقيم، حتى خاطبه ربه بقوله: **﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾** [الشعراء: ٣] أي قاتل نفسك غماً لعدم إيمانهم

وكان أساس شرعه على العدل والإحسان: العدل مع كل أحد، والاحسان إلى كل شيء، فقال تعالى: **﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا﴾** [المائدة: ٨]. أي لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل فيهم ـ وقال صلى الله عليهم وآله وسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»[٢].

ولما كان هو عليه الصلاة والسلام قدوتنا، فنحن مخاطبون بأن نكون مثله في عموم رحمته

(١) في تفسير الطبري (٥٦/٨): «محظورًا: أي منقوصًا».

(٢) من حديث شداد بن أوس. أخرجه الترمذي في الديات باب ١٤، والنسائي في الضحايا باب ٢٢ و٢٧.

وشفقته وعدله وبره وإحسانه: نفعل الخير عاماً كما تعم خيرات الله تعالى العباد، نفعله لأنه خير نستطعم لذته، غير منتظرين جزاءه إلا من الله؛ لأن من انتظر الجزاء من الناس في هذه الحياة لا بد أن يميل بخيره عن جهة إلى جهة، وربما يكون في ميله قد أخطأ وجه الصواب، ولا بد أيضاً أن ييأس فيفتر[١] في العمل، أو ينقطع عنه عندما يرى عدم المكافأة من الناس وعدم ظهور أثر خيره في الحياة، وأبناء الحياة.

وقد أفادت الآية ـ حسبما تقدم ـ أن أسباب الحياة والعمران والتقدم فيها مبذولة للخلق على السواء، وأن من تمسك بسبب بلغ ـ بإذن الله ـ إلى مسببه، سواء أكان براً أو فاجراً، مؤمناً أو كافراً.

وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديماً وحديثاً:

فقد تقدموا حتى سادوا العالم، ورفعوا علم المدنية الحقة بالعلوم والصنائع لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم.

وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها بإهمال تلك الأسباب فخسروا دنياهم، وخالفوا مرضاة ربهم، وعوقبوا بما هم عليهم اليوم من الذلّ والانحطاط.

ولن يعود إليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى امتثال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب.

فهذه الآية من أنجع الدواء لفتنة المسلم المتأخر بغيره المتقدم، لما فيها من بيان أن ذلك المسلم ما تأخر بسبب إسلامه، وأن غيره تقدم بعدم إسلامه؛ لأن السبب في التقدم والتأخر هو التمسك أو الترك للأسباب.

ولو أن المسلم تمسك بها كما يأمره الإسلام، لكان ـ مثل سالف أيامه ـ سيد الأنام.

النظر في تفاضل البشر:

﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾.

إن من أعظم العبرة ما نشاهده في أحوال الخلق، أمماً وجماعات وأفراداً من الاختلاف الشديد: فقد اختلفت بواطنهم النفسية، كما اختلفت ظواهرهم الجسدية. وإنك كما تجد أبناء الأمة الواحدة يتشابهون في تركيب أجسامهم، ثم لا بد من فروق تتمايز بها أشخاصهم، كذلك تجدهم يتشابهون في شؤونهم النفسية، مع فروق لازمة تتمايز بها شخصياتهم. ويتبع هذا الاختلاف اختلافهم في إدراكهم، وتمييزهم، وأخلاقهم، وعاداتهم، في ضلالهم وهداهم، وفي درجات الهدى ودركات[٢] الضلال.

---

(١) فتر فتورًا: سكن بعد حدة ونشاط (المعجم الوسيط: ص ٦٧٢).

(٢) الدَّرَكة: المنزلة السفلى، ضد الدرجة وهي المنزلة العليا؛ فالدركات منازل بعضها تحت بعض، والدرجات منازل بعضها فوق بعض، والفضيلة درجات، والرذيلة دركات.

كل هذا دال على بديع صنع الخالق القدير، وعجيب وضع العليم الحكيم، فمكنهم تعالى كلهم من الأسباب، وإدراك العقل، وحرية الإرادة. ثم فضل بينهم هذا التفضيل... فكان منهم المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والشقي والسعيد، إلى تقسيم كثير.

وفقه أسباب هذا التفضيل، هو فقه الحياة والعمران والاجتماع. فلذا أمر تعالى بالنظر في أحوال هذا التفضيل بقوله: ﴿**انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض**﴾.

و«كيف» سؤال عن الأحوال، والنظر المأمور به هو نظر القلب بالفكرة والاعتبار.

والجملة في محل نصب على العامل عن لفظها بكلمة الاستفهام.

وكما فضل بعض خلقه على بعض في دار الابتلاء، كذلك فضل بعضهم على بعض في دار الجزاء. لكن التفضيل هنالك أكبر، والتفاوت بين العباد أظهر؛ في مواقف القيامة، وفي داري الإقامة[1]، ويا بعد ما بين من في الجنة ومن في النار!

وأهل النار متفاوتون في دركاتها، وأهل الجنة متفاوتون في درجاتها.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال:

«إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[2].

وروى البخاري ومسلم[3] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري[4] الغابر في الأفق من المشرق والمغرب، لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين».

وقال تعالى: ﴿**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار**﴾ [النساء: ١٤٥]. وهذا التفضيل الأخروي هو المراد بقوله تعالى: ﴿**وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا**﴾.

---

(١) دارا الإقامة: هما الجنة والنار.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير باب ٤ (حديث ٢٧٩٠) وتمامه: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها. فقالوا: يا رسول الله أفلا نبشّر الناس؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض؛ فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أراه قال: وفوقه عرش الرحمن ـ ومنه تفجّر أنهار الجنة».

(٣) البخاري في بدء الخلق باب ٨، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها حديث ١١.

(٤) الكوكب الدرّي: هو الكوكب العظيم، قيل: سمي دريًا لبياضه كالدرّ، وقيل: لإضاءته، وقيل: لشبهه بالدرّ في كونه أرفع من باقي النجوم كالدرّ أرفع الجواهر.

وفي هذا ترغيب للخلق في تحصيل الفضل في درجات الآخرة؛ فإنهم إنما يتهالكون في الدنيا على أن يفضل بعضهم بعضاً في شيء منها، وهي الدار الفانية. فلم لا يتسابقون فيما ينالون به الفضل في الدار الباقية؟! مع أن من عمل لنيل الفضل في الآخرة ـ وما عملها إلا الخير والمعروف ـ حاز الفضل والسعادة فيهما على أفضل وجه، وأكمل حال.

فللآخرة ونيل درجاتها فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

أصول الهداية في ثمان عشرة آية

من قوله تعالى:

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٢]

إلى قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٩]

تمهيد:

قد أوتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جوامع الكلم واختُصر له الكلام اختصاراً؛ فالآية من كتاب الله، والأثر من حديث رسول الله، تجد فيه من أصول الهداية، ودقيق العلم، ولطيف الاشارة في لفظ بيِّن وكلام بيِّن ـ ما فيه الكفاية وفوق الكفاية لمن أوتي العلم ومُنح التوفيق.

فهذه ثمان عشرة آية من سورة الإسراء قد أتت في إيجاز ووضوح على أصول الهداية الإسلامية كلها. وأحاطت بأسباب السعادة في الدارين من جميع وجوهها.

وهي ـ فوق بلاغتها التي عرف العرب إعجازها بسليقتهم وأدركه علماء البيان بعلمهم ومرانهم ـ قد جاءت معجزة للخلق من أي جنس كانوا، أو بأي لغة نطقوا، بما جمعت من أصول الهداية التي تدركها الفِطَر وتسلمها العقول.

وإنك لست واجداً مثلها في مقدارها وأضعاف مقدارها من كلام الخلق بجمع ما جمعت من هدى وبيان.

وهذا أحد وجوه إعجاز القرآن العامة التي تقوم بها حجته على الناس أجمعين.

موقع هذه الآيات موقع البيان والتفصيل للسعي المشكور المتقدم في قوله تعالى: ﴿**فأولئك كان سعيهم مشكورا**﴾ ووقوعها بلصق قوله تعالى: ﴿**وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا**﴾. إشارة إلى أن التفاضل في تلك الدرجات مرتبط بالتفاضل في السلوك والسعي المشكور، المستفاد من هذه الآيات.

﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾.

هذا هو أساس الدين كله، وهو الأصل الذي لا تكون النجاة ولا تقبل الأعمال إلا به. وما أرسل الله رسولاً إلا داعياً إليه، ومذكراً بحججه.

وقد كانت أفضل كلمة قالها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي كلمة «لا إله إلا الله». وهي كلمته الصريحة فيه.

ولا تكاد سورة من سور القرآن تخلو من ذكره والأمر به والنهي عن ضده.

وأنت ترى أن هذه الآيات الجامعة قد جعلت بين آيتين صريحتين فيه.

﴿لا تجعل﴾ الجعل يكون عملياً كجعلت الماء مع اللبن في إناء واحد، ويكون اعتقادياً كجعلت مع صديقي صديقاً آخر. والجعل في الآية من هذا الثاني.

﴿مع الله﴾ المعية هنا أيضاً هي معية اعتقادية.

﴿إلَهًا آخر﴾ الإله هو المعبود والعبادة نهاية الذل والخضوع مع الشعور بالضعف والافتقار وإظهار الإنقياد والامتثال ودوام التضرع والسؤال.

﴿فتقعد﴾ القعود ضد القيام، والعرب تكني بالقيام عن الجد في الأمر والعمل فيه سواء أكان العامل قائماً أو جالساً، فتقول: قام بحاجتي إذا جد وعمل فيها، ولو كان لم يمش فيها خطوة وإنما قضاها بكلمة قالها، أو خطاب أرسله. وتكني كذلك بالقعود عن الترك للعمل وانحلال العزيمة وبطلان الهمة سواء أكان الشخص واقفاً أو جالساً، فتقول: قعد زيد عن نصرة قومه إذا لم يعمل في ذلك عملاً، ولم تكن له فيه همة ولا عزيمة، ولو كان قائماً يمشي على رجليه. فالقعود في الآية بمعنى المكث كناية عن بطلان العمل وخيبة السعي وخور القلب وفراغ اليد من كل خير.

﴿مذمومًا﴾ مذكورًا بالقبيح موصوفاً به.

﴿مخذولاً﴾ متروكاً بلا نصير مع حاجتك إليه.

فنهى الله الخلق كلهم عن أن يعتقدوا معه شريكاً في ألوهيّة، فيعبدوه معه ليعتقدوا أنه الإلّه وحده فيعبدوه وحده.

وبين لهم أنهم إن اعتقدوا معه شريكاً وعبدوه معه فإن عبادتهم تكون باطلة، وعملهم يكون مردوداً عليهم، وأنهم يكونون مذمومين من خالقهم، ومن كل عقل سليم من الخلق، يكونون مخذولين لا ناصر لهم: فأما الله فإنه يتركهم وما عبدوا معه، وأما معبوداتهم فإنها لا تنفعهم لأنها عاجزة مملوكة مثلهم فما لهم ـ قطعاً ـ من نصير.

والخطاب وإن كان موجهاً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنه عام للمكلفين.

وسر مثل هذا الخطاب تنبيه الخلق إلى أن شرائع الله وتكاليفه عامة للرسول والمرسل إليهم،

وإن كان هو[1] قد عصم من المخالفة فلا يبقى بعد ذلك وجه لدعوى مدع: خروج فرد من أفراد الأمة المكلفين عن دائرة التكليف

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾.

القضاء يكون بمعنى الإرادة، وهذا هو القضاء الكوني التقديري الذي لا يتخلف متعلقه فما قضاه الله لا بد من كونه. ويكون القضاء بمعنى الأمر والحكم، وهذا هو القضاء الشرعي الذي يمتثله الموفقون، ويخالفه المخذولون، والذي في الآية من هذا الثاني.

﴿ربك﴾ الرب هو الخالق المدبر المنعم المتفضل.

﴿أن﴾ في **﴿ألّا﴾** مصدرية، والتقدير: بألا تعبدوا إلا إياه أي بعدم عبادتكم سواه، بأن تكون عبادتكم مقصورة عليه.

فالعبادة بجميع أنواعها لا تكون إلا له فذل القلب وخضوعه، والشعور بالضعف والافتقار والطاعة والانقياد والتضرع والسؤال، هذه كلها لا تكون إلا لله.

فمن خضع قلبه لمخلوق على أنه يملك ضره أو نفعه فقد عبده.

ومن ألقى قياده بيد مخلوق يتبعه فيما يأمره وينهاه غير ملتفت إلى أنه من عنده أو من عند الله فقد عبده.

ومن توجه لمخلوق فدعاه ليكشف عنه السوء أو يدفع عنه الضر فقد عبده.

ومن شعر بضعفه وافتقاره أمام مخلوق على أنه يملك إعطاءه أو منعه فقد عبده.

فالله تعالى يعلم الخلق كلهم في هذه الآية بأنه أمر أمراً عاماً وحكم حكماً جازماً، بأن العبادة لا تكون إلّا له.

وجيء باسم الرب في مقام الأمر بقصر العبادة عليه تنبيهاً على أن الذي يستحق العبادة هو من له الربوبية بالخلق والتدبير والملك والإنعام، وليس ذلك إلّا له. فلا يستحق العبادة بأنواعها سواه، فهو تنبيه بوحدانية الربوبية التي من مقتضاها انفراده بالخلق والأمر الكوني والشرعي على وحدانية الألوهية التي من مقتضاها استحقاقه وحده عبادة جميع مخلوقاته.

وكما انتظمت هذه الجملة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، كذلك انتظمت مع الآية السابقة التوحيد العلمي والتوحيد العملي:

فالأولى: نهي عن أن تعتقد الألوهية لسواه، وهو يتضمن النهي عن اعتقاد ربوبية سواه وهذا من باب العلم.

والثانية: أمر بأن تكون عبادتك مقصورة عليه لأنه هو ربك وحده، وهذا من باب العمل:

---

(١) أي الرسول ﷺ.

فمن وحد الله جل جلاله في ربوبيته وألوهيته علماً وعملاً . . . فقد استكمل حظه من مقام هذا الأساس العظيم.

ومن أخلَّ بشيء من ذلك كان ذلك نقصاً في دينه بقدر ما أخل حتى ينتهي الأمر إلى خلص المشركين.

نعوذ بالله من الشرك جليه وخفيه، إنه سميع عليم.

بيان واستدلال:

يكون «الذل» بمعنى ضعف الحال، وهذا قد يكون لأهل التوحيد والإيمان كما في قوله تعالى: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة**﴾ [آل عمران: ١٢٣].

ويكون بمعنى اللين المشوب بالعطف وهذا من صفات المؤمنين الممدوحة إذا وقعت في محلها كما في قوله: ﴿أذلة على المؤمنين﴾ [الفتح: ٢٩].

ويكون الذل بمعنى خنوع القلب وخضوعه وانكساره للضعف والافتقار، وهذا هو الذي يكون من المؤمن الموحد لربه كما في حديث دعاء القنوت: «ونخنع لك»؛ أي نذل ونخضع لك.

وهذا الخنوع هو أساس العبادة القلبية فلذلك لا يكون إلا لله.

وإن من أسرار كلمة «الله أكبر» التي يأتي بها المؤمن مرات كثيرة في صلواته وغيرها من أحواله، حفظ القلب من الخنوع للخلق باستشعار عظمة الخالق التي يصغُر عندها كل مخلوق، فلا يزال المؤمن لهذا قوي القلب، عزيز النفس بالله، لا ينتظر قوة بدلاً من ضعفه إلا به، ولا سد مفاقره[1] إلا منه.

ولقلب المؤمن الموحد أمام من يحب في الله ويعظم بتعظيم الله خضوع أيضاً، ولكنه خضوع هيبة وتوقير وإجلال لا خضوع ذل وخنوع وضعف وافتقار، إذ هذا ـ كما قدمنا ـ لا يكون إلا للغني القوي العزيز القهار.

من مظاهر هذا الخنوع الذي لا يكون إلا لله الطاعة والانقياد، وهي أيضاً لا تكون إلا له.

وقد قال تعالى: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه**﴾[الفرقان: ٤٣]. أي أطاعه واتبعه. كما قال تعالى: ﴿**واتبعوا أهواءهم**﴾[محمد: ١٦].

فمن اتبع مخلوقاً وأطاعه فيما يأمره وينهاه، دون أن يكون في طاعته مراعياً طاعة الله فقد عبده، واتخذه رباً فيما أطاعه فيه.

وفي حديث عدي بن حاتم الذي رواه الترمذي وغيره، لما جاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وسمعه يتلو قوله تعالى:

(١) المفاقر: وجوه الفقر؛ يقال: سدّ الله مفاقره: أغناه. انظر المعجم الوسيط (ص ٦٩٧).

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ [التوبة: ٣١]. فقال عدي: يا رسول الله، إنهم لم يكونوا يعبدونهم. قال: «أليس كانوا إذا حرموا عليهم شيئاً حرموه، وإذا أحلوا لهم شيئاً أحلوه؟» قال، قلت: نعم. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «فتلك عبادتهم إياهم!»[1].

فالمؤمن الموحد لا تكون طاعته إلا لله أو لمن طاعته طاعة لله.

ومن مظاهر ذلك الخنوع: الدعاء والسؤال والتضرع والجؤار[2] إليه. قال تعالى: **﴿وما بكم من نعمة فمن الله، ثم إذا مسكم الضرّ فإليه تجأرون﴾** [النحل: ٥٣] وقال تعالى: **﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه﴾** [النمل: ٦٢]. وقال تعالى: **﴿إذ تستغيثون ربكم﴾** [الأنفال: ٩]. وفي القرآن آيات كثيرة بهذا المعنى.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الترمذي: «إذا سألت فاسأل الله»[3]. وفي أحاديث كثيرة.

فلا يدعو المؤمن الموحد غير الله ولا أحداً مع الله، إذ الدعاء عبادة كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه يرفعه: «الدعاء هو العبادة» رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة[4].

وكما في حديث أنس رضي الله عنه يرفعه: «الدعاء مخ العبادة». رواه الترمذي[5]. وكل عبادة لا تكون إلا لله فالدعاء لا يكون إلا لله.

وإنما كان للدعاء من العبادة هذي المنزلة لأن حقيقة العبادة هي التذلل والخضوع، وهو حاصل في الدعاء غاية الحصول، وظاهر فيه أشد الظهور.

ألهمنا الله رشدنا، وأعاذنا من شرور أنفسنا، إنه سميع قريب مجيب.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التوبة باب ١.

(٢) جأر جأرًا وجؤارًا: رفع صوته؛ وجأر إلى الله: تضرّع واستغاث. وفي الحديث: «كأني أنظر إلى موسى له جؤار إلى ربّ بالتلبية» (المعجم الوسيط: ص ١٠٣).

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع باب ٥٩ (حديث ٢٥١٦) وتمامه: «عن ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ اللّه يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك؛ إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك؛ رُفعت الأقلام وجفت الصحف».

(٤) رواه أحمد في المسند (٤/٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦) والترمذي في تفسير سورة البقرة باب ١٦. وابن ماجة في الدعاء باب ١. وأبو داود في الوتر باب ٢٣.

(٥) في الدعاء باب ١.

برُّ الوالدين

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

[الإسراء: ٢٣ و٢٤]

تمهيد:

الله هو الخالق، والوالدان ـ بوضع الله ـ هما السبب المباشر في التخليق.

والله هو المبتدئ بالنعم عن غير عمل سابق، وهما يبتدئان بالإحسان عن غير إحسان تقدم.

والله يرحم ويلطف وهو الغني عن مخلوقاته، وهم الفقراء إليه، وهما يكنفان بالرحمة واللطف الولد، وهما في غنى عنه، وهو في افتقار إليهما.

والله يوالي إحسانه ولا يطلب الجزاء، وهما يبالغان في الإحسان دون تحصيل الجزاء.

فلهذه الحالة التي خصهما الله بها وأعانهما بالفطرة عليها، قرن ذكرهما بذكره؛ فلما أمر بعبادته أمر بالاحسان إليهما في هذه الآية، وفي قوله تعالى:

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ [النساء: ٣٦].

ولما أمر بشكره أمر بشكرهما فقال تعالى: **﴿أن أشكر لي ولوالديك إليَّ المصير﴾** [لقمان: ١٤].

وفي هذا الجمع في القضاء والحكم بالاحسان والأمر بالشكر لهما مع الله تعالى أبلغ التأكيد وأعظم الترغيب.

ثم زاد هذا الحكم وهذا الأمر تقريراً بلفظ التوصية بهما في قوله تعالى: **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾** [العنكبوت: ٨]، ليحفظ حكم الله وأمره فيهما، ولا يضيع شيء من حقوقهما، فكان حقهما بهذه الوصاية، أمانة خاصة، ووديعة من الله عظيمة عند ولدهما، وكفى بهذا داعياً إلى العناية بهذه الأمانة وحفظها وصيانتها.

وكما جاء هذا الجمع في باب الأمر في القرآن كذلك جاء في الجمع بينهما في باب النهي وكبر المعصية، في السنة: ففي الصحيح عن أبي بكرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أخبركم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين»[1].

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٦، والاستئذان باب ٣٥، واستتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم باب ١. =

وتقدير نظم الآية هكذا:

«وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه، وبأن تحسنوا للوالدين إحسانا». فحذف أن تحسنوا لوجود ما يدل عليه وهو إحساناً. وفي تنكيره إفادة للتعظيم، فهو إحسان عظيم في القول والفعل والحال. وتقول أحسنت إليه، وأحسنت به، وأحسنت به أبلغ، لتضمن أحسنت معنى لطفت، ولما في الباء من معنى اللصوق، ولهذا عدِّي في الآية بالباء ليفيد الأمر باللطف في الإحسان والمبالغة في تمام اتصاله بهما، فلا يريان ولا يسمعان ولا يجدان من ولدهما إلا إحساناً، ولا يشعران في قلوبهما منه إلا الإحسان.

ومن الإحسان ما يكون ابتداء وفضلاً، ومنه ما يكون جزاء وشكراً فعليه أن يعلم أن كل إحسانه هو شكر لهما على سابق إحسانهما، الذي لا يمكنه أن يكافئه بمثله لثبوت فضيلة سبقه.

وفي تعليق الحكم - وهو الأمر بالاحسان، بلفظ الوالدين المشتق من الولادة، إيذان بعليتها في الحكم، فيستحقان الاحسان بالوالدية سواء أكانا مؤمنين أم كافرين، بارين أو فاجرين، محسنين إليه أو مسيئين.

وقد جاء هذا صريحاً في قوله تعالى:

﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ [لقمان: ١٥] فأمر بمصاحبتهما بالمعروف على كفرهما.

وفي الصحيح عن أسماء بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنها - قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاستفيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قلت: قدمت علي أمي وهي راغبة (أي في العطاء والإحسان) أفأصل أمي؟ قال: «نعم صلي أمك»[(١)].

وهذا الإحسان الواجب لهما، جانب الأم آكد فيه من جانب الأب، وحظها فيه أوفر من حظه. ويشير إلى هذا تخصيصها بذكر أتعابها في قوله تعالى:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين﴾ [لقمان: ١٤] وفي الآية الأخرى:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانًا، حملته أمه كرهاً ووضعته كرهًا، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ [الأحقاف: ١٥] فذكر ما تعانيه من ألم الحمل، ومشقة الوضع، ومقاساة الرضاع والتربية.

= ومسلم في الإيمان حديث ١٤٣. والترمذي في البرّ والصلة باب ٤. والنسائي في التحريم باب ٣. والدارمي في الديات باب ٩. وأحمد في المسند (٥/٣٦، ٣٨).

(١) أخرجه البخاري في الهبة باب ٢٩، والجزية باب ١٨، والأدب باب ٨. ومسلم في الزكاة باب ٥٠. والدارمي في الزكاة باب ٣٤. وأحمد في المسند (٦/٣٤٤، ٣٤٧، ٣٥٥).

وجاء التصريح بهذا في الحديث الصحيح:

فقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «من أحق الناس بحسن صحابتي[١]؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك». فذكر الأب في الثالث[٢]. وفي طريق آخر للحديث، ذكره في الرابعة[٣].

ولقد كان لها هذا بما ذكر من مزيد تعبها، وضعف جانبها، ورقّة عاطفتها، وشدة حاجتها. فكان هذا الترجيح لجانبها من عدل الحكيم العليم ومحاسن الشرع الكريم.

ومن الإحسان إليهما طاعتهما في الأمر والنهي، ومن عقوقهما مخالفتهما فيهما.

وإنما تحل له مخالفتهما إذا منعاه من واجب عيني، أو أمراه بمعصية، لما في الصحيح من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا طاعة لأحد في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»[٤]، وعند الحاكم وأحمد: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق!»[٥].

ومن الدليل على رجحان جانبهما على الواجب الكفائي:

ما ثبت في الصحيح من حديث الرجل الذي أتى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يستأذنه في الجهاد فقال: «أحي والداك؟» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد»[٦].

ومن الطريق الثاني، قال عبد الله بن عمر[٧] رضي الله عنه: «أقبل رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد ابتغاء الأجر من الله. قال: فهل من والديك أحد حي؟ قال: نعم، بل كلاهما. قال: فتبغي الأجر من الله؟ قال: نعم. قال: فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما».

---

(١) الصحابة هنا بمعنى الصحبة.

(٢) أخرجه بهذه الرواية ابن ماجة في الأدب باب ١، من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه بهذه الرواية البخاري في الأدب باب، ومسلم في البرّ حديث ١، كلاهما من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد في المسند (٥/٣) من حديث بهز بن حكيم، و(٥/٥) من حديث معاوية بن حيدة.

(٤) من حديث علي بن أبي طالب. أخرجه مسلم في الإمارة حديث ٣٩. وأبو داود في الجهاد باب ٨٧. والنسائي في البيعة باب ٣٤. وأحمد في المسند (١/١٢٩، ١٣١).

(٥) وجدته في مسند أحمد (٥/٦٦) من حديث الحكم بن عمرو الغفاري مرفوعاً بلفظ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله». وهو بهذا اللفظ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» في مصنف ابن أبي شيبة (١٢/٥٤٦) والدر المنثور للسيوطي (٢/١٧٧) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٣/١٤٥، ١٠/٢٢) وتاريخ أصفهان لأبي نعيم (١/١٣٣).

(٦) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص. أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٣٨، والأدب باب ٣. ومسلم في البر حديث ٥. وأبو داود في الجهاد باب ٣١. والنسائي في الجهاد باب ٥. وأحمد في المسند (٢/١٦٥، ١٧٢، ١٨٨، ١٩٣، ١٩٧، ٢٣١).

(٧) كذا في الأصل «ابن عمر» والصواب «ابن عمرو» فإن الحديث بهذا اللفظ رواه مسلم في البر والصلة والآداب (حديث رقم ٦) عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

هذا لأن القيام عليهما فرض عيني، والجهاد كان عليه فرض كفاية. ولو تعين عليه ولم يكونا عن كفاية قدم القيام عليهما وكفايتهما عليه.

ومن حقوقهما عليه: أن لا يخرج إلى ما فيه خوف ومخاطرة بالنفس إلا بإذنهما، بدليل ما جاء في سنن أبي داوود:

«أن رجلاً من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال: هل لك أحد باليمن؟ قال: أبواي. قال أذنا لك؟ قال: لا. قال: فارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما»[1]. أما إذا أراد تعاطي ما لا خطر فيه ولا فجيعة من شؤون الحياة ووجوه التصرفات، فليس عليه أن يستأذنهما، وليس لهما منعه، ولكن إذا منعاه من شيء امتنع لوجوب برهما، وطاعتهما ـ في غير المعصية ـ من برهما.

* * *

تفصيل الاحسان إليهما في القول والعمل وتأكيده في حالة الكبر:

﴿إما يبلغ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما، فلا تقل لهما أف، ولا تنهرهما، وقل لهما قولاً كريماً، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل: رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾.

الأمر بالإحسان إليهما عام في جميع الأحوال. وخصصت حالة بلوغ أحدهما أو كليهما الكبر بالذكر، لأنها حالة الضعف وشدة الحاجة، ومظنة الملل والضجر منها، وضيق الصدر من تصرفاتها. فهما في هذه الحالة قد عادا في نهايتهما إلى ما كان ولدهما عليه في بدايته. وليس عنده من فطرة المحبة مثل ما عندهما. فكان بأشد الحاجة إلى التذكير بما عليه من تمام العناية بهما، ومزيد الرعاية لهما، وشدة التوقي والتحفظ من كل ما يمس بسوء جانبهما في هاته الحال على الخصوص. وإن كان ذلك واجباً عليه في كل حال على العموم.

وطول بقائهما عنده في كنفه وثقل مؤونتهما عليه، وما يكون من ضرورات الكبر والمرض مما يستقذره في بيته، كل هذا قد يؤديه إلى الضجر والتبرم، فيقول ما يدل على ضجره وتبرمه.

فنهي عن التفوه بأقل كلمة تدل على ذلك وهي كلمة أف بقوله تعالى: **﴿ولا تقل لهما أف﴾**، فأحرى وأولى ما فوقها.

وهذا أمر بتحمل كل ذلك منهما، ونهي عن التضجر منهما.

ومن ضرورة مباينتهما لولدهما في السن وفي النشأة أنهما كثيراً ما يخالفانه في آرائه وأفكاره، وقد يتناولان ما لا يجب أن تصل يدهما إليه، وقد يسألانه للمعرفة أو للحاجة، وكل هذا قد يؤديه إلى نهرهما، أي زجرهما بصياح وإغلاظ، أو إظهار للغضب في الصوت واللفظ، فنهي عن هذا

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٣١ (حديث ٢٥٣٠) من طريق أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

بقوله تعالى: ﴿ولا تنهرهما﴾. وفي هذا أمر له بالتلطف معهما في الطلب والعرض، والدلالة على وجه الصواب في الأمر وأبواب الفعل والترك، وبحسن التلقي لكل ما يسألان ويطلبان. ونهي عن أي إغلاط في اللفظ والصوت وحالة الكلام.

ولما نهاه عن القول القبيح المؤذي... أمره بالقول اللين السهل الحسن في لفظه وفي معناه، وفي قصده وفي منشئه، السالم من كل عيب ومكروه بقوله تعالى: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾. وفي هذا أمر بأن يخاطبهما بجميل القول، ويؤنسهما بطيب الحديث. ونهي عن أن يؤذيهما في قول، أو يوحشهما بطول السكوت. فليس له أن يتركهما وشأنهما، بل عليه مجالستهما ومحادثتهما، وجلب الأنس إليهما، وإدخال السرور عليهما.

ثم إن القول إنما هو عنوان ما في الضمير، ولا يكون كريماً شريفاً إلا إذا كان عنواناً صادقاً، حسن مظهره ومخبره، وعذب جناه، وطاب مغرسه. وما ثماره إلا معانيه وما مغرسه إلا القلب الذي صدر عنه.

فيفيد هذا أن على الولد أن يكون معهما باللطف والعطف من صميم قلبه، كما يعرب لهما بلسانه، فيكون محسناً لهما حينئذ في ظاهره وباطنه، وذلك هو تمام البر الذي أمر به.

﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾:

مضى فيما تقدم أدب القول، وهذا أدب الفعل، وبيان الحال التي يكون عليها: فالوالدان عند ولدهما في كنفه كالفراخ الضعيفة المحتاجة للقوت والدفء والراحة، وولدهما يقوم لهما بالسعي، كما يسعى الطائر لفراخه، ويحيطهما بحنوه وعطفه كما يحيط الطائر فراخه، فشبه الولد في سعيه وحنوه وعطفه على والديه بالطائر في ذلك كله على فراخه، وحذف المشبه به، وأشير إليه بلازمه وهو خفض الجناح، لأن الطائر هو ذو الجناح، وإنما يخفض جناحه حنواً وعطفاً وحياطة لفراخه.. فيكون في الكلام استعارة بالكناية، وأضيف الجناح إلى الذل ـ وهو الهون واللين ـ إضافة موصوف إلى صفة: أي اخفض لهما جناحك الذليل، وهذا ليفيد هونه وانكساره عند حياطتها.. حتى يشعر بأنهما مخدومان باستحقاق، لا متفضل عليهما بالإحسان.

وفي ذكر هذه الصورة التي تشاهد من الطير تذكير بليغ مرقق للقلب موجب للرحمة، وتنبيه للولد على حالته التي كان عليها معهما في صغره، ليكون ذلك أبعث له على العمل وعدم رؤية عمله أمام ما قدما إليه.

و﴿من﴾ في قوله تعالى: ﴿من الرحمة﴾ للتعليل متعلقة بـ«اخفض»، فتفيد مع متعلقها الأمر بأن يكون ذلك الخفض ناشئاً عن الرحمة الثابتة في النفس، لا عن مجرد استعمال ظاهر، كما كانا يكنفانه ويعطفان عليه عن رحمة قلبية صادقة. فيكون هذا مفيداً ومؤكداً لما قدمناه، من لزوم أن يتطابق على الإحسان إليهما الظاهر والباطن، ليتم البرور.

﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾.

مهما اجتهد الولد في الإحسان إلى أبويه فإنه لا يجازي سابق إحسانهما بأن يتوجه[1] بسؤال الرحمة لهما من الله تعالى، وهي النعمة الشاملة لخير الدنيا والآخرة إظهاراً لشدة رحمته لهما، ورغبة في وصول الخير العظيم من المولى الكريم إليهما، واعترافاً بعجزه عن مجازاتهما.

يدعو لهما هكذا في حياتهما، وبعد مماتهما.

أما في حياتهما فيدعو لهما بالرحمة سواء كانا مسلمين أم كافرين، ورحمة الكافرين بهدايتهما إلى الإسلام.

وأما بعد الموت فلا يسأل الرحمة لهما إلّا إذا ماتا مسلمين؛ لقوله تعالى: **﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾** [التوبة: ١١٣].

والكاف في قوله تعالى: **﴿كما ربياني صغيراً﴾** للتعليل أي رب ارحمهما لتربيتهما لي، وجزاء على إحسانهما إلي في حالة الصغر: حالة الضعف والافتقار. وفي هذا اعتراف بالجميل، وإعلان لسابق إحسانهما العظيم، وتوسل إلى الله تعالى في قبول دعائه لهما بما قدما من عمل؛ لأنه وعد أنه يجزي العاملين، وقد كانت تربيتهما لولدهما من أجل مظاهر الرحمة. وهو قد أخبر تعالى على لسان رسوله: «أنه يرحم الراحمين»[2] ولا أرحم ـ بعده تعالى ـ من الوالدين.

خاتمة:

من بر الوالدين:

١ ـ أن نتحفظ من كل ما يجلب لهما سوءًا من غيرنا، فإن فاعل السبب فاعل للمسبب، ومن هذا أن لا نسب الناس حتى لا يسبوا والدينا، لأنا إذا سببنا الناس فسبوهما كنا قد سببناهما، وسبهما من أكبر الكبائر: ففي الصحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه! قيل يا رسول الله: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه»[3].

٢ ـ ومن برهما حفظهما بعد موتهما بالدعاء والاستغفار، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما وصلة رحمهما، فقد روى ابن ماجه وأبو داوود وابن حبان في صحيحه، عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي البدري رضي الله عنه، قال:

---

(١) تقدير الكلام: فيجب عليه أن يتوجه؛ أو: فعليه أن يتوجه.

(٢) روى أحمد في المسند (١/٤، ٥) من حديث طويل عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفيه: «يقول الله عز وجلّ: أنا أرحم الراحمين، أدخلوا جنتي من كان لا يشرك بي شيئاً».

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (حديث ١٤٥) والترمذي في البرّ باب ٤. وأحمد في المسند (٢/١٦٤، ١٩٥، ٢١٤، ٢١٦).

«بينا نحن جلوس عند رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذ جاء رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله هل بقي من بر أبويّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلّا بهما، وإكرام صديقهما»[١].

وفي إكرام صديقهما جاء في الصحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه عبد الله، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه. قال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله نهم الأعراب، وإنهم يرضون باليسير. فقال عبد الله: إن أبا هذا كان وداً لعمر بن الخطاب. واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«إن أبرَ البر صلة الولد أهل ود أبيه»[٢].

هذا، وإن من راض نفسه على هذه الأخلاق الكريمة والمعاملة الحسنة والأقوال الطيبة التي أمر بها مع والديه ـ يحصل له من الارتياض عليها كمال أخلاقي مع الناس أجمعين. وكان ذلك من ثمرات امتثال أمر الله وطاعة الوالدين.

والله يوفقنا ويهدينا سواء السبيل، إنه المولى الكريم رب العالمين.

صلاح النفوس وإصلاحها

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾
[الإسراء: ٢٥]

الشرح والمعنى:

صلاح الشيء: هو كونه على حالة اعتدال في ذاته وصفاته، بحيث تصدر عنه أو به أعماله المرادة منه على وجه الكمال.

وفساد الشيء هو كونه على حالة اختلال في ذاته أو صفاته، بحيث تصدر عنه أو به تلك الأعمال على وجه النقصان.

اعتبر هذا في البدن، فإن له حالتين: حالة صحة، وحالة مرض.

والأولى هي حالة صحته باعتدال مزاجه، فتقوم أعضاؤه بوظائفها وينهض هو بأعماله.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٢٠. والترمذي في البرّ باب ٥. وابن ماجه في الأدب باب ٢٠. وأحمد في المسند (٣/٤٩٨).

(٢) أخرجه مسلم في البرّ (حديث ١١ و١٢) وأبو داود في الأدب باب ١٢٠. والترمذي في البرّ باب ٥. وأحمد في المسند (٢/٨٨، ٩١، ٩٧، ١١١).

والثانية هي حالة فساده باختلال مزاجه، فتتعطل أعضاؤه أو تضعف كلها أو بعضها عن القيام بوظائفه، ويقعد هو أو يثقل عن أعماله.

هذا الذي تجده في البدن هو نفسه تجده في النفس: فلها صحة، ولها مرض، حالة صلاح وحالة فساد.

(والإصلاح) هو إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله، بإزاء ما طرأ عليه من فساد.

(والإفساد) هو إخراج الشيء عن حالة اعتداله بإحداث اختلال فيه.

فإصلاح البدن بمعالجته بالحمية والدواء، وإصلاح النفس بمعالجتها بالتوبة الصادقة.

وإفساد البدن بتناول ما يحدث به الضرر، وإفساد النفس بمفارقة المعاصي والذنوب. وهكذا تعتبر النفوس بالأبدان في باب الصلاح والفساد، في كثير من الأحوال، غير أن الاعتناء بالنفوس أهم وألزم، لأن خطرها أكبر وأعظم.

إن المكلف المخاطب من الإنسان هو نفسه، وما البدن إلاّ آلة لها ومظهر تصرفاتها، وإن صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها. وإنما رقيه وانحطاطه باعتبار رقي نفسه وانحطاطها، وما فلاحه إلاّ بزكائها، وما خيبته إلاّ بخبثها. قال تعالى: ﴿**قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها**﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وفي الصحيح: «ألا وإن في الجسد مضغة[1] إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[2].

وليس المقصود من القلب مادته وصورته، وإنما المقصود النفس الإنسانية المرتبطة به.

وللنفس ارتباط بالبدن كله، ولكن القلب عضو رئيسي في البدن، ومبعث دورته الدموية، وعلى قيامه بوظيفته تتوقف صلوحية البدن، لارتباط النفس به. فكان حقيقاً لأن يعبر به عن النفس على طريق المجاز.

وصلاح القلب ـ بمعنى النفس ـ بالعقائد الحقة، والأخلاق الفاضلة، وإنما يكونان بصحة العلم، وصحة الإرادة، فإذا صلحت النفس هذا الصلاح صلح البدن كله، بجريان الأعضاء كلها في الأعمال المستقيمة. وإذا فسدت النفس من ناحية العقد، أو ناحية الخلق، أو ناحية العلم، أو ناحية الإرادة... فسد البدن، وجرت أعمال الجوارح على غير وجه السداد.

(١) المضغة: القطعة من اللحم، سميت لذلك لأنها تمضغ في الفم لصغرها.

(٢) أخرجه من حديث النعمان بن بشير: البخاري في الإيمان باب ٣٩. ومسلم في المساقاة (حديث ١٠٧) وابن ماجة في الفتن باب ١٤. والدارمي في البيوع باب ١. وتمام الحديث كما في البخاري: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من الناس؛ فمن اتقى المشبّهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه. ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

فصلاح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس: إما مباشرة وإما بواسطة.

فما من شيء مما شرعه الله تعالى لعباده من الحق والخير والعدل والإحسان إلّا وهو راجع عليها بالصلاح.

وما من شيء نهى الله تعالى عنه من الباطل والشر والظلم والسوء إلّا وهو عائد عليها بالفساد.

فتكميل النفس الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب، وإرسال الرسل، وشرع الشرائع.

وهذه الآيات الثمان عشرة قد جمعت من أصول الهداية ما تبلغ به النفوس ـ إذا تمسكت به ـ غاية الكمال.

قد أمر تعالى في الآيات المتقدمة بعبادته والإخلاص له.

وأمر ببر الوالدين، والإحسان إليهما في الظاهر والباطن.

كما أمر بغير ذلك في الآيات اللاحقة. ووضع هذه الآية أثناء ذلك، وهي متعلقة بالنفس وصلاحها.. لينبه الخلق على أصل الصلاح الذي منه يكون، ومنشؤه الذي منه يبتدىء. فإذا صلحت النفس قامت بالتكاليف التي تضمنتها هذه الآيات الجامعة لأصول الهداية، وهذا هو وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها وما بعدها، الذي يكون قبل التدبر خفياً.

ونظير هذه الآية في موقعها ودلالتها على ما به يسهل القيام بأعباء التكاليف ـ قوله تعالى:

﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتين﴾ [البقرة ٢٣٨].

فقد جاءت أثناء آيات أحكام الزوجية آمرة بالمحافظة على الصلوات، تنبيهاً للعباد على أن المحافظة عليها على وجهها، تسهل القيام بأعباء تكاليف تلك الآيات، لأنها تزكي النفس بما فيها من ذكر وخشوع وحضور وانقطاع إلى الله تعالى، وتوجه إليه، ومناجاة له.

وهذا كله تعرج به النفس في درجات الكمال.

والنفوس الزكية الكاملة تجد في طاعة خالقها لذة وأنساً تهون معهما أعباء التكليف.

ثم إن العباد بنقص الخلقة وغلبة الطبع.. معرضون للتقصير في ظاهرهم وباطنهم في صور أعمالهم ودخائل أنفسهم ـ وخصوصاً في باب الإخلاص ـ فذكروا بعلم ربهم بما في نفوسهم في قوله تعالى: **﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم﴾** ليبالغوا في المراقبة فيتقنوا أعمالهم في صورها ويخلصوا بها له. وهذه المراقبة هي الإحسان الذي هو عبادتك الله كأنك تراه[١].

---

(١) كما جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة قال: «كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه رجل فقال: ما =

وذكر اسم الرب لأنه المناسب لإثبات صفة العلم، فهو الرب الذي خلق النفوس، وصورها ودبرها. ولا يكون ذلك إلاّ بعلمه بها في جميع تفاصيلها وكيف يخفى عليه شيء وهو خلقها؟

﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [الملك: ١٤]. ؟!.

والصالحون في قوله تعالى: ﴿إن تكونوا صالحين﴾، هم الذين صلحت أنفسهم فصلحت أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم[1].

وصلاح النفس وهو صفة لها. . خفي كخفائها؛ وكما أننا نستدل على وجود النفس وارتباطها بالبدن بظهور أعمالها في البدن، كذلك نستدل على اتصافها بالصلاح وضده بما نشاهده من أعمالها:

فمن شاهدنا منه الأعمال الصالحة ـ وهي الجارية على سنن الشرع، وآثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ حكمنا بصلاح نفسه، وأنه من الصالحين.

ومن شاهدنا منه خلاف ذلك حكمنا بفساد نفسه، وأنه ليس منهم.

ولا طريق لنا في معرفة صلاح النفوس وفسادها إلاّ هذا الطريق. وقد دلنا الله تعالى عليه في قوله تعالى:

﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله، واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات، وأولئك من الصالحين﴾ [آل عمران: ١١٣ و١١٤].

فذكر الأعمال، ثم حكم لأهلها بأنهم من الصالحين. فأفادنا: أن الأعمال هي دلائل الصلاح، وأن الصلاح لا يكون إلاّ بها، ولا يستحقه إلاّ أهلها.

= الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث. قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأَمَةُ ربّها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان، في خمس لا يعلمهم إلا الله. ثم تلا النبي ﷺ: إن الله عنده علم الساعة. ثم أدبر، فقال: ردّوه! فلم يروا شيئاً. فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم». أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٧، وهذا لفظه. ومسلم في الإيمان (حديث ١ و٥ و٦ و٧) وأبو داود في السنّة باب ١٦. والترمذي في الإيمان باب ٤. والنسائي في الإيمان باب ٥ و٦. وابن ماجة في المقدمة باب ٩. وأحمد في المسند (٢/١٠٧، ١٣٢).

(١) ربط الطبري الصلاح في هذه الآية بما تقدم قبلها من أمره بالإحسان إلى الوالدين، فقال في تفسيره (٨/٦٥): «وقوله: إن تكونوا صالحين؛ يقول: إن أنتم أصلحتم نياتكم فيهم وأطعتم الله فيما أمركم به من البرّ بهم والقيام بحقوقهم عليكم بعد هفوة كانت منكم أو زلة في واجب لهم عليكم مع القيام بما ألزمكم في غير ذلك من فرائضه، فإنه كان للأوابين بعد الزلة والتائبين بعد الهفوة غفوراً لهم».

ثم إن العباد يتفاوتون في درجات الصلاح على حسب تفاوتهم في الأعمال. ويكون لنا أن نقضي بتفاوتهم في الظاهر بحسب ما نشاهد. ولكن ليس لنا أن نقضي بين أهل الأعمال الصالحة في تفاوتهم عند الله في الباطن؛ فندعي أن هذا أعلى درجة في صلاحه عند الله تعالى من هذا، لأن الأعمال قسمان: أعمال الجوارح، وأعمال القلوب، وهذه أصل لأعمال الجوارح.

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «التقوى ههنا»، ويشير إلى صدره ثلاث مرات[1]. فمنازل الصالحين عند ربهم لا يعلمها إلّا الله.

(والأوابون) في قوله تعالى: ﴿**فإنه كان للأوابين غفوراً**﴾. هم الكثيرو الرجوع إلى الله تعالى.

والأوبة في كلام العرب هي الرجوع، قال عبيد:

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

والتوبة، هي الرجوع عن الذنب ولا يكون إلّا بالإقلاع عنه، واعتبر فيها الشرع الندم على ما فات، والعزم على عدم العود، وتدارك ما يمكن تداركه. فيظهر أن الأوبة أعم من التوبة: فتشمل من رجع إلى ربه تائباً من ذنبه، ومن رجع إليه يسأله ويتضرع إليه أن يرزقه التوبة من الذنوب.

فنستفيد من الآية الكريمة: سعة باب الرجوع إلى الله تعالى. فإن تاب العبد، فذاك هو الواجب عليه، والمخلّص له ـ بفضل الله ـ من ذنبه. وإن لم يتب فليدم الرجوع إلى الله تعالى بالسؤال والتضرع، والتعرض لمظان الإجابة وخصوصاً في سجود الصلاة، فقمين[2] ـ إن شاء الله تعالى ـ أن يستجاب له.

وشر العصاة هو الذي ينهمك في المعصية، مصراً عليها، غير مشمر منها، ولا سائل من ربه ـ بصدق وعزم ـ التوبة منها، ويبقى معرضاً عنه ربه كما أعرض هو عنه، ويصر على الذنب حتى يموت قلبه. ونعوذ بالله من موت القلب فهو الداء العضال الذي لا دواء له.

وجاء لفظ «الأوابين» جمعاً لأواب، وهو فعّال من أمثلة المبالغة، فدل على كثرة رجوعهم إلى الله. وأفاد هذا طريقة إصلاح النفوس بدوام علاجها بالرجوع إلى الله: ذلك أن النفوس ـ بما

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (حديث رقم ٣٢) والترمذي في البر والصلة (باب ١٨) وأحمد في المسند (٢/٢٧٧، ٣٦٠) من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد في المسند (٣/١٣٥) من حديث أنس بن مالك. وتمام الحديث كما رواه مسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره. التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرىء من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه».

(٢) قمين: جدير.

ركب فيها من شهوة، وبما فُطرت عليه من غفلة، وبما عرضت له من شؤون الحياة، وبما سلط عليها من قرناء السوء من شياطين الإنس والجن، لا تزال ـ إلّا من عصم الله ـ في مقارفة ذنب، ومواقعة معصية صغيرة أو كبيرة، من حيث تدري ومن حيث لا تدري. وكل ذلك فساد يطرأ عليها، فيجب إصلاحها بإزالة نقصه، وإبعاد ضرره عنها. وهذا الإصلاح لا يكون إلّا بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى.

ولما كان طروء الفساد متكرراً فالإصلاح بما ذكر يكون دائماً متكرراً.

والمداومة على المبادرة إلى إصلاح النفس من فسادها، والقيام في ذلك، والجد فيه، والتصميم عليه، هو من جهاد النفس الذي هو أعظم الجهاد.

ومن معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿إن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وهم الذين كلما أذنبوا تابوا، والتوبة طهارة للنفس من دَرَنِ المعاصي.

(والغفور) في قوله تعالى: ﴿فإنه كان للأوابين غفوراً﴾. هو الكثير المغفرة، لأنه على وزن فعول، وهو من أمثلة المبالغة الدالة على الكثرة. والمغفرة سترة للذنب وعدم مؤاخذته به.

ولما ذكر من وصف الصالحين كثرة رجوعهم إليه، ذكر من أسمائه الحسنى ما يدل على كثرة مغفرته ليقع التناسب في الكثرة من الجانبين، ومغفرته أكبر. وليعلم أن كثرة الرجوع إليه يقابله كثرة المغفرة منه، فلا يفتأ العبد راجعاً راجياً للمغفرة، ولا تقعده كثرة ما يذنب عن تجديد الرجوع، ولا يضعف رجاءه في نيل مغفرة الغفور كثرة الرجوع.

وقد أكد الكلام بـ «إن» لتقوية الرجاء في المغفرة. وجيءَ بلفظة كان، لتفيد أن ذلك هو شأنه مع خلقه من سابق، وهذا مما يقوي الرجاء فيه في اللاحق؛ فقد كان عباده يذنبون ويتوبون إليه، ويغفر لهم، ولا يزالون كذلك، ولا يزال تبارك وتعالى لهم غفوراً.

وإنما احتيج إلى هذا التأكيد في تقوية رجاء المذنب في المغفرة، ليبادر الرجوع على كل حال، لأن العبد مأخوذ بأمرين يضعفان رجاءه في المغفرة:

أحدهما كثرة ذنوبه التي يشاهدها فتحجبها كثرتها عن رؤية مغفرة الله تعالى، التي هي أكبر وأكثر.

والآخر رؤيته لطبعه البشري؛ وطبع بني آدم من المنع عند كثرة السؤال، كما قال شاعرهم ـ أي البشر ـ لأن الشاعر العربي عبر عن طبع بشري:

سألنا فأعطيتم، وعدنا فعدتم ومن أكثر التسآل يوماً سيحرمِ [1]

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو البيت الأخير من معلقته، ومطلعها:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلّم بحومانة الدرّاج فالمتثلّمِ

انظر ديوانه (ص ١١٢ ـ طبعة دار الكتب العلمية).

فيقوده القياس ـ وهو من طباع البشر أيضاً ـ الفاسد: إلى ترك الرجوع والسؤال، من الرب الكريم العظيم النوال.

فهذان الأمران يقعدانه عن الرجوع والتوبة، فيستمر في حمأة[1] المعصية، وذلك هو الهلاك المبين. فكان حاله مقتضياً لأن يؤكد حصول المغفرة عند رجوعه بتلك المؤكدات.

وقد كان مقتضى الظاهر في تركيب الآية أن يقال: إن تكونوا صالحين فإنه كان لكم غفوراً؛ لأن المقام للإضمار. لكنه عدل عن الضمير إلى الظاهر فقيل: ﴿**فإنه كان للأوّابين غفوراً**﴾ لينص على شرط المغفرة وهو الأوبة والرجوع.

وعلم من ذلك أن الصالح عندما تقع منه الذنوب مطالب ـ كغيره ـ بالأوبة، لتحصيل المغفرة، لأن فرض الأوبة إلى الله من المعاصي عام على الجميع.

وقد اشتملت الآية من فعل الشرط، وهو ﴿**إن تكونوا صالحين**﴾، وجواب الشرط، وهو ﴿**فإنه كان للأوّابين غفوراً**﴾ ـ على الحالتين اللازمتين للإنسان لتكميل نفسه، وهما الصلاح المستفاد من الأول، والإصلاح بالأوبة المستفاد من الثاني.

وما دام الإنسان مجاهداً في تزكية نفسه بهذين الأصلين فإنه بالغ أملاً ورجاءً ـ بإذن الله ـ درجة الكمال.

ثبتنا الله والمسلمين عليهما، وحشرنا في زمرة الكاملين المكملين إنه المولى الغفور الكريم.

إيتاء الحقوق لأربابها

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

[الإسراء: ٢٦ ـ ٣٠]

تمهيد:

الناس كلهم في حاجة مشتركة إلى بعضهم. وما من أحد إلّا وله حقوق على غيره، ولغيره حقوق عليه.

---

(١) الحمأة والحمأ: الطين الأسود المنتن. انظر المعجم الوسيط (ص ١٩٥).

ولهذه الحاجة المشتركة والحقوق الممتزجة كان الاجتماع والتعاون ضروريين لحياة المجتمع البشري، واطّراد نظامه.

وقيام كل واحد من أفراد المجتمع بما عليه من حقوق نحو غيره هو الذي يسد تلك الحاجة المشتركة بين الناس. وعندما يؤدي كل واحد حق غيره فليست خدمته له وحده، بل هي خدمة للمجتمع كله. وبالأحرى، هي خدمة له هو في نفسه، لأنه جزء من المجتمع. وما يصيب الكل يعود على جزئه.

فإذا تواردت أفراد المجتمع على هذه التأدية سعدت وسعد مجتمعها بنيله حاجيات الحياة ولوازم البقاء والتقدم في العمران.

أما إذا توانى الأفراد في القيام بالحقوق، وقصَّروا في تأديتها إلى بعضهم، فإن الحاجة المشتركة من العلم، والثقافة، وحفظ الصحة، والأخلاق، وأنواع الصناعة تتعطل، وبتعطلها يختلُّ نظام الاجتماع، ويعود إلى الانحلال والتقهقر، وينحطُّ بأفراده إلى أسفل الدركات.

فلهذا بعدما أمر الله تعالى بإيتاء حقه ـ وهو توحيده في عبادته ـ أمر بإيتاء حقوق العباد القريب منهم والبعيد.

* * *

حق القريب:

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾

ابتدأ بحق القربي لوجوه:

الأول: أنه هو مقتضى طبيعة الترتيب.

الثاني: تأكيد حق القريب.

الثالث: أن من حكمة التربية أن يبدأ من الأوامر بما تعين فطرة النفوس الإنسانية على قبوله ببداهة الفكرة، أو بشعور العاطفة. وكلتا هاتين يحبب للنفس إيتاء حق القريب بابتدائه في الأمر، ليكون تقبلها له أسهل، ومبادرتها للامتثال أسرع.

فإذا سخت النفوس بإيتاء حق القريب، ومرنت عليه، اعتادت الإيتاء وصار من ملكاتها فسهل عليها إيتاء كل حق، ولو كان لأبعد الناس.

وشيء آخر، وهو أن الأقارب قد تكون بينهم المنافسات والمنازعات لقرب المنازل، أو تصادم المنافع، أو التشاحّ على المواريث ما لا يكون بين الأباعد، فيقطعوا حق القرابة ويهدموا بناء الأسرة، ويعود ذلك عليهم أولاً بالوبال، ويرجع ثانياً على مجتمعهم ـ والمجتمع مؤلف من الأسر ـ بالتضعضع، فكان هذا من جملة ما يقتضي الابتداء بحقهم إلى المقتضيات المتقدمة الأخرى.

وقوله تعالى: **﴿ذا القربى﴾**، عام يشمل الأصل ـ وهو الأبوان ـ وما يتصل بالمرء من ناحيتهما

من أصولهما وفصولهما، ويشمل الفصل ـ وهو الأبناء والبنات ـ وما يتصل به منهما من فصول[١].

غير أن الوالدين لمزيد العناية بهما خصصا بالذكر في الآيات المتقدمة، وإن كانا داخلين في هذا العموم.

(والحق) في قوله تعالى: ﴿حقه﴾ هو الثابت له شرعاً، المبين في آيات من الكتاب من صلة رحم، ونصيب إرث، ونفقه فرض، ونـدب، وإحسان بـالقول والعمـل، ومؤاساة عن محبـة وعطف.

* * *

حق المسكين:

﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين﴾:

قد ذكر في آية الزكاة الفقير والمسكين. والحق أنهما متغايران؛ والراجح أن الفقير من له بلغة لا تكفيه والمسكين من لا شيء له، فهو أشد حالاً من الفقير؛ ولذا لما أريد هنا ذكر أحدهما اقتصر عليه تنبيهاً بالأعلى في الفقر على الأدنى، فالمراد أهل الفقر والحاجة كلهم.

وحق المساكين مـا ثبت لهم من الزكـاة، وكذلـك ما تـدعو إليـه الحاجـة من تعليمهم، وإيوائهم، وتجهيز موتاهم، مما تقوم به الجمعيات الخيرية في هذا العصر.. فكل هذا مما تصرف إليه الزكاة، ويجب القيام به عند عدم الزكاة أو فنائها، أو قصورها عنه.

ويجب القيام به واجباً موزعاً على كل ما استطاع. فإذا لم يقم به المجتمع عاد الإثم على جميع الأفراد كل بقدر ما قصر فيما استطاع.. ثم ما إلى هذا من عموم الصدقة والإحسان.

* * *

حق ابن السبيل:

﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل﴾:

(السبيل) هي الطريق، وابنها هو المسافر؛ لأنه منها أتى كما أتى الابن من أمه.

(وحقه) هو الثابت له في الزكاة، فيأخذ منها إذا قطع به ولم يكن معه ما يبلغه ولو كان غنياً في بلده، وعلى جماعة المسلمين تبليغه إذا لم تكن ثم زكاة. ومن حقه ضيافتها حسب السُّنَّة[٢] وإرشاده ودلالته على ما يريد معرفته من طريقه أو مرافقها.

---

(١) قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وآت ذا القربى حقه﴾: «اختلف أهل التأويل في المعني بقوله: «وآت ذا القربى؛ فقال بعضهم: عني به قرابة الميت من قبل أبيه وأمه، أمرالله جل ثنـاؤه عباده بصلتهـا... وقال آخرون بل عني به قرابة رسول الله ﷺ». انظر تفسير الطبري (٨/٦٦، ٦٧).

(٢) ورد في السنّة الشريفة أكثر من حديث يوجب حقّ الضيف. منها ما رواه أحمد في المسند (٤/١٣١) عن أبي =

وبذكر ابن السبيل والمسكين مع ذي القربى. . جمعت الآية القريب والبعيد من ذوي الحقوق.

وبذكر ابن السبيل والمسكين جمعت ذا الحاجة الثابتة وهو المسكين، والحاجة العارضة وهو ابن السبيل، وقدم الأول لأصالة حاجته، وفي ذكرهما أيضاً جمع ما بين القريب الدار، والبعيد الدار والمسافر.

كل هذا ليعلم أن ذا الحق يعطي حقه على كل حال، وبقطع النظر عن أي اعتبار.

وسمي هؤلاء الثلاثة بأسمائهم المذكورة؛ لأنها ترقق عليهم القلوب، من القربة، والمسكنة، وغربة الطريق.

وسمي ما ينالونه (حقاً). . ليشعر المكلف بتأكده، ويحذر المعطي من المنّ به، فلا ينكسر قلب آخذه!!

* * *

الإنفاق في غير وجهٍ شرعي:

﴿ولا تبذّر تبذيراً﴾:

المال قوام الأعمال، وأداة الإحسان، وبه يمكن القيام بالحقوق: فصاحبه هو مالكه، ولكن الحقوق فيه تشاركه، ولا يقوم له بوجوه الحق إلّا إذا أمسكه عن وجوه الباطل. ثم لا يقوم له بجميع تلك الوجوه إلّا إذا أحسن التدبير في التفريق، وابتغى الحكمة في التوزيع.

فلذا بعدما أمر الله تعالى بإعطائه الحقوق لأربابها. . نهى عن تبذير المال الذي هو أصلها، وبه يمكن إعطاؤها.

(والتبذير) هو التفريق للمال في غير وجه شرعي، أو في وجه شرعي دون تقدير[1]، فيضر بوجه آخر:

فالانفاق في المنهيات تبذير وإن كان قليلاً.

= كريمة رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة الضيف واجبة على كل مسلم، فإن أصبح بفنائه محروماً كان ديناً له عليه، إن شاء اقتضاه وإن شاء تركه». وروى البخاري في الأدب باب ٣١، ومسلم في اللقطة (حديث ١٤) وأبو داود في الأطعمة باب ٥، والترمذي في البر باب ٤٣، وابن ماجة في الأدب باب ٥، وغيرهم عن أبي شريح العدوي عن رسول الله ﷺ قال: واللفظ للبخاري ـ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته». قيل: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه».

(١) أصل التبذير: التفريق في السرف؛ ومنه قول الشاعر:

أناسٌ أجارُونا فكان جوارُهُمْ أعاصيرَ من فِسْق العراق المبذّرِ

انظر تفسير الطبري (٨/٦٨).

والانفاق في المطلوبات ليس بتبذير ولو كان كثيراً إلّا إذا أنفق في مطلوب دون تقدير فأضر بمطلوب آخر: كمن أعطى قريباً، وأضاع قريباً آخر، أو أنفق في وجوه البر وترك أهله يتضورون بالجوع. وقد نبه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على هذا بقوله: «وابدأ بمن تعول» [1].

والإنفاق في المباحات إذا لم يضيع مطلوباً، ولم يؤد إلى ضياع رأس المال، بحيث كان ينفق في المباح من فائدته ليس بتبذير. فإذا توسع في المباحات وقعد عن المطلوبات، أو أداه إلى إفناء ماله فهو تبذير مذموم.

وأفادت النكرة وهي قوله: ﴿تبذيراً﴾ بوقوعه بعد النهي العموم. فهو نهي عن كل نوع من أنواع التبذير: القليل منه والكثير، حتى لا يستخف بالقليل؛ لأن من تساهل في القليل وصلت به العادة إلى الكثير.

* * *

إخوان الشياطين:

﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، وكان الشيطان لربه كفوراً﴾.

إن الشيطان يعمل، وأعماله كلها في الضلال والإضلال، فقد ضيع أعماله في الباطل، وقد كان يمكنه أن يجعلها في الخير. وهو جاد في ذلك ضَارٍ [2] عليه لرسوخه في نفسه. والمبذر يضيع أمواله في الباطل، وقد كان يمكنه أن يجعلها في الخير. وقد أخذت عادة التبذير بخناقه واستولت عليه؛ فهو أخو الشيطان لمشاركته له في وصفه، كمشاركة الأخ لأخيه. وهو أخوه بامتثاله لأمره، وصحبته له في الحال وفي المآل [3]، وفي سوء العاقبة في العاجل والآجل.

المال، كما هو أداة لكل خير، كذلك هو أداة لكل شر: فالمبذر المفرق لماله في وجوه الباطل بالغ ـ لا محالة ـ بماله إلى شر كثير وفساد كبير؛ ولذلك وصف بأنه أخ الشيطان الذي هو أصل الشر والفساد.

ووصف الله تعالى الشيطان بقوله: **﴿وكان الشيطان لربه كفوراً﴾**؛ لأنه أنعم عليه بنعمة، فبدلاً من أن يستعملها في طاعته في الخير قصرها على المعصية والشر.

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم في كتاب الزكاة (حديث ٩٥) عن حكيم بن حزام بلفظ: «أفضل الصدقة ـ أو خير الصدقة ـ عن ظهر غنى؛ واليد العليا خير من اليد السفلى. وابدأ بمن تعول». ورواه أيضاً (حديث رقم ١٩٧) عن أبي أمامة بلفظ: «يا ابن آدم إنك أن تبذل الفضل خير لك وأن تمسكه شرّ لك، ولا تُلام على كفاف؛ وابدأ بمن تعول؛ واليد العليا خير من اليد السفلى». ورواه أيضاً (حديث رقم ١٠٦) عن أبي هريرة بلفظ: «لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدّق به ويستغني به من الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك، فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى. وابدأ بمن تعول».

(٢) من الضراوة، وهي العادة؛ يقال: ضَرِيَ الشيءُ بالشيءِ إذا اعتاده فلا يكاد يصبر عنه. انظر لسان العرب (مادة ضري ـ ١٤/٤٨٢).

(٣) تقول العرب لكل ملازم سنّة قوم وتابع أثرهم: هو أخوهم. انظر تفسير الطبري (٨/٦٩).

وذكر هذا في وصف الشيطان بعد ما تقدم يفيد أنه من وصف المبذر أيضاً: فالمبذر أخو الشيطان، والشيطان كان لربه كفورًا؛ فالمبذر كان لربه كفوراً. ذلك لأن الله تعالى أنعم عليه بالمال الذي هو أداة لكل خير، وعون عظيم على الطاعة، فجعله أداة في الشر، واستعان به على المعصية.

ومكنه الله بالمال من نعمة القدرة على القيام بالحقوق فضيعها وقام بالشرور والمفاسد؛ وهذا من أقبح الكفر لنعمة ربه الذي كان به مضارعاً للشيطان معرضاً عن أخيه، والعياذ بالله.

* * *

حسن المقال، عند العجز عن النوال:

﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها، فقل لهم قولاً ميسوراً﴾.

للمرء حالتان:

حالة وجد، وحالة عوز.

فلما علمنا الله تعالى ما نصنع في حالة الوجد من الإيتاء لذوي القربى واليتامى والمساكين ـ علمنا ما نصنع في حالة العوز من الرد الجميل، والقول اللين الحسن.

وقوله تعالى: **﴿تعرضن﴾** من الإعراض وهو الانصراف عن الشي، وهو كناية عن عدم العطاء؛ لأن من يأبى أن يعطي يعرض بوجهه، ولو إعراضاً قليلاً. ولما كان الإعراض كناية عن عدم العطاء، فإنه يشمل عدم العطاء لمن هو أهل لأن يعطي مع عدم وجود السؤال.

وقول تعالى: **﴿ابتغاء رحمة من ربك ترجوها﴾**: (الابتغاء) هو الطلب باجتهاد، وذلك بالأخذ في الأسباب، والاعتماد على مسببها وهو الله تعالى...

و (رحمة الرب) هنا رزقه، و (رجاؤها) هو انتظارها مع الأخذ في أسبابها بالقلب والعمل.

وابتغاء رحمة الرب ورجاؤها كناية عن حالة العوز والإعسار؛ لأن شأن المعوز المؤمن أن يكون كذلك.

وقوله تعالى: **﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾**، تقول: يسرت له القول: إذا لينته له، فالقول الميسور هو القول الملين.

وحاصل المعنى:

إن أعرضت عنهم فلا تعطهم لأنك لم تجد ما تعطيهم ـ وهي الحالة التي تكون فيها تطلب رحمة من ربك راجياً رزقه ـ فقل لهم قولاً ليناً سهلاً، فتواسيهم بالقول عند عدم السؤال، ولا تتركهم في ساحة الإهمال، وتردهم الرد الجميل عند السؤال، فتقول لهم: يرزق الله، ونحوه من لين الكلام.

وفي الآية تعليم وتربية للمعسر من ناحيتين:

الأولى: معاملته لذوي القربى واليتامى والمساكين عند السؤال وعدمه. وعرف من الآية أنه مطالب بحسن المقال بدلاً مما عجز عنه من النوال.

والثانية: أدبه هو في نفسه والحالة التي ينبغي له أن يكون عليها: فإن حالة العسر حالة شدة وبلاء يحتاج المكلف أشد الحاجة أن يعرف دواءه فيها لسيرته العملية، وحالته النفسية، فأعطته هذه الآية الكريمة الدواء لها.

فأما في سيرته العملية فعليه أن يكون ساعياً في الأسباب حسب جهده، وذلك هو ما يفيده قوله: ﴿**ابتغاء رحمة من ربك**﴾.

وأن يكون مطمئن القلب بالله، معتمداً عليه، قوي الثقة فيه؛ وذلك ما يفيده قوله: ﴿**ترجوها**﴾.

وقد ذكر رحمة الرب ـ جل جلاله ـ لوجوه:

الأول: تقوية رجائه، فإنه يعلم سعة رحمة الله وغمره بها في كل حين. ومن ذا الذي لم يجد نفحات الرحمات في أكثر الأوقات في أحرج الساعات؟

الثاني: بعثه على الصبر والتسليم وعدم الضجر والسأم من الطلب والانتظار؛ فإنها رحمة الرب، ومن مقتضى ربوبيته تدبيره للخلق بحكمته.

فما جاء منه، كيف جاء وفي أي وقت جاء: أبطأ أم تأخر هو مقبول منه محمود منا عليه.

الثالث: بعث عاطفة الرحمة على غيره، فإن من كان يرجو رحمة ربه جدير بأن يكون رحيماً بعباده. ورحمته بعباد الله تعينه على القيام بما أمر به من حسن المقال عند العسر، وجميل النوال عند اليسر؛ وتكون سبباً له في رحمة الله إياه. والراحمون يرحمهم الرحمن، وانما يرحم الله من عباده الرحماء.

العدل في الانفاق:

﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً**﴾.

لما أمرنا الله تعالى بالانفاق، علمنا كيف ننفق، وبيّن لنا أدب الإنفاق في هذه الكلمات.

إذ شبهت حالة وهيئة البخيل الذي لا يكاد يرشح بشيء، ولا يقدر لبخله على إخراج شيء من ماله. . بحاله وهيئة الذي جعل يده مغلولة مجموعة بغلّ إلى عنقه: فذاك لا تتوجه نفسه للبذل، ولا تمتد يده للعطاء، وهذا لا تمتد يده للتصرف. ونقل الكلام المركب الدال على المشبه به، فاستعمل في المشبه على طريق الاستعارة التمثيلية لتقبيح حالة البخيل.

والمعنى:

لا تبخل بالنفقة في حقوق الله، ولا تمسك إمساك المغلولة يده الذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء.

وشبهت حالة المسرف الذي لا يبقي على شي، بحالة الشخص الباسط لكفيه فلا يمسكان عليه من شيء: فذاك يملك المال، ولكنه بسرفه لا يبقى له منه شيء، وهذا قد يمر الشيء على يده، ولكنه لا يبقى فيها شيء. ونقل المركب الدال على المشبه به إلى المشبه، استعارة تمثيلية أيضاً.

المعنى:

ولا تخرج جميع ما تملك مع حاجتك إليه، ولا تنفق جميع مالك. وبهذا يعلم أن «كل البسط» المنهي عنه هنا غير التبذير المنهي عنه في الآية المتقدمة: ذاك توزيع المال وتبديده في غير وجوهه، وهذا التجاوز في الإنفاق المطلوب والتوسع في الإنفاق المأذون حتى يبقى بلا شيء.

نهى تعالىٰ بهذه الآية عن طرفي الإفراط والتفريط، وهما الإسراف.

فالمأمور به: هو العدل الوسط، فعلى ذي المال أن يأخذ في إنفاقه بهذا الميزان، ليكون إنفاقه محموداً: فلا يمسك عما يستطيع، ولا يتجاوزه إلى ما لا يستطيع، أو إلى ما يوقعه في عسر وضرر.

وكان النهي عن البسط لأنه هو الذي فيه إسراف.

وأما أصل البسط الذي هو توسعه بحكمة، فغير منهي عنه لأنه لا ضرر فيه.

وحذر تعالى من سوء عاقبة الإسراف والتقتير بقوله: ﴿فتقعد ملوماً محسوراً﴾. فالبخيل الممسك ملوم من الله تعالى.

ومن العباد إذاً من لم تلمه نفسه الخبيثة لموت قلبه. على أنه سيلوم هو نفسه بعد الموت. والمسرف ملوم من الجميع، ومن نفسه بعد ضياع ما في يده.

(والمحسور)، المتعب المضنى، الذي انكشفت عنه القوة، ولم تبق به قدرة على شيء، تقول العرب: حسرت البعير أي أنضيته وأتعبته بالسير، حتى لم تبق به قدرة عليه[1].

والجمل لا يقطع الطريق ويصل إلى الغاية إلّا إذا حافظ صاحبه على ما فيه من قوة؛ فسار به سيراً وسطاً. أما إذا أجهده واستنزف قوته، فإنه يسقط كليلاً محسوراً: فلا قطع طرقه، ولا وصل منزله، ولا أبقى جمله.

فكذلك الانسان في طريق هذه الحياة محتاج إلى قوة المال، فإذا أنفقه بحكمة نفع به وانتفع، وبلغ غاية حياته هادئاً راضياً، وإذا بسط يده فيه كل البسط أتى عليه فانقطع النفع والانتفاع، ولم يبلغ غاية حياته إلّا بأتعاب ومشاقّ.

وعلم من هذا أن قوله ﴿ملوماً﴾ يرجع للمقتر والمسرف. وقوله: ﴿محسوراً﴾ يرجع للمسرف فقط. ولكن لما كان المحسور هو الذي ذهبت قوته فلا قدرة له على شيء، فقد نقول: إن

---

(١) قال في اللسان (مادة حسر ـ ٤/١٨٨): «والعرب تقول: حسرتُ الدابة إذا سيّرتها حتى ينقطع سيرها».

البخيل أيضاً مبغوض من الناس مخذول منهم، فلا يجد في ملماته معيناً، ولا في نوائبه معزياً، فهو أيضاً ضعيف الجانب لا قوة له. فالمسرف ضيع المال، والبخيل ضيع الإخوان، فكلاهما مكسور الظهر، عديم الظهير.

* * *

والمخاطب بهذا الخطاب إما مفرد غير معيَّن؛ فيشمل جميع المكلفين غير النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لأنه كان يأخذ لعياله قوت سنتهم حين أفاء الله عليه النضير، وفدك، وخيبر[1]، ثم يصرف ما بقي في الحاجات حتى يأتي أثناء الحول، وليس عنده شيء، ولا كان ملوماً ولا محسوراً، بل كان على ذلك صبَّاراً شكوراً مشكوراً.

وإما هو[2] النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والمراد أمته؛ وعادة العرب أن تخاطب سيد القوم، تريد القوم، وتعبر بالمتبوع عن أتباعه. ونظير هذه الآية في ذلك: ﴿**فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك**﴾ [يونس: ٩٤]، و ﴿**لئن أشركت ليحبطن عملك**﴾ [الزمر: ٦٥].

فالنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ غير داخل في هذا الخطاب بإجماع.

وقد تقدم قوله تعالى: ﴿**إما يبلغن عندك الكبر**﴾ يعني الوالدين، وكان والداه عليهما الرحمة قد توفيا، فلم يدخلا في الخطاب قطعاً فكذلك هنا.

* * *

قال الإمام ابن العربي في تعليل عدم دخوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في هذا الخطاب:

لما هو عليه من الخلال، والجلال، وشرف المنزلة، وقوة النفس على الوظائف، وعظيم العزم على المقاصد.

فأما سائر الناس: فالخطاب عليهم وارد، والأمر والنهي ـ كما تقدم ـ إليهم متوجه.

إلّا أفراداً أُخرجوا من ذلك بكمال صفاتهم، وعظيم أنفسهم، منهم أبو بكر الصديق؛ خرج عن جميع ما يملك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقبله منه الله سبحانه، وأشار على أبي لبابة وكعب بالثلث من جميع ما لهم؛ لنقصهم عن هذه المرتبة في أحوالهم.

---

(١) النضير وفدك وخيبر غزوات وسرايا كان النصر فيها للمسلمين، وكان من نتائجها الجزية أو الخراج. وقد أفاد الله تعالى على نبيه الكريم ﷺ هذه الثلاثة؛ روى ابن سعد في كتابه الطبقات الكبرى (١/ ٣٩٠) عن عمر بن الخطاب قال: كان لرسول الله ﷺ ثلاث صفايا: فكانت بنو النضير حُبُسًا لنوائبه، وكانت فدك لابن السبيل، وكانت خيبر. فكان الخمس قد جزّأه ثلاثة أجزاء، فجزءان للمسلمين وجزء كان ينفق منه على أهله، فإن فضل منه فضل ردّه على فقراء المهاجرين.

(٢) معطوف على قوله في بداية الفقرة السابقة: «والمخاطب بهذا الخطاب.. الخ». أي: وإما هو المخاطب بهذا الخطاب.

وأعيان الصحابة كانوا على هذا، فأجراهم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وائتمروا بأمر الله، واصطبروا على بلائه، ولم تتعلق قلوبهم بدنيا، ولا ارتبطت أبدانهم بمال منها، وذلك لثقتهم بموعود الله في الرزق، وعزوف أنفسهم عن التعلق بغضارة[1] الدنيا.

وقد كان من أشياخي من ارتقى إلى هذه المنزلة: فما ادخر قط شيئاً لغد ولا نظر بمؤخر عينه إلى أحد، ولا ربط على الدنيا بيد.

فههنا ثلاثة أصناف من الخلق:

الأعم الأكثر، وهم أهل الحظوظ البشرية.

والقليل، وهم الذين ضعفت فيهم حظوظهم.

والأقلّ الأندر، وهم الذين زالت منهم تلك الحظوظ.

وقد أفادتنا السنة العملية المتقدّمة في كلام الإمام ابن العربي:

أن لأهل الصنف الثاني أن يخرجوا عن كثير من أموالهم على مقدار ما بقي من حظوظهم.

وأن لأهل الصنف الثالث أن يخرجوا منها كلها.

وأما أهل الصنف الأول فلا يخرجون عن الوسط الذي بينته الآية.

وقد جاءت الآية الكريمة على مقتضى حال الأعم الأكثر: لأنها قاعدة عامة في سياسة الإنفاق، وشأن القواعد العامة أن يعتبر فيها جانب الأعم الغالب، ولا يلتفت للنادر.

وقد وكل للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بيانه، فجاء مبيناً فيما تقدم من سننه.

وتقررت القاعدة واستثناؤها من الكتاب والسنة، وهما مصدر التشريع.

تفاوت الأرزاق من حكمة الخلاق:

﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾.

لما أرشدنا تعالى إلى السلوك الأقوم في العمل في باب الإنفاق، أرشدنا إلى العقد الصحيح في مسألة تفاوت الأرزاق، وفي ذلك تمام الهداية إلى الاستقامة في الظاهر والباطن.

وإن أحوال العباد في الغنى والفقر، والسعة والضيق، وتعاقبها عليهم بسرعة وبمهل وتفاوتهم فيها لما يخفى ولما يظهر من العلل ـ لأمر عجب عجاب، يحير الألباب!!.

فعلمنا الله تعالى في هذه الآية أن الرب ـ وهو الذي يربي المربوب في أحواله وأطواره، بمقتضى الصلاح والصواب ـ هو الذي **يبسط** ويوسع على من يشاء ـ ولا يشاء إلاّ ما هو حق، وعدل، وصواب، وإن خفي علينا وجهه.

﴿ويقدر﴾: أي يضيق على من يشاء، وكل أحد هو حقيق بالحال الذي هو فيه. وأنه كان

---

(١) نقول: إنهم لفي غضارة من العيش، وفي غضارة عيش: في سعة ونعمة (المعجم الوسيط: ص ٦٥٤).

بعباده ﴿خبيراً﴾ مطلعاً على دواخل أمورهم، وبواطن أسرارهم من أنفسهم، ومما يرتبط بهم ومن سوابقهم ومصائرهم ﴿بصيراً﴾ منكشفة له جميع أمورهم.

وكما أنه بالعمل بآية الإنفاق ينتظم أمر العباد في معاشهم، كذلك بالإيمان بهذه العقيدة تزول حيرتهم، وتطمئن قلوبهم فيما يرونه من أحوال الرزق في أنفسهم، وفي غيرهم.

والله يبصّر القلوب، ويقوّم الأعمال، إنه سميع مجيب.

حفظ النفوس بحفظ النسل

وحفظ الفرج وعدم العدوان

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾

[الإسراء: ٣١ ـ ٣٣]

تمهيد:

ان الأرواح الإنسانية كريمة الجوهر؛ لأنها من عالم النور؛ فقد خلقت من نفخ الملك. كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه الثابت في الصحيح:

«إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح...»[(١)].

والملائكة ـ كما في الصحيح ـ خُلقوا من النور، وأنها كريمة الخلقة أيضاً لأنها فطرت على الكمال.

ولذا أضافها الله تعالى إلى نفسه في معرض الامتنان، في قوله تعالى: **﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾** [السجدة: ٩].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٦، وأحاديث الأنبياء باب ١، والقدر باب ١، والتوحيد باب ٢٨. ومسلم في القدر باب ١. وأبو داود في السنّة باب ١٦. والترمذي في القدر باب ٤. وابن ماجة في المقدمة باب ١٠. وأحمد في المسند (١/٣٨٢، ٤١٤، ٤٣٠).

دع ما يطرأ عليها بعد اتصالها بالبدن من تزكية ترقى بها في معارج الكمال، أو تدسية[1] تنحط بها إلى أسفل سافلين.

وبعد ارتباطها بالبدن.. يتكون منها المخلوق العظيم العجيب المسمى بالإنسان الذي جعله الله تعالى خليفة في الأرض ليعمرها، ويستثمرها ويعبرها إلى دار الكمال الحق، والحياة الدائمة الأبدية.

هذه النفوس البشرية جاءت الشرائع السماوية كلها بإيجاب حفظها، فكان حفظها أصلاً قطعياً، وكلية عامة في الدين. وجاءت هذه الآيات في تقرير هذا الحفظ من وجوه ثلاثة سنتكلم عليها واحداً واحداً.

* * *

حفظ النسل:

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئاً كبيرا﴾.

العرب في زمان البعثة هم المخاطبون قبل الناس بالقرآن، وهم المؤمورون أول الناس ـ لعموم الرسالة ـ بالبلاغ، وعلى اهتدائهم كان يتوقف اهتداء غيرهم؛ فمن الحكمة توجه القصد إلى تطهيرهم من مفاسدهم.

وقد كانوا في الجاهلية منهم من يقتل البنات خشية الفقر، وليوفر ما ينفق عليهم لينفقه على نفسه وبيته وبنيه، ويرى النفقة عليهن ضائعة؛ لأنه لا ينتظر منهن سعياً للكسب ولا نصرة على العدو. وهذه هي الموءودة المذكورة في قوله تعالى: **﴿وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت﴾** [التكوير: ٨ و٩].

على أنه قد كان من ساداتهم من يحيى الموءودة فيشتريها من عند أبيها، وينجيها من القتل: كزيد بن نفيل القرشي، أبي سعيد بن زيد، أحد العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم، وصعصعة بن ناجية التميمي الصحابي جد الفرزدق الشاعر المشهور. وقد كان قتل البنات شائعاً فيهم مستفيضاً في قبائل معدودة.

ومنهم ـ كما في لسان العرب ـ من كان يئد البنين عند المجاعة. فجاء النهي عن القتل في الآية متعلقاً بلفظ الولد شاملاً للبنات والبنين، ومعه السبب الذي كان يحملهم على القتل، وهو خشية الإملاق أي خوف الفقر والإقتار.

(والمملق) هو الذي خرج ماله من يده فلم يبق بها شيء. ومن مادته الملقة وهي الصفاة الملساء. فنهوا عن هذا القتل الفظيع مع ذكر سببه، لتصوير حالتهم بوجه تام، وليتخلص من ذكر السبب إلى إبطاله ورده.

---

(١) في اللسان (مادة دسا ـ ١٤/٢٥٦): «دَسَى يَدْسَى: نقيض زكا... ودَسَّى نفسه وتَدَسَّى ودسَّاه: أغراه وأفسده. وفي التنزيل: وقد خاب من دسَّاها».

معالجة هذه الرذيلة بإبطال سببها، وعظيم قبحها، وسوء عاقبتها:

أبطل تعالى خوفهم من الفقر بقوله: ﴿**نحن نرزقهم وإياكم**﴾؛ فأخبر أن رزق الجميع عليه، وأنه متكفل برزق خلقه بما يسر لهم من أسباب جلية أو خفية، لا فرق في ذلك بين الذكر والأنثى، والكبير والصغير.

كما أنه تعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، كما في الآية السابقة، فهما مرتبطان بهذه المناسبة.

ومن ضلالهم: أنهم نظروا إلى قوة الكبير فحسبوه مرزوقاً من نفسه، فهداهم بقوله: ﴿**وإياكم**﴾ إلى أن الكبار مرزوقون من الله بتقديره وتيسيره.

ولما كان لا فرق بين الكبير والصغير في الحاجة إلى لطف الله، وضمان الرزق من الله، فلا وجه لخوف الفقر من وجود الأولاد وكثرتهم، لأنه ما من واحد منهم إلا ورزقه مضمون من خالقه جل جلاله.

وبيَّن تعالى فظاعة هذا القتل بقوله: ﴿**أولادكم**﴾، بإضافة الأولاد إليهم، فإن الأولاد أفلاذ الأكباد، وقطعة من لحم المرء ودمه، ونسخة من ذاته، فمحبتهم فطرة، والعطف التام عليهم خلقة، فكيف يكون قبح وفظاعة فعل من بلغ بهم القتل!

وأي خير يُرجى من قاتل ولده لغيره من الناس، بعد ما جنى أفظع الجنايات على ألصق الناس به؟؟!

وبيَّن تعالى سوء العاقبة لهذا القتل بقوله: ﴿**إن قتلهم كان خطئاً كبيراً**﴾؛ أي إثماً كبيراً لما فيه من قتل النفس، وقطع النسل، وهلاك الجنس، وخراب العمران، وسوء الظن بالله، وعدم خشيته، وعدم الشفقة على خلقه.

يقال خطىء يخطأ خطئاً[١] إذا قصد الفعل القبيح ففعله. وأخطأ يُخطىء خطئاً[٢] إذا قصد شيئاً فأصاب غيره.

ومن مثل وعيد الآية ما ثبت في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه: «أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل: أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»[٣].

---

(١) أي بكسر الخاء وسكون الطاء.

(٢) أي بفتح الخاء والطاء.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢ باب ٣ وسورة ٢٥ باب ٢، والأدب باب ٢٠، والحدود باب ٢٠، والديات باب ١، والتوحيد باب ٤٠ و٤٦. ومسلم في الإيمان حديث ١٤١ و١٤٢. وأبو داود في الطلاق باب ٥٠. والترمذي في تفسير سورة ٢٥ باب ١ و٢. والنسائي في الأيمان باب ٦، والتحريم باب ٤. وأحمد في المسند (١/ ٣٨٠، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٦٢، ٤٦٤).

عموم حكم الآية وترغيبها:

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والحكم يعم بعموم اللفظ. كما أن ذكر سبب القتل في الآية لا يقتضي التخصيص، لأنه ذكر لتصوير الحال الذي كانوا عليه، فالقتل حرام لأي سبب كان.

وهذا الفعل الذي كان في الجاهلية على الوجه المتقدم، وهو فعل مؤد إلى قطع النسل وخراب العمران ـ لا تسلم منه الأمم الأخرى في مختلف الأزمنة والبلدان:

إما بالقتل بعد الولادة.
وإما بإفساد الحمل بعد التخليق، وهو حرام باتفاق.

وقد يكون بالامتناع من التزوج.
أو بعد الإنزال في الفرج وهو العزل.

والآية كما نهت عن القتل، قد رغبت في النسل بذكر ضمان الرزق.

فعلى المؤمن أن يسعى لذلك من طريقه المشروع، وأن يتلقى ما يعطيه الله من نسل ابن أو بنت، بفرح، لنعمة الله وثقة برزق الله، وإيمان بوعده.

* * *

حفظ الفرج:

﴿ولا تقربوا الزنى، إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾.

في الزنا إراقة للنطفة، وسفح لها في غير محلها، فلو كان منها ولد لكان مقطوع النسب، مقطوع الصلة، ساقط الحق. فمن تسبب في وجوده على هذه الحالة فكأنه قتله. ولهذا بعدما نهى عن الزنا الذي هو كقتلهم، لأنه سبب لوجودهم غير مشروع؛ قال الجوهري: «قربته أقربه قرباناً، أي دنوت منه»[1]. فقوله تعالى: **﴿ولا تقربوا الزنى﴾**، في النهي أبلغ وآكد من ولا تزنوا؛ لأنه بمعنى ولا تدنوا من الزنا، وأفاد هذا تحريم الزنا، وتحريم الدنو منه، لا بالقلب ولا بالجوارح، فقد جاء في الصحيح:

«كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة. العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليدان زناهما البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه»[2]؛ فزنا هذه الجوارح دنو من الزنا الحقيقي، ومؤد إليه.

---

(١) وفي اللسان (مادة قرب ـ ٦٦٢/١) عن التهذيب: «ما قَرِبْتُ هذا الأمر ولا قَرَبْتُه؛ قال الله تعالى: ولا تقربا هذه الشجرة، وقال: ولا تقربوا الزنا؛ كل ذلك من قَرِبْتُ أقْرَبُ». وقال (ص ٦٦٦): «وقَرِبَ الشيءَ، بالكسر، يَقْرَبُهُ قُرْباً وقُرْباناً: أتاه فقَرُبَ ودنا منه».

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة البخاري في الاستئذان باب ١٢، والقدر باب ٩. ومسلم في القدر حديث ٢٠ =

وقد حمى الشرع الشريف العباد من هذه الفاحشة بما فرض من الحجاب الشرعي، وهو ستر الحرة ما عدا وجهها وكفيها وجميع ثيابها عند الخروج بالتجلبب، وبما حرم من تطيب المرأة، وقعقعة حليها عند الخروج، وخلوتها بالأجنبي، واختلاط النساء بالرجال.

فتضافر النهي والتشريع على إبعاد الخلق عن هذه الرذيلة.

والمسلم المسلم، من تحرى مقتضى هذا النهي، وهذا التشريع في الترك والابتعاد.

معالجة هذه الرذيلة بتقبيحها وسوء عاقبتها:

بيَّن تعالى قبحها بقوله: ﴿**إنه كان فاحشة**﴾ والفاحشة هي الرذيلة التي تجاوزت الحد في القبح وعظم قبح الزنا مركوز في العقول من أصل الفطرة كان ولم يزل كذلك معروفاً.

ومن رحمة الله تعالى بخلقه أن ركز في فطرهم إدراك أصول القبائح والمحاسن، ليسهل انقيادهم للشرع عندما تدعوهم الرسل إلى فعل المحاسن وترك القبائح، وتأتيهم بما هو معروف في الحسن أو القبح لهم؛ فتبين لهم حكم الله فيه، وما لهم من الثواب أو العقاب عليه.

وبين تعالى سوء عاقبة الزنا بقوله: ﴿**وساء سبيلاً**﴾ أي بئس طريقاً طريقه، طريق مؤد إلى شرور ومفاسد كثيرة في الدنيا، وعذاب عظيم في الأخرى:

فهو طريق إلى هلاك الأبدان، وفساد الأعراض، وضياع الأموال، وخراب البيوت، وانقطاع الأنساب، وفساد المجتمع وانقراضه.

زيادة على ما فيه من معنى القتل للنفوس الذي تقدم في صدر الكلام.

فعلى المؤمن إذا وسوس له الشيطان بهذه الرذيلة أن يتعوذ بالله منه، ويستحضر قبحها والمفاسد التي تجر إليها، والإثم الكبير الذي يعقبها، وقبل ذلك كله حرمة النهي الشرعي عنها، فيكون ذلك له ـ بإذن الله ـ وقاية منها.

عدم العدوان:

﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً**﴾.

جاء أسلوب هذه الآيات تدرجاً من الخاص إلى العام: فقتل الأولاد قتل للنفس التي حرم الله، والزنا كالقتل للنفس كما قدمناه، وجيء هنا بالنهي الصريح عن قتل النفس، وأكد مقتضى النهي بوصف النفس بقوله: ﴿**التي حرم الله**﴾.

(والتحريم) هو المنع، فحرم الله معناه منع الله، والتقدير: حرم الله قتلها، فحذف لدلالة «لا تقتلوا» عليه. فالمنهي عنه هو القتل، والمحرم هو القتل، فتأكد المنع بالنهي والتحريم.

و٢١. وأبو داود في النكاح باب ٤٣. وأحمد في المسند (٢/٢٧٦، ٣١٧، ٣٢٩، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٩، ٣٧٢، ٣٧٩، ٤١١، ٤٣١، ٥٣٥، ٥٣٦).

وفي إسناد التحريم إلى الله بعث للنفوس على الخشية من الإقدام على المخالفة، وتنبيه لها على ما يكفها عن الإقدام، وهو استشعار عظمة الله.

القتل المحرم:

وبين تعالى بقوله: **﴿إلا بالحق﴾** أن القتل المحرم هو القتل الباطل، وأن القتل بالحق ليس بمنهي عنه. وبين الحق في الحديث الصحيح بقوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه، المفارق للجماعة»(١) في غير هذه الثلاث مما جاء في بيانات أخرى عن بعض الأئمة، ويرجع إلى إحدى هذه الثلاث. أو يقال بتقدم هذا الحصر في الورود عليها، وهذا القتل الحق لا يتولاه أفراد الناس في بعضهم، وإنما يتولاه الإمام الذي إليه القيام بتنفيذ الأحكام وفصل الحقوق.

الرد عن العدوان بشرع القصاص:

القتل وسفك الدم عمل قديم في البشر، فلهم ـ على الجملة ـ ضراوة عليه وإلف به. وأعظم ما يكف الشخص عن نفس أخيه خوفه على نفسه. فلذلك شرع الله تعالى القصاص بين النفوس، وبيّن تعالى ذلك بقوله: **﴿ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا﴾**.

(المظلوم) من قتل عمداً عدواناً.

(والولي) هو القريب.

(والسلطان) هو التسلط.

والمعنى:

ومن قتل عمداً عدواناً، فقد جعلنا لقريبه تسلطاً بتمكينه من القصاص.

لا يحفظ النفوس إلا العدل:

كفاء النفس نفس. فلا يقتل إلا القاتل بما قتل دون غيره، ودون تمثيل به. وبين تعالى هذا بقوله: **﴿فلا يسرف في القتل﴾**، أي لا يتجاوز القصاص المشروع؛ لأن الإسراف ظلم، ومثير للحفائظ فيتسلسل الشر.

تسكين نفس الموتور:

الموتور هو من قتل قريبه، ولفقد القريب لوعة، ربما تذهب بالنفس إلى شر غاية، فذكر

---

(١) أخرجه من حديث ابن مسعود البخاري في الديات باب ٦، ومسلم في القسامة حديث ٢٥ و٢٦، وأبو داود في الحدود باب ١، والترمذي في الديات باب ١٠، والنسائي في التحريم باب ٥، والدارمي في السير باب ١١، وأحمد في المسند (١/٣٨٢، ٤٢٨، ٤٤٤، ٤٦٥). وأخرجه أيضاً أحمد في المسند (١/٦١، ٦٣، ٦٥، ٧٠) من حديث عثمان بن عفان. وأخرجه من حديث طلحة بن عبيدالله (١/١٦٣)، ومن حديث عائشة (٦/١٨١، ٢١٤).

بقوله تعالى: ﴿إنه كان منصوراً﴾. فإن قريب المقتول قد نصره الله إذ جعل له حق الاقتصاص، فإذا لم يستوف له في الدنيا استوفى له في الأخرى.

والمؤمن بيقينه لا يرى يوم القيامة إلا قريباً. وكفى بالله حسيباً.

حفظ الأموال باحترام الملكية

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

[الإسراء: ٣٤ و٣٥]

مال الشخص: هو ما كان ملكاً له:

(واليتيم): هو من عدم أباه، من اليتم بمعنى الانفراد، ومنه الدرة اليتيمة. ومن عدم أباه فقد عدم ناصره. فإذا بلغ النكاح فقد بلغ القوة، فاستغنى عن الناصر، فلا يقال فيه يتيم في اللغة.

واعتبر الشرع الشريف وجود قوة العقل فمنع استغلاله، ودفع ماله إليه بعد البلوغ حتى يؤنَس منه الرشد.

(والتي هي أحسن): الفعلة والخصلة التي هي أنفع.
والبلوغ إلى الشيء: الوصول والانتهاء إليه.

(والأشد): جمع شدة كأنعم جمع نعمة، فالأشد هو القوى. وبلوغ الأشد هو بلوغ القوى، والوصول إلى الحالة التي تحصل فيها القوى للإنسان، القوى البدنية، والقوى العقلية. ولا يقال في الشخص قد بلغ أشده إلا إذا حصل على قواه من الجهتين. فأما القوى البدنية فعلامة حصولها هو البلوغ. وأما القوى العقلية فعلامة حصولها هو الرشد الذي يظهر في حسن التصرف.

وقد جمع العلامتين قوله تعالى:

﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم﴾ [النساء: ٥].

فابتداء الأشد من البلوغ إذا كان معه رشد، ولا يزال يتدرج حتى يستكمل في الأربعين، كما قال تعالى: **﴿حتى إذا بلغ أشده، وبلغ أربعين سنة﴾** [الأحقاف: ١٥]. فالأربعون هي سن الاستكمال، والاستواء، والتمام في القوى، وهي السن التي بعث الله فيها النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ للعالمين بشيراً ونذيراً.

ولا يزال الإنسان في قوته ـ ما لم تعرض الطوارىء ـ إلى الخمسين، ثم يأخذ في التراجع.

* * *

مال المرء كقطعة من بدنه، ويدافع عنه كما يدافع عن نفسه، وبه دوام أعماله في حياته.

فالأموال مقرونة بالنفوس في الاعتبار؛ فقرنت في النظم آية حفظ الأموال بآيات حفظ النفوس، كما قرن بينهما النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في قوله:

«فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام»[1].

* * *

نهى تعالى عن قربان مال اليتيم إلا بالوجه الذي هو أنفع، فلا بد لكافل اليتيم من النظر والتحري عند التصرف في ماله: حتى يعرف ما هو ضار وما هو نافع، وما هو لا ضار ولا نافع، وما هو أنفع؛ فلا يتصرف إلا بما هو نافع. فإذا تعارض وجهان نافعان تحرى أنفعهما لليتيم. وفي هذا النهي ـ بطريق الأحرى ـ تحريم أخذ مال اليتيم بالباطل، والتعدي عليه ظلماً.

ومثل اليتيم في وجهي النهي المتقدمين غيره؛ فكل ذي ولاية أو أمانة على مال غيره يجب عليه أن يتحرى التحري المذكور.

كما يحرم على كل أحد أن يتعدى على مال غيره.

وإنما خص اليتيم بالذكر، لأنه ضعيف لا ناصر له، والنفوس أشد طمعاً في مال الضعيف؛ فالعناية به أوكد، والعقوبة عليه أشد.

ومن تأدب بأدب الآية في مال الضعيف كاليتيم، كان حقيقاً أن يتأدب بأدبها في مال غيره.

ومن بليغ إيجاز القرآن في بيانه أنه يذكر الشيء ليدل به على تأثيره، أو الذي هو أحرى بالحكم منه، أو لكون امتثال الحكم الشرعي فيه داعياً إلى امتثاله في غيره بالمساواة، أو الأحروية.

وأجاز تعالى لولي اليتيم أن يتصرف في ماله بالاستثناء في قوله: ﴿**إلا بالتي هي أحسن**﴾. فيجوز له تنميته لليتيم بوجوه التجارة.

---

(١) جزء من حديث حجة الوداع، رُوي عن عدد من الصحابة منهم جابر بن عبدالله وعبدالله بن عباس وأبي بكرة وعمرو بن الأحوص وحذيم بن عمرو والسعدي، كما ذكر الترمذي في صحيحه (في الحديث رقم ٢١٥٩). والحديث رواه البخاري في العلم باب ٩ و٣٧، والفتن باب ٨، والتوحيد باب ٢٤، والأضاحي باب ٥، والمغازي باب ٧٧، والحج باب ١٣٢. ومسلم في القسامة حديث ٢٩ و٣٠. والترمذي في الفتن باب ٢، وتفسير سورة ٩ باب ٢. وابن ماجة في المناسك باب ٧٦. والدارمي في المناسك باب ٧٢. وأحمد في المسند (١/ ٢٣٠، ٤/ ٣٣٧، ٥/ ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٧٢).

الولاية والاستقلال:

الولاية على اليتيم واستقلاله حالتان كلتاهما حق وخير إذا كانت كل واحدة منهما في وقتها المناسب لها، وكل واحدة منهما تكون ظلماً وشراً إذا كانت في غير وقتها المناسب لها. فلذا بين تعالى الحالتين ووقتهما بما قبل (حتى) وما بعدها: فوقت عدم بلوغ الأشد هو وقت الولاية.

فمن الفروض الكفائية على الأمة أن يكون أيتامها مكفولين غير مهملين. ووقت بلوغ الأشد - ببلوغ الحلم والرشد - هو وقت استقلال من كان يتيماً ووقت دفع ماله إليه، فلا يجوز حينئذ الاستيلاء على ماله والسيطرة عليه.

* * *

الوفاء بالعهد:

﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾.

أوفى بعهده إذا أتى بما التزم تاماً وافياً. والعهد من عهد إليه بالشيء إذا أعلمه به. قال تعالى: **﴿وعهدنا إلى آدم من قبل فنسي﴾**[١]. أي أعلمناه.

فالعهد هو الإعلام بالالتزام، أو الإعلام بما يلتزم.

فمن الأول: عاهدت زيداً على كذا، أي أعلمته بالتزامي له، وتعاهد القوم على الموت أي أعلم بعضهم بعضاً بالتزامه.

ومن الثاني: **عهد** الله إلى العباد أي إعلامهم بما عليهم أن يلتزموه.

وقول عبد الله بن عمر رضي الله عنه: «الدينار بالدينار، والدرهم بالدرهم، لا فضل بينهما، هذا عهد نبينا إلينا وعهدنا إليكم»[٢]. أي إعلامه لنا وإعلامنا لكم بما يلتزم.

(والمسؤول) من سأل، وسأل بمعنى طلب: إما طلب علماً، وإما طلب شيئاً، فإن كانت الأولى تعدى الفعل إلى المفعول الثاني بعن، تقول: سألته عن كذا فأجابني، وإن كانت الثانية تعدى الفعل إليه بنفسه تقول سألته ثوباً فأعطانيه.

فقوله تعالى: **﴿إن العهد كان مسؤولاً﴾**.

---

(١) الآية ١١٥ من سورة طه. وقد وردت هكذا في الأصل: «وعهدنا». وصوابها: «ولقد عهدنا».

(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ (كتاب البيوع، باب ١٦، حديث ٣١) وتمامه: عن مجاهد أنه قال: كنت مع عبدالله بن عمر، فجاءه صائغ فقال له: يا أبا عبد الرحمن إني أصوغ الذهب ثم أبيع الشيء من ذلك بأكثر من وزنه فأستفضل من ذلك قدر عمل يدي؟ فنهاه عبدالله عن ذلك، فجعل الصائغ يردّد عليه المسألة وعبدالله ينهاه، حتى انتهى إلى باب المسجد أو إلى دابّة يريد أن يركبها. ثم قال عبدالله بن عمر: الدينار بالدينار، والدرهم بالدرهم، لا فضل بينهما، هذا عهد نبينا إلينا وعهدنا إليهم». ورواه أيضاً الشافعي في الرسالة (فقرة ٧٦٠).

إذا كان من الأولى فالأصل مسؤولاً عنه فحذف إيجازاً لظهور المراد.

وإذا كان من الثاني فلا حذف ومعناه حيئنذ مطلوب أي مطلوب الوفاء به.

الوفاء بالعهد شرط ضروري لحصول السعادتين:

عهد الله تعالى لعباده هو ما شرعه لهم من دينه، فوفاؤهم بعهده قيام بأعباء ذلك الدين الكريم، وانتظام شؤونهم في هذه الحياة ـ أفراداً وجماعات وأمماً ـ متوقف على الوفاء من بعضهم لبعض بما بينهم من عهود؛ فالوفاء ضروري لنجاة العباد مع خالقهم؛ ولسلامتهم من الشرور والفوضى والفتن. وضروري ـ إذن ـ لتحصيل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

ولمكانة هذا الأصل وضرورته تكرر في الكتاب والسنة الأمر به على وجه عام بين الأفراد والأمم، بلا فرق بين الأجناس والملل. وجاء هنا في آية الوصاية باليتيم ـ وهي آية حفظ الأموال باحترام الملكية ـ لوجهين:

الأول: أن الكافل لليتيم قد أعلن بكفالته ـ بلسان حاله ـ أنه ملتزم لحفظه في بدنه وماله، فهذا عهد منه يطالب بالوفاء به، ويسأل عن ذلك الوفاء.

الثاني: أن الآية في حفظ الأموال وعدم التعدي على ملك أحد.

والناس يتعاملون بحكم الضرورة، ويبنون تعاملهم على تبادل الثقة والعهود المبذولة من بعضهم لبعض بلسان المقال أو بلسان الحال، فأمروا بالوفاء بالعهد الذي هو أساس للتعامل، وفي ذلك سلامة مال كل أحد من التعدي عليه.

ولا ينافي هذا عموم اللفظ الذي يقتضي الأمر بالوفاء عاماً، لأنه باق على عمومه وإنما يدخل فيه هذان الوجهان المذكوران في ارتباط النظم دخولاً أولياً.

ومن بديع إيجاز القرآن في نظم الآيات أن يؤتى باللفظ مفيداً للعام، ومقوياً للخاص.

الترغيب في الوفاء، والترهيب من الخيانة:

﴿إن العهد كان مسؤولاً﴾.

إذ كان مسؤول بمعنى مطلوب، أي مطلوب الوفاء به، فإنه مطلوب في الفطرة، وفي الشريعة؛ فالعباد فطروا على استحسان الوفاء، ومطالبة بعضهم بعضاً به، والشرع طالبهم بالوفاء وشرعه لهم، ووعدهم الثواب عليه ـ ففي قوله: **﴿إن العهد كان مسؤولاً﴾** ترغيب لهم في الوفاء بحسنه ومشروعيته وحسن الجزاء عليه. ويتضمن هذا الترغيب التخويف من ترك المطلوب.

وإذا كان مسؤول بمعنى مسؤول عنه، فإن المعنى أن الله تعالى يسأل العباد يوم القيامة عن عهودهم: هل أوفوا بها ليجازيهم على الوفاء بحسن الجزاء، وعلى الخيانة بالعذاب والإهانة؟

فينصب لكل غادر لواء يوم القيامة، ويقال: «هذه غدرة فلان»، كما جاء في الصحيح[1]. ففي الآية على هذا ـ أيضاً ـ ترغيب وترهيب.

* * *

إيفاء الحقوق عند التعامل:

﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم، ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾.

(إيفاء الكيل): إتمامه.

(والقسطاس): هو الآلة التي يحصل بها الإيفاء من المكيال والميزان على تعدد أنواعهما.

(والمستقيم): الصحيح الذي لا عيب فيه مما يجعله غير صالح للوفاء بالعدل، ككسره أو اعوجاجه أو أي خلل في تركيبه.

(والخير): النافع.

(والتأويل): مصدر أول بمعنى رجع من آل يؤول أَوْلاً، بمعنى: رجع، وهو هنا بمعنى المرجع والمآل، أي العاقبة.

الأمر بإيفاء الكيل من موضوع ما قبله: في الأمر بحفظ الأموال واحترام الملكية.

والمكيلات والموزونات مورد عظيم للتعامل، ومعرضة تعريضاً كبيراً للبخس، والتطفيف، وأخذ مال الناس بالزيادة، أو بالتنقيص: إما بفعل الشخص، وإما بفساد الآلة. فأمر تعالى بإيفاء الكيل، وأمر باختيار الآلة الصالحة لذلك، وبيَّن أن الوفاء يكون عند الكيل بقوله: **﴿إذا كلتم﴾**، على سبيل التأكيد حتى لا يتأخر الوفاء عن الكيل، بأن يكمل ما نقص، أو يرد ما زاد، وأن الذي يفصل الحق، ويطيب النفوس هو الوفاء وقت الكيل.

الترغيب في إيفاء الكيل:

﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾:

رغب تعالى في الإيفاء بوجهين:

---

(١) روي الحديث في الصحاح بألفاظ وأسانيد مختلفة؛ ولفظه كما رواه البخاري في كتاب الأدب باب ٩٩ (حديث ٦١٧٨) عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال: هذه غدرة فلان». قال الترمذي بعد ان رواه عن ابن عمر (كتاب السير، باب ٢٨، حديث ١٥٨١): «وفي الباب عن عليّ وعبدالله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وأنس». والحديث بطرقه وأسانيده المختلفة رواه البخاري في الجزية باب ٢٢، والأدب باب ٩٩، والحيل باب ٩، والفتن باب ٢١. ومسلم في الجهاد حديث ٨، ١٠ ـ ١٧. وأبو داود في الجهاد باب ١٥٠، والترمذي في السير باب ٢٨، والفتن باب ٢٦. وابن ماجة في الجهاد باب ٤٢. والدارمي في البيوع باب ١١. وأحمد في المسند (٤١١/١، ٤١٧، ٤٤١، ١٦/٢، ٢٩، ٤٨، ٥٦، ٥٩، ٧٠، ٧٥، ٩٦، ١٠٣، ١١٢، ١١٦، ١٢٣، ١٢٦، ١٤٢، ١٥٦، ٧/٣، ١٩، ٣٥، ٣٩، ٤٦، ٦١، ٦٤، ٧٠، ٨٤، ١٤٢، ١٥٠، ٢٥٠، ٢٧٠).

الأول: أنه (خير) فيفيد العدل والحق، وأكل الحلال، وراحة البال.

وفيه حصول الثقة التي هي رأس مال التاجر.

وفيه حفظ نظام التعامل الذي هو ضروري للحياة. وهذه كلها وجوه نفع وخير.

الثاني: أنه (أحسن) عاقبة.

عاجلاً في نفس الشخص، وأخلاقه وفي عرضه، وسمعته، وفي سلامته من المطالبات، والمنازعات.

وآجلاً بحسن جزائه عند الله بما أعد للموفين من الأجر العظيم.

تركيب على هذا الترغيب:

هذان الوجهان اللذان رغب الله تعالى بهما في الوفاء، ينبغي للعاقل أن يجعلهما نصب عينيه في كل ما يتناوله ويعمله؛ فيقتصر على ما هو خير ينفعه في الحال، وحسن العاقبة بنفعه وعدم ضرره في المآل.

والله يوفقنا إلى خير الأقوال والأعمال، إنه الكريم الواسع النوال.

العلم والأخلاق

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦]

العلم الصحيح، والخلق المتين، هما الأصلان اللذان ينبني عليهما كمال الإنسان، وبهما يضطلع بأعباء ما تضمنته الآيات المتقدمة، من أصول التكليف؛ فهما أعظم مما تقدمهما من حيث توقفه عليهما. فجيء بهما بعده، ليكون الأسلوب من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى.

ولما كان العلم أساس الأخلاق قدمت آيته على آيتها تقديم الأصل على الفرع.

آية العلم:

(القفو): اتباع الأثر، تقول: قفوته أقفوه، إذا اتبعت أثره. والمتبع لأثر شخص موال في سيره لناحية قفاه؛ فهو يتبعه دون علم بوجهة ذهابه، ولا نهاية سيره.

فالقفو: اتباع عن غير علم، فهو أخص من مطلق الاتباع، ولذلك اختيرت مادته هنا.

ولكونه اتباعاً بغير علم، جاء في كلام العرب بمعني قول الباطل قال جرير:

وطَالَ حِذَاري خِيفَةَ البَيْنِ والنَّوَى وأُحْدُوثَةٌ من كاشحٍ متقوِّفِ[1]

(١) البيت في ديوان جرير (ص ٢٨١) وفيه «غربة» في موضع «خيفة» و«يتقوّفُ» في موضع «متقوّف» ـ لأن البيت =

(والعلم)، إدراك جازم مطابق للواقع عن بينة، سواء أكانت تلك البينة حساً ومشاهدة، أو كانت برهاناً عقلياً: كدلالة الأثر على المؤثر، والصنعة على الصانع.

فإذا لم تبلغ البينة بالإدراك رتبة الجزم فهو ظن. هذا هو الأصل.

ويطلق العلم أيضاً على ما يكاد يقارب الجزم ويضعف فيه احتمال النقيض جداً. كما قال تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام:

﴿وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين﴾ [يوسف: ٨٣]. فسمى القرآن إدراكهم لما شاهدوا علماً؛ لأنه إدراك كاد يبلغ الجزم لانبنائه على ظاهر الحال، وإن كان ثم احتمال خلافه في الباطن، لأنه احتمال ضعيف بالنسبة لما شاهدوه.

(والسمع): القوة التي تدرك بها الأصوات بآلة الأذن.

(والبصر): القوة التي تدرك بها الأشخاص والألوان بآلة العين. وقدم السمع على البصر، لأن به إدراك العلوم وتعلم النطق، فلا يقرأ ولا يكتب إلا من كان ذا سمع وقتاً من حياته.

(والفؤاد): القلب، والمراد به هنا العقل من حيث اعتقاده لشيء ما. وإطلاق لفظ الفؤاد والقلب على العقل مجاز مشهور. وكان تفيد ثبوت خبرها لاسمها، وكونها على صورة الماضي لا يدل على انقضاء ذلك الارتباط.

ومثل هذا التركيب يفيد في استعمال استحقاق الاسم للخبر؛ فالجوارح مستحقة للسؤال، ويكون ذلك بالفعل يوم القيامة.

(والمسؤول): الموجَّه إليه السؤال ليجيب.

(وأولئك): إشارة إلى هذه الثلاثة[1]. وضمير كان عائد على كل، وضمير (عنه) عائد على ما، وضمير مسؤولاً عائد على ما عاد عليه ضمير كان.

والتقدير: كل واحد من هذه الثلاثة: السمع، والبصر، والفؤاد، كان مسؤولاً عما ليس لك به علم.

= من قصيدة مضمومة الرويّ مطلعها:

ألا أيها القلب الطروب المكلفُ أفقْ ربما ينأى هواك ويسعفُ

والكاشح: العدو المبغض. ويتقوّف: يتتبع الأثر.

(١) قال الطبري في تفسيره (٨١/٨): «وقال أولئك ولم يقل تلك، كما قال الشاعر:

ذُمَّ المنازلَ بعدَ منزلةِ اللِّوى والعيشَ بعد أولئك الأيّام

وإنما قيل أولئك؛ لأن أولئك وهؤلاء للجمع القليل الذي يقع للتذكير والتأنيث، وهذه وتلك للجمع الكثير، فالتذكير للقليل من باب أن كان التذكير في الأسماء قبل التأنيث؛ لك التذكير للجمع الأول والتأنيث للجمع الثاني وهو الجمع الكثير، لأن العرب تجعل الجمع على مثال الأسماء».

العقل ميزة الإنسان وأداة علمه:

يمتاز الحيوان عن الجماد بالإدراك، ويمتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل، وعقله هو القوة الروحية التي يكون بها التفكير.

وتفكيره هو نظره في معلوماته التي أدرك حقائقها، وأدرك نسب بعضها لبعض إيجاباً وسلباً، وارتباط بعضها ببعض نفياً وثبوتاً. وترتيب تلك المعلومات بمقتضى ذلك الارتباط على صورة مخصوصة، ليتوصل بها إلى إدراك أمر مجهول.

فالتفكير اكتشاف المجهولات من طريق المعلومات، والمفكر مكتشف ما دام مفكراً.

ولما امتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل والتفكير ـ امتاز عنه بالتنقل والتحول في أطوار حياته، ونظم معيشته بمكتشفاته ومستنبطاته: فمن المشي على الأقدام، إلى التحليق في الجو، مثلاً. وبقي سائر الحيوان على الحال التي خُلق عليها دون أي انتقال.

وبقدر ما تكثر معلومات الإنسان، ويصح إدراكه لحقائقها ولنسبها، ويستقيم تنظيمه لها ـ تكثر اكتشافاته واستنباطاته في عالمي المحسوس والمعقول، وقسمي العلوم والآداب.

وهذا كما كان العرب والمسلمون أيام، بل قرون مدنيتهم: عربوا كتب الأمم إلى ما عندهم، ونظروا وصححوا واستدركوا واكتشفوا؛ فأحيوا عصور علم من كانوا قبلهم، وأناروا بالعلم عصرهم. ومهدوا الطريق ووضعوا الأسس لما جاء بعدهم؛ فأدوا لنوع الإنسان بالعلم والمدنية أعظم خدمة تؤديها له أمة في حالها وماضيها ومستقبلها.

وكما نرى الغرب في مدنيته اليوم:

ترجم كتب المسلمين فعرف علوم الأمم الخالية التي حفظتها العربية وأدتها بأمانة.

وعرف علوم المسلمين ومكتشفاتهم، فجاء هو أيضاً بمكتشفاته العجيبة التي هي ثمرة علوم الإنسانية من أيامها الأولى إلى عهده وثمرة تفكيره ونظره فيها.

وقد كانت مكتشفاته أكثر من مكتشفات جميع من تقدمه ـ كما كانت مكتشفات صدر هذا القرن أكثر من مكتشفات عجز[1] القرن الماضي ـ لتكاثر المعلومات؛ فإن المكتشفات تضم إلى المعلومات، فتكثر المعلومات، فيكثر ما يعقبها من المكتشفات على نسبة كثرتها.

وهكذا يكون كل قرن ـ ما دام التفكير عَمَّالاً ـ أكثر معلومات ومكتشفات من الذي قبله.

فإذا قلَّت معلوماته قلت اكتشافاته. وهذا كما كان النوع الإنساني في أطواره الأولى.

وإذا كثرت معلوماته وأهمل النظر فيها.. بقي حيث هو جامداً، ثم لا يلبث أن تتلاشى من

---

(١) يريد بصدر هذا القرن وعجزه: نصفه الأول ونصفه الثاني، أو شطره الأول وشطره الثاني؛ كما يقال في شطر البيت الأول من الشعر: صدراً، وفي شطره الثاني: عَجُزاً.

ذهنه تلك المعلومات المهملة حتى تقل أو تضمحل؛ لأن المعلومات إذا لم تتعاهد بالنظر زالت من المحافظة شيئاً فشيئاً. وهذا هو طور الجمود الذي يصيب الأمم المتعلمة في أيامها الأخيرة، عندما تتوافر الأسباب العمرانية القاضية ـ بسنة الله ـ بسقوطها.

وإذا لم يصح إدراكه للحقائق، أو لنسبها، أو لم يستقم تنظيمه لها ـ كان ما يتوصل إليه بنظره خطأ في خطأ وفساداً في فساد. ولا ينشأ عن هذين إلا الضرر في المحسوس، والضلال في المعقول. وفي هذين هلاك الفرد والنوع جزئياً وكلياً من قريب أو من بعيد.

وهذا هو طور انحطاط الأمم، الانحطاط التام، وذلك عندما يرتفع منها العلم، ويفشو الجهل، وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها، فتتخذ رؤوساً جهالاً لأمور دينها وأمور دنياها، فيقودونها بغير علم، فَيَضلون ويُضلون، ويَهلكون ويُهلكون، ويفسدون ولا يصلحون[1].

وما أكثر هذا ـ على أخذه في الزوال بإذن الله ـ في أمم الشرق والإسلام اليوم.

* * *

العلم وحده الامام المتبع في الحياة في الأقوال والأفعال والاعتقادات:

سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطاً وثيقاً: يستقيم باستقامته ويعوجُّ باعوجاجه، ويثمر بإثماره، ويعقم بعقمه؛ لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته، وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات، واعتقاداته ثمرة إدراكه الحاصل عن تفكيره ونظره.

وهذه الإدراكات الحاصلة عن التفكير والنظر ليست على درجة واحدة في القوة والضعف: فمنها ما هو قوي معبر، ومنها ما هو ضعيف ساقط عن الاعتبار.

فالأول: العلم وهو إدراك أمر على وجه لا يحتمل أن يكون ذلك الأمر على وجه من الوجوه سواه، وهو علم الاعتبار.

ويليه الظن، وهو إدراك لأمر على وجه هو أرجح الوجوه المحتملة، وهو معتبر عندما تتبين قوة رجحانه فيما لا يمكن فيه إلا ذاك. وهذه هي الحالة التي يطلق عليه فيها لفظ العلم مجازاً.

والثاني: الوهم، وهو إدراك الأمر على الوجه المرجوح.

والشك، وهو إدراك الأمر على وجهين، أو وجوه متساوية في الاحتمال، وكلا هذين لا يعول عليه.

---

(١) روى البخاري في صحيحه (كتاب العلم، باب ٢١، حديث ٨٠) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ويثبت الجهل ويُشرب الخمر ويظهر الزنا». وروى أيضاً (كتاب العلم، باب ٣٤، حديث ١٠٠) عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناسُ رؤوساً جُهّالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلّوا».

ولما كان الإنسان ـ بما فطر عليه من الضعف والاستعجال ـ كثيراً ما يبني أقواله وأفعاله واعتقاداته على شكوكه وأوهامه، وعلى ظنونه حيث لا يكتفي بالظن، وفي هذا البناء الضرر والضلال. . بيّن الله تعالى لعباده في محكم كتابه أنه لا يجوز لهم، ولا يصح منهم البناء لأقوالهم، وأعمالهم، واعتقاداتهم، إلا على إدراك واحد وهو العلم، فقال تعالى:

﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم**﴾ أي لا تتبع ما لا علم لك به فلا يكن منك اتباع بالقول، أو بالفعل، أو بالقلب، لما لا تعلم؛ فنهانا عن أن نعتقد إلا عن علم أو نفعل إلا عن علم، أو نقول إلا عن علم.

فما كل ما نسمعه وما كل ما نراه نطوي عليه عقد قلوبنا، بل علينا أن ننظر فيه، ونفكر، فإذا عرفناه عن بينة اعتقدناه، وإلا تركناه حيث هو، في دائرة الشكوك والأوهام، أو الظنون التي لا تعتبر.

ولا كل ما نسمعه أو نراه أو نتخيله نقوله. فكفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع، كما جاء في الصحيح[1].

بل علينا أن نعرضه على محك الفكر؛ فإن صرنا منه على علم قلناه، مراعين فيه آداب القول الشرعية، ومقتضيات الزمان، والمكان، والحال، فقد أمرنا أن نحدث الناس، بما يفهمون ـ وما حدث قوم بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان عليهم فتنة ـ وإلا طرحناه.

ولا كل فعل ظهر لنا نفعله. بل حتى نعلم حكم الله تعالى فيه، لنكون على بيّنة من خيره وشره، ونفعه وضره.

فما أمر تعالى إلا بما هو خير وصلاح لعباده، وما نهى تعالى إلا عما هو شر وفساد لهم، أو مؤد إلى ذلك.

وإذا كان من المباحات نظرنا في نتائجه وعواقبه ووازنا بينها، فإذا علمنا بعد هذا كله من أمر ذلك الفعل ما يقتضي فعله فعلناه وإلا تركناه.

فلا تكون عقائدنا ـ إذا تمسّكنا بهذا الأصل الإسلامي العظيم ـ إلا حقاً.

ولا تكون أقوالنا إلا صدقاً.
ولا تكون أفعالنا إلا سداداً.

ولعمر الله إنه ما دخل الضلال في عقائد الناس، ولا جرى الباطل والزور على ألسنتهم، ولا كان الفساد والشر في أفعالهم، إلا بإهمالهم، أو تساهلهم في هذا الأصل العظيم.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (المقدمة، باب ٣، حديث ٥) من طريق حفص بن عاصم عن أبي هريرة مرفوعاً.

المعنى:

نهينا عن أن نتبع ما ليس لنا به علم، فالذي نتبعه هو ما لنا به علم؛ أي لنا به علم يقتضي اتباعه بأن يكون من عقائد الحق، وأقوال الصدق، وأفعال السداد.

فأما ما كان من عقائد الحق في أمر الدين، أو في أمر الدنيا، فلا حظر في اعتقاد شيء منه.

وأما ما كان من أفعال السداد فكذلك.

وأما ما كان من أقوال الصدق ففيه تفصيل: إذ ليس كل قول صدق يقال.

فالنقائص الشخصية في الإنسان لا تقال في غيبته: لأنها غيبة محرمة، ولا يجابه بها في حضوره لأنها أذاة؛ إلا إذا ووجه بها على وجه النصيحة بشروطها المعتبرة، التي من أولها ألا تكون في الملأ.

وهكذا يحدث في مثل هذه الأصول الكلية عندما يتفقه فيها، أن ينظر فيما جاء من الآيات والأحاديث مما في البيان لها، والتفصيل في مفاهيمها.

تفريع:

الفرع الأول:

من اتبع ما ليس به علم فاعتقد الباطل في أمر الدين، أو في حق الناس، أو قال الباطل كذلك فيهما، أو فعل المحظور... فهو آثم من جهتين:

(١) اتباعه ما ليس له به علم. (٢) واعتقاده أو قوله للباطل وفعله للمحظور.

ومن اعتقد حقاً من غير علم، أو قال في الناس صدقاً عن غير علم، أو فعل غير محظور عن غير علم فإنه ـ مع ذلك ـ آثم من جهة واحدة، وهي اتباعه ما ليس له به علم، ومخالفته لمقتضى هذا النهي.

الفرع الثاني:

المقلد في العقائد الذي لا دليل عنده أصلاً، وإنما يقول: سمعت الناس يقولون فقلت. هذا آثم لاتباعه ما ليس له به علم. فأما إذا كان عنده دليل إجمالي كاستدلاله بوجود المخلوق على وجود خالقه فقد خرج من الإثم، لتحصيل هذا الاستدلال له العلم.

والمقلد في الفروع دون علم بأدلتها متبع لمفتيه فيها، يصدق عليه باعتبار الأدلة التي يجهلها أنه متبع ما ليس له به علم، ولكنه له علم من ناحية أخرى وهي علمه بأن التقليد هو حكم الله تعالى في حق مثله من العوام، بما أمر تعالى من سؤال أهل العلم، وما رفع عن العاجز من الإصر[1]، وهو من العامة العاجزين عن درك أدلة الأحكام.

---

(١) الإصر: العهد المؤكّد. وفي التنزيل العزيز: ﴿**قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري**﴾.

نصيحة على هذا الفرع:

أدلة العقائد مبسوطة في القرآن العظيم بغاية البيان، ونهاية التيسير. وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه، وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي أرسل ليبيّن للناس ما نزل إليهم.

فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية، وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم؛ إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم.

ولن يجد العامي الأدلة لعقائد سهلة قريبة إلا في كتاب الله، فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا في تعليم العقائد للمسلمين إليه.

أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية، فإنه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريق العلم إلى عباده وهم في أشد الحاجة إليه.

لقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه.

ومما ينبغي لأهل العلم أيضاً ـ إذا أفتوا أو أرشدوا ـ أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم، ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم ويذيقوهم حلاوته، ويعرفوهم منزلته، ويجعلوه منهم دائماً على ذكر، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب، ويكون لفتواهم ومواعظهم رسوخ في القلوب، وأثر في النفوس.

فإلى القرآن والسنة ـ أيها العلماء ـ إن كنتم للخير تريدون.

الفرع الثالث:

المجتهد إذا أفتى مستنداً إلى ما يفيد الظن من أخبار الآحاد، أو الأقيسة أو النصوص الأخرى الظنية الدلالة ـ هل هو متبع لغير العلم؟

الجواب لا؛ بل هو متبع العلم، وذلك من ثلاثة وجوه:

الأول: أن كل دليل يكون ظنياً بمفرده ـ يصير يقيناً إذا عرض على كليات الشرع ومقاصده، وشهدت له الصواب، وهذا هو شأن المجتهدين في الأدلة الفردية.

الوجه الثاني: أن المجتهد يعتمد في الأخذ بالأدلة الظنية لما له من العلم بالأدلة الشرعية الدالة على اعتبارها.

الوجه الثالث: أن تلك الأدلة بمفردها تفيد الظن القوي، الذي يكون جزماً ويسمى ـ كما تقدم ـ علماً، فما اتبع المجتهد إلا العلم.

الفرع الرابع:

لا نعتمد في إثبات العقائد والأحكام على ما ينسب للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من الحديث الضعيف؛ لأنه ليس لنا علم به.

فإذا كان الحكم ثابتاً بالحديث الصحيح مثل قيام الليل، ثم وجدنا حديثاً في فضل قيام الليل بذكر ثواب عليه مما يرغب فيه ـ جاز عند الأكثر أن نذكره مع التنبيه على ضعفه الذي لم يكن شديداً على وجه الترغيب.

ولو لم يكن الحكم قد ثبت لما جاز الالتفات إليه، وهذا هو معنى قولهم:

(الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال)، أي في ذكر فضائلها المرغبة فيها لا في أصل ثبوتها.

فما لم يثبت بالدليل الصحيح في نفسه، لا يثبت بما جاء من الحديث الضعيف في ذكر فضائله، باتفاق من أهل العلم أجمعين.

الفرع الخامس:

أحوال ما بعد الموت كلها من الغيب، فلا نقول فيها إلا ما كان لنا به علم: بما جاء في القرآن العظيم، أو ثبت في الحديث الصحيح.

وقد كثرت في تفاصيلها الأخبار من الروايات مما ليس بثابت، فلا يجوز الالتفات إلى شيء من ذلك.

ومثل هذا كل ما كان من عالم الغيب مثل الملائكة والجن والعرش، والكرسي، واللوح، والقلم، وأشراط الساعة، وما لم يصل إليه علم البشر.

* * *

سؤال الجوارح يوم الهول الأكبر:

﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً**﴾.

من قال ما لم يسمع، سئل يوم القيامة سمعه فشهد عليه.

ومن قال: رأيت ولم ير سئل بصره فشهد عليه.

ومن قال: عرفت، ولم يعرف، أو اعتقد ما لم يعلم، سئل فؤاده فشهد عليه: لأنه في هذه الأحوال الثلاثة قد اتبع ما ليس له به علم. وهذه الشهادة كما قال تعالى:

﴿**يوم تشهد عليهم ألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم، بما كانوا يعملون**﴾ [النور: ٢].

هذه الثلاثة تسئل على وجوه منها ما تقدم، وهو الذي يرتبط به هذا الكلام بما تقدم من النهي.

ومنها سؤال السمع: لم سمع ما لا يحل؟ ولم لم يسمع ما يجب؟

وسؤال البصر: لم رأى ما لا يحل؟ وعن جميع أعمال البصر، من نظر البغض والاحتقار ونحو ذلك؟

وسؤال الفؤاد: عما اعتقد؟ وعما قصد؟ وجميع أعمال القلوب؟

فوائد ختام الآية:

فختام هذه الآية تأكيد للنهي السابق.

وتفصيل لطرق العلم، وتنبيه على لزوم حفظها واحدة واحدة.

وترهيب للإنسان من اتباع ما لم يعلم بما يؤول إليه أمره من فضيحة يوم القيامة، وخزي بشهادة جوارحه عليه.

فالله نسأل أن يجعلنا متبعين للعلم في جميع ما نعمل، ويثبِّتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

آية الأخلاق

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

[الاسراء: ٣٧ و٣٨ و٣٩]

(المرح): مشية فيها خفة ونشاط، واختيال، ناشئة عن شدة فرح بالنفس. تقول العرب: أمرح الكلأ الفرس فمرح فهو فرس مرح وممراح، إذا شبع فأخذ يمشي بخفة ونشاط واختيال. ويقال: مرح الرجل إذا اختال في مشيته ونظر في عطفيه، ولا يكون ذلك إلا لفرحه بنفسه وإعجابه بها.

(وخرق الأرض): ثقبها.

(والطول): ارتفاع القامة.

نصب مرحاً بتمش؛ لأنه متضمن له تضمن الكلي لجزئيه؛ إذ المرح جزئي من جزئيات المشي، فكأنه قال: لا تمرح مرحاً. ونظيره قول الشاعر:

يعجبه السخون والبرودُ والتمر حبّاً ما له مَزِيدُ[١]

فنصب حباً بيعجب؛ لأن الإعجاب متضمن للحب.

أو نصب على أنه حال كجاءني زيد ركضاً.

ونصب طولاً على أنه تمييز، أي من جهة الطول. والتقدير: ولن يبلغ طول الجبال.

المعنى:

حب الإنسان لنفسه غريزة فيه، وذلك يحمله على الإعجاب والفرح بها، وبكل ما يصدر عنها. ويستخفه ذلك حتى يتركه يمشي بين الناس مختالاً متبختراً، وهذه هي مشية المرح التي نهى الله تعالى في هذه الآية عنها.

ولما كانت هي فرعاً عن الإعجاب بالنفس والفرح بها، فالنهي منصبٌّ على أصلها كما انصبَّ عليها.

ولما كانت هذه العلة ناشئة عن علة العجب، أعقب الله تعالى بيان الداء الذي نهى بذكر الدواء الذي يقلعه من أصله، فقال تعالى:

﴿**إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً**﴾. فذكّر الإنسان بضعفه بين مخلوقين عظيمين من فوقه ومن تحته، فإذا ضرب برجليه الأرض في مرحه فهو لا يستطيع خرقها. وإذا تطاول بعنقه في اختياله فهو لن يبلغ طول الجبال، فقد أحاط به العجز من ناحيتيه.

وذكر الإنسان لضعفه وعجزه أنجع دواء لمرض إعجابه بنفسه.

نعم، الإنسان أعظم من الأرض والجبال بعقله، ولكنه لو سار على نور عقله لما مشى في الأرض مرحاً، لأن عقله يبصِّره بعيوب نفسه، ونقائص بشريته، فلا يدعه يعجب فلا يكون من المرحين، فما مرح إلا وهو محروم من نور العقل مفتون بمادة الجسم، فذكر بضعف هذا الجسم وصغارته.

العجب أصل الهلاك:

إذا أُعجب المرء بنفسه عمي عن نقائصها، فلا يسعى في إزالتها، ولهى عن الفضائل فلا يسعى في اكتسابها؛ فعاش ولا أخلاق له، مصدراً لكل شر، بعيداً عن كل خير.

وعن العجب بالنفس ينشأ الكبر على الناس، والاحتقار لهم، ومن احتقر الناس لم ير لهم

---

(١) الرجز لرؤبة بن العجاج، وهو في ملحق ديوانه (ص١٧٢) والمقاصد النحوية (٣/٤٥). والرجز بلا نسبة في شرح الأشموني (١/٢١٠) وشرح المفصل (١/١١٢) واللمع في العربية (ص ١٣). وفيه شاهد نحوي، وهو قوله: «يعجبه.. حبًّا» حيث جاء المفعول المطلق مصدراً من غير اشتقاق الفعل، أي من غير لفظ الفعل، ولكن من معناه.

حقاً، ولم يعتقد لهم حرمة، ولم يراقب فيهم إلاَّ[١] ولا ذمة، وكان عليهم ـ مثل ما كان على نفسه ـ أظلم الظالمين.

وإبليس اللعين ـ نعوذ بالله تعالى منه ـ كان أصل هلاكه، من عجبه بنفسه، وأنه خلق من النار، وأنه خير من آدم، فتكبر عليه فكان من الظالمين الهالكين.

ترك العجب شرط في حسن وكمال الأخلاق:

تربية النفوس تكون بالتخلية عن الرذائل، والتحلية بالفضائل.

والعجب هو أساس الرذائل، فأول الترك تركه.

وهو المانع من اكتساب الفضائل فشرط وجودها تركه كذلك.

ومن لم يكن معجباً بنفسه، كان بمدرجة التخلق بمحاسن الأخلاق والتنزه عن نقائصها، لأن الإنسان مجبول على محبة الكمال وكراهة النقص، فإذا سلم من العجب فإن تلك الجبلة[٢] تدعوه إلى ذلك التخلق والتنزه، فإذا نبه على نقصه لم تأخذه العزة، وإذا رغب في الكمال كانت له إليه هزة، فلا يزال بين التذكيرات الإلٓهية، والجبلة الانسانية الخلقية، يتهذب، ويتشذب، حتى يبلغ ما قدر له من كمال.

ولهذه المعاني التي تتصل بتفسير هذه الآية الكريمة ـ وهي أصول في علم الأخلاق ـ عَنْوَنَّا عليها بآية الأخلاق.

* * *

تأكيد الأوامر والنواهي المتقدمة بطريق الايجاز:

﴿كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً﴾.

إن الغاية التي يسعى إليها كل عاقل هي السعادة الحقة، وإن التكاليف الإسلامية كلها شرعت لسوقه اليها؛ ولما كانت أصولها قد تضمنتها الآيات السابقة أمراً ونهياً بطريق الإطناب والتفصيل؛ أعيد الحديث عنها في هذه الآية بطريق الإيجاز والإجمال، قصداً للتأكيد وتقرير هذه الأصول العظيمة في النفوس، مع اشتمال هذه الآية الموجزة على ما لم يشتمل عليه ما تقدمها. وهذا من بديع التأكيد، لاشتماله على السابق مع شيء جديد.

(السيِّىء): هو القبيح، والقبائح المنهي عنها فيما تقدم قبيحة لذاتها، ولنهي الله تعالى عنها.

(والمكروه) هو المبغوض المسخوط عليه، وهو ضد المحبوب المرضي عنه.

والمحاسن محبوبة لله أمر بها ويثيب عليها ويرضى على فاعلها، والمقابح مبغوضة له تعالى، نهى عنها، ويعاقب عليها، ويسخط على مرتكبها.

---

(١) الإلّ: العهد. وفي التنزيل العزيز: **﴿لا يرقبون في مؤمن إلّا ولا ذمّة﴾**.

(٢) الجبلة (بكسر الجيم والباء وتشديد اللام): الخِلْقة. وفي التنزيل العزيز: **﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾** والجبلّة في هذه الآية الكريمة بمعنى: الأمّة. انظر المعجم الوسيط (ص ١٠٦).

وليس المكروه بمعنى عدم المراد، لأنه لا يكون في ملكه تعالى ما لا يريد، وما تشاءون إلا أن يشاء الله.

وليس بمعنى المنهي عنه نهياً غير جازم لأن ذلك اصطلاح فقهي حادث بعد نزول القرآن، والقرآن لا يفسر الحادثة بالاصطلاحات.

(ذلك): إشارة إلى جميع ما تقدم من المأمورات والمنهيات على قراءة (سيئه) فالمكروه هو سيىء ما تقدم، وهو القبائح المنهي عنها.

أو إشارة إلى خصوص القبائح على قراءة: (سيئة).

(ومكروهاً): خبر كان على القراءة الأولى، وخبر ثان على القراءة الثانية.

وتقدير الكلام على القراءة الأولى:

كل ذلك المذكور كان سيئه ـ وهو المنهيات ـ مكروهاً عند ربك. ومفهومه: أن حسنه ـ وهو المأمورات ـ محبوب عنده.

وعلى الثانية كل ذلك المنهي عنه كان سيئه مكروهاً عند ربك. ومفهومه: أن المأمور به حسن عنده.

المعنى:

عرف تعالى عباده في هذه الآية بمنطوقها ومفهومها ـ على ما تقدم في التقرير ـ أن ما أمرهم به هو الحسن المحبوب، وان ما نهاهم عنه هو القبيح المبغوض.

فعلموا من ذلك أن أوامر الشرع ونواهيه هي على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة، وأنه ـ تعالى ـ لا يأمر بقبيح ولا ينهى عن حسن.

وفي علمهم بهذا ما يحملهم على الامتثال ويرغبهم فيه. فإن الحسن تميل إليه النفوس، والقبيح تنفر منه.

وفي قوله تعالى: ﴿**عند ربك**﴾ غاية الترغيب في الحسن والتنفير من القبيح، فإن الحسن جد الحسن ما كان حسناً عند الله تعالى، والقبيح جد القبيح ما كان قبيحاً عنده. وفي اسم الرب تنبيه على أن العلم بالحسن والقبيح على وجه التفصيل والتدقيق ـ حتى يكون المأمور به حسناً قطعاً، والمنهي عنه قبيحاً قطعاً ـ إنما هو قوله تعالى، وأن أوامره ونواهيه ـ تعالى ـ الجارية على مقتضى ذلك هي من مقتضى ربوبيته ـ تعالى ـ وتدبيره لخلقه.

مكانة هذه الأصول علماً وعملاً:

﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾:

لما بينت الأصول تمام البيان، وقررت غاية التقرير ـ جاءت هذه الآية للتنويه بها لحث العباد على تحصيل ما فيها من علم، والتحلي بما دعت إليه من عمل.

الحكمة هي العلم الصحيح، والعمل المتقن المبني على ذلك العلم.

وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: «هي الفقه في دين الله والعمل به».

والقرآن حكمة لدلالته على ذلك كله.

(ذلك): إشارة إلى ما تضمنته الآيات المتقدمة من قوله تعالى: ﴿**لا تجعل مع الله إلهاً آخر**﴾ ومن في «مما» تبعيضية. ومن في «من الحكمة» بيانية، مجرورها بين المبهم، وهو ما في قوله «مما». والتقدير: ذلك الذي تقدم بعض الحكمة التي أوحاها إليك ربك.

المعنى:

هذا ضرب آخر من تأكيد العمل بما تقدم، والترغيب فيه: فبين تعالى أن ما تضمنته الآيات المتقدمة كله حكمة، فالمتحقق بما فيها من علم، والمتحلي بما حثت عليه من أعمال، هو الحكيم الذي كمل من جهته العلمية وجهته العملية، وتلك أعلى رتب الكمال للإنسان.

وفي ذكر أنها بعض من كل، تنبيه على جلالة كلها، وهو عموم ما أوحى الله تعالى إلى نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم.

وتنبيه أيضاً على أن شرح هذه الأصول فيما أفادته من علم وعمل، والتفقه فيها يرجع فيه إلى الوحي، ويعتمد في ذلك على بيانه.

وفيه بيان أن الوحي هو المرجع الوحيد لبيان دين الله تعالى وشرعه، وما أنزله لعباده من الحكمة، وذلك الوحي هو القرآن العظيم، وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم.

ختام الآيات:

﴿**ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتُلقى في جهنم ملوماً مدحوراً**﴾.

لما كانت هذه الآيات في أصول الهداية، وأساس الهداية وشرطها هو التوحيد: ختمت الآيات بالنهي عن الشرك كما بدأت به.

(الإلقاء): هو الطرح.

(والملوم): هو الذي يقال له لم فعلت القبيح؟ وما حملك عليه؟ ونحو هذا...

(والمدحور): المبعد. وانتصبا على الحال.

المعنى:

نهى تعالى عن الشرك، وأن يعبد معه سواه، فالعبادة بالقلب واللسان والجوارح لا تكون إلا له.

وكما حذر في فاتحة الآيات بقعود المشرك في الدنيا مذموماً بالشرك الذي ارتكبه مخذولاً لا

ناصر له ـ كذلك حذر هنا بمآل المشرك في آخرته، بإلقائه في جهنم، ملوماً على ما قدم، مطروداً مبعداً في دركات الجحيم.

* * *

نظرة عامة في الآيات المتقدمة:

قد تضمنت هذه الآيات على قلّتها: الأصول التي عليها تتوقف حياة النوع البشري وسعادته:

من حفظ النفوس والعقول: ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم...**﴾.

والأنساب، والأموال، والحقوق، ﴿**وأوفوا بالعهد...**﴾ ﴿**وأوفوا الكيل**﴾..

والأعراض: ﴿**ولا تقربوا الزنا..**﴾، ﴿**ولا تقف...**﴾...

والدين الذي هو عمدة ذلك كله وفي حفظه حفظ لجميعها.
وفي افتتاح الآيات بقوله تعالى:

﴿**لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً**﴾. وختمها بقوله تعالى: ﴿**ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً**﴾، بيان من الله تعالى لخلقه، بأن الدين هو أصل هذه الكمالات كلها، وهو سياج وقايتها، وسور حفظها، وأن التوحيد هو ملاك(١) الأعمال وقوامها، ومنه بدايتها وإليه نهايتها.

وكذلك المسلم الموفق يبتدي حياته بكلمة التوحيد حتى يموت عليها.

فالله نسأل ـ كما منَّ علينا بها في البداية ـ أن يمن علينا بها في النهاية.

اللهم هذا لنا، وللمسلمين أجمعين.

القَول الحسَنُ

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الاسراء: ٥٣ و٥٤]

تمهيد:

اللسان أداة البيان، وترجمان القلب والوجدان.

(١) مَلاك الأمر ومِلاكه بفتح المميم وكسرها): قوامه وخلاصته، أو عنصره الجوهري (المعجم الوسيط: ص ٨٨٦).

والكلام به يتعارف الناس ويتقاربون، وبه يتحاجون ويتفاضلون، ولولاه لما ظهرت ثمرات العقول والمدارك، ولما تلاحقت الأفكار والمشاعر، ولما تزايدت العلوم والمعارف، ولما ترقّى الإنسان في درجات أنواع الكمالات، ولما امتاز على بقية الحيوانات.

فهو رابطة أفراد النوع الإنساني وعشائره وأممه. وبريد عقله وواسطة تفاهمه.

فإذا حسن قويت روابط الإلفة، وتمكنت أسباب المحبة، وامتد رواق السلام بين الأفراد والعشائر والأمم. وتقاربت العقول والقلوب بالتفاهم، وتشابكت الأيدي في التعاون والتآزر.

ويعني العالم من وراء ذلك تقرر الأمن واطراد العمران.

وإذا قبح كان الحال على ضد ذلك:

فالكلام السيىء قاطع لأواصر الأخوة، باعث على البغضاء والنفرة، يبعد بين العقول فتحرم الاسترشاد والاستعداد والتعاون، وبين القلوب فتفقد عواطف المحبة وحنان الرحمة، وهما أشرف ما تتحلى به القلوب، وإذا بطلت الرحمة والمحبة بطلت الألفة والتعاون، وحلت القساوة والعداوة، وتبعهما التخاصم والتقاتل.

وفي ذلك كل الشر لأبناء البشر.

فالمحصل للناس سعادتهم وسلامتهم، والمبعد لهم عن شقاوتهم وهلاكهم - هو القول الحسن.

ولهذا أمر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يرشد العباد إلى قول التي هي أحسن، فقال تعالى: ﴿**وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن**﴾.

والعباد المأمورون هنا هم المؤمنون لوجهين:

الأول: أنهم أُضيفوا إليه وهذه إضافة شرف لا يكون إلا للمؤمنين به.

الثاني: أن الذين يخاطبون بهذا الإرشاد ويكون منهم الامتثال إنما هم من حصلوا أصل الإيمان.

(والتي هي أحسن) هي الكلمة الطيبة، والمقالة التي هي أحسن من غيرها.

فيعم ذلك:

ما يكون من الكلام في التخاطب العادي بين الناس، حتى ينادي بعضهم بعضاً بأحب الأسماء إليه.

وما يكون من البيان العلمي فيختار أسهل العبارات وأقربها للفهم حتى لا يحدث الناس بما لا يفهمون، فيكون عليهم حديثه فتنة وبلاء.

وما يكون من الكلام في مقام التنازع والخصام فيقتصر على ما يوصله إلى حقه في حدود الموضوع المتنازع فيه، دون أذاية لخصمة، ولا تعرض لشأن من شؤونه الخاصة به.

وما يكون من باب إقامة الحجة وعرض الأدلة، فيسوقها بأجلى عبارة وأوقعها في النفس، خالية من السب والقدح، ومن الغمز والتعريض، ومن أدنى تلميح إلى شيء قبيح.

وهذا يطالب به المؤمنون سواء كان ذلك فيما بينهم، أو بينهم وبين غيرهم.

وقد جاء في الصحيح: «أن رهطاً من اليهود دخلوا على النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقالوا: السام[١] عليكم ففهمتها عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: وعليكم السام واللعنة. فقال لها رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله. فقالت: ألم تسمع ما قالوا؟ فقال: قد قلت: وعليكم»[٢].

فكان الرد عليهم بمثل قولهم بأسلوب العطف على كلامهم، وهو قوله وعليكم، أحسن من الرد عليهم باللعنة. فقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ القولة التي هي أحسن، وهذا أدب الإسلام للمسلمين مع جميع الناس.

وأفاد قوله تعالى: ﴿أحسن﴾ بصيغة اسم التفضيل أن علينا أن نتخير في العبارات الحسنة، فننتقي أحسنها في جميع ما تقدم من أنواع مواقع الكلام.

فحاصل هذا التأديب الرباني هو اجتناب الكلام السيىء جملة، والاقتصار على الحسن، وانتقاء واختيار الأحسن من بين ذلك الحسن. وهذا يستلزم استعمال العقل والروية عند كل كلمة تقال، ولو كلمة واحدة:

فرب كلمة واحدة أوقدت حرباً، وأهلكت شعباً، أو شعوباً.

ورب كلمة واحدة أنزلت أمناً وأنقذت أمة أو أمماً.

وقد بين لنا النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مكانة الكلمة الواحدة من الأثر في قوله: «الكلمة الطيبة صدقة»[٣] و «اتقوا النار ولو بكلمة طيبة»[٤].

وهذا الأدب الإسلامي ـ وهو التروي عند القول، واجتناب السيىء واختيار الأحسن ـ ضروري لسعادة العباد وهنائهم. وما كثرت الخلافات وتشعبت الخصومات وتنافرت المشارب،

---

(١) السام: الموت.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ٣٥ و٣٨، والجهاد باب ٩٨، والاستئذان باب ٢٢، والدعوات باب ٥٩ و٦٣. ومسلم في السلام حديث ١٠ و١١ و١٣. والترمذي في السير باب ٤٠، والاستئذان باب ١٢ و١٣، وتفسير سورة ٦٨ باب ٣. والدارمي في الاستئذان باب ٧. وأحمد في المسند (٢/١١٤، ١٧٠، ٢٢١، ٣/١٤٠، ١٤٤، ٢١٠، ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٤١، ٢٦٢، ٢٨٩، ٣٨٣، ٦/٣٧، ١١٦، ١٣٤، ١٣٥، ١٩٩، ٢٢٩).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة البخاري في الجهاد باب ١٢٨. ومسلم في الزكاة حديث ٥٦. وأحمد في المسند (٢/٣١٦، ٣٧٤).

(٤) رواه البخاري في الأدب باب ٣٤، من حديث عديّ بن حاتم عن رسول الله ﷺ بلفظ: «اتقوا النار ولو بشقّ تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة».

وتباعدت المذاهب حتى صار المسلم عدو المسلم - والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «المسلم أخو المسلم»[1] - إلا بتركهم هذا الأدب، وتركهم للتروي عند القول والتعمد السيىء، بل للأسوأ في بعض الأحيان.

* * *

التحذير من كيد العدو الفتان:

﴿إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾.

(نزغ الشيطان) وسوسته ليهيج الشر والفساد، وعداوته باعتقاده البغيض، وسعيه في جلب الشر والضر، وإبانته لعداوته باعلانه لها كما علمنا القرآن.

وهو يلقي للإنسان كلمة الشر والسوء، ويهيج غضبه ليقولها، ويهيج السامع ليقول مثلها، وهكذا حتى يشتد المراء ويقع الشر والفساد.

ولون آخر من نزغه، وهو أنه يحسن للمرء قول الكلمة التي يكون فيها احتمال السوء، ويلح عليه في قولها، ويبالغ في تحسين الوجه السالم منه، وفي تهوين أمر وجهها القبيح حتى يقولها. فإذا قالها عاد لسامعه بالنزغ يطمس عنه الوجه السالم منها، ويكبر له الوجه القبيح، ولا يزال به يثير نخوته، ويهيج غضبه، حتى يثور فيقع الشر والفساد بينه وبين صاحبه.

فحذر الله تعالى عباده من كيده حتى يحترسوا منه إذا تكلموا وإذا سمعوا، فيتباعدون عما فيه احتمال السوء فضلاً عن صريحه، ويحملون الكلام على وجهه الحسن عند احتماله له، ويتجاوزون عن سيئة الصريح ما أمكن التجاوز.

المحاسبة على الحال والظاهر والتفويض إلى الله تعالى في العواقب والسرائر:

﴿ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم، أو إن يشأ يعذبكم، وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾.

أقوى الأحوال مظنة لكلمة السوء هي حالة المناظرة والمجادلة.

وأقرب ما تكون إلى ذلك إذا كان الجدال في أمر الدين والعقيدة، فما أكثر ما يضلل بعض بعضاً أو يفسقه أو يكفره، فيكون ذلك سبباً لزيادة شقة الخلاف اتساعاً، وتمسك كل برأيه ونفوره من قول خصمه. دع ما يكون عن ذلك من البغض والشر.

فذكر الله تعالى عباده بأنه هو العالم ببواطن خلقه وسرائرهم وعواقب أمرهم، فيرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، بحكمته وعدله:

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في المظالم باب ٣، وأبو داود في الأدب باب ٣٨، والترمذي في الحدود باب ٣، وأحمد في المسند (٢/ ٩، ٦٨) من حديث عبدالله بن عمر. وأخرجه مسلم في البر والصلة والآداب حيث ٣٢، والترمذي في البرّ باب ١٨، من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٤، ٧١) من حديث رجل من بني سليط.

فلا يقطع لأحد بأنه من أهل النار لجهل العاقبة سواء كان من أهل الكفر، أو كان من أهل الفسق، أو كان من أهل الابتداع.

كما لا يقطع لأحد بالجنة كذلك، إلا من جاء النص بهم.

فلا يقال للكافر عند دعوته أو مجادلته: إنك من أهل النار، ولكن تذكر الأدلة على بطلان الكفر، وسوء عاقبته.

ولا يقال للمبتدع: يا ضال، وإنما تبين البدعة وقبحها.

ولا يقال لمرتكب الكبيرة: يا فاسق، ولكن يبين قبح تلك الكبيرة وضررها وعظم إثمها.

فتقبح القبائح والرذائل في نفسها، وتجتنب أشخاص مرتكبها.

إذ رب شخص هو اليوم من أهل الكفر والضلال تكون عاقبته إلى الخير والكمال. ورب شخص هو اليوم من أهل الإيمان ينقلب ـ والعياذ بالله تعالى ـ على عقبه في هاوية الوبال.

وخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم: أنه لم يرسله وكيلاً على الخلق، حفيظاً عليهم، كفيلاً بأعمالهم[1].

فما عليه إلا تبليغ الدعوة، ونصرة الحق بالحق، والهداية والدلالة إلى دين الله وصراطه المستقيم.

خاطبه بهذا ليؤكد لخلقه ما أمرهم به، من قول التي هي أحسن للموافق والمخالف.

فلا يحملنّهم بغض الكفر والمعصية على السوء في القول لأهلها، فإنما عليهم تبليغ الحق كما بلغه نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم.

ولن يكون أحد أحرص منه على تبليغه؛ فحسبهم أن يكونوا على سنته وهديه.

أحيانا الله عليها، وأماتنا عليها، وحشرنا في زمرة أهلها. آمين.

دعاء غير الله

من دعا غير الله، فقد عبد ما دعاه وهو في عبادته من الخاسرين

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ

---

(١) قال تعالى في الآية ٥٤ من سورة الإسراء: **﴿إن يشأ يرحمكم وإن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾** وقال: **﴿ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾** ـ الآية ٨٠ من سورة النساء. وقال: **﴿ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾** ـ الآية ١٠٧ من سورة الأنعام. وقال: **﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾**. الآية ٤٨ من سورة الشورى.

عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٦ و٥٧]

(الدعاء): هو النداء لطلب شيء من المدعو، ولذلك لا يدعو إلا العاقل، أو ما نزل منزلته مجازاً من الجمادات، أو ما كان له فهم لبعض الأصوات من العجماوات[١].

وإذا كان لشيء معظم، ليطلب منه ما هو وراء الأسباب العادية، وفوق الطاقة البشرية، فهو عبادة، ولا يكون إلا من المخلوق لخالقه، وإذا لم يكن كذلك فهو عادة، وهو دعاء المخلوقين بعضهم بعضاً لغرض من الأغراض.

و(الزعم) القول بغير دليل.

(ومن دونه) أي غيره. (والملك) الاستيلاء على الشيء، والتمكن من التصرف فيه.

(وكشف الضر): إزالته.

﴿ولا تحويلاً﴾: نقلاً له إلى شخص آخر.

أمروا بالدعاء لتوقيفهم على خيبتهم فيه بظهور عجز من يدعون. وحذف مفعولا زعم، والتقدير: زعمتوهم آلهة؛ للعلم بهما؛ لأنهم ما دعوهم إلا لكونهم آلهة في زعمهم.

و﴿لا يملكون﴾ وقع بعد الفاء ولم يجزم في جواب الأمر؛ لأنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فهم لا يملكون، وهذا لأن الفاء قصد بها العطف، ولم يقصد بها السببية[٢] ـ ولا يصح أن تقصد بها السببية ـ لأن ذلك يقتضي أن يكون عدم ملكهم متسبباً عن الدعاء، مثلها في قول الشاعر:

رَبِّ وَفِّقْنِي فَلَا أَعْدِلَ عَنْ سَنَنِ السَّاعِينَ فِي خَيْرِ سَنَنْ[٣]

فإن عدم العدول متسبب عن التوفيق.

وليس كذلك الأمر في هذه الآية؛ فإن عدم ملكهم متحقق، سواء دعوا أم لم يدعوا.

فلذلك امتنع النصب ووجب الرفع على التقدير المتقدم[٤].

---

(١) العجماوات: جمع عجماء، وهي البهيمة. انظر المعجم الوسيط (ص ٥٨٦).

(٢) قال العيني في المقاصد النحوية (٣٨٨/٤) بعد أن أورد البيت التالي «ربِّ وفقني. .إلخ» حيث نصب الفعل «أعدل» بفاء السببية بعد فعل الدعاء الأصيل؛ قال: «واحترز بالفعل من أن يكون الدعاء بالاسم، نحو: سقياً لك ورعيًا، وبقولنا: أصيل، من الدعاء المدلول عليه بلفظ الخبر، نحو: رحم الله زيداً فيدخله الجنة». وانظر الحاشية التالية.

(٣) البيت بلا نسبة في الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع في العلوم العربية للشنقيطي (٨٠/٤) وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك (٥٦٣/٣) وشرح شذور الذهب لابن هشام (ص ٣٩٦) وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (ص ٥٧١) وشرح قطر الندى وبلّ الصدى لابن هشام (ص ٧٢) والمقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية للعيني (٣٨٨/٤) وهمع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية للسيوطي (١١/٢/).

(٤) راجع الحاشية (٢).

المعنى:

قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، الذين اتخذوا آلهة من دون الله فعبدوها: ادعوا معبوداتكم هذه التي زعمتموها آلهة من دون الله، عندما ينزل بكم الضر، وانظروا:

هل تستطيع تلك المعبودات الباطلة أن تكشف وتزيل عنكم ذلك؟

أو أن تحوله عنكم إلى غيركم؟ فإنكم تجدونها عاجزة عن ذلك غير قادرة على شيء منه.

وإنما يقدر على ذلك الإلّه الحق، وهو الله الذي خلقها وخلقكم، فاعبدوه هو، وأقلِعوا عن عبادة ودعاء ما سواه.

الأحكام:

تدل الآية على أن دعاء غير الله ـ تعالى ـ لدفع الضر، ومثله جلب النفع، عبادة للمدعو: فإن المشركين كانوا يتعبدون لآلهتهم بهذا الدعاء، الذي نهاهم الله تعالى عنه ببيان خيبتهم فيه، ووقوعه في غير محله.

وتسمية الدعاء عبادة ثابتة لغة وشرعاً بغير دليل:

منها حديث النعمان بن بشير عند أحمد وأصحاب السنن مرفوعاً: «الدعاء هو العبادة»[١].

وحديث أنس عند الترمذي مرفوعاً: «الدعاء مخ العبادة»[٢].

وهذا لأن العبادة هي الخضوع والتذلل، لمن بيده الخلق والتصرف والعطاء والمنع. ومظهر هذا الخضوع والتذلل هو الدعاء لدفع الضر، أو جلب النفع؛ فلذلك عبر عنه في الحديث الأول بأنه هو العبادة، أي معظمها وفي الثاني بأنه مخ العبادة أي خالصها.

ودلت الآية أيضاً على أنه لا يجوز دعاء غير الله من المخلوقين، أي مخلوق كان لدفع ضر، ومثله جلب نفع؛ لأن الآية نعت[٣] على المشركين دعاءهم من لا يملك كشف الضر ولا تحويله، وهذا أمر يشترك فيه جميع المخلوقين، فلا مخلوق يستطيع كشف الضر أو تحويله عن نفسه ولا عن غيره. فلا مخلوق يجوز دعاؤه.

ودلت على أن كشف الضر أو تحويله ـ ومثله جلب النفع ـ إنما هو للمعبود الحق، لأن الآية استدلت عليهم في مقام الأمر بتوحيد الله، فأفاد ذلك قصر هذا التصرف عليه تعالى وحده.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٦٧/٤، ٢٧١، ٢٧٦) والترمذي في تفسير سورة البقرة باب ١٦، وابن ماجة في الدعاء باب ١.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ١ (حديث رقم ٣٣٧١) من طريق الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن عبيدالله بن أبي جعفر عن أبان بن صالح عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ مرفوعاً. قال الترمذي «هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة». وقوله مخ العبادة: أي خالص العبادة ولبّها.

(٣) يقال: هو يَنْعَى على فلان كذا: يعيبه عليه ويشهّر به. وفلان ينعى على نفسه بالفواحش: يشهر نفسه بتعاطيها. (المعجم الوسيط: ص ٩٣٦).

استنتاج:

لما ثبت شرعاً، أن الدعاء عبادة ـ فمن دعا شيئاً فقد عبده ولو كان هو لا يسمي دعاءه عبادة ـ جهلاً منه، أو عناداً ـ ؛ لأن العبرة بتسمية الشرع واعتباره لا بتسمية المكلف واعتباره.

ألا ترى لو أن شخصاً قام للصلاة بدون وضوء مستحلاًّ لذلك، فلما أنكرنا عليه قال: أنني لا أعتبر هذه الأفعال والأقوال عبادة، ولا أسميها صلاة. أترى ذلك يجيز فعله، ويدفع عنه تبعته؟؟ كلا!! ولا خلاف في ذلك بين المسلمين.

بل قد حكموا بردته إن كان يفعل ذلك ويراه حلالاً، لأنه يكون قد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة.

فالداعي لغير الله تعالى يطلب منه قضاء حوائجه، قد عبد من دعاه وإن لم يعتبر دعاءه عبادة؛ لأن الله قد سماه عبادة.

وإذا استمر على فعله ذلك مستحلاًّ له بعدم تعليمه وإرشاده، يكون قد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، وهو أن العبادة ـ والدعاء منها ـ لا تكون إلا لله فيحكم بردته، نظير مستحل الصلاة بلا وضوء، بلا فارق.

تطبيق:

إذا علمت هذه الأحكام، فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين، تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقاً في هذا الضلال:

فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات، يسألونهم حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون.

ويذهبون إلى الأضرحة التي شيدت عليها القباب، أو ظلمت بها المساجد فيدعون من فيها، ويدقون قبورهم، وينذرون لهم، ويستثيرون حميتهم، بأنهم خدامهم وأتباعهم، فكيف يتركونهم؟؟ وقد يهددونهم بقطع الزيارة، وحبس النزور.

وتراهم هنالك في ذل وخشوع وتوجه، قد لا يكون في صلاة من يصلي منهم!!

فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعوين، وإن لم يعتقدوها عبادة؛ إذ العبرة باعتبار الشرع، لا باعتبارهم.

فياحسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباساً مقلوباً، حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضلال.

تحذير وإرشاد:

فليحذر قراؤنا من أن يتوجهوا بشيء من دعائهم لغير الله، وليحذروا غيرهم منه.

ولينشروا هذه الحقائق بين إخوانهم المسلمين، بما استطاعوا، عسى أن يتنبه الغافل، ويتعلم

الجاهل، ويقلع الضالون عن ضلالهم، ولو بطريق التدريج؛ وبذلك يكون قراؤنا قد أدوا أمانة العلم، وقاموا بفريضة النصح، وخدموا الإسلام والمسلمين.

* * *

نجاة المعبودين بهداهم، وهلاك العابدين بضلالهم

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾

[الإسراء: ٥٧]

﴿يبتغون﴾ يطلبون باعتناء واهتمام.

﴿الوسيلة﴾، سبب الوصول إلى البغية، والقرب من المطلوب، والوسيلة الموصلة إلى الله هي عبادته وطاعته بامتثال أوامره ونواهيه، والتزام محارمه واجتناب مكارهه، وهذا المعنى هو المراد هنا.

﴿أقرب﴾ أي في المكانة والمنزلة.

﴿يرجون رحمته﴾ ينتظرون إنعاماته لافتقارهم إليه.

﴿ويخافون عذابه﴾ يخشون عقوبته وانتقامه؛ لعلمهم بقوته وسلطانه، وقصورهم عن القيام بجميع واجب حقه.

﴿محذورًا﴾، مخيفاً متحرزاً منه.

﴿أولئك﴾: إشارة إلى المعبودين الذين وصفهم.

و ﴿يدعون﴾: ضميره للداعين، وأصله يدعونهم يبتغون خير أولئك.

و ﴿أيهم﴾، اسم موصول مضاف إلى ضمير المبتغين، وهو بدل بعض من كل من الواو في يبتغون.

و ﴿أقرب﴾: خبر مبتدأ محذوف تقديره «هو» والجملة صلة الموصول.

ويحتمل أن يكون أيهم استفهاماً مبتدأ وأقرب خبر. وتقدير الكلام: ينظرون أيهم أقرب.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي في نفر من الإنس، كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجن، وبقي الإنس على عبادتهم.

وجاء عنه وعن غيره: أنها في الذين كانوا يعبدون الملائكة من العرب.

المعنى:

على الإعراب الثاني[١]:

أولئك الجن والملائكة الذين يدعوهم هؤلاء المشركون أرباباً قد أسلموا؛ فصاروا من عباد الله المؤمنين، يطلبون أسباب الزلفة والقرب عند ربهم، ينظرون من هو الذي يكون منهم أقرب مكانه باجتهاده وصالح عمله.

وعلى الإعراب الأول[٢]:

يطلب الذي هو أقرب منهم أسباب الزلفة عند الله، فأحرى وأولى غيره.

ويرجون بأعمالهم الصالحة رحمته، ويخافون بمخالفتهم عذابه. إن عذاب ربك كان من حقه وشأنه أن يتقى ويحذر، لما فيه من عظيم الخزي وشديد الألم.

الأحكام:

أفادت الآية أن العبادة لا تنفع صاحبها إلا إذا كانت على الوجه الحق، وإلا فإنه لا يحصل منها إلا على الخيبة والوبال.

وأن المكلف لا يحمل شيئاً من إثم عمل غيره إذا لم يكن راضياً به، ولو كان ذلك العمل متسبباً عنه إذا لم يكن متسبباً هو فيه.

وأن المكلف مطالب بأن يطلب أسباب القرب إلى الله بجدّ واجتهاد.

وأن يكون جامعاً بين الرجاء والخوف في سلوكه.

التطبيق:

نعرف كثيراً من الصالحين - رحمهم الله تعالى - قد شيدت عليهم القباب، ونذرت لهم النذور، وقصدوا لقضاء الحاجات، ودعوا في المهمات.

وكان ذلك كله مما أحدثه المحدثون بعدهم، وبالغ فيه المستغلون له، ممن ينتمون إليهم؛ فهم - إن شاء الله تعالى - برآء من إثم ذلك كله، وإنما إثمه على فاعليه.

عبرة وتحذير:

يأتي يوم القيامة أولئك الذين كانوا يدعون الملائكة والجن المسلمين وعباد الله الصالحين، ويحسبون أنهم ينفعونهم في ذلك اليوم، فيتبرأ منهم أولئك الذين كانوا يعبدونهم بدعائهم، ويتركونهم في ذلك الموقف العصيب[٣].

---

(١) أي «أيهم» مبتدأ، و«أقرب» خبر؛ والتقدير: ينظرون أيهم أقرب.

(٢) أي أن «الذي» بدل بعض من الواو في «يبتغون»، و«أقرب» خبر لمبتدأ محذوف.

(٣) قال تعالى: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب﴾ - الآية ١٦٦ من سورة البقرة. وقال: ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ - الآية ٦٣ من سورة القصص.

فما أمرّ خيبتهم يومذاك!! وما أعظم حسرتهم! ويا لها من عبرة لقوم يعقلون!

فحذار يا إخواننا من هذه العاقبة السيئة، وهذا الموقف المخزي، فبادروا إلى توحيد الله بالدعاء الذي هو مخ العبادة.

واقتصروا في جانب الصالحين وعلى محبتهم (والترضية) عليهم وسؤال الرحمة لهم والاقتداء بهم فيما كان منهم من طاعة وخير، ولا تعظموهم بما لا يكون إلا لله رب العالمين.

والله يبصرنا بالحق ويهدينا إليه، ويجعلنا من حزبه، ويميتنا عليه آمين يا رب العالمين.

الطور الأخير لكل أمة وعاقبته

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

[الإسراء: ٥٨]

تمهيد:

الأمم كالأفراد، تمر عليها ثلاثة أطوار: طور الشباب، وطور الكهولة، وطور الهرم.

فيشمل الطور الأول:

نشأتها إلى استجماعها قوتها ونشاطها، مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة.

ويشمل الطور الثاني:

ابتداء أخذها في التقدم والانتشار، وسعة النفوذ، وقوة السلطان إلى استكمالها قوتها، وبلوغها غاية ما كان لها أن تبلغه من ذلك؛ بما كان فيها من مواهب، وما كان لها من استعداد، ما لديها من أسباب.

ويشمل الطور الثالث:

ابتداءها في التقهقر والضعف والانحلال، إلى أن يحل بها الفناء والاضمحلال، إما بانقراضها من عالم الوجود، وإما باندراسها في عالم السيادة والاستقلال.

وما من أمة إلا ويجري عليها هذا القانون العام، وإن اختلفت أطوارها في الطول والقصر، كما تختلف الأعمار.

* * *

هذه السنة الكونية التي أجرى الله عليها حياة الأمم في هذه الدنيا، أشار إليها في كتابه العزيز في غير ما آية:

فذكر أعمار الأمم، مقدرة محددة بآجلها في مثل قوله تعالى:

﴿ولكل أمة أجل، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ [الأعراف: ٣٤].

وذكر إنشاء الأمم على إثر الهالكين في مثل قوله تعالى:

﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ [الأنبياء: ١١].

وذكر طور شباب الأمة ودخولها معترك الحياة في مثل قوله تعالى:

﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فإن بني إسرائيل ما استخلفوا في الأرض حتى قووا، واشتدوا وتكونت فيهم أخلاق الشجاعة، والنجدة والحمية والأنفة بعد خروجهم من التيه.

وذلك هو الطور الأول طور الشباب للأمة الإسرائيلية.

وذكر الطور الثاني وهو طور الكهولة واستكمال القوة، وحسن الحال، ورغد العيش في مثل قوله تعالى: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان﴾ [النحل: ١١٢].

وذكر الطور الثالث طور الضعف والانحلال في مثل قوله تعالى:

﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ [الكهف: ٥٩]..

وإهلاكهم يكون بعد إسباغ النعمة وإقامة الحجة عليهم، وتمكن الفساد فيهم وتكاثر الظلم منهم. فإهلاكهم هو نهاية الطور الثالث من أطوار الأمم الثلاث.

وإلى خاتمة الطور الثالث وعاقبته، جاء البيان في قوله تعالى: ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾.

(القرية) المساكن المجتمعة، ومادة (ق ر ى) تدل على الجمع، فتصدق على القرية الصغيرة والمدينة الكبرى. وتطلق القرية مجازاً على السكان إطلاقاً لاسم المحل على الحال ومنه هذا.

و (الإهلاك) الإبادة والإفناء بالاستئصال كما فعل بعاد وثمود.

و ﴿قبل يوم القيامة﴾ أي في الدنيا.

و (العذاب الشديد) كأمراض الأبدان وفساد القلوب، وانحطاط الأخلاق، وافتراق الكلمة، وتسليط الظُّلَّام، كما أرسل على بني إسرائيل عباداً أولي بأس شديد، فساءوا وجوههم، وجاسوا خلال ديارهم. وكتسليط أهل الحق على أهل الباطل، وكالجدب والقحط وجوائح الأرض، وجوائح السماء.

و ﴿في الكتاب﴾ أي اللوح المحفوظ. و ﴿مسطوراً﴾ أي مكتوباً أسطاراً مبيناً.

﴿إن﴾ نافية. و ﴿من﴾ زيدت لاستغراق الجنس وتأكيد العموم.

و ﴿إلا﴾ أفادت مع إن النافية حصر كل قرية في أحد الأمرين من الهلاك والعذاب الشديد، ليعلم أن لا نجاة لكل قرية من أحدهما قطعاً.

و ﴿أو﴾ تفيد أحد الشيئين المذكورين على الإبهام وعدم التعيين.
و ﴿ذلك﴾ إشارة المذكور من الهلاك والتعذيب.

المعنى:

يقول تعالى: ما من قرية على وجه الأرض إلاّ ولا بد أن يحل بها منا هلاك وفناء بما يبيدها ويفنيها، أو عذاب شديد لا يفنيها، ولكنه يذيقها أنواع الآلام وشديد النكال.

كان هذا قضاء سابقاً في علمنا، ماضياً في إرادتنا، مكتوباً أسطاراً في اللوح المحفوظ.

الأحكام:

أحكام الله تعالى قسمان:

أحكام شرعية، وهي التي فيها بيان ما شرعه لخلقه مما فيه انتظام أمرهم وحصول سعادتهم إذا ساروا عليه.

وأحكام قدرية وهي التي فيها بيان تصرفه في خلقه على وفق ما سق في علمه وما سبق في إرادته.

والأحكام الشرعية تقع من العباد مخالفتها، فيتخلف مقتضاها من الفعل أو الترك.

والأحكام القدرية لا تتخلف أصلاً، ولا يخرج المخلوقات عن مقتضاها قطعاً.

وفي هذه الآية حكم من أحكامه القدرية، وهو أن كل قرية لا بد أن يصيبها أحد الأمرين المذكورين بما سبق من علمه، وما مضى من إرادته، فلا يتخلف هذا الحكم، ولا تخرج عنه قرية.

* * *

إيضاح وتعليل:

الله حكم عدل حكيم خبير؛ فما من حكم من أحكامه الشرعية إلا وله حكمته، وما من حكم من أحكامه القدرية إلا وله سببه وعلته.

لا لوجوب أو إيجاب عليه، بل بمحض مشيئته، ومقتضى عدله وحكمته.
وقد قضى على كل قرية بهذه العاقبة من الهلاك والعذاب الشديد في هذه الآية، وبيّن في غيرها سبب استحقاقها لها فقال تعالى:

﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ [الكهف: ٥٩]. .
﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ [هود: ١١٧].

﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ [القصص: ٥٩]. .

﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة﴾ [الأنبياء: ١١].

﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً﴾ [الطلاق: ٨].

﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ [النحل: ١١٢].

فأفادت هذه الآيات أن سبب الهلاك والعذاب هو الظلم، والفساد، والعتو، والتمرد، عن أمر الله ورسله، والكفر بأنعم الله.

﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت: ٤٦].

توجيه:

الطور الأخير للأمم هو الذي ذكر في الآيات كثيراً دون الطور الأول والثاني.

ووجه ذلك:

أنه هو الطور الذي ينتشر فيه الفساد، ويعظم فيه الظلم، وينتهي فيه الإعذار للأمة، ويحل فيه أجلها، فينزل بها ما تستحقه من هلاك أو عذاب فكرر ذكر هذا الطور لزيادة التحذير منه، والتخويف من سوء عاقبته، والحث على تدارك الأمر فيه بالإقلاع عن الظلم والفساد، والرجوع إلى طاعة الله وإعمال يد الإصلاح في جميع الشئون فيرتفع العذاب بزوال ما كان بنزوله من أسباب.

استنتاج وتطبيق:

القرى التي قضي عليها بالهلاك والاستئصال هذه، قد انتهى أمرها بالموت، وفاتت عن العلاج مثل عاد وثمود من الأمم البائدة.

وأما القرى التي قضي عليها بالعذاب الشديد، فهذه لا تزال بقيد الحياة فتداركها ممكن، وعلاجها متيسر:

مثل الأمم الإسلامية الحاضرة: فمما لا شك إن فينا لظلمًا، وعتواً وفساداً وكفراً بأنعم الله، وإننا من جراء ذلك لفي عذاب شديد.

ولا نعني بهذا أن الأمم الإسلامية مخصوصة بهذا، بل مثلها وأقوى منها في أسباب العذاب والهلاك غيرها من أمم الأرض. وإن لهم لقسطهم من العذاب الشديد. وإذا لم يأت المقدار المماثل من الهلاك أو العذاب لما عندهم من أسبابها؛ فلأنه لكل أمة أجل، ولما يأت ذلك الأجل بعد؛ فإذا جاء لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

* * *

إرشاد واستنهاض:

قد ربط الله بين الأسباب ومسبباتها خلقاً وقدراً بمشيئته وحكمته، لنهتدي بالأسباب إلى مسبباتها، ونجتنبها باجتناب أسبابها.

وقد عرفنا في الآيات المتقدمة بأسباب الهلاك والعذاب لنتقي تلك الأسباب فنسلم، أو نقلع عنها فننجو؛ فإن بطلان السبب يقتضي بطلان المسبب.

وقد ذكر لنا في كتابه أمة أقلعت عن سبب العذاب فارتفع عنها بعد ما كاد[1] ينزل بها، ليؤكد لنا أن الإقلاع عن السبب ينجي من المسبب، فقال تعالى:

﴿إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ [يونس: ٩٨].

فمبادرتهم للإيمان وإقلاعهم عن الكفر، كشف عنهم العذاب.

وأرشدنا في ضمن هذا العلاج الناجع في كشف العذاب، وإبطال أسبابه، وهو الإيمان.

كما أرشدنا إليه أيضاً في قوله تعالى قبل هذا:

﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها﴾ [يونس: ٩٨] أي نجاها من العذاب. وذكر قوم يونس دليلاً على ذلك.

وأرشدنا إليها أيضاً في قوله تعالى:

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ [الأعراف: ٩٦]، فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد لنا من حالتنا لأننا إذا التزمناهما نكون قد أقلعنا عن أسباب العذاب.

ولا ننهض بهذا العلاج العظيم إلا إذا قمنا متعاونين أفراداً وجماعات، فجعل كل واحد ذلك نصب عينيه، وبدأ به في نفسه، ثم فيمن يليه ثم فيمن يليه من عشيرته وقومه، ثم جميع أهل ملته.

فمن جعل هذا من همه، وأعطاه ما قدر عليه من سعيه، كان خليقاً أن يصل إلى غايته أو يقرب منها.

ولنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك، وأخلاقنا من الفساد، وأعمالنا من المخالفات.

ولنستشعر أخوة الإيمان التي تجعلنا كجسد واحد ولنشرع في ذلك، غير محتقرين لأنفسنا، ولا قانطين من رحمة ربنا؛ ولا مستقلين لما نزيله كل يوم من فسادنا، فبدوام السعي واستمراره، يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله.

وليكن دليلنا في ذلك وإمامنا كتاب ربنا، وسنة نبينا، وسيرة صالح سلفنا. ففي ذلك كله ما يعرفنا بالحق، ويبصرنا في العلم، ويفقهنا في الدين، ويهدينا إلى الأخذ بأسباب القوة والعز

(١) في الأصل «كان». والصواب ما أثبتناه.

والسيادة العادلة في الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الأخرى. وليس هذا عن العاملين ببعيد، وما هو على الله بعزيز.

رجاء وتفاؤل:

إن المطلع على أحوال الأمم الإسلامية يعلم أنها قد شعرت بالداء، وأحست بالعذاب، وأخذت في العلاج، وإن ذلك، وإن كان يبدو ـ اليوم ـ قليلاً، لكنه ـ بما يحوطه من عناية الله، وما يبذل فيه من جهود المصلحين ـ سيكون بإذن الله كثيراً.

وعسى أن يكون في ذلك خير لأمم الأرض أجمعين.

حقق الله الآمال وسدد الأعمال، بلطف منه وتيسير، إنه نعم المولى ونعم النصير.

التكريم الرباني للنوع الإنساني

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

[الاسراء: ٧٠]

﴿**كرمنا**﴾: الكرم ضد اللؤم ويوصف به الشيء لشرفه في ذاته بكمال صفاته، أو لحسن أفعاله، وما يصدر عنه من النفع لغيره.

فيقال: فرس كريم، وشجرة كريمة، وأرض كريمة، إذا أحسنت هذه الأشياء في ذواتها، وكملت فيها صفات أنواعها.

ويقال: نفس كريمة إذا كملت بمحاسن الأخلاق التي بها كمال النفوس.

وقالت بلقيس في كتاب سليمان عليه السلام: ﴿**إنّي ألقي إليّ كتابٌ كريمٌ**﴾ [النمل: ٢٩] لأنه كان على أكمل ما تكون عليه الكتب من بيان اسم مرسله، وذكر اسم الله تعالى في أوله، وختمه على ما فيه.

هذا كله من كرم الذات بما كمل فيها من صفات.

ووصف جبريل عليه السلام بأنه رسول كريم[1] لشرف ذاته الملكية، وحسن أفعاله بما كان على يده من نفع للخلق؛ بتبليغ الوحي والهدى.

وهذا من كرم الذات والأفعال وهو الكرم الكامل الذي يكون بشرف الذات ونفع الأفعال. ويقال كرم الشيء بضم الراء لازماً، ويتعدى بالهمز والتضعيف، فيقال: أكرمته وكـرّمته بمعنى واحد: أي فعلت له فعلاً فيه رفعة له ومنفعة.

---

(١) قال تعالى في الآيتين ١٩ و٢٠ من سورة التكوير: ﴿**إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين**﴾.

﴿كرَّمنا بني آدم﴾ أي فعلنا لهم ما فيه رفعتهم ومنفعتهم، من إنعاماتنا عليهم.

و ﴿حملناهم﴾ من الحمل بمعنى الرفع أي أركبناهم ورفعناهم على المركوبات مثل قوله تعالى:

﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ [التوبة: ٩٢] ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ [القمر: ١٣] ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾ [الإسراء: ٣].

﴿والطيِّبات﴾ ما يطيب للأكل والشرب مما يلذ في الطعم، وتحمد عاقبته فلا يكون الطيب إلا حلالاً؛ لأن غير الحلال ـ وإن لذ طعمه في بعض أقسامه ـ فإنه لا تحمد عاقبته؛ بما فيه من إثم وتبعة، وما يكون فيه من ضرر.

و ﴿فضلناهم﴾ من الفضل بمعنى الزيادة، أي صيرناهم ذوي فضل وزيادة في الكرامة، كما تقول: فضلت زيداً على عمرو في العطاء، أي صيرته ذا فضل وزيادة عليه فيه.

ومتعلق «حملناهم» محذوف، لقصد التعميم المناسب لمقام الامتنان بالتكريم مع الاختصار. تقديره: على كل ما يصلح لحملهم عليه.

المعنى:

يقول تعالى: ولقد أنعمنا على بني آدم نعماً عظيمة كثيرة.

في خلقتهم من تركيب أبدانهم، وأرواحهم وعقولهم.

وفي حياتهم بما مكنَّاهم منه من أسباب السلطان على غيرهم من الخلق من عالم الجماد والنبات والحيوان.

وتسخير هذه العوالم لهم يحصلون منها منافعهم، فأوصلنا إليهم هذه النعم، وكرمناهم بها، فنفعناهم، ورفعنا أقدارهم.

ومن هذا التكريم والإنعام الذي فيه المنفعة، وفيه الرفعة: أننا سخرنا لهم ما يركبونه في البر والبحر، ومكناهم من أسباب تسييره والانتفاع به.

وأننا بثثنا لهم على وجه الأرض أنواعاً من المآكل والمشارب اللذيذة المباحة، من النبات والحيوان والجماد، فخلقناها صالحة لغذائهم، ومكناهم من أسباب تحصيلها وإصلاحها، والتفنن فيها.

فكان لهم بذلك كله زيادة بينة من نعمتنا، وفضل محقق على كثير من مخلوقاتنا.

* * *

مسائل:

المسألة الأولى:

تكريم الله تعالى لخلقه قسمان: أحدهما عام، والآخر خاص:

فأما العام، فهو إخراجه لهم من العدم إلى الوجود، وإعطاؤه لكل شيء منهم خلقته اللائقة به من تركيب أجزاء ذاته، وتعديل مادة تكوينه، ومن أعضائه ـ إذا كان من ذوي الأعضاء ـ التي يحتاج إليها في حياته، لجلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وهدايته وإلهامه ما خلق، صالحاً لذلك إلى استعمال تلك الأعضاء، وطرق الجلب والدفع بها.

وأما الخاص، فهو تكريمه، وإنعامه على عباده المؤمنين بنعمة الإسلام في الدنيا، وبدار السلام في الأخرى.

والتكريم المذكور في هذه الآية من القسم الأول العام كما سيتبين في المسألة الرابعة.

المسألة الثانية:

جميع المخلوقات التي أخرجها الله تعالى من الوجود إلى العدم وإن كانت متساوية في أصل التكريم العام، فإنها متفاوتة فيه بحسب تفاوتها في شرف الذات، وكمال الخلقة:

فعالم النبات أكثر حظاً في التكريم من عالم الجماد، وعالم الحيوان أكثر حظاً منهما، ونوع الإنسان أكثر حظاً في التكريم العام من جميع الحيوانات.

المسألة الثالثة:

عظم حظ الإنسان من هذا التكريم.

من جهة ذاته: بحسن صورته واعتدال مزاجه.

ومن جهة روحه: بأنها من العالم النوراني العلوي، وبأنها مع اتصالها بالبدن قابلة للتجلي بأكمل الصفات، وأطهر الأخلاق.

ومن جهة عقله: الذي به أدرك الحقائق، وحصل المعارف، وعرف الأسباب ومسبباتها، ووجوه ارتباطاتها واتصالاتها، ونسبة بعضها من بعض؛ فملك، وساد، واستفاد، وأفاد.

المسألة الرابعة:

هذا التكريم المذكور في المسألة السابقة هو عام للنوع الإنساني من حيث هو إنسان لا فرق فيه بين من آمن ومن كفر؛ لأنه راجع للخلقة الإنسانية التي يتساوى فيها الجميع، والتمكين من أسباب المنافع الذي هو ثابت لجميع النوع بما عنده من عقل وتفكير.

وهذا هو مقتضى العموم المستفاد من لفظ: «بني آدم». ومثل هذا التكريم في العموم: الحمل في البر والبحر، والرزق، لأنها من جملة التكريم كما تقدم في فصل بيان المعنى.

المسألة الخامسة:

تفضيل الله تعالى لمن يشاء من خلقه قسمان:

تفضيل في الخلقة، وتفضيل في الجزاء والمثوبة.

فمن الأول: تفضيل بني آدم المذكور في هذه الآية بما كرِّموا به، وأعطوه في خلقتهم من الوجوه المتقدمة زائد على كثير من مخلوقات الله، بما كانت لهم به الرفعة والمنفعة لجميع نوعهم على العموم.

ومن الثاني: تفضيل المجاهدين على القاعدين في قوله تعالى: ﴿**وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً**﴾ [النساء: ٩٥].

المسألة السادسة:

اقتضى قوله تعالى: ﴿**وفضلناهم على كثير**﴾: أي بما كرمناهم به في خلقهم أنهم لم يفضلوا على جميع مخلوقات الله، وأن بعض المخلوقات أفضل منهم في الخلقة، وأكثر منهم كرماً في الجنس. فمن هو هذا المخلوق المفضل عليهم؟ وهذا ما نبينه في المسألة التالية.

المسألة السابعة:

إذا نظرنا في عوالم المخلوقات فإننا نجدها منقسمة إلى قسمين:

قسم مشاهد وقسم غير مشاهد، علمناه بالوحي الصادق من الكتاب والسنة.

فالقسم الأول: هو عالم الجماد، وعالم النبات، وعالم الحيوان. وهذا القسم كله قد فضل عليه الإنسان بميزة عقله التي ساد بها الجميع وبغيرها مما تقدم.

والقسم الثاني: هو الملائكة والجن. فأما الجن: فالإنسان أشرف منهم خلقة، وأكرم عنصراً، فهم ظلمانيون خلقوا من النار. وهو ترابي وروحه من عالم النور الذي هو عالم الملائكة؛ فلذا كان أهلاً لاصطفاء الرسل منه كما اصطفيت من الملائكة ولم يصطف من الجن رسول ولا نبي.

وأما الملائكة فخلقتهم أشرف من خلقة الإنسان وأكرم، لأنهم خلقوا من نور محض، منزهة أجسامهم النورانية عن كثافة الأجساد الإنسانية الترابية، وأخلاطها وظلمتها، فلم يفضل عليهم النوع الإنساني في خلقه، بل فضلوا عليه، فهم غير الكثير الذي فضل عليه الإنسان.

المسألة الثامنة:

المفاضلة تقع بين الملائكة وبني آدم على وجهين:

إما من جهة الخلقة وإما من جهة المثوبة:

فأما من جهة الخلقة فقد عرفنا في المسألة المتقدمة، أن الملائكة أفضل، والآية ظاهرة في ذلك ظهوراً بيناً. وأما من جهة الأجر والمثوبة فهو خارج عن معنى الآية وموضوعها.

وأفضل الخلق ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أفضل منهم قطعاً.

وفي المفاضلة بين الأنبياء والملائكة في الأجر والثواب، خلاف كبير وتفويض أمر ذلك إلى الله تعالى ـ في مقام التذكير ـ أسلم.

* * *

سلوك المكرمين:

امتن الله تعالى على بني آدم بهذا التكريم لهم في شرف الخلقة ورفعتها، وكثرة المنفعة وتيسير أسبابها ـ تذكيراً لهم بنعمته ليشكروها، فيزيدهم منها؛ وتعريفاً لهم بشرف أنفسهم ليقدروها، فينتفعوا بها.

فهذان الأمران هما الحكمة المقصودة بهذا الامتنان. فلنتكلم عليها في الفصلين التاليين.

شكر العبد لنعمة ربه:

قد ابتدأنا بهذه الكرامة في الخلقة بدون سعي منا ولا عمل، وهو المبتدىء بالنعم قبل استحقاقها؛ فمن كبّر هذه الكرامة وشكرها، كان من المكرمين. ومن لم يعرف قيمتها وكفرها كان من المهانين. ﴿**ومن يهن الله فما له من مكرم**﴾ [الحج: ١٨].

فلنقابل هذا التكريم في الخلقة بالشكر الجزيل: بأن نعقد قلوبنا على تعظيم النعمة به ونطلق ألسنتنا بالاعتراف والثناء على مسديه، ونستعمل هذه الخلقة الكريمة في مراضي ربنا وطاعته، متوسلين بشكر ما ابتدأنا به خالقنا من تكريم الخلقة، إلى ما وعد به الشاكرين من تكريم الجزاء والمثوبة بأنواع ألطافه وأنعامه وجزيل فضله وإكرامه؛ فسبحانه وتعالى ذو الجلال والإكرام.

معرفة العبد لقدر نفسه:

قد استودعنا خالقنا خلقة كريمة، فعلينا أن نعرف قيمتها، وأن نقدرها. وحق على من كرّمه ربه أن يكرم نفسه:

أ ـ فعلينا أن نكرم أنفسنا بتكريم أرواحنا، بتنزيهها عن مساوىء الأخلاق، وتحليتها بمكارمها.

ب ـ وتكريم عقولنا، بتنزيهها عن الأوهام، والشكوك، والخرافات، والضلالات، وربطها على العلوم والمعارف وصحيح الاعتقادات.

جـ ـ وتكريم جوارحنا بتنزيهها عن المعاصي، وتجميلها بالطاعات؛ فنتحرى بأقوالنا وأفعالنا أكرم الأقوال، وأكرم الأعمال. ونترفع عن جميع الرذائل والدنايا ونتباعد عن كل مواطن السوء والسفالة.

د ـ ونحفظ كرامتنا وشرفنا أمام الله والناس. ونجتهد أن لا يمسها سوء لا منّا، ولا من غيرنا.

فإذا قدرنا ـ هكذا ـ أنفسنا، وشكرنا ـ كما تقدم ـ ربنا، بلغنا ـ بإذن الله تعالى ـ أبعد الغايات من التكريم والتفضيل.

يسرنا الله، والمسلمين أجمعين لما يسر له عباده المكرمين المفضلين برحمتك يا أرحم الراحمين.

الصلاة لأوقاتها

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾

[الاسراء: ٧٨]

﴿**أقم**﴾ أمر من أقام أي اجعلها قائمة، وذلك بحفظها والمحافظة عليها.

وحفظها صونها من الخلل في شروطها وأركانها، من أقوالها وأعمالها في الظاهر والباطن.

والمحافظة عليها بالمداومة عليها في أوقاتها.

﴿**الصلاة**﴾ المراد الصلوات الخمس المكتوبة.

﴿**لدلوك**﴾ اللام لام الأجل والسببية. ﴿**لدلوك**﴾: هو الميل وبدايته عند الزوال، ونهايته بالغروب. و ﴿**إلى**﴾ لانتهاء الغاية؛ فغسق الليل هو نهاية غاية الإقامة.

(الغسق) هو ظلمة الليل، وبداية الظلمة بالغروب، وتمامها بعد مغيب الشفق عند اشتداد الظلمة.

﴿**قرآن الفجر**﴾، ما يقرأ به في صلاة الفجر ـ وهي الصبح ـ من القرآن، فسميت قرآناً من تسمية الكل باسم جزئه، تنبيهاً على أهمية ذلك الجزء ومكانته.

﴿**مشهودًا**﴾ محضوراً.

أفادت اللام السببية، أن ميل الشمس سبب في وجوب الصلاة. و «إلى» عند التجرد عن القرائن لا يدخل ما بعدها في حكم ما قبلها. لكن هنا قامت القرينة الشرعية ـ وهي مشروعية الصلاة في الليل ـ على أن ما بعد «إلى» داخل في حكم ما قبلها، فهو محل أيضاً لإقامة الصلاة فيه.

و ﴿**قرآن الفجر**﴾ منصوب عطفاً على الصلاة، وخصصت بالذكر؛ لأنها لم تكن عند ميل الشمس، ولا عند الغسق، بل تكون عند الوقت الذي أضيفت إليه وهو الفجر.

وجملة ﴿**إن قرآن الفجر كان مشهوداً**﴾ تذييل لتأكيد إقامة صلاة الفجر.

المعنى:

أقم يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم، وأمره أمر لأمته؛ لأنهم مأمورون بالاقتداء به ـ الصلاة؛ لأجل ميل الشمس: فأد الظهر والعصر، وفي غسق الليل فأد المغرب والعشاء، وأقم صلاة الفجر، إنها صلاة مشهودة.

بيان وتوجيه:

هذه الآية قد انتظمت أوقات الصلوات الخمس، ووجه ذلك بوجوه:

الأول:

ان الظهر تكون أول الميل، والعصر تكون وسطه.

وأن المغرب تكون عند أول الغسق، والعشاء تكون عند شدته بمغيب الشفق.
والصبح عند الفجر.

الثاني:

أن الظهر عند أول الميل، والعصر عند وسطه، والمغرب عند نهايته، والعشاء عند الغسق؛ أي اشتداد الظلمة بمغيب الشفق.

والفرق بين الأول والثاني:

أن الأول اعتبر المغرب عند بداية الظلمة، والثاني اعتبرها عند تمام الميل، وهما في الواقع متلازمان؛ فإنه إذا تم الليل ابتدأت الظلمة.

الثالث:

ولم أره لأحد، واللفظ يحتمله:

أن ميل الشمس يبتديء بالزوال، وينتهي فيما يرى لنا بالبصر بمغيب الشفق، غير أن ميلها في الزوال والغروب مشاهد بمشاهدة ذاتها، وميلها بعد الغروب مستدل عليه بما يشاهد من أخذ الشفق في المغيب، إلى أن يغيب بتمامه؛ ولا شك أن ذلك نتيجة ميلها من وراء الأفق؛ فالصلوات الأربع على هذا واجبة لدلوك الشمس.

وأما غسق الليل: فهو اشتداد ظلمته، وذلك يكون على أتمّه بعد مضي الثلث الأول من الليل؛ فيكون غسق الليل بهذا المعنى خارجاً عن حكم ما قبل؛ لأن وقت العشاء ينتهي بانقضاء الثلث الأول، فالأوقات تنتهي عند غسق الليل.

***

تفسير نبوي:

أخرج البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال:

«سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول: تفضل صلاة الجميع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءاً، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر»[1] ثم يقول أبو هريرة فاقرءوا إن شئتم: ﴿**إن قرآن الفجر كان مشهودًا**﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان باب ٣١، والصلاة باب ٨٧، والمواقيت باب ١٦، وتفسير سورة ١٧ باب ١٠، والترمذي في الصلاة باب ٤٧. والنسائي في الصلاة باب ٢١. وأحمد في المسند (٢/٢٣٣، ٢٥٧، ٢٦٦، ٣١٢، ٣٤٤، ٣٩٦، ٤٨٦).

فاستشهد أبو هريرة بالآية على الحديث، ليبين أنه تفسير لها، وأن صلاة الفجر مشهودة تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار.

وجاء هذا عند أحمد عن ابن مسعود مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم[١].

وجاء اجتماع الملائكة بأبسط من هذا عند مالك رحمه الله، فأخرج في موطئه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال:

«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ـ وهو أعلم بهم ـ كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»[٢].

استنباط:

من تخصيص صلاة الفجر بجملة التذييل المؤكدة، وما اشتملت عليه من هذه المزية، أخذ جماعة من أهل العلم أفضليتها على غيرها.

فإن قلت: إن صلاة العصر أيضاً لها من هذه المزية، كما تقدم في حديث مالك.

قلت: إن ثبوت هذه المزية للفجر قطعي بنص القرآن، ومتفق عليه في روايات الحديث بخلاف العصر، فقد جاء في بعض الروايات دون بعض[٣]، وتبقى الفجر ممتازة بتخصيصها بالتأكيد في نص الكتاب وكفى هذا مرجحاً لها.

ترغيب وترهيب:

قد جاء عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في الترغيب في امتثال هذا الأمر: ﴿**أقم الصلاة**﴾ وفي الترهيب من مخالفته من الأحاديث ما فيه مقنع ومزدجر.

فمما جاء فيهما حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال:

---

(١) ولفظه عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن نبي الله ﷺ قال: «صلاة الجمع تفضل على صلاة الرجل وحده خمسة وعشرين ضعفاً كلها مثل صلاته». أخرجه أحمد في المسند (١/٣٧٦، ٤٣٧، ٤٥٢، ٤٦٥).

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (كتاب قصر الصلاة في السفر، باب جامع الصلاة ٢٤، حديث ٨٢). وأخرجه أيضاً البخاري في مواقيت الصلاة باب ١٦، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة حديث ٢١٠.

(٣) من الأحاديث التي تدلّ على فضل صلاة العصر، ما رواه الترمذي في الصلاة باب ١٩ وتفسير سورة البقرة باب ٣٢، من حديث عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الوسطى صلاة العصر». ورواه أيضاً في تفسير سورة البقرة باب ٣٠ من حديث سمرة بن جندب. وروى أحمد في المسند (٥/٣٦١) من حديث بريدة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بكّروا بالصلاة في اليوم الغيم فإنه من فاته صلاة العصر فقط حبط عمله». وفي الموطأ روى الإمام مالك (كتاب وقوت الصلاة، باب جامع الوقوت ٥، حديث ٢١) عن عبدالله بن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الذي تفوته صلاة العصر كأنما وُتر أهله وماله» وأخرجه أيضاً البخاري في مواقيت الصلاة باب ١٤، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة حديث ٢٠٠ .

«سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول: خمس صلوات كتبهن الله عز وجل على العباد، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً ـ استخفافاً [١] بحقهن ـ كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة. ومن لم يأت بهن، فليس له عند الله عهد: إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة». رواه مالك وغيره [٢].

ومما جاء في الترغيب حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال:

«سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل بقي من درنه [٣] شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا». رواه الشيخان في صحيحيهما [٤].

ومما جاء في الترهيب حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»، رواه مسلم وغيره بنحوه [٥].

وحديث بريدة رضي الله عنه مرفوعاً:

«والعهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الترمذي، وابن حبان والحاكم [٦].

الأحكام:

قد قال بكفر تارك الصلاة جماعات كثيرة من الفقهاء والمحدثين سلفاً وخلفاً، مستدلين بحديث جابر، وحديث بريدة الصريحين في كفره.

وذهبت جماعات أخرى ـ كذلك ـ إلى عدم كفره على عظم جرمه، مستدلين بحديث عبادة ابن الصامت المتقدم، الصريح في جعله في المشيئة. والكافر مقطوع له بدخول النار.

---

(١) كانت في الأصل المطبوع: «استحقاقاً» والصواب ما أثبتناه من الكتب المذكورة في الحاشية التالية.

(٢) رواه مالك في الموطأ (كتاب صلاة الليل، باب الأمر بالوتر ٣، حديث ١٤). ورواه أيضاً أحمد في المسند (٥/٣١٥، ٣١٩، ٣٢٢) وأبو داود في الوتر باب ٢، والنسائي في الصلاة باب ٦، وابن ماجة في الإقامة باب ١٩٤، والدارمي في الصلاة باب ٢٥٨.

(٣) الدرن: الوسخ.

(٤) رواه البخاري في مواقيت الصلاة باب ٦. ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة حديث ٢٨٣. والترمذي في الأدب باب ٨٠. والنسائي في الصلاة باب ٧. وأحمد في المسند (٢/٣٧٩، ٤٢٧، ٤٤١).

(٥) رواه مسلم في الإيمان حديث ١٣٤. وأبو داود في السنّة باب ١٥. والترمذي في الإيمان باب ٩. وابن ماجة في الإقامة باب ١٧. والدارمي في الصلاة باب ٢٩.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٥/٣٤٦، ٣٥٥) والترمذي في الإيمان باب ٩. والنسائي في الصلاة باب ٨. وابن ماجة في الإقامة باب ٧٧ و٧٨، والفتن باب ٢٣. والحاكم في المستدرك (١/٦، ٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/٣٦٦) وابن أبي شيبة في مصنفه (١١/٣٤) والدارقطني في سننه (٢/٥٢) وغيرهم.

ويجيبون عن حديث جابر وبريدة بأن المراد من كفر تارك الصلاة، هو الكفر العملي.

والكفر قسمان:
اعتقادي وهو الذي يضاد الإيمان.
وكفر عملي وهو لا يضاد الإيمان، ومنه كفر تارك الصلاة غير المستحل للترك، وكفر من لم يحكم بما أنزل الله كذلك. وبهذا يجمع بين الأحاديث.
وكفى زاجراً للمرء عن ترك الصلاة أن يختلف في إيمانه هذا الاختلاف.

* * *

تعليم:
في ربط الصلاة بالأوقات، تعليم لنا، لنربط أمورنا بالأوقات، ونجعل لكل عمل وقته: فللنوم وقته، وللأكل وقته، وللراحة وقتها، ولكل شيء وقته.

ولذلك يُضبط للإنسان أمر حياته، وتطرد له أعماله، ويسهل عليه القيام بالكثير من الأعمال.

أما إذا ترك أعماله غير مرتبطة بوقت، فإنه لا بد أن يضطرب عليه أمره، ويتشوش باله، ولا يأتي إلا بالعمل القليل ويحرم لذة العمل، وإذا حرم لذة العمل أصابه الكسل والضجر فقل سعيه، وكان ما يأتي به من عمل على قلته وتشويشه بعيداً عن أي إتقان.
وقد كان النبي - ﷺ - مقسماً لزمانه على أعماله، وفيه القدوة الحسنة؛ فقد روى عياض في «الشفا» عن علي - رضي الله عنه قال:

«فكان - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا آوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: فجزءاً لله، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه.

ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس؛ فيرد ذلك على العامة بالخاصة، ولا يدخر عنه شيئاً؛ فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه، وقسمته على قدر فضلهم في الدين: منهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج؛ فيتشاغل بهم، ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم.

ويقول: ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته. فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة.

لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره. يدخلون رواداً ولا يتفرقون إلا عن ذواق ويخرجون أدلة»[1] اهـ.

---

(١) انظر «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض، الباب الثاني، الفصل الثالث والعشرون. وأوله: «قال الحسين: سألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ، فقال: كان دخوله لنفسه مأذوناً له في ذلك، فكان... الخ».

فهكذا ينبغي للمسلم أن يقسم أوقاته على أعماله، ويعمرها كلها بالخير.

وكما ربط الله له صلاته بالأوقات، وهي من أمور دينه، كذلك يربط هو بالأوقات جميع أمور دنياه.

والله نسأل لنا ولجميع المسلمين أن يقصرنا على طاعته، ويفقهنا في أسرار دينه، ويوفقنا إلى اتباع سنة رسوله، عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام.

نافلة الليل وحسن عاقبتها

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾

[الإسراء: ٧٩]

«من»: للتبعيض. «الهجود»: النوم. والهاجد: النائم، وجمعه هجود. ومنه قول الشاعر:

ألا طرقتنا والرفاق هجود

(والتهجد) ترك الهجود: كالتحرج والتأثم، في ترك الإثم والحرج.

وبناء «تَفَعَّلَ» يكثر في التحصيل كتعلّم وتقدّم. وجاء قليلاً في معنى الترك، والمراد منه هنا ترك النوم للقيام بالعبادة.

(النافلة) قال الجوهري: هي عطية التطوع من حيث لا تجب، ومنه نافلة الصلاة ا هـ، أي أن الصلاة مؤداة على وجه التطوع دون الوجوب، فلذا قيل فيها: نافلة.

وهي على كلام الجوهري بمعنى الشيء الزائد: فهي اسم غير مصدر.

وقال أبو البقاء وغيره: النافلة الزيادة، فهي مصدر كالعاقبة.

﴿**عسى**﴾، للرجاء وهي من الله تعالى على الوجوب؛ لأن إطماعه تعالى لعباده في الجزاء على أعمالهم هو من وعده، ومحال عليه تعالى أن يخلفه.

﴿**مقاماً**﴾ محل القيام. ﴿**محموداً**﴾ مثنياً عليه.

﴿**من الليل**﴾ متعلق بفعل محذوف دل عليه «تهجد»، تقديره: اسهر. والضمير في ﴿**به**﴾ عائد على القرآن، لتقدم ذكره ولا تراعى الإضافة.

والباء باء الأداة؛ لأن التهجد بمعنى التعبد يحصل بالقرآن، أي بالصلاة.

ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على الليل؛ فالباء بمعنى «في» أي فيه.

﴿**نافلة**﴾ مصدر منصوب بـ «تهجّد» لاتفاقهما في المعنى.

والتقدير: تنفل نافلة، وهذا يجري على الوجهين في معاد الضمير.

ويحتمل أن يكون حالاً، وهذا يجري على عود الضمير على القرآن بمعنى الصلاة.

﴿مقاماً﴾، إما مصدر من غير لفظ عامله الذي هو «يبعثك»، بمعنى يقيمك من مرقدك. وإما ظرف أي يبعثك في مقام.

و ﴿محموداً﴾، صفة لمقام. ولكن الذي يحمد حقيقة هو القائم في المقام؛ فجعل الحمد للمقام توسعاً، تنبيهاً على عظم الحمد وكثرته؛ فإنه فاض على صاحب المقام حتى غمر مقامه.

المعنى:

اسهر بعضاً من الليل فتعبد بالقرآن في الصلاة، زيادة على تعبدك به في صلاة فرضك؛ فتكون على رجاء أن يبعثك ربك من مرقدك يوم يقوم الناس لرب العالمين؛ فيقيمك مقاماً يحمدك فيه جميع الناس، لما يرون لك من فضل، وما يصل إليهم بسببك من خير.

مسائل:

المسألة الأولى: كيف يكون التهجد؟

لفظ التهجد يفيد ترك النوم للعبادة، فيشمل تركه كله أو بعضه: بأن لم ينم أصلاً. أو لم ينم أولاً ثم رقد. أو نام أولاً ثم قام.

لكن ثبت أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان ينام ثم يقوم، فبينت السنة العملية أن التهجد المطلوب هو القيام بعد النوم.

المسألة الثانية:

هل كان قيام الليل فرضاً عليه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ دون أمته، بمقتضى قوله تعالى: ﴿نافلة لك﴾؟

أولاً ـ قد ذهب إلى هذا جماعة كثيرة من أهل العلم سلفاً وخلفاً.

ويرد عليه:

١ ـ أن توجيه الخطاب إليه لا يقتضي تخصيص الحكم له، كما في آية ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ وآيات كثيرة.

٢ ـ ولأن قيام الليل يقع من غيره؛ فيسمى نافلة اتفاقاً.

٣ ـ ولحديث عائشة رضي الله عنها: «إن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ـ تعني سورة المزمل ـ قم الليل. فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه حَوْلاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً، حتى أنزل الله ـ في آخر هذه السورة ـ التخفيف، فصار قيامه تطوعاً بعد فرضه». رواه مسلم[1].

---

(١) في صلاة المسافرين وقصرها، حديث قم ١٣٩. وهو جزء من حديث طويل رواه أيضاً أحمد في المسند (٦/٥٤) والنسائي في قيام الليل باب ٢.

فهذا يدل على أنهم فهموا أن الأمر من قوله تعالى: «قم» لهم معه ، مع أنه موجه إليه بخطاب الأفراد. وأنه كان فرضاً عليه وعلى الناس، فصار تطوعاً عليه وعلى الناس.

٤ ـ ولحديث المغيرة بن شعبة في الصحيحين وغيرهما: قام رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حتى تورمت قدماه. وهذا لمداومته على القيام كل ليلة ببضع عشرة ركعة. فقيل له: قد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر. قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[١].

فلو كانوا يعلمون أن قيام الليل واجب عليه، ويفهمونه من القرآن لما أنكروا ـ مشفقين عليه ـ أن يقوم بما هو واجب عليه، ولأن قوله: «أفلا أكون عبداً شكوراً»، يفيد أنه متطوع بهذا القيام باختيار، ليؤدي شكر نعمة ربه عليه.

فإن قيل: إن السؤال والجواب راجعان إلى تورم قدميه، وذلك ناشيء على المداومة؟

قيل: إذا أنكرت الشيء الناشيء عن المداومة فقد أنكرت المداومة، والمداومة على الفرض لا تنكر، فبقي الدليل سالماً.

ثانياً: ولهذا كله، قال هؤلاء الموردون:

إن قيام الليل تطوع ونفل في حقه وفي حق أمته.

وبقي للأولين أن يقولوا:

أ ـ إن قوله تعالى: ﴿**عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً**﴾ خاص به صلى الله عليه وسلم اتفاقاً، وقد جعل جزاءً لتهجده بالليل، ولما كان الجزاء خاصاً به فالعمل المجزي عنه خاص به. فلهذا حملنا قوله على معنى دون غيرك.

ب ـ ولما رأيناه واظب على التهجد ولم يتركه، حملناه على أنه كان مفروضاً عليه. وحملنا «نافلة» على معنى أنها فريضة زائدة فوق الصلوات الخمس.

فيقول المخالفون في هذا:

إنكم حملتم النافلة على الفريضة، وهذا خلاف أصل معناها الذي هو التطوع.

وأما ما ذكرتم من خصوص الجزاء به؛ فإنا نقول إن الخطاب موجه له في الأول وفي الآخر؛ ففي الأول لما لم يعارضنا معارض ألحقنا به أمته؛ وفي الثاني لما منعنا مانع، وهو اختصاصه بالمقام المحمود لم نلحقهم به. وبقي الجزاء مساوياً للعمل في صورة اللفظ حيث كان كل منهما موجهاً إليه.

وإذا تأملت في هذا البحث الذي سقناه أدركت أن القول بعدم الخصوصية هو الراجح،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٤٨ باب ٢، والتهجد باب ٦. ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم حديث ٧٩ و٨٠. والترمذي في الصلاة باب ١٨٧. والنسائي في قيام الليل باب ١٧. وابن ماجة في الإقامة باب ٢٠٠. وأحمد في المسند (٤/٢٥١، ٢٥٥).

فالآية حث وترغيب على قيام الليل للعموم، ووعد لـه ـ صلى الله عليـه وآله وسلم ـ بـالمقام المحمود.

المسألة الثالثة: المقام المحمود والشفاعة

ما هو المقام المحمود؟

هو مقامه صلى الله عليه وآله وسلم، للشفاعة العظمى، يشفع للخلائق[١] وقد جهدوا من كرب الموقف. فجاءوا إلى كبراء الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يسألونهم أن يشفعوا لهم إلى ربهم، ليفصل القضاء، ويريحهم من كرب الموقف، فيتدافع الشفاعـة أولئك الـرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ويتنصلون منها بأعذار رهيبة للرب جل جلاله، حتى ينتهوا إليه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيتقدم فيشفع، ويسأل فيعـطى. جاء هـذا كله مفصلاً في الأحـاديث الصحيحة المستفيضة[٢]. فيحمده الخلق كلهم لما يرون من فضله عنـد ربه، ولمـا وصل إليهم من الخـير المطلوب بسببه.

ثم له ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعد هذه الشفاعة العظمى شفاعات أخرى بيَّنتها صحاح الأحاديث.

ولعموم فضل هذه الشفاعة العظمى لأهل الموقف كلهم قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما في صحيح مسلم:

«أنا سيد الناس يوم القيامة»[٣]. والسيد من يتولى أمر السواد، فظهر عموم سيادته بعموم نفعه.

وقد فسر المقام المحمود بمقام الشفاعة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما رواه عنه البخاري في صحيحه[٤]، وفسره بها غيره[٥].

---

(١) ثبت في حديث الشفاعة الطويل من أكثر من طريق، وفيه: «... ارفع رأسك وقل يُسمعْ واشفعْ تشفّع» أن الشفاعة ثابتة له صلى الله عليه وآله وسلم. وقد أخرج هذا الحديث البخاري في التوحيد باب ١٩ و٢٤ و٣٦، والرقاق باب ٥١، وأحاديث الأنبياء باب ٣، وتفسير سورة ٢ باب ١، وسورة ١٧ باب٥. ومسلم في الإيمان حديث ٣٢٢ و٣٢٧. والترمذي في تفسير سورة ١٧ باب ١٩، والقيامة بـاب ١٥. وابن ماجـة في الزهـد باب ٣٧. والدارمي في المقدمة باب ٨. وأحمد في المسند (١/ ٥، ٢٨٢، ٢٩٦، ٢/ ٤٣٦، ٣/ ١١٦، ١٤٤، ١٧٨، ٢٤٤، ٢٤٨).

(٢) راجع الحاشية السابقة.

(٣) صحيح مسلم (كتاب الإيمان حديث ٣٢٧ و٣٢٨، وكتاب الفضائل حديث ٣) من حـديث أبي هريـرة. وأخرجه أيضاً البخاري في تفسير سورة الإسراء باب ٥، والترمذي في صفة القيامة باب ١٠.

(٤) كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة الإسراء، باب ١١، حديث رقم ٤٧١٨؛ عن ابن عمر قال: «إنّ الناس يصيرون يوم القيامة جُثًا كلّ أمة تتبع نبيّها، يقولون: يا فلان اشفعْ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ؛ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود».

(٥) منهم أبو هريرة كما في مسند أحمد (٢/ ٤٤).

المسألة الرابعة: هل المقام المحمود خاص به؟

قد علمت من المسألة السابقة أن مقام الشفاعة العظمى، وهي خاصة به فهو خاص به.

ويدل عليه حديث جابر الصحيح:

«من قال حين يسمع النداء ـ الأذان ـ: اللهم، رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ـ حلت له شفاعتي يوم القيامة»[1]. فهو ﷺ الموعود بالمقام المحمود.

تنبيه وإلحاق:

قد جعل الله تعالى جزاء نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على تهجده، وخلوته بربه في مناجاته، هذا المقام الذي يحمده فيه الخلق، ويتقبل فيه شفاعته، ويستجيب دعوته، ويفتح عليه فيه بمحامد من ذكره، لم يفتح عليه بها قبل.

ففي هذا تنبيه للمؤمنين على حسن عاقبة القائمين لربهم في جنح الليل، وما يكون لهم من مقامات عند ربهم على حسب منازلهم. فكما كان المؤمنون ملحقين بنبيهم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في مشروعية هذه العبادة، كذلك هم ملحقون به في حسن الجزاء عليها.

وإن كان قد خصص هو عليه السلام بذلك الجزاء الأعظم؛ فلهم جزاؤهم: من مقامات القرب، والزلفى، والقبول، والرضا، على ما يناسب منازلهم، جزاء بما كانوا يعملون.

جعلنا الله من العابدين له المخلصين في أقوالهم وأفعالهم، وأوردنا حوض النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ورزقنا شفاعته.

القرآن شفاء ورحمة

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

[الإسراء: ٨٢]

تمهيد:

لما جاء في الآية السابقة الإخبار بمجيء الحق، وفي مجيئه صحة الأرواح والأبدان والأحوال. وبزهوق الباطل، وفي ذهابه ذهاب العلل والأمراض. كذلك جاء في هذه الآية بذكر القرآن، والإخبار عما فيه من الشفاء والرحمة؛ تنبيهاً على أنه هو الشافي من أمراض الباطل وعلله، وأنه هو مصدر الحق وحجة ناصره، ومحصل الرحمة لأتباعه والمتمسكين به.

﴿من﴾ لابتداء الغاية، أو للتبعيض، لأنه نزل مبعضاً، فكل بعض نزل منه شفاء ورحمة.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان باب ٨، والقرآن باب ١٧ و٨١. والترمذي في الصلاة باب ٤٣. والنسائي في الأذان باب ٣٨.

(الشفاء) البراء من المرض مرض الأبدان، أو مرض النفوس.
(الرحمة) النعمة.
(الظلم) وضع الشيء في غير محله: كوضع الكفر موضع الإيمان.

(الخسار) النقص والضياع يكون في الأموال، يقال: خسر ماله إذا ضيعه. ويكون في النفوس، فيقال: خسر نفسه إذا ضيعها ولم يستعملها فيما خُلقت له من الطاعة والكمال. ويكون في الدين فيقال: خسر دينه إذا ضيعه ولم يعمل به؛ فخاسر القرآن من ضيعه ولم يؤمن به.

قرنت جملة ننزل بالواو مع أن ما قبلها إنشائية؛ وذلك على وجهين:

الأول: أن تكون معطوفة على جاء الحق، أي وقل: ننزل. فعطفت الخبرية على الخبرية التي لها محل، وهو المفعولية بالقول.

الثاني: أن تكون (الواو) للاستئناف: وهي في الحقيقة صلة في الكلام لتقويته، وقرنت جملة لا يزيد بالواو؛ لأنها معطوفة على جملة الصلة.

وعبر بالمضارع في ﴿ننزل﴾ و﴿يزيد﴾: قصد المعنى للتجدد؛ لأن الآيات كانت تنزل شيئاً فشيئاً.

وتنكير ﴿شفاء﴾ و ﴿رحمة﴾ للتعظيم.

وقدم (الشفاء)، لأنه برء من النقص، على (الرحمة)، لأنها حصول الكمال، تقديم التحلية وآيات القرآن سبب في حصول الشفاء، فجعلت هي شفاء على طريق المبالغة تنبيهاً على تحقق حصوله بها.

المعنى:

وننزل عليك يا محمد ـ بحسب الوقائع والمناسبات ـ آيات من القرآن العظيم، هي شفاء يستشفي بها المؤمنون، ونعمة عظيمة أنعمنا بها عليهم يؤمنون بها ويحلون حلالها، ويحرمون حرامها، ويعملون بما فيها فينالون سعادة الدنيا والآخرة.

أما الكافرون الظالمون الذين قابلوا بالكفر ما يجب أن يقابل بالإيمان، وقابلوا بالرد ما يجب أن يقابل بالقبول، فإن نزول تلك الآيات يكون سبباً في زيادة خسارهم، وضياع الخير عليهم، إذ كل آية من تلك الآيات كانت كافية في شفائهم لو استشفوا بها، ونزول الرحمة عليهم لو اهتدوا بها إلى الإسلام.

لكنهم يقابلون كل آية بالكفر والجحود، فيخسرون في كل مرة كنزاً عظيماً. وهكذا يزداد خسارهم بقدر كفرهم المتجدد بنزول الآيات.

تنظير:

وصف الله تعالى القرآن بأنه شفاء في مواضع من كتابه منها هذه، ومنها قوله تعالى في:

﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ [يونس: ٥٧]. ومنها: **﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذنهم وقر وهو عليهم عمى﴾** [فُصلت: ٤٤].

وأفادت الآيات كلها أنه شفاء لأهل الإيمان الذين يؤمنون دون غيرهم، فإنهم بإعراضهم عنه كانوا من الخاسرين.

وجاءت آية يونس بتقييد الشفاء بها في الصدور الذي هو مستقر العقائد، لأن ذلك هو المقصود الأول من هداية القرآن، وأصل لغيره، فإنه إذا شفيت الصدور من عقائد السوء، ونزعات الشكوك، واعتقدت الحق، وارتبطت على اليقين؛ زكت النفوس واستقام سلوك الإنسان فرده وجماعاته، ورقي درجات الكمال.

فلا ينافي ذلك أن القرآن شفاء أيضاً للنفوس من سيّىء الأخلاق كما هو مقتضى الإطلاق في آية الإسراء هذه، وآية السجدة، لأن الأخلاق ناشئة عن العقائد ولازمة لها، ولأنها كليهما لا تكمل النفس الإنسانية إلّا بالشفاء فيهما. ولا ينافي أيضاً حصول الشفاء للأبدان بالقرآن في بعض الأحوال كما هو مقتضى الإطلاق أيضاً، ومقتضى ما سيأتي من الآثار؛ وإن كان هذا ليس هو المقصود بالقصد الأول من شفاء القرآن.

تقسيم:

الأمراض الإنسانية قسمان:

أمراض أرواح وأمراض أبدان، وكلاهما أنواع.

وأمراض الأرواح المقصودة بالذات هنا ترجع إلى نوعين:

الأول مرض العقول: بجمود النظر، وفساد الإدراك، وتقليد الآباء، واعتقاد الباطل، والشك في الحق.

والثاني مرض النفوس: بفساد الأخلاق، وانحطاط الصفات. أما الأعمال فهي تابعة لهما فتصلح بصلاحها وتفسد بفسادهما.

والقرآن قد جاء داعياً إلى النظر، والتفكر، والاعتبار، والتدبير، مبيناً بما ساق من حجج رسله الطريق الأقوم في الإدراك الصحيح، والسبيل الأسدَّ في الفهم والتفهيم، ناعياً على المقلدين تقليدهم، كاشفاً لأهل الباطل عن باطلهم، ذاكراً من قواطع البراهين البينة الواضحة، ما لا يبقى معه خفاء في الحق ولا ريب.

وجاء أيضاً مبيِّناً للأخلاق الفاسدة، وذاكراً سوء أثرها وقبح مغبتها، مبيِّناً كذلك الأخلاق الصحيحة وعظيم نفعها، وحسن عاقبتها. فهذا شفاؤه للنفوس والعقول، وهو راجع إلى تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق وبهما سلامة الأرواح وكمالها وعليهما قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها.

على أن القرآن هو شفاء للاجتماع البشري، كما هو شفاء لأفراده: فقد شرع من أصول

العدل، وقواعد العمران، ونظم التعامل، وسياسة الناس، ما فيه العلاج الكافي، والدواء الشافي لأمراض المجتمع الانساني من جميع أمراضه وعلله.

شفاء العقائد والأخلاق:

شفاء العقائد والأخلاق أساس الأعمال والمجتمع. هذه الأمراض لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها، وبيان ما هو شفاء لها. ولا شفاء لها إلاّ بالقرآن، والبيان النبوي راجع إلى القرآن. ومن طلب شفاءها في غير القرآن فإنه لا يزيدها إلاّ مرضاً.

فهذه الأمم الغربية بسجونها، ومشانقها، ومحاكمها، وقوتها، قد امتلأت بالجنايات والفظائع المنكرة التي تقشعر منها الأبدان.

وهذه الممالك الإسلامية التي تقيم الحدود القرآنية كالمملكة الحجازية، والمملكة اليمانية، قد ضرب الأمن رواقه عليهما، واستقرت السكينة فيهما دون سجون ولا مشانق، مثل أولئك؛ وما ذلك إلاّ لأنهم داووا الملك بدواء القرآن فكان الشفاء التام.

شفاء الأبدان:

وأما الأمراض البدنية، فقد قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «ما أنزل الله داء إلاّ أنزل له شفاء» رواه البخاري من طريق أبي هريرة[1].

وقال: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برىء بإذن الله تعالى» رواه مسلم من طريق جابر[2].

وثبت عنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنه استشفى واسترقى ببعض آيات القرآن العظيم[3]، وأقر على ذلك من فعله من أصحابه.

روى البخاري من طريق يونس عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت:

«كان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذا آوى إلى فراشه نفث في كفيه بقل هو الله أحد وبالمعوذتين جميعاً، ثم يمسح بهما وجهه، وما بلغت يداه من جسده. (قالت عائشة): فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به. قال يونس: كنت أرى ابن شهاب يصنع ذلك إذا أوى إلى فراشه»[4].

وروى الشيخان، واللفظ للبخاري، عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال:

---

(١) في كتاب الطبّ باب ١ حديث ٥٦٧٨.

(٢) في كتاب السلام باب ٢٦ حديث ٦٩.

(٣) في صحيح البخاري في كتاب الطبّ بابان: الأول باب الرقى بالقرآن والمعوذات رقم ٣٢، والثاني باب الرقى بفاتحة الكتاب رقم ٣٣. وفي الصحاح الخمسة الأخرى أبواب ثابتة في الاستشفاء والاسترقاء بآيات القرآن.

(٤) أخرجه البخاري في الطب باب ٣٩ حديث رقم ٥٧٤٨.

«انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلُدغ سيد الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء.

فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء. فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً[1].

فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه، ويقرأ الحمد لله رب العالمين؛ فكأنما نشط من عقال[2]. فانطلق يمشي وما به قلَبَة. قال: فأوفهم جعلهم الذي صالحوهم عليه.

فقال بعضهم: اقسموا. فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا. فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذكروا له. فقال: وما يدريك أنها رقية؟! ثم قال: قد أصبتم؛ اقسموا واضربوا لي معكم سهماً»[3] فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فثبت بهذين الحديثين أن في القرآن شفاء للأبدان.

وحصل عندنا من جميع ما تقدم أنه شفاء للأرواح والأبدان للأفراد والمجتمع.

مداواة الأبدان بالطبّ والقرآن:

ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم الأمر بالتداوي قولاً وعملاً.

وثبت عنه الاستشفاء بالقرآن. ولا منافاة بينهما، فإن الإنسان مركب من روح من عالم النور، وجسم من عالم المادة المركبة.

فمن الحكمة الإلهية أن شرع الله لنا عند الأمراض على لسان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الجمع بين الأدوية المادية، التي هي المناسبة للبدن، والآيات القرآنية التي هي المناسبة للروح، مع ما في الأدوية القرآنية من اطمئنان القلب بالله، وقوته به، وانتعاشه بذكره، وفي ذلك من تقوية للروح ونعيمها ما يهون عليها ألم المرض، ويشفيها بإذن الله تعالى عليه.

ومثل الآيات القرآنية في ذلك، كل ما ثبت في السنة من الرقى النبوية المأثورة.

---

(١) الجعل (بضم الجيم وسكون العين): ما يُجعل على العمل من أجر.

(٢) قوله «نَشِطَ من عقال» ويقال «أُنْشِطَ من عقال» أي حُلّ. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/٥٧ ـ مادة نشط).

(٣) أخرجه البخاري في الإجارة باب ١٦، والطب باب ٣٣ و٣٩. ومسلم في السلام حديث ٦٦. وأبو داود في البيوع باب ٣٧، والطب باب ١٩. وأحمد في المسند (٣/١٠، ٤٤).

تحذير:

فرط قوم: فأهملوا الاستشفاء بالذكر المأثور، واقتصروا على الدواء المادي، فحرموا أنفسهم من خير كثير، إذا لم يكونوا له كالمنكرين.

وأفرط آخرون: فأهملوا الدواء المادي، وزهّدوا الناس فيه وتزيدوا في جانب المأثور، حتى خرجوا عنه واتخذوا لهم من ذلك حرفة وموردًا للمعاش. ونسوا أنواع أشفية القرآن الروحية والاجتماعية، التي هي المقصود بالمقام الأول من تنزيله مقتصرين على الوجه الذي وجد منه سبيلاً إلى الاسترزاق على ما أحدثوا فيه وما ابتدعوا، فعكسوا الأمر، وخالفوا السنة، ووقعوا في المحظور من عدة وجوه.

وهذان الطرفان مذمومان.

والعدل، هو الوسط الذي لا يهمل هذا ولا ذاك ويقف في الوارد عندما ورد ويتناوله على ما ورد.

تطبيق:

نزول الآيات في الكافرين، لا يمنع من تطبيقها على من شاركهم في مثل الحال الذي أنكرته عليهم من المؤمنين، لأن الوصف المذموم مذموم، سواء أكان المتصف به مؤمنًا أم كان كافرًا.

فالذين تُتلى عليهم الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وتوضح لهم الدلائل الشرعية، وهم لها معرضون، وعن تدبرها غافلون، وبها يتهاونون، يزدادون بكل مرة إنما بإعراضهم وغفلتهم وتهاونهم، فيخسرون بقدر ما يفوتهم من الهداية على حسب حالتهم، وإذا لم يكن كخسار الكافرين، فهو كخسار المعرضين، الغافلين، المتهاونين، وكفى به خسارًا يتنزه عنه المؤمنون ويأباه الكافرون.

سلوك:

نتناول القرآن العظيم دواء من عند ربنا:

شفاء لأمراض عقولنا وأمراض نفوسنا، وأمراض مجتمعنا، فنتطلب ذلك منه؛ بتدبر وتفهم إشاراته، ووجوه دلالاته.

وشفاء أيضًا لأبداننا؛ فنفعل كما كان يفعل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذا أوى إلى فراشه، على ما تقدم في حديث عائشة رضي الله عنها وعلى ما جاء من نحو ذلك، مما ثبت عنه عليه وآله الصلاة والسلام، وانتهى إليه علمنا.

غير مقصرين ولا غالين، وعلى ربنا متوكلين.

سائلين الله أن يشفينا بالقرآن أجمعين. آمين يا رب العالمين.

صفتان من صفات النوع الإنساني:
الإعراض عن النعمة واليئوس من الرحمة

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

[الإسراء: ٨٣ و٨٤]

تمهيد:

في النوع الإنساني غرائز غالبة عليه، لا يسلم منها إلا من عصم الله، أو وفق إلى الإيمان والعمل الصالح، وفي آيات القرآن العظيم بيان لكثير من تلك الغرائز، للتحذير من شرها، والتنبيه على سوء مغبتها، منها هذه الآية الكريمة.

المناسبة:

لما ذكر تعالى أن القرآن يكون شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً، بين تعالى سبب خسار أولئك الظالمين، وهو إعراضهم عن الله، وبعدهم عنه، ويأسهم من رحمته.

وعلم منه أن المؤمنين الذين كان القرآن لهم شفاء ورحمة هم على الضد منهم: فهم أهل إقبال على الله تعالى، وقرب منه، ورجاء فيه.

﴿**أنعمنا**﴾ أوصلنا أنواع الإحسان.

﴿**الإنسان**﴾ المراد به النوع، باعتبار مجموعه، فلا ينافي خروج أفراد كثيرين بالعصمة والتوفيق.

﴿**أعرض**﴾ صد بوجهه إلى ناحية أخرى، فأرى عرض وجهه، أي ناحية وجهه.

﴿**نأى**﴾ بعد.

﴿**بجانبه**﴾ بناحيته بشقه الأيمن أو الأيسر، والباء للتعدية أي أبعد جانبه.

﴿**مسه**﴾ أصابه.

﴿**الشر**﴾ البلايا والرزايا بأنواعها.

﴿**يئوسًا**﴾ شديد اليؤس والقنوط، وعدم انتظار الفرج.

جيء بفعل الشرط وجوابه[١] ماضيين، لتحقق وقوعها؛ ولذلك كان التعليق بـ «إذا» وجواب الشرط والفعل والمعطوف عليه، فيهما الصورة التامة للمعرض غاية الإعراض؛ فإنه يصرف عنك وجهه، وهذا مفاد الفعل الأول[٢] ويلوي عنك أعطفه ويبعد جانبه، ويوليك ظهره،

---

(١) فعل الشرط: أنعمنا. وجوابه: أعرض، ونأى. (٢) أي «أعرض».

وهذا مفاد الفعل الثاني[1]. ثم هما كناية عن الاستكبار وعدم الاكتراث، وعدم الالتفات إلى مُولي النعم، سواء حصلت هذه الصورة بالفعل أو لم تحصل.

المعنى:

أ ـ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض تمام الإعراض.

إما بعدم قبول تلك النعمة استكباراً، أو تهاوناً كما يكون من الذين يكفرون بالقرآن أو يخالفونه، وهو من أعظم نعم الله عليهم.

وإما بعدم القيام بحق الله في تلك النعمة، وعدم شكره عليها، كنعمة العقل، والبدن، والحال[2] وغيرها...، إذا لم تُستعمل في طاعة الله، ولم يقم بحقه فيها.

ب ـ وإذا مس الإنسان الشر، ونزلت به المصائب، وحلت به النوائب، استولى عليه اليأس والقنوط، وانسدّت في وجهه أبواب الرجاء.

توجيه:

يرتبط اليأس من رحمة الله بالإعراض عن نعمته من جهتين:

الأولى: أن من أعرض عن نعمة الله قطع صلته بخالقه، وذهب ممعنًا في بعده. فإذا نزلت به المصيبة كان كالمنقطع به في البيداء: يجد نفسه وحده فيأخذه اليأس والقنوط من كل جانب.

الثانية: أن الإعراض عن النعمة ترك لها ولموليها، والآيس متروك لوحده، مغضوب عليه، قد تَرَكَ فَتُرِكَ، وكان جزاؤه من جنس عمله.

انتقال واعتبار:

تلك حالة أهل الإعراض.

أما أهل الإقبال على الله تعالى والقبول لإنعامه، فإن قلوبهم عامرة بالله، وصلتهم متينة به؛ فإذا نزلت بهم المصائب، رجعوا إليه وانتظروا رحمته، فكان ذكره غناهم في الفقر، وأنسهم في الوحشة، ونعيمهم في الألم؛ وكان لهم من الرجاء أنواع رحمته، ما يهون عليهم جميع المصائب.

تبصير وتحذير:

بصرنا القرآن في هذين الوصفين الذميمين: الإعراض عن النعمة، واليأس من الرحمة، ونحن نراهما فاشيين في أكثر الناس على تفاوت بينهم، على حسب ما عندهم من إيمان وعمل صالح.

بصرنا القرآن بهما ليحذرنا منهما ومن سوء عواقبهما، فإن الإعـراض عن النعمة كفـر بها

---

(١) أي «نأى».

(٢) كذا في الأصل. ولعل الصواب «الجاه».

ومقتض لسلبها، وان اليأس من رحمة الله جهل به، وكفر بما هو متقلب فيه من نعمه وموجب لانطماس القلب، وشلل البدن، وانقطاع الأعمال.

فليحذر المؤمن من هذين الوصفين الذميمين، وليعمل على اجتنابهما واجتثاثهما من أصلهما.

سلوك:

على المرء أن يقبل نعم الله تعالى، ويقبل عليها إقبال المستعظم لها، العارف بحقها، وعظيم الفضل بها؛ ليقوم بشكرها، وذكر الله عندها، وليتفحّصها، وليتأملها نعمة نعمة، ليشكر الله عليها واحدة واحدة بالقلب واللسان والأركان، حسب المستطاع.

حتى ما يكون من باب المصائب والآلام، فإنه يتناوله على أنه نعمة من الله تعالى، بما فيه من أجر وتمحيص، وما يحصل به من رجوع وإنابة، وما يكون منه من تربية وتدريب على السلوك اللازم في الحياة الفردية والاجتماعية: **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾** [الشورى: ٣٠].

وليكن دائماً متمسكاً بحبل الرجاء في الله، تيسير الأسباب، وكشف الكروب، ودفع المكروه؛ فالرجاء حسن ظن في الرب، وقوة في القلب، وباعث على العمل، ومخفف أو مذهب للألم.

فيا لها من عظيم أجرها، جليل نفعها في الدنيا والدين.
فهنيئاً للشاكرين الراجين.
ويا ويح الكافرين ـ كفر عقيدة أو كفر نعمة ـ القانطين.

مباينة سلوك أهل الحق لسلوك أهل الباطل:

﴿قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾.

قد استفيد بما تقدم تقسيم الخلق إلى قسمين: أهل إيمان ورجاء، وأهل كفر وقنوط؛ فجاء البيان في هذه الآية بأن كل فريق له مذهبه وطريقه الذي يكون عليه.

﴿شاكلته﴾ طريقته ومذهبه، المشاكلة اللائقة به، التي صارت له طبيعة وخلقاً.
﴿أهدى سبيلاً﴾، أسد مذهباً، وأقوم طريقاً.

التعبير بالمضارع مع لفظة على، يفيد تجدد العمل وانبناءه على الخلق والطبيعة.

المعنى:

قل يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كل فريق منا ومنكم **يعمل** في حياته على طريقته ومذهبه، فأعمالنا مباينة لأعمالكم، لأن طريقتنا مباينة لطريقتكم، فربكم أعلم بمن هو أقوم طريقاً، وأسدُّ مذهباً، فيثيب المهتدين، ويعاقب الضالين.

فوائد استدراج الضال لقبول الهداية:

أ ـ وذلك بمناصفته بأنك على ناحيتك، وهو على ناحيته، وإظهار التساوي معه أمام علم الله

وقدرته، وهذا من أنجع الأسباب في إنجاح الدعوة. وعليه في القرآن آيات كثيرة منها سورة ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ فينبغي لدعاة الحق أن يلتزموه ولا يهملوه.

ب ـ والبراءة من أهل الباطل، وذلك باعلان المباينة لهم، والمخالفة لهم في عملهم، وما انبنى عليه عملهم بأسلوب المناصفة الذي جاءت به الآية فتحصل البراءة مع الفائدة المتقدمة.

انبناء الأعمال على العقائد والأخلاق:

فإن الآية ـ وإن كانت بالخطاب الأول للمشركين، ثم لأمثالهم من الكافرين ـ تفيد أن كل أحد تبنى أعماله على مذهبه وطريقته، التي هي خلقه وطبيعته.

ونأخذ من هذا:

أن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر، وفي الجسد مضغة(١) إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله(٢).

فعل المؤمن ما يناسب إيمانه:

فإن كان يعمل على طريقته وطبيعته اللائقة به، ولا يليق بالمؤمن ولا يشاكله إلا الصدق في القول، والإحسان، والوفاء، والأمانة؛ فلا يظلم من ظلمه، ولا يخون من خانه، ولا يكذب على من كذب عليه، فلا تجري أفعاله في مقابلة الناقص على ما يشاكل ذلك الناقص، بل تجري أفعاله على ما يشاكله هو في إيمانه وكماله.

مراقبة الله في السلوك:

فإن علمنا بأنه أعلم بمن هو أهدى سبيلاً، يدعونا إلى المبالغة في تقويم سلوكنا، حتى نكون على الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، فإنه هو أهدى الطرق، وأقربها.

وما ذلك الصراط المستقيم إلا القرآن العظيم، والهدي النبوي الكريم وسلوك السلف الصالح، وذلك هو دين الإسلام.

نسأل الله لنا ولجميع المسلمين الاستقامة، والنجاة يوم القيامة، بمنّه وكرمه آمين.

---

(١) المضغة: القطعة من اللحم، سميت بذلك لأنها تمضغ في الفم لصغرها.

(٢) جزء من حديث عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبّهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه. ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإنّ حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». رواه البخاري في الإيمان باب ٣٩، ومسلم في المساقاة حديث ١٠٧، وابن ماجة في الفتن باب ١٤. والدارمي في البيوع باب ١.

القسم الثاني

في سورة الفرقان

في هذا القسم:

١ ـ الفرقان.
٢ ـ كلام الظالمين في الكتاب الحكيم، والرسول الكريم، ورد رب العالمين.
٣ ـ منزلة الرسالة العلية والضرورات البشرية.
٤ ـ فتنة العباد بعضهم ببعض.
٥ ـ ندامة الظالم على تركه السبيل القويم، وصحبته للمضلين.
٦ ـ شكوى النبي الكريم، وتسليته وتثبيته.
٧ ـ تثبيت القلوب بالقرآن العظيم.
٨ ـ الحق والبيان في آيات القرآن.
٩ ـ حشر الكفار إلى النار.
١٠ ـ من إكرام الله تعالى عبده، تحميله أعباء الرسالة وحده.
١١ ـ عدم طاعة الكافرين، والجهاد بالقرآن العظيم.
١٢ ـ تعاقب الليل والنهار للتفكير والعمل.
١٣ ـ القرآن يصف عباد الرحمن.
١٤ ـ السجود والقيام.
١٥ ـ الدعاء بصرف العذاب.
١٦ ـ عدم الإسراف والتقتير.
١٧ ـ عبادة الله وحده، وعدم قتل النفس، والبعد عن الزنا.
١٨ ـ الوعيد على فعل هذه الموبقات.
١٩ ـ استثناء التائبين من المذنبين.
٢٠ ـ بشارة التائبين إلى رب العالمين.
٢١ ـ اجتناب شهادة الزور.
٢٢ ـ المرور باللغو مر الكرام.
٢٣ ـ قبول التذكير، والعمل به.
٢٤ ـ طلب الكمال والخير وقرور العين.
٢٥ ـ جزاء عباد الرحمن.
٢٦ ـ قيمة العباد عند ربهم بقدر عبادتهم.

الفرقان

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَـدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

[الفرقان: ١ و٢]

﴿تبارك﴾ مادة (ب ر ك) كلها ترجع إلى معنى الثبوت، منها: بروك الإبل، استناختها، والبركة كالقربة مثل الحوض يثبت فيها الماء. والبراكاء الثبات في الحرب، ومنها البركة بمعنى النماء والزيادة، ولا ينمو ويزيد إلا ما كان ثابت الأصل، وشأن ثابت الأصل أن ينمو ويزيد، فلم تخرج عن معنى الثبوت؛ وتبارك من البركة فمعناه تزايد خيره.

والله تعالى له الكمال، ومنة الإنعام، فتبارك: أي تزايد كماله وإنعامه، فلا تُحصى إنعاماته، ولا تحد كمالاته.

وثبوت الكمال ينافي وينفي ضده؛ فيقتضي التنزه عن النقص.
فانتظم اللفظ ثلاثة معاني:

التنزه عن النقص، والاتصاف بالكمال، والإفاضة للإنعام. (فتبارك: تقدس وتعاظم) الفعل الأول مفيد للأول والفعل الثاني مفيد للثاني والثالث.

﴿نزل﴾ مادة (ن ز ل) كلها ترجع إلى معنى الهبوط من عل، والحلول في أسفل.

ونزّل المضاعف أبلغ في المعنى من أنزل، وقد يفيد كثرة النزول كما هنا؛ لأنه نزله مفرقاً على نيف وعشرين سنة. وقد يفيد القوة في نزول واحد كما في قوله تعالى: **﴿لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة﴾** [الفرقان: ٣٢]؛ لأن تنزيل الجملة أقوى من إنزال التفصيل.

﴿الفرقان﴾ أصله مصدر فرق بمعنى فصل. وهو أبلغ في الدلالة على المعنى من فرق المصدر المجرد، بما فيه من زيادة الألف والنون، كما كان القرآن أبلغ من القراءة لذلك.

وهو هنا اسم من أسماء هذا الكتاب الكريم.

﴿نذيرًا﴾ مادة (ن ذ ر) كلها ترجع إلى الإعلام والتحتيم، فمنها: نذر على نفسه الصوم أوجبه وحتمه وأعلم به ونذر بالعدو كفرح علم به وأنذره، أعلمه؛ ولا يستعمل إلا في إبلاغ ما فيه تخويف، فهو إعلام بتأكيد وتحتيم. ونذير هنا بمعنى منذر من فعيل بمعنى مفعل.

﴿الذي نزل﴾ عرف المسند إليه بالموصولية لزيادة تقرير الغرض الذي إليه سيق الكلام لأن

الغرض بيان كمالات الله تعالى وإنعاماته، وتنزيل الفرقان منها، فهو من أعظم نعم الله على البشر، ومن آيات الله الدالة على قدرته وعلمه وحكمته.

﴿عبده﴾ إضافة تشريف لأنه أكمل العباد.

المعنى:

تقدس وتعاظم الرب الذي نزل الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال وحزبيهما من الناس، مفصلاً آيات على محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أكمل عباده؛ ليكون بذلك الكتاب ـ لجميع الإنس والجن ـ منذراً لهم يعلمهم بعذابه، ويخوفهم بشديد عقابه إن لم يعبدوه وحده، ويخلعوا غيره من آلهتهم الباطلة، ويدخلوا في الدين الذي جاءهم به وهو الإسلام.

توحيد:

هذا الفعل وهو «تبارك» لا يسند إلا إلى الله تعالى؛ ذلك لأن العظمة الحقيقية بالكمال والإنعام والتقديس بالتنزه التام ليسا إلا له. وما من كامل من مخلوقاته إلا وهو ـ جل جلاله ـ الذي كمله. وما من منعم عليه منهم إلا وهو تعالى الذي أنعم عليه، وما من زكي منهم إلا وهو ـ سبحانه ـ الذي زكاه.

سلوك:

هذا الرب الكامل المكمل، المنعم المتفضل القدوس، هو الذي أنزل هذا الفرقان. فإذا أردت أن ترقى في درجات الكمال، وتظفر بأنواع الإنعام وتزكي نفسك الزكاء التام، فعليك بهدى هذا الفرقان، فهو بساط القدس، ومعراج الكمال، ومائدة الاكرام.

وقد سئلت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ عن خلق النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقالت: «كان خلقه القرآن[١]»[٢].

فقه واستنباط:

لما سمى الله كتابه الفرقان، علمنا أنه به يفرق بين الحق والباطل، وأهل هذا وذاك. فهو الحكم العدل، والقول الفصل بين كل متنازعين يدعي كل منهما أنه على الحق، فيما هو عليه من عقد، أو قول، أو عمل.

فما تقابل حق وباطل، وما تعالجت حجة وشبهة إلا وفي هذا الكتاب الحكيم ما يفرق ما

---

(١) كان خلقه القرآن: معناه العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بآدابه والاعتبار بأمثاله وقصصه وتدبره وحسن تلاوته.

(٢) جزء من حديث رُوي في الصحاح مطولاً ومختصراً. رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها حديث ١٣٩. وأبو داود في التطوع باب ٢٦. والترمذي في البرّ باب ٦٩. والنسائي في قيام الليل باب ٢. وابن ماجة في الأحكام باب ١٤. والدارمي في الصلاة باب ١٦٥. وأحمد في المسند (٥٤/٦، ٩١، ١١١، ١٥٣، ١٨٨، ٢١٦).

بينهما[١]. وإنما يتفاوت الناس في إدراك ذلك منه على حسب ما عندهم من قوة علم، وصدق بصيرة، وحسن إخلاص.

فعلينا ـ إذن ـ أن يكون أول فزعنا في الفرق والفصل إليه.

وأن يكون أول جهدنا في استجلاء ذلك من نصوصه ومراميه، مستعينين بالسنة القولية والعملية على استخراج لآليه.

فإذا حكم قبلنا وسلمنا وكنا مع ما حكم له، وفارقنا ما حكم عليه؛ فالله سماه الفرقان، لنعلم أنه فارق بنفسه، ولنعمل بالفرق به، ولا يكمل إيماننا بأنه الفرقان، إلا بالعلم والعمل.

ولمّا جعل ـ تعالى ـ غاية تنزيل الفرقان أن يكون عبده نذيراً، اقتضى ذلك أن نذارته تكون بالقرآن؛ لتقوم الحجة، وتتم الحكمة، وتحصل الفائدة وتشمل النعمة.

وقد صرح بهذا في قوله تعالى:

﴿كتاب أُنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به﴾ [الأعراف: ٢].

﴿وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ [الأنعام: ١٩].

﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ [ق: ٤٥].

﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ [التوبة: ٦].

فعلينا ـ إذن ـ أن نعلم أن القرآن هو كتاب النذارة والهداية، فنستخرج أصولها وفنونها من آياته، وهذا حظ العلم، وأن يكون اهتداؤنا في أنفسنا وهدينا لغيرنا به وهذا حظ العمل وهما ركنا الإيمان.

* * *

تطبيق وتحاكم:

في العالم الإسلامي كله اليوم طائفتان من المؤمنين[٢]، يتنازعان خطة الهداية والنذارة والتذكير.

ولكل منهما ـ في سلوكها للقيام بتلك الخطة ـ سبيل.

وكل منهما تدعي أنها على الصواب، وأنها الأحق والأولى بنفع العباد.

---

(١) قال تعالى: **﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾**. سورة الأنعام، الآية ٣٨.

(٢) يشير إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وما يشبهها، وإلى الطرقية المبتدعة (عن حاشية المطبوع: ص ٢٤٩).

فرأينا أن نطبق فصل الفرقان عليهما، وننظر: كيف يفرق ما بينهما ومن هي المصيبة أو المخطئة. وفي ضمن ذلك تحاكمهما إليه وفصل النزاع بينهما بحكمه.

وإنما اخترناهما للتطبيق والتمثيل، لخطر الخطة التي تنازعا عليها، وعظيم النفع والضرر الذي يحصل من خطأ المخطىء، وصواب المصيب بها؛ ولأن الهداية والنذارة والتذكير أمور لها أنزل القرآن، فتنازعهما عليها تنازع عليه.

فأحق فصل أن نمثل به لنعلم فصله هو بين المتنازعين فيه.

وها نحن نعرض بعض حال كل طائفة في قيامها بالخطة، ثم نسوق آيات القرآن، وننظر من أسعد الطائفتين بها:

الطائفة الأولى:

يذكرون من يدعونهم بغير القرآن بأحزاب وأوراد من وضعهم، لا مما ثبت عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلا قليلاً.

ولهم عليهم في أموالهم حق في أوقات من السنة معلومة.

والطائفة الثانية:

يذكرون الناس بالقرآن فيأمرونهم بقراءته وتدبره، ويبينون لهم معانيه، ويحثونهم على التمسك به والرجوع إليه.

ويدعونهم إلى الأذكار النبوية الثابتة في الكتب الصحاح، لرجوعها إلى القرآن لحكم قوله تعالى: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه**﴾ [الحشر: ٧].

ولا يطلبون عليهم في ذلك أجراً.

والله تعالى يقول في الحال الأول: ﴿**فذكر بالقرآن**﴾ [ق: ٤٥] وغيرها من الآيات المتقدمة في هذا المجلس.

ويقول ـ تعالى ـ في الحال الثاني لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿**قل ما أسألكم عليه أجراً إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً**﴾ [الفرقان: ٥٧].

﴿**قل ما أسألكم عليه من أجر إلا المودة في القربى**﴾ [الشورى: ٢٣].

ويقول في آية صريحة صراحة تامة في بيان من يجب أن يتبع من الدعاة: ﴿**اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون**﴾ [يس: ٢١].

ومن هم المهتدون؟ هم المتبعون للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لقوله تعالى: ﴿**فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون**﴾ [الأعراف: ١٥٨] واتباعه بالنسبة لموضوعنا هو اتباعه في طريق دعوته الخلق إلى الله.

وقد ثبت بالقرآن أنه كان يدعو بالقرآن، ويذكر به، وأنه لا يسأل على ذلك أجراً.

بان ـ والحمد لله ـ بما ذكرنا حكم القرآن بين الطائفتين، واتضح طريق الحق في الدعوة والإرشاد لمن يريد سلوكه منهما.

والله نسأل لنا ولهم قبول الحق والتعاون عليه والقوة والإخلاص في الصدع[1] به والثبات عليه.

﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ [إبراهيم: ٢٧].

كلام الظالمين في الكتاب الحكيم

والرسول الكريم ورد رب العالمين

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾

[الفرقان: ٤ و٥ و٦]

﴿كفروا﴾ غطوا الحق بإنكاره وعدم الاعتراف والإعلان به. وكل من غطى شيئاً وستره فقد كفره. وسمي الليل كافراً لأنه يغطي الأشياء بظلامه، والزارع كافرًا لأنه يغطي البذار بالتراب[2].

﴿إفك﴾: كذب مصروف عن وجه الحق، من أفَكه يَفِكه أَفْكًا أي صرفه.

﴿افتراه﴾: اختلقه واخترع صورته.

﴿جاءوا﴾ وردوه وانتهوا إليه.

﴿ظلمًا﴾: وضع الشيء في غير موضعه.

﴿زورًا﴾: شهادة بالباطل.

﴿أساطير﴾: جمع أسطورة أي أخبار وحكايات مسطورة في كتب الأوائل، ليست محل الثقة.

﴿اكتتبها﴾: أمر بكتابتها له، وافتعل يأتي للطلب كاحتجم وافتصد.

﴿تملى﴾ تلقى عليه ليحفظها فيلقيها على الناس.

---

(١) صَدَعَ الأمْرَ: وَصَدَعَ بالأمر: بيّنه وجَهَرَ به. وفي التنزيل العزيز: **﴿فاصدع بما تؤمر﴾** ـ الحجر: ٩٤.

(٢) ومن هذا المعنى قوله تعالى **﴿كمثل غيث أعجب الكفّار نباته﴾** الحديد: ٢٠.

﴿**بكرة**﴾ ما بين الفجر والطلوع.
﴿**أصيلاً**﴾ ما بعد العصر إلى الغروب.
﴿**السر**﴾ الخفي من كل شيء.
﴿**غفوراً**﴾ ستاراً للذنوب كثير التجاوز عنها.
﴿**رحيمًا**﴾ دائم الإفاضة للنعم.

المعنى:

وقال الذين أنكروا الحق ـ مع ظهوره وجحدوه مع وضوحه ـ: ما هذا الكلام الذي يتلوه محمد علينا، إلا كلام كذب مصروف عن وجه الحق، اخترعه وصوره، وأعانه عليه غيره أناس آخرون.

فقد سموا الحق الصراح والصدق الخالص إفكًا.

وجعلوا إخبار الأمين الذي كانوا يدعونه هم أمينًا، افتراء.

وجعلوا القرآن الذي عجزوا عن معارضته، كلاماً عادياً متعاوناً على تركيبه وتصويره، فسموا الشيء بغير اسمه، ووضعوا الوصف في غير موضعه، فانتهوا بذلك إلى ظلم عظيم أتوه ووقعوا فيه.

وقد شهدوا بالباطل فنسبوا للرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ما هو بريء منه من الافتراء والاستعانة بغيره، فانتهوا إلى وزر عظيم تحملوه.

وقالوا ـ أيضاً ـ: هذا الذي يتلوه علينا، هو من أخبار الأوائل وكتبهم المسطورة التي سطّروها من أعاجيب أحاديثهم، مما يتلهى به ولا يوثق بصحته، توصل إليها من غيره أمر فكتبت له فكاتبها له يمليها عليه دائماً في طرفي النهار فيحفظها هو ويأتينا بها.

قل ـ يا محمد ـ أنزل هذا الذي أتلوه عليكم الخالق الذي يعلم الشيء الخفي والأمر المكتوم في العالم العلوي والعالم السفلي.

أمهلكم فلم يعاجلكم بالعذاب، وبقي يجدد لكم التذكير مع إعراضكم وعنادكم، وقبح صنيعكم، وسوء ردكم، إلا أنه من شأنه الصفح والتجاوز ودوام الإنعام والتفضل.

فهل لكم أن ترجعوا إلى هذا الرب الغفور الرحيم؟

مزيد بيان:

بهر العرب ما رأوا وما سمعوا من رجل كان بالأمس معرضاً عنهم تاركاً لهم وشأنهم، يشهد موسم الحج معهم ويحتسب مشاهد وثنيتهم، ولكنه لا يعاديهم ولا ينكر عليهم، ويسير بينهم بالصدق والجد والعفاف وكمال المروءة سيرة تخالف سيرتهم؛ فهم لذلك يحبونه ويعظمونه ويدعونه الأمين، لقبًا خصصوه به فصار يُدعى به بينهم.

فأصبح اليوم ـ وقد جاوز الأربعين ـ ينكر عليهم، ويسفِّه أحلامهم، ويقبح عبادتهم وما

يعبدون؛ ويصبر على أذاهم ولا يقابلهم بالمثل، ويستمر على دعوته غير مبال بهم، ولا حاسب شيئاً لكثرتهم، ولا لسطوتهم.

ومن كلامه مثل كلامهم في ألفاظه وفي تراكيبه، ثم هم يعجزون عن معارضته بمثل أقصر سورة منه.

ثم يشهدون الفرق بينه وبين كلام محمد نفسه؛ فهو إذا حدثهم بما اعتادوا من حديثه معهم، حتى إذا تلى عليهم القرآن جاءهم بما هو فوق كلامه وكلامهم، وما تقصر عن معارضته ألسنتهم.

بهرهم هذا، وهذا، وأخذ العناد بعقولهم، واستحوذت عليهم شياطينهم فحاروا فيما يقذفون به هذا الرسول وهذا الكتاب، فأخذوا يقولون عن الكتاب:

إنه إفك مفترى!!ورأوه أكبر مما كانوا يسمعون من كلام محمد فلم يكن ليأتي به وحده وهو فوق المعتاد من كلامه، فإذاً هنالك أقوام يعينونه.

ومن هم الأقوام؟ وهو ـ بعد ـ في نفر قليل ممن آمن به، وهم هم في كثرتهم وتساندهم، وقد عجزوا عن الإتيان بشيء مثله، فالقليل أحرى بالعجز من الكثير.

ويقولون: إنه أساطير الأولين، وقد كان منهم من عرف شيئاً من أخبار الفرس وملوكهم، وكان يحدثهم بها، ويقصها عليهم، ويزعم لهم أنها مثل ما يأتي به محمد فقالوا ـ وقد علموا الفرق ـ هذه منها وهي مثلها!.

ولكن محمداً عرفوه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فكيف اتصل بهاته التي زعموها أساطير؟

فاخترعوا وسيلة لذلك أنه يكتبها له غيره ويمليها عليه وهو يحفظها!! ومن هو هذا الذي يكتب ويملي عليه، وهم قد عرفوا مدخل محمد ومخرجه ومغداه ومجلسه، وعرفوا بلدتهم ومن يساكنهم فكيف لا يرونه ولا مرة بين يدي هذا الكاتب المملي، ولا يشاهدونه يوماً في صحبته؟!.

فاخترعوا لذلك أنه يمليها عليه في طرفي النهار في ظلام من الوقت، وسكون من الناس.

وقالوا في الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إنه مفتر، يستعين على افترائه بغيره، ويتظاهر باستقلاله، وينسب لله ما هو من حكايات الأوائل وأوضاعهم، فكيذب عليه ـ تعالى ـ لديهم.

رد الله عليهم كل ما قالوا فيهما:

بأنه ظلم وزور.

وأن ما يتلوه عليه هذا النبي الكريم، من ذلك الكتاب الحكيم، ليس إلّا من خالق المخلوقات، العالم بأسرارها.

أسلوب في البيان:

لقد جاءوا الظلم والزور في قولهم الأول وقولهم الثاني.

وقوله: «قل» أمر بما يرد قولهم الأول، وقولهم الثاني، غير أنه قصد إلى الإيجاز وعدم التكرار.

فجعل مع قولهم الأول الوصف وهو الظلم، واكتفى بذكره هنا عن إعادته.

وجعل مع قولهم الثاني الدليل: وهو إنزال من يعلم السر واكتفى بذكره هنا عن ذكره مع الأول فحذف من كل ما أثبت مع الآخر. وجعل الوصف مع الأول والدليل مع الثاني ترقياً من الدعوى للدليل.

وجه الدليل:

القرآن أعجز العرب ببلاغته، حتى عرفوا ـ وعرف العلماء بلسانهم المرتاضين ببيانهم ـ أنه ليس مثله من طوق البشر. هذه هي الناحية الظاهرة في إعجاز القرآن والاستدلال به له ولمن أتي به صلى الله عليه وآله وسلم.

وهنالك ناحية أخرى هي أعظم وأعم: وهي ناحيته العلمية التي يذعن لها كل ذي فهم من جميع الأمم، في كل قطر وفي كل زمن.

وهذه الناحية هي التي احتج بها في هذا الموطن:

فقد استدل على أن القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمد من عنده، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره، ولا أن يكون من أوضاع الأوائل، بأنه ينطوي على أشياء من أسرار هذا الكون لا يعلمها إلّا خالقه، فمن ذلك:

ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية، وبيّن من أسرار الكتب الماضية.

وما أنبأ من أحداث مستقبلة، وما ذكر من حقائق كونية، كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة؛ كالزوجية في كل شيء، وسبح الكواكب في الفضاء، وسير الشمس إلى مستقر مجهول معين عند الله لها.

وغير ذلك من أسرار العمران والاجتماع، وما تصلح عليه حياة الإنسان، مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم.

فكتاب اشتمل على كل هذه الأسرار لا يمكن أن يأتي به مخلوق.

ترغيب:

قد دعانا الله إلى العلم ورغبنا فيه في غير ما آية، وأعلمنا أنه خلق لنا ما في السموات وما في الأرض جميعاً.

وأمرنا بالنظر فيما خلقه لنا وأعلمنا هنا أن هذه المخلوقات أسرار بيَّنها القرآن واشتمل عليها.

وكان ذلك من حجته العلمية على الخلق فكان في هذا ترغيب لنا في التقصي في العلم

والتعمق في البحث، لنطلع على كل ما نستطيع الاطلاع عليه من تلك الأسرار: أسرار آيات الأكوان والعمران، وآيات القرآن؛ فنزداد علماً وعرفاناً، ونزيد الدين حجة وبرهاناً، ونجني من هذا الكون جلائل ودقائق النعم، فيعظم شكرنا للرب الكريم المنعم.

فقهنا الله في كتابه، ووفقنا إلى الاهتداء به، والسير على سننه.

منزلة الرسالة العلية والضروريات البشرية

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

[الفرقان: ٢٠]

لما طعنوا في رسالته، بأنه بشر يفعل ما يفعله البشر بقولهم: ﴿**مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق**﴾، رد الله عليهم بأن هذا هو حال جميع المرسلين من قبله، واحتج عليهم بما يعلمون من ذلك بما يسمعون من أهل الكتاب جيرانهم، وبما عندهم من أخبار عاد وثمود من بني جلدتهم.

(الإرسال) هو البعث لتبليغ شيء أو قضائه، وفي لسان الشرع: هو إنزال الله تعالى الوحي على من اصطفاه من خلقه لينذر به من أمره بإنذار. من قوله تعالى: ﴿**وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين**﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤] فالرسالة وحي مع أمر بالتبليغ.

مفعول أرسلنا محذوف تقديره رجالاً، وعليه عاد الضمير في أنهم، وهو صاحب الحال، والحال هي الجملة التي بعد إلّا، والجملة الثانية حال بالعطف على الأولى. والاستثناء مفرغ من الأحوال.

وتقدير الكلام: وما أرسلنا قبلك رجالاً من المرسلين إلّا حالة أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق: أي ما أرسلناهم في حالة من الأحوال إلّا في هذه الحال.

وإن واللام والحصر بما وإلا، كل هذه لتأكيد المعنى الذي سيق إليه الكلام، وهو إثبات أن رسول البشر لا يكون إلّا بشراً رداً على منكري ذلك المشركين.

وعبر بالمضارع في يأكلون ويمشون؛ لأن ذلك من ضروريات بشريتهم، فهو يتجدد ويتكرر منهم.

وأكل الطعام والمشي في الأسواق كناية عن البشرية، لأنهما وصفان لازمان لها.

المعنى:

وما ينكر عليك هؤلاء من أكلك الطعام، ومشيك في الأسواق، مع أنك رسول الله! وقد

علموا أنه ما من رسول كان قبلك إلاّ وهذه حالته، وما أنت إلاّ واحد منهم، فلا عيب عليك في ذلك، ولا حجة لهم عليك به.

تاريخ:

هذه المقالة شنشنة[1] قديمة من الأمم التي أُرسلت إليها الرسل، فقابلتها بالجهل والعناد.

فقد قال لنوح قومه: ﴿**ما نراك إلاّ بشراً مثلنا**﴾ [هود: ٢٧].

وقال لهود قومه: ﴿**ما هذا إلاّ بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون**﴾ [المؤمنون: ٣٣].

ولصالح: ﴿**ما أنت إلاّ بشر مثلنا**﴾ [الشعراء: ١٥٤].

ولشعيب: ﴿**وما أنت إلاّ بشر مثلنا**﴾ [الشعراء: ١٨٦].

ولموسى وهارون: ﴿**أنؤمن لبشرين مثلنا**﴾ [المؤمنون: ٤٧].

وعن قوم نوع وعاد وثمود والذين من بعدهم أنهم قالوا لرسلهم ﴿**إن أنتم إلاّ بشر مثلنا**﴾ [إبراهيم: ١٠].

فقال المشركون للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ما قاله أمثالهم لإخوانه المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

تعديل:

ما اعترض المعترضون على الرسل ببشريتهم إلاّ من جهلهم، وسوء نظرهم، وغباوتهم.

١ ـ أما جهلهم: فقد جهلوا ما في البشرية من استعداد لنيل أرقى الكمالات.

وجهلوا ما تقتضيه الرسالة من مشاكلة بين الرسول والمرسل إليهم لتحصل المفاهمة والاتصال.

وجهلوا ما يؤهل به البشر لرتبة الرسالة من كمال في الروح، والعقل، والأخلاق، والسلوك، مما كان الرسل متصفين به كله أمام أعين أقوامهم.

٢ ـ وأما سوء نظرهم: فإنهم نظروا إلى بشرية الرسل فقاسوهم بهم، وقالوا لهم: أنتم مثلنا، مع وجود الفارق الواضح بينهم وبين الرسل في الصفات النفسية التي بها كمال الإنسان!

---

(١) الشِّنْشِنَةُ: السجيّة والطبيعة، وقيل: القطعة والمضغة من اللحم. وفي حديث عمر قال لابن عباس رضي الله عنهما في كلام: «شنشنة أعرفها من أخزم» أي فيه شبه من أبيه في الرأي والحزم والذكاء. وهو مثل، وأول من قاله أبو أخزم الطائي؛ وذلك أن أخزم كان عاقًا لأبيه، فمات وترك بنين عقّوا جدهم وضربوه وأدموه، فقال:

إنّ بنيَّ زَمَّلُوني بالدمِ شِنْشِنَةٌ أعرِفُها من أخْزمِ

ويروى «نشنشة» بتقديم النون. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٥٠٤).

٣ ـ وأما غباوتهم: فإنهم لغلبة الجسمانيات على حسهم وإهمالهم استعمال عقولهم، لم يتفطنوا للكمال المشاهد الذي امتاز به الرسل بين أقوامهم.

تعليم:

هذه العلل التي صدر اعتراض المعترضين عنها، قد علمنا الله تعالى في كتابه العزيز ما يعصمنا منها:

١ ـ فعلمنا: أن الإنسان مستعد لأن تخضع له العوالم بما فيه من روح الله.

وأنه يلتحق بعالم الملائكة الأطهار بتلك الروح عندما تكون على أصل طهرها وقدسها.

علمنا هذا بقوله تعالى: ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾ [ص: ٢٣] فأخضع له ملائكته أشرف العوالم.

وبقوله تعالى: ﴿**قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم**﴾ [البقرة: ٣٣]. فاتصل بهم، وخاطبهم، وعلمهم.

فلا عجب أن يأتي المماثلون له من أبنائه في طهره وعصمته على سنته في الاتصال بالملائكة، ومخاطبتهم.

٢ ـ وعلمنا: أن الرسول لا يكون إلا من جنس المرسل إليهم، ليحصل الاتصال، ويمكن التلقي. وأن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لأرسل لهم ملك، وأنهم لو أنزل عليهم بشر لكسي حلة البشرية ولالتبس عليهم أمره، ولقالوا فيه مثل ما قالوا في المرسلين من البشر.

علمنا هذا بقوله تعالى: ﴿**قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً**﴾ [الإسراء: ٩٥].

وبقوله تعالى: ﴿**ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون**﴾ [الأنعام: ٩].

٣ ـ وعلمنا: أن البشر يؤهل للرسالة باصطفاء الله له، ومن مقتضى ذلك الاصطفاء تطهيره من أول نشأته من أوضار[1] البشرية، وظلم الجسمانية وتسفلها؛ فتبقى روحه على غاية الطهر، والعلوية النورانية مستعدة للاتصال بالملأ الأعلى، حتى تستكمل قواها فيأتيها الملك بالوحي.

علمنا هذا بمثل قوله تعالى: ﴿**الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس**﴾ [الحج: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿**وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار**﴾ [ص: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ [الأنعام: ٢٤] وغيره كثير.

٤ ـ وعلمنا: أن الرسل وإن كانوا موافقين لنا في الخلقة البشرية، فإنهم مباينون لنا غاية المباينة في الخلقة النفسية، من حيث الطهر والكمال:

---

(١) الأوضار: جمع وَضَر، وهو الدّرن (المعجم الوسيط: ص ١٠٣٩).

فنفوسهم بقيت على طهرها لم تدنس بشيء، ونفوسنا لا تخلو من تدنس، والموفق من داوم على غسلها بالتوبة وتحليتها بالصالحات.

وكمالهم فطري، ويبلغون فيه ـ بعملهم المتواصل، وعصمتهم الربانية ـ إلى الغايات التي لا تنال، وكمالنا ليس كذلك في الأمور الثلاثة: الفطرة، والعمل المتواصل، والعصمة.

علمنا هذه بقوله تعالى: **﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾** [إبراهيم: ١١].

فبالنظر الصحيح فيما مَنَّ الله عليهم به، ندرك أنهم ليسوا مثلنا، وإن ساوونا في الخلقة البشرية.

٥ ـ وعلمنا: ألا ننظر إلى ظواهر الأمور دون بواطنها، وإلى الجسمانيات الحسية دون ما وراءها من معان عقلية، بل نعبر من الظواهر إلى البواطن، وننظر من المحسوس إلى المعقول، ونجعل حواسنا خادمة لعقولنا، ونجعل عقولنا هي المتصرفة الحاكمة بالنظر والتفكير.

علمنا هذا بقوله تعالى: **﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾** [المائدة: ١٠٠] فلا ينظر إلى بهرجة[1] الكثرة، ولكن إلى حقيقة وحالة الشيء الكثير فيعتبر بحسبها.

وبقوله: **﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا﴾** [الفجر: ١٥، ١٦] فلا يجوز أن نغتر بالمال، والقوة، والجاه، وأنواع النعيم إذا سيقت إلينا فنحسب أنها هي نفس الكرامة الربانية التي دُعينا إلى العمل لنيلها، بل إنما نعدها كذلك إذا كان معها التوفيق إلى شكرها بالقيام بحقوقها، وصرفها في وجوهها.

ولا نغتر بحالة الضيق، والعسر، والضعف، فنحسب أنها إهانة من الله لصاحبها؛ بل علينا أن ننظر إلى ما معها من صبر ورجاء وبر، أو ضجر ويأس وفجور. فنعلم حينئذ أنها مع الأولى للتمحيص والتثبت، ومع الأخيرة للزجر والعقاب بعدل وحكمة من أحكم الحاكمين.

وبقوله تعالى: **﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾** [الكهف: ١١٠]. فعلمنا أنه بشر، ولكنه خصص بالوحي إليه بتوحيد الله، وبما يقتضيه مقام الإيحاء اليه من طهر وكمال، حتى لا يحجب عنا بشريته التي نشاهدها بأبصارنا كمال حاله ومنزلته الذي ندركه ببصائرنا.

عقيدة:

الرسول إنسان ذو روح طاهرة نورانية علوية؛ بها تأتّى له تلقي الوحي من الملائكة.

وذو جسد بشري تجري عليه ضروريات البشرية الخلقية دون نقائصها الكسبية، لأنه

---

(١) يقال: بَهْرَجَ الكلام وغيره: زيّفه، وردّه لزَيْفه (المعجم الوسيط: ص ٧٣).

مصرف بتلك الروح العلوية الظاهرة التي لا يصدر عنها إلا الخير، وبهذا الجسد البشري تأتّى للبشر الأخذ عنه والاقتداء به.

ومأخذ هذه العقيدة من الآيات التي تلوناها في فصل التعليم المتقدم.

تحذير:

علينا أن نحذر من أن نعترض أو نحكم بالأنظار السطحية، دون بحث عن الحقائق، أو أن نلحق شيء بشيء دون أن نتحقق انتفاء جميع الفوارق؛ فقد انتشرت بعدم الحذر من هذين الأمرين جهالات، وارتكبت ضلالات.

وبالنظر السطحي ازدرى إبليس آدم فامتنع من السجود له واعترض على خالقه، فكانت عليه اللعنة إلى يوم الدين.

وبعد النظر إلى الفوارق، قال أحد ابني آدم لأخيه لما تقبل قربانه دونه هو: ﴿**لأقتلنك**﴾، حتى ذكّره أخوه بوجود الفارق فقال: ﴿**إنما يتقبل الله من المتقين**﴾ [المائدة: ٢٧].

حقيقة الأول ترجع إلى الجهل المركب. وحقيقة الثاني ترجع إلى القياس الفاسد، وهما أعظم أصول الفساد والضلال.

سلوك:

الأنبياء والمرسلون أكمل النوع الإنساني، وهم المثل الأعلى في كماله وقد كان أصل كمالهم بطهر أرواحهم وكمالها؛ فأقبل على روحك بالتزكية والتطهير، والترقية والتكميل، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاقتداء بهم، والاهتداء بهديهم. وقد قال الله تعالى لنبينا ـ عليه الصلاة والسلام: ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾ [الأنعام: ٩٠].

فاقرأ ما قصه القرآن العظيم من أقوالهم وأعمالهم، وأحوالهم وسيرهم، وتفقه فيه، وتمسك به؛ تكن إن شاء الله ـ تعالى ـ من الكاملين.

فتنة العباد بعضهم لبعض

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

[الفرقان: ٢٠]

أفاد ما تقدم من الآية، أن الرسل يأكلون الطعام فيحتاجون للغذاء وتحصيله. وأنهم يمشون في الأسواق للسعي والتكسب، وأفاد آخر الآية الحكمة الربانية في ذلك؛ وهي أن يكون بذلك فتنة واختباراً للعباد، وتلك سنة الله تعالى في خلقه: فقد جعل بعضهم لبعض فتنة.

قال في «لسان العرب»[1] الأزهري وغيره: جماع معنى (الفتنة) الابتلاء، والامتحان،

(١) لسان العرب (١٣/٣١٧ ـ مادة فتن).

والاختبار. وأصلها مأخوذ من قولك: فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد اهـ. ومنه قوله تعالى: ﴿**أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون**﴾ [العنكبوت: ٢] وقوله: ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾ [التغابن: ١٥] وقوله: ﴿**وفتناك فتوناً**﴾ [طه: ٤٠]. وقوله: ﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنة**﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿**أتصبرون**﴾ الصبر حبس النفس على المكروه. والمكروه لها فعل ما فيه تعب، وترك ما فيه لذة. ويكون في المشروع والمقدور، ففي الأول بالقيام بالمأمورات، والترك للمنهيات. وفي الثاني بالرضا والتسليم في المصائب والبلايا للخالق، وعدم الاعتراض عليه، وعدم السعي في إزالتها بغير الوجه المأذون فيه.

و (البصير) هو المشاهد للأشياء ظاهرها وباطنها، ذواتها ونعوتها وأحوالها؛ مباديها وغاياتها وعواقبها.

الاستفهام في ﴿**أتصبرون**﴾ بمعنى الأمر أي اصبروا وخرج الأمر في صورة الاستفهام تنبيهاً على قلة الصبر في الوجود. فهو من الأمر المعدوم الذي يسأل عنه: هل يوجد؟ وفي ذلك بعث للهمم على تحصيله والتمسّك به.

وجملة ﴿**وكان**﴾ الخ معطوفة على جملة ﴿**وجعلنا**﴾، وعدل عن مقتضى الظاهر وهو وكنا بصراء بالإضمار إلى ﴿**وكان ربك بصيراً**﴾ بالإظهار، للتنبيه على أن فتنته لعباده من مقتضى ربوبيته لهم، وحسن تدبيره فيهم. وموقع هذه الجملة بعد الجملة الأولى لبيان أن فتنته لهم هي من علم وبصر بصواب ذلك وحكمته. وأنه مطلع على حقيقة ما يكون منهم عند الاختيار ليجازيهم عليه، وفي هذا وعد ووعيد للممتحنين.

المعنى:

امتحنا بعضكم ببعض لتظهر حقائقكم عند الامتحان.

جعلنا الرسل يأكلون كما يأكل البشر، ويكسبون كما يتكسبون لنمتحن العباد بهم فيظهر من يتبعهم بالإيمان واليقين؛ لما معهم من الحق والكمال. ويصبر على ما يلحقه من اتباعهم من الجهد والبلاء، ممن يحتقرهم ويعرض عنهم لما يرى من بشريتهم.

كما جعلنا الأمم فتنة لرسلها وامتحاناً لهم، ليظهر صبرهم على ما يلاقون منهم من إذاية وشر، فتعلو درجاتهم ويضاعف أجرهم.

وجعلنا الغني امتحاناً للفقير حتى يظهر صبره على حاله، وكفه لعينه ويده عن شيء غيره.

كما جعلنا الفقير امتحاناً للغني حتى يظهر صبره على القيام بواجبه نحوه.

وجعلنا الصحيح فتنة للمريض حتى يظهر صبره على بلواه ورضاه بما أعطاه الله.

كما جعلنا المريض فتنة للصحيح حتى يظهر صبره على القيام بواجبه نحوه من العطف عليه، وعيادته، ومواساته.

وجعلنا الرعية فتنة للراعي حتى يظهر صبره على القيام بواجب رعايتها.
كما جعلنا الراعي فتنة للرعية ليظهر صبرها على طاعته.
وهكذا في جميع أقسام الناس.
أتصبرون على هذا الامتحان فإن الصبر عليه عزيز شديد؟
فاصبروا فإنه لا يخرجكم من هذا الامتحان خالصين خلوص الذهب الإبريز إلا الصبر.
وكان ربك يا محمد بصيراً عالماً بعاقبة الامتحان في عباده، مطلعاً على كل ما يكون منهم عند الامتحان ليجازيهم عليه.

سؤال وجوابه:

الله تعالى عالم بما يكون من عباده بعد امتحانهم، قبل أن يمتحنهم فما هي حكمة الامتحان؟

والجواب: أن الله تعالى إنما يحاسب عباده على ما عملوه وكسبوه واكتسبوه، بما عندهم من التمكن من الفعل والترك، وما عندهم من الاختيار؛ لا على علمه منهم قبل أن يعملوه، فلهذا يمتحنون لتظهر حقائقهم ويقع جزاؤهم على ما كسبت أيديهم باختيارهم.

ولا حجة لهم في تقدم علمه تعالى بما يكون منهم؛ لأن تقدم العلم لم يكن ملجئاً لهم على أعمالهم؛ ففي هذا الامتحان قيام حجة الله على العاملين أمام أنفسهم وأمام الناس، كما فيه إظهار لحقيقتهم لأنفسهم ولغيرهم.

تطبيق:

كما يفتن الفرد بالفرد، كذلك تفتن الأمة بالأمة: من ذلك أننا ـ معشر الأمة الاسلامية ـ قد فتنا بغيرنا من أمم الغرب، وفتنوا هم أيضاً بنا:
فنحن ندين بالإسلام وهو دين السعادة الدنيوية والأخروية ولكن حيثما كنا ـ إلا قليلاً ـ لسنا سعداء لا في مظاهر تديننا، ولا في أحوال دنيانا.

ففي الأولى: نأتي بما يبرأ منه الإسلام، ونصرح بأنه من صميمه.
وفي الثانية: ترانا في حالة من الجهل والفقر والذل والاستعباد يرثي لها الجماد.

فلما يرانا الغربيون على هذه الحالة ينفرون من الإسلام، ويسخرون منه، إلا من نظر منهم بعين العلم والإنصاف، فإنه يعرف أن ما نحن عليه هو ضد الإسلام. فكنا فتنة عظيمة عليهم، وحجاباً كثيفاً لهم عن الإسلام. فكنا ـ ويا للأسف ـ فتنة للقوم الظالمين.

وهم من ناحيتهم نراهم في عز وسيادة، وتقدم علمي وعمراني، فننظر إلى تلك الناحية منهم فنندفع في تقليدهم في كل شيء، حتى معائبهم ومفاسدهم، ونزدري كل شيء عندنا حتى أعز عزيز. إلا من نظر بعين العلم فعرف أن كل ما عندهم من خير، هو عندنا في ديننا وتاريخنا، وأن ذلك هو الذي تقدموا وسادوا به. وأن ما عندهم من شر هو شر على حقيقته، وأن ضرره فيهم هو

ضرره، وأنه لا يجوز أن يتابعوا عليه، فكانوا فتنة لنا حتى ينظر من ينظر بعين الحق للحقائق ممن تبهره الظواهر فتسلبه إدراكه فيغدو لا يفرق بين اللب والقشور.

اقتداء:

علمنا من هذه الآية وغيرها:

أن الله تعالى يمتحن عباده ويختبرهم ليظهر حقائقهم. فلنقتد به تعالى في هذا: فنبني أمورنا على الامتحان والاختبار، فلا نقرر علماً، ولا نصدر حكماً إلا بعد ذلك، وخصوصاً في معرفة الناس والحكم عليهم؛ فالظواهر كثيراً ما تخالف البواطن، والتصنّع والتكلّف قلّما يسلم منهما أحد، ولا يعصم من الخطأ مع هذه المغلطات كلها إلا الامتحان والاختبار فاعتصم بهما.

اهتداء:

كل من اتصل بك من أهلك، وبنيك، وأبيك، وأمك، وأصحابك، وعشيرتك، وقومك، وكل من ترتبط به برباط من أبناء جنسك، هو فتنة وامتحان لك:

هل تقوم بواجبك نحوه من جلب خير له؟ أو دفع شر عنه؟ أو جلب خير منه لغيره؟ أو دفع شره عن غيره؟

وهل تكف يدك عن شيئه؟ وتكف بصرك عما متع به، وتسأل الله مما عنده من فضله؟.

وإنما تقوم بواجبك نحوه مما تقدم، وتكف يدك وعينك عنه، وتسأل الله مما عنده راضياً بما قسم لك، معتقداً الخير كل الخير في قسمه؛ إذا تدرعت بالصبر على إتيانه، وإن كان عليك ثقيلاً.

والكف عما يطلب منك الانكفاف عنه، وإن كان منك قريباً، وفي طبعك لذيذاً.

وإنما يكون لك هذا الصبر، إذا كنت دائم اليقين بعلم الله بك، واطلاعه عليك، وأنه كان بك بصيراً.

هذه الحقائق كلها هدتنا هذه الآية الكريمة إليها:

هدتنا إلى أنا امتحنا ببعضنا، وأن الذي يخلصنا في هذا الامتحان، ويخرجنا سالمين هو الصبر.

وأن حالتنا في الامتحان منكشفة لمن سيجازينا عليها.

فلنهتد بهدايتها إلى ما هدتنا اليه، ولنتدرّع في هذا الامتحان العظيم بالصبر المتين، ولنستحضر في قلوبنا مراقبة الله لنا؛ لتثبت قدمنا في مقام الصبر بروح اليقين، فبذلك نخرج - إن شاء الله تعالى - من نار الفتنة ذهباً خالصاً نقياً، وجوهراً طيباً زكياً، فنسعد في الدارين برضى رب العالمين والله وليّ التوفيق.

ندامة الظالم

على تركه السبيل القويم، وصحبته للمضلِّين

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾

[الفرقان: ٢٧ و٢٨ و٢٩]

لما سأل المشركون أن يروا الملائكة: أخبروا بأنهم سيرونهم في يوم يكون شره عليهم عظيماً.

وذكر في الآيات السابقة ما يكون في ذلك اليوم من حبوط أعمالهم، وتشقق السماء بالغمام، وتَنَزُّل الملائكة وغير ذلك.

وذكر في هذه الآية ما يكون في ذلك القوم من ندم الظالم وسوء حاله.

(الظلم) وضع الشيء في غير موضعه: كوضع الكفر موضع الإيمان، ووضع المعصية موضع الطاعة. وحق الله تعالى أن يؤمن به، ويوحّد، ويطاع، فمن كفر أو أشرك به أو عصاه فقد ظلم، وهو هنا الكافر والمشرك، لأنه الذي لم يتخذ مع الرسول سبيلاً.

(الويلة): الهلكة كالويل بمعنى الهلاك. (فلان): يكنى به عن الأعلام كما يكنى بالهن عن الأجناس.

(الخليل): فعيل بمعنى فاعل وهو ما تخللت مودته القلب، وامتزجت بالنفس، فكانت له مكانة منها، وسلطان عليها. هذا في جانب الخلق، وأما في جانب الله تعالى فبالمعنى الذي يليق بقدسه وتنزيهه، فإبراهيم ـ عليه السلام ـ خليل الرحمن بما له عنده تعالى من عظيم المنزلة، ورفعة الشأن، وقبول الدعوة، وما له عليه من جزيل الإنعام.

(الإضلال): الصد والصرف عن طريق الحق والنجاة.

(الذكر): القرآن العظيم، وفسر بالشهادتين، وبالإسلام؛ والقرآن فيه ذلك كله، وهو الذي سيأتي على الأثر، وذكر هجرهم له، ولذلك اخترناه في معنى الذكر هنا.

(الشيطان): الخبيث الشرير الذي استولى عليه، وتمكن منه خلق الإفساد والإضرار من الجن والإنس.

(الخذول): الكثير الخذل، أي التسليم والترك لمن نزل به البلاء في وقت الحاجة إلى إنقاذه.

شأن من وقع في غيظ وحسرة وندامة أن يعض يديه، ويأكل بنانه كأنه لما لم يجد شيئاً يطفي فيه غيظه، رجع على نفسه بذلك: فعض اليد لازم لحالة الحسرة والغيظ والندامة، فلذا يكنى به عنها من إطلاق اللازم وإرادة الملزوم. وذلك لا يمنع من وجود العض منه حقيقة، بل وقوع ذلك هو الشأن الغالب.

وجملة ﴿**يقول يا ليتني**﴾ حالية فهو يعض حالة كونه قائلاً: يا ليتني، فبينت هذه الجملة ما يقول. كما بينت التي قبلها ما يعمل، فصورتاه في حاله الشنيع الفظيع.

و﴿**يوم**﴾، منصوب بـ «أذكر» أو معطوف على يومِ يرون الملائكة، كما عطف عليه: ويوم تشقق السماء.

و﴿**يوم يرون**﴾ منصوب، بـ «أذكر»، أو بيمنعون البشرى كما يدل عليه لا بشرى يومئذ للمجرمين.

والتنكير في قوله ﴿**سبيلاً**﴾ للإفراد: أي سبيلاً واحداً لا تعدد فيه بخلاف ما كان عليه الظالم من سبل أهوائه المتعددة المتشعبة.

والألف في ﴿**يا ويلتا**﴾ منقلبة عن ياء المتكلم، والأصل يا ويلتي، نادى ويلته أي هلكته لتحضر في ذلك الوقت؛ لأنه وقتها. وليس نداؤها رغبة في حضورها، فالهلاك لا يُرغب فيه، وإنما نادى الهلاك ليحضر لما حصل له من اليأس والقنوط من أسباب النجاة، فلم يبق له إلا الهلاك؛ كما يقول العليل للطبيب وقد أيس من معالجة جرح بيده مثلاً: اقطع، فهذا وقت القطع.

وهكذا يخرج كل نداء في حالة شدة لما لا يخلص منها، وإنما يزيد في اشتدادها كما ينادي الشقي: «يا شقوتاه» والمفتضح: «يا فضيحتاه» والمصاب: «يا مصيبتاه».

وكنى (بفلان) لأن لكل ظالم خليلاً له اسمه الخاص فلا يمكن التصريح بأسماء الجميع، فما بقي إلا الكناية عنها بفلان.

وجملة ﴿**لقد أضلني**﴾ بيان لسبب تمنيه السابق.

و «أل» في الشيطان والإنسان للجنس؛ فيدخل في جنس الشيطان خليل الظالم الذي صده عن الذكر، وقرين خليله من الجن الذي سوّل له ذلك وأعانه، وقرينه هو الذي زينه له ودعاه إليه.

والجملة من كلام الظالم لإعلان خيبته، وإظهار ألمه منها، لما وجد نفسه وحده مخذولاً ممن أضله وأغواه.

المعنى:

ويوم يعض الظالم لنفسه بالكفر لربه، أو الشرك على يديه ندماً وحسرة على تفريطه، وعدم اتباعه لسبيل الحق مع الرسول الذي أرسل إليه، وعلى توريطه لنفسه بصحبته لخليله وطاعته له، حتى صرفه عن الإيمان بالقرآن، بعدما جاءه وسمعه وتمكن من الإيمان به، فأغواه ذلك الخليل وقرينه هو حتى أردوه ثم خذلوه في ذلك اليوم العظيم في وقت الحسرة والندامة، فلم يجد منهم نصراً ولا معونة، كما هو شأن الشياطين في خذلان من يغووه ويردوه.

إلحاق واعتبار:

كما علينا أن نتبع سبيل الرسول ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ التي جاء بها من عند الله

تعالى، وهي الإسلام، كذلك علينا ان نتبع سبيله في القيام بشرائع الإسلام علماً وعملاً: في أبواب العبادات وأحكام المعاملات، وفي تطبيق أصول الإسلام وفروعه على الحياة العامة والخاصة. وهذه هي سنته التي كان عليها، وكان عليها أصحابه، وأهل القرن الثاني من التابعين، وأهل القرن الثالث من أتباع التابعين: تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرها بلسان المعصوم.

وكما أن من عَدَلَ عن الإسلام ولم يسلك سبيله وقع في ضلال الكفر، كذلك من عدل من السنة ولم يسلك سبيلها وقع في ضلال الابتداع.

وكما أن من لم يتخذ مع الرسول سبيل الإسلام يندم أشد الندم ويتحسر أعظم الحسرة على ما كان من تفريطه.

كذلك من لم يتخذ مع الرسول سبيل السنة إذ كل منهما قد ظلم نفسه، وفرط في سبيل نجاته.

فالآية، وإن كانت في الكافر والمشرك، فهي تتناول بطريق الاعتبار أهل الأهواء والبدع، وبهذا كانت الآية متناولة بوعظها وترهيبها جميع الخلق ممن لم يدخل في الإسلام، أو دخل فيه ولم يلتزم سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

تحذير:

عندما تتخلل محبة شخص من الناس قلبك، وتمتزج بروحك ويستولي بسلطان مودته عليك؛ تصير أقواله وأفعاله كلها عندك مرضية، وعيوبه ونقائصه عنك محجوبة، فتمسي طوع بنانه، ورهن إشارته، يوجهك حيث شاء ويصرفك عما أراد. وهذه حالة من أخطر الأحوال عليك، لأنك فيها قد سلبت تمييزك، وخسرت إرادتك، وصرت آلة في يد غيرك؛ فقد ترى الخير وتدعى إليه فيصرفك عنه، وقد ترى الشر وتحذر منه فيوقعك فيه.

وهب هذا الخليل كان مخلصاً لك، وحرباً عليك، فإنه غير معصوم من الخطأ والضلال. أما إذا كان شريراً مفسداً فهنالك الهلاك المحقق، والوبال الشديد.

وقد ذكر لنا الله تعالى في هذه الآية ما كان من سوء مثال الظالم بسبب انقياده لخليله، واتباعه له من غير روية وصدق تمييز.

يحذرنا من سلطان الخلة الذي يهمل معه شأن الإرادة والتمييز، ويعلمنا أن علينا أن نحافظ على إرادتنا وتمييزنا، ونظرنا لأنفسنا مع الصديق والعدو، ومع الخليل وغير الخليل، بل نحافظ عليها مع الخليل أكثر، لأنه مظنة الخوف بما له من المكانة في القلب والسلطان على النفس.

إرشاد:

لما كان خليل المرء بهذه المنزلة فعليك أن تختار من تخالل، فلا تخالَّ إلا من حسنت سريرته،

واستقامت سيرته، وغلب الصواب على أقواله وأعماله، ليكون دليلك إلى الخير، وسائقك إليه، مع محافظتك على إرادتك وتمييزك معه على كل حال.

علامة:

إذا أردت أن تعرف شر خلانك، وأحقهم بهجرك له وابتعادك عنه: فانظر فيما يرغبك هو فيه، وما يرغبك عنه.

فإذا وجدته يرغبك عن القرآن، وعما جاء به القرآن فإياك وإياه، فتلك أصدق علامة على خبثه وسوء عاقبة قربه، فابتعد عنه في الدنيا، قبل أن تعض على يديك على صحبتك له في الأخرى.

وإذا وجدته يرغبك في القرآن وما جاء به القرآن، فذلك الخليل الزكي الصادق، فاستمسك به، وحافظ عليه

وإن خلة أسست على الرجوع إلى القرآن، والتحاب على القرآن، والتناصح بالقرآن؛ لخلة نافعة دنيا وأخرى، لأنها أسست على أساس التقوى.

وقد قال الله تعالى: ﴿**الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين**﴾ [الزخرف: ٦٧].

شكوى النبي وتسليته وتثبيته

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾

[الفرقان: ٣٠]

لما ذكر تعالى ما قاله المشركون من الباطل في معارضة القرآن، والإعراض والصد عنه، وما قالوه من عبارات الحسرة والندامة يوم القيامة، على ما كان منهم من ذلك في الدنيا ـ ذكر ما قاله النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من الشكوى لربه بهم من تركهم للقرآن العظيم وهجره.

﴿**مهجوراً**﴾ متروكاً مقاطعاً مرفوعاً عنه.

﴿**الرسول**﴾: محمد صلى الله عليه وآله وسلم، و (قومه) قريش.

في قوله: ﴿**يا رب**﴾ إظهار لعظيم التجائه، وشدة اعتماده، وتمام تفويضه لمالكه ومدبر أمره، وموالي الإنعام عليه.

وفي التعبير عنهم بقومه وإضافتهم إليه، وفي التعبير عن القرآن باسم الإشارة القريب؛ بيان لعظيم جرمهم بتركهم للقرآن، وهو قريب منهم في متناولهم، وقد أتاهم به واحد منهم، أقرب الناس اليهم، فصدوا وأبعدوا في الصد عمن هو اليهم قريب من قريب، وهذا أقبح الصد وأظلمه.

وفي قوله: ﴿اتخذوا﴾ الخ... بيان أنهم جعلوا الهجر ملازماً له ووصفاً من أوصافه عندهم. وذلك أعظم من أن يقال: هجروه، الذي يفيد وقوعه الهجران منهم دون دلالة على الثبوت والملازمة.

المعنى:

قال الرسول شاكياً لربه: إن قومي الذين أرسلتني اليهم بالقرآن لأتلوه عليهم، قد صدوا عنه وتركوه، وثبتوا على تركه وهجره.

استنتاج واعتبار:

في شكوى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من هجرة القرآن دليل على أن ذلك من أصعب الأمور وأبغضها لديه.

وفي حكاية القرآن لهذه الشكوى وعيد كبير للهاجرين بإنزال العقاب بهم إجابة لشكوى نبيه.

ولما كان الهجر طبقات أعلاها عدم الإيمان به؛ فلكل هاجر حظه من هذه الشكوى وهذا الوعيد.

تنزيل:

ونحن ـ معشر المسلمين ـ قد كان منا للقرآن العظيم هجر كثير في الزمان الطويل، وإن كنا به مؤمنين:

١ ـ بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها، وقلنا: تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين، وأخذنا في الطرائق الكلامية المعقّدة، وإشكالاتها المتعددة، واصطلاحاتها المحدثة، مما يصعب أمره على الطلبة فضلاً عن العامة.

٢ ـ وبين القرآن أصول الأحكام، وأمهات مسائل الحلال والحرام، ووجوه النظر والاعتبار، مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام، فهجرنا، واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجرّدة بلا نظر، جافة بلا حكمة، محجبة وراء أسوار من الألفاظ المختصرة، تفنى الأعمار قبل الوصول اليها.

٣ ـ وبين القرآن مكارم الأخلاق ومنافعها ومساوىء الأخلاق ومضارها، وبيّن السبيل للتخلّي عن هذه والتحلّي بتلك، مما يحصل به الفلاح بتزكية النفس والسلامة من الخيبة بتدسيتها[1].

---

(١) دَسَّى نفسه: أخفاها وأخملها لؤماً مخافة أن يُتنبّه له فيُستضاف. ودسّاها: أغواها وأفسدها. ودَسَّى غيره: أغواه وأفسده. ودَسَّى عنه حديثاً: احتمله (المعجم الوسيط: ص ٢٨٤). وفي التنزيل العزيز: **﴿قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دَسَّاها﴾** [الشمس: ٩، ١٠].

فهجرنا ذلك كله، ووضعنا أوضاعاً من عند أنفسنا، واصطلاحات من اختراعاتنا، خرجنا في أكثرها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتنطّع[1]، وعن السنة البيضاء إلى الأحداث والبدع، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمي، والتخيّل الفلسفي ما أبعدها غاية البعد عن روح الإسلام، وألقى بين أهلها بذور الشقاق والخصام، وآل الحال بهم إلى الخروج من أثقال أغلالها، والاقتصار على بقية رسومها للانتفاع منها، ومعارضة هداية القرآن بها.

٤ ـ وعرض القرآن علينا هذا الكون وعجائبه ونبهنا على ما فيه من عجائب الحكمة ومصادر النعمة، لننظر ونستفيد ونعمل.

فهجرنا ذلك كله إلى خريدة[2] العجائب، وبدائع الزهور، والحوت والصخرة، وقرن الثور!

٥ ـ ودعانا القرآن إلى تدبره وتفهّمه والتفكّر في آياته ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبينه، فأعرضنا عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبيينه.

فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في العلوم الآلية، دون أن يكون طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلاً، بل يصير مدرساً متصدراً ولم يفعل ذلك!

وفي جامع الزيتونة ـ عمّره الله تعالى ـ إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس تفسير، فإنه ويا للمصيبة يقع في خصومات لفظية، بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه، في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل، فيقضي في خصومة من الخصومات أياماً أو شهوراً؛ فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلا قليلاً دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير. وإنما قضى سنته في المماحكات بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات. كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية، لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية.

فهذا هجر آخر للقرآن، مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن!

وعلمنا القرآن أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ هو المبين للناس ما نزل اليهم من ربهم، وأن عليهم أن يأخذوا ما آتاهم، وينتهوا عما نهاهم عنه[3]، فكانت سنته العملية والقولية تالية للقرآن. فهجرناها كما هجرناه، وعاملناها بما عاملناه، حتى إنه ليقل في المتصدرين للتدريس ـ من كبار العلماء في أكبر المعاهد ـ من يكون قد ختم كتب الحديث المشهورة كالموطأ والبخاري ومسلم ونحوها، مطالعة، فضلاً عن غيرهم من أهل العلم، وفضلاً عن غيرها من كتب السنة[4].

---

(١) التنطّع: الغلوّ والتكلّف (المعجم الوسيط: ص ٩٣٠).

(٢) الخريدة: اللؤلؤة لم تثقب. (المعجم الوسيط: ص ٢٢٥).

(٣) قال تعالى **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾** [الحشر: ٧].

(٤) وخرج الإمام بعد هذه التبعة بأن أتم القرآن الكريم تفسيراً وأتمّ موطأ مالك شرحاً (حاشية المطبوع: ص ٢٨٤).

وكم وكم وكم بين القرآن!!! وكم وكم وكم قابلناه بالصد والهجران!!!

بيان واستشهاد:

شر الهاجرين للقرآن هم الذين يضعون من عند أنفسهم ما يعارضونه به، ويصرفون وجوه الناس اليهم وإلى ما وضعوه عنه؛ لأنهم جمعوا بين صدّهم وهجرهم في أنفسهم وصد غيرهم، فكان شرهم متعدياً، وبلاؤهم متجاوزاً وشر الشر وأعظم البلاء ما كان كذلك.

وفي هؤلاء جاء ما ذكره الامام ابن القيم، في كتاب (أعلام الموقعين) عن حماد بن سلمة، ثنا أيوب السختياني عن أبي قلابة عن يزيد بن أبي عميرة، عن معاذ بن جبل، قال:
«تكون فتن، فيكثر المال، ويفتح القرآن، حتى يقرأه الرجل والمرأة والصغير والكبير، والمنافق والمؤمن.

فيقرؤه الرجل فلا يتبع، فيقول: والله لأقرأنه علانية، فيقرؤه علانية فلا يتبع. فيتخذ مسجداً ويبتدع كلاماً ليس من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم. فإياكم وإياه، فإنه بدعة وضلالة».

قال معاذ ثلاث مرات. اهـ.

فانظر في قطرنا وفي غير قطرنا، كم تجد ممن بنى موضعاً للصلاة، ووضع كتباً من عنده، أو مما وضعه أسلافه من قبله، وروّجها بين أتباعه، فأقبلوا عليها وهجروا القرآن.

وربما يكون بعضهم قصد بما وضع النفع فأخطأ وجهه، إذ لا نفع بما صرف عباده عن كتاب الله. وإنما يدعى لله بكتاب الله؛ ولذلك سمي صنيع هذا الواضع بدعة وضلالة، وحذر معاذ منه وأكد في التحذير بالتكرير.

وهذا الحديث وإن كان موقوفاً على معاذ، فهو في حكم المرفوع، لأنه بمغيب مستقبل، وهذا ما كان يعلمه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، إلا بتوقيف من النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد تحقق مضمونه في المسلمين منذ أزمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

سبيل النجاة:

لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوّع الذي نذوقه ونقاسيه:
إلا بالرجوع إلى القرآن: إلى علمه وهديه.
وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه.
والتفقّه فيه وفي السنة النبوية وشرحه وبيانه.
والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد، وصحة الفهم، والاعتضاد بأنظار العلماء الراسخين، والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين.

وهذا أمر قريب على من قرّبه الله عليه، ميسر على من توكل على الله فيه.

وقد بدت طلائعه ـ والحمد لله ـ وهي آخذة في الزيادة إن شاء الله، وسبحانه من يحيي العظام وهي رميم.

التسلية والتثبيت

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

[الفرقان: ٣١]

لما شكا ـ عليه الصلاة والسلام ـ قومه، سلَّاه الله تعالى وعزّاه، وأمره بالصبر والثبات، ووعده ورجاه.

(العدو): وزنه فعول يكون للواحد والجماعة.

(كاف): بمعنى مثل.

والإشارة في ﴿وكذلك﴾ للجعل المفهوم مما تقدم: أي مثل ذلك الجعل للأعداء لك جعلنا لكل نبي إلخ..

المعنى:

مثلما جعلنا لك أعداء من قومك كفروا بك، وهجروا كتابك، وصدوا عنك، وبالغوا في أذيتك ـ جعلنا لكل نبي ممن نبأنا أعداء من أهل الذنب والإجرام.

فما أصابك إلا ما أصابهم، فاصبر كما صبروا. وكفى بربك هادياً يهديك إلى طريق الحق، ويبصرك الرشد، ويعرفك بما تؤدي به رسالة ربك.

فلا تتحيّر في أمرك لما ترى من صدود قومك وناصراً ينصرك على أعدائك.

يأمره بالصبر ويثبته بالتأسي، ويعده بأنه يهديه في طريق التبليغ، وينصره على معارضيه حتى يتم أمر الله على يده.

ترهيب:

هؤلاء الذين سماهم الله تعالى أعداء لنبيه، ووصفهم بالإجرام، هم أولئك الذين هجروا القرآن وصدوا عنه، فهذا تخويف عظيم ووعيد شديد لكل من كان هاجراً للقرآن العظيم بوجه من وجوه الهجران.

اقتداء وتأسٍّ:

حق على حزب القرآن الداعين به، والداعين إليه، أن يقتدوا بالأنبياء والمرسلين في الصبر على الدعوة، والمضي فيها، والثبات عليها.

وأن يداووا أنفسهم عند ألمها واضطرابها، بالتأسي بأولئك السادة الأخيار.

بشارة:

قد وعد الله تعالى نبيه ـ بعد ما أمره بالتأسي والصبر ـ بالهداية والنصر.

وفي هذا بشارة للدعاة من أمته من بعده، السائرين في الدعوة بالقرآن وإلى القرآن على نهجه، أن يهديهم وينصرهم.

كما قال تعالى: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**﴾ [العنكبوت: ٦٩]. معهم بالفضل والنصر والتأييد، وهذا عام للمجاهدين المحسنين، والحمد لله رب العالمين.

تثبيت القلوب بالقرآن العظيم

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

[الفرقان: ٣٢]

هذا اعتراض آخر من اعتراضاتهم الباطلة، نسقه مع ما تقدم منها ليجاب عنه، ويبين خطؤهم فيه، كما فعل بما تقدمه.

﴿**لولا**﴾ مع المضارع للتحضيض، نحو لو لا تستغفرون الله. ومع الماضي للوم والتوبيخ، نحو ﴿**لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء**﴾ [النور: ١٣]. وهي هنا مع الماضي فتكون للوم على عدم حصول المذكور وحصول ضده، والمقصود من اللوم هنا الاعتراض على عدم نزوله جملة واحدة، ونزوله مفرقاً. فالمعترض عليه هو نزوله مفرقاً.

﴿**نزل**﴾ يأتي مرادفاً لأنزل والتضعيف أخو الهمزة، ويأتي مفيداً للتكثير فيفيد تكرر النزول وتجديده.

وخرج على هذا قوله تعالى: ﴿**نزل عليه الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب وأنزل التوراة والإنجيل**﴾ [آل عمران: ٣].

وأما هنا فلا يصح حمله على التكثير المفيد للتدريج، لئلا يناقض قولهم جملة واحدة؛ فيكون من التضعيف المرادف للهمزة.

وعندي أن نزّل المضاعف يرد لكثرة الفعل ولقوته؛ فجاء لكثرته في آية آل عمران المتقدمة، وجاء لقوته في هذه الآية؛ لأن إنزال الجملة مرة واحدة أقوى من إنزال كل جزء من الأجزاء بمفرده.

﴿**كذلك**﴾ الإشارة للإنزال المفرق المفهوم من قولهم ﴿**لولا نزل عليه القرآن جملة**﴾؛ لأنه في معنى: لِمَ نزل عليه جملة، ولم ينزل عليه مفرقاً؟

(التثبيت): ثبات الشيء إقامته ورسوخه دون اضطراب، وذلك من قوته، كما أن اضطراب المضطرب من ضعفه. فتفسير تثبيت الفؤاد هنا بتقويته تفسير بلازم معناه على أنه مراد منه أيضاً أصل المعنى، وهو السكون وعدم الاضطراب. فتثبيته ـ إذن ـ هو تسكينه وتقويته.

(الترتيل) مادة (ر ت ل) كلها ترجع إلى تناسق الشيء وحسن تنضيده: منه ثغر رتل بالتحريك، أي مفلج بين الأسنان فرج لا يركب بعضها بعضاً.

وترتيل القرآن في التلاوة هو إلقاء حروفه حرفاً حرفاً، وكلماته كلمة كلمة، وآياته آية آية، على تؤدة ومهل؛ حتى يتبين للقارىء وللسامع، ولا يخفى عليه شيء منه.

وأما ترتيله في نزوله ـ وهو المراد هنا ـ فإنه: إنزاله آية وآيتين وآيات، مفرقاً نجوماً على حسب الوقائع.

﴿**وقال الذين كفروا**﴾ وصل[1]؛ لأنه قيل من أقوالهم؛ فعطف على ما تقدم من مثله.

﴿**كذلك لنثبت**﴾ الأصل أنزلناه كذلك، فأوجز بحذف المتعلق لوجود ما يدل عليه من إعراضهم. وفصل؛ لأنه جواب عن اعتراضهم.

﴿**ورتلناه**﴾ وصل؛ لأنه معطوف على أنزلناه المحذوف.

والتنوين في ﴿**ترتيلاً**﴾ تنوين تنويع وتعظيم، أي نوعاً من الترتيل عظيماً.

المعنى:

وقال الذين كفروا ـ وهم قريش، أو اليهود أو الجميع، وهو الظاهر؛ لأن قريشاً واليهود كان يتصل بينهم الكلام في شأن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وشأن القرآن. قالوا معترضين ومقترحين: لِمَ لَمْ ينزل عليه القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة وغيرها، ونزل عليه مفرقاً؟

فقال الله تعالى جواباً لهم: أنزلناه كذلك الإنزال مفرقاً؛ لنثبت به قلبك فيسكن ويطمئن، ونقويه فيصبر ويتحمل.

وأنزلناه مرتلاً ومفرقاً تفريقاً مرتباً، منزلاً كل قسم منه في الوقت المناسب لإنزاله والحالة الداعية إليه اللائقة به.

مزيد بيان للاعتراض والجواب:

أما اعتراضهم، فكان لأنهم سمعوا القرآن يذكر أن الكتاب أنزل على النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما أنزلت الكتب على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من قبله بمثل قوله تعالى: ﴿**وكذلك أنزلنا إليك الكتاب**﴾. [العنكبوت: ٤٧] فقالوا: لماذا نزل هذا الكتاب مفرقاً، ولم ينزل مثل تلك الكتب جملة واحدة؟!

---

(١) وصل جملة: ﴿**وكذلك لنثبت به...**﴾.

وهم لما عجزوا عن معارضة أقصر سورة منه، أخذوا يباهتون بالباطل، ويعترضون بمثل هذا الاعتراض.

وأما الجواب، فكان ببيان حكمتين في إنزاله مفرقاً:
الحكمة الأولى: تثبيت قلبه صلى الله عليه وآله وسلم.
والحكمة الثانية: تفريقه مرتباً على الواقع.

وكان في تينك الحكمتين مزيتان عظيمتان للقرآن العظيم على غيره من كتب الله تعالى؛ فكان ما اعترضوا به على أنه نقص فيه عنها هو كمال له عليها.

شرح الحكمة الأولى:

كان كل نجم ينزل من القرآن العظيم ـ والنجم القسم الذي ينزل معًا آية أو آيتين أو أكثر ـ يزداد به عجزهم وعنادهم ظهوراً، وتزداد حجة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وصدقه وضوحاً؛ فيزداد بذلك سكون قلبه وطمأنينته بظهور أمره على عدوه، وعلو كلمة الحق على كلمة الباطل.

وفي ذلك تقوية له، وأي تقوية! لا عن شك كان في قلبه أو تردد ولكن البراهين المتوالية، والحجج المتتالية، تزيد في سكون القلب واطمئنانه، وإن كان معقوداً من أول أمره على اليقين. فهذا وجه من تثبيت فؤاده بالآيات المتفرقات في النزول.

وقد كان كل نجم من نجوم القرآن ينزل بشيء من العلم والعرفان، مما يرجع إلى العقائد أو الأخلاق أو الأحكام أو التذكير بالأمم الماضية وأخبار الرسل المقتدمين، أو باليوم الآخر أو بسنة الله في المكذبين، إلى غير ذلك من علوم القرآن؛ فيقوى قلبه عند نزول كل نجم بما يكتسبه منه من معرفة وعلم.

وكان يلقى من الجهد والعناء في تبليغ الرسالة ما تضعف عن تحمله القوى البشرية. فإذا نزل عليه القرآن، واتصل بالملك الروحاني النوراني، وقذف في قلبه ذلك الوحي القرآني، تقوى قلبه على تحمُّل أعباء الرسالة ومشاق التبليغ.

ولما كان البلاء والعناء في سبيل التبليغ متكرراً متجدداً، كان محتاجاً إلى تجديد تقوية قلبه، وكان ذلك مقتضياً لتفريق نزول الآي عليه، فهذه ثلاثة وجوه من التثبيت.

حظنا من العمل بهذه الحكمة:

قلوبنا معرضة لخطرات الوسواس، بل للأوهام والشكوك، فالذي يثبتها ويدفع عنها الاضطراب ويربطها باليقين هو القرآن العظيم.

ولقد ذهب قوم مع تشكيكات الفلاسفة وفروضهم ومماحكات المتكلمين ومناقضاتهم، فما ازدادوا إلا شكًّا، وما ازدادت قلوبهم إلا مرضًا، حتى رجع كثير منهم في أواخر أيامهم إلى عقائد

القرآن، وأدلة القرآن، فشفوا بعد ما كادوا كإمام الحرمين[١]، والفخر الرازي[٢].

وقلوبنا معرضة لران[٣] المعصية التي تظلم منها القلوب وتقسو، حتى تحجب عنها الحقائق، وتطمس أمامها سبل العرفان.

فالذي يجلو عنها ذلك الران، ويزيل منها تلك القسوة، ويكشف لها حقائق العلم، ويوضح لها سبل المعرفة هو القرآن العظيم.

فقراؤه المتفقهون فيه، قلوبهم نيرة، مستعدة لتلقي العلوم والمعارف، مستعدة لسماع الحق وقبوله، لها من نور القرآن فرقان تفرق به بين الحق والباطل، وتميز به بين الهدى والضلال.

وقلوبنا معرضة للضعف عن القيام بأعباء التكليف، وما نحن مطالبون به من الأعمال، والذي يجدد لنا فيها القوة، ويبعث فيها الهمة، هو القرآن العظيم.

فحاجتنا إلى تجديد تلاوته وتدبيره، أكيدة جداً لتقوية قلوبنا باليقين، وبالعلم، وبالهمة، والنشاط، للقيام بالعمل.

شرح الحكمة الثانية:

من محاسن هذه الشريعة المطهرة، أنها نزلت بالتدريج المناسب.

وكما كان في تحريم الخمر.

وكما كان في العدد المفروض عليه الثبات للعدو في آيات الأنفال[٤].

وكما كان في مشروعية قيام الليل في آيات سورة المزمل[٥].

---

(١) هو عبد الملك بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله ضياء الدين أبو المعالي الجويني الشافعي الشهير بإمام الحرمين. ولد سنة ٤١٩ هـ؛ قدم بغداد ثم سافر وجاور في مكة والمدينة، ورجع إلى نيسابور يدرّس العلم ويعظ إلى أن توفي بها سنة ٤٧٨ هـ. من تصانيفه: الإرشاد في علم الكلام، أساليب في الخلاف، البرهان في الأصول، البلغة، وغيرها كثير. انظر هدية العارفين (١/٦٢٦).

(٢) هو محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الطبرستاني الرازي فخر الدين المعروف بابن الخطيب الشافعي الفقيه. ولد بالريّ سنة ٥٤٣ هـ، وتوفي بهراة سنة ٦٠٦ هـ. من تصانيفه: مفاتيح الغيب في تفسير القرآن، الآيات البينات، إبطال القياس، إحكام الأحكام، الأربعين في أصول الدين، مصادرات إقليدس، المحصول في علم الأصول، وغيرها كثير. انظر هدية العارفين (٢/١٠٧، ١٠٨).

(٣) الرّان: الغطاء والحجاب الكثيف (المعجم الوسيط: ص ٣٨٦).

(٤) وهما الآيتان ٦٥ و٦٦ من سورة الأنفال: **﴿يا أيها النبيّ حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون الآن خفّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾**.

(٥) وهو قوله تعالى في الآية ٢٠ من سورة المزمل: **﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك. . .﴾**.

وما كان ليكون هذا التدريج بغير تفريق الآيات في التنزيل.

ومن محاسنها نسخ الحكم عند انتهاء المصلحة التي اقتضت تشريعه وانقضاء زمنها لحكم آخر أنسب منه للبقاء في الأزمان.

كما كان في آيتي المتوفى عنها في سورة البقرة[1].
وما كان ذلك ليأتي إلا بتفريق الآيات في الإنزال.

وكانت الوقائع تقع، والحوادث تحدث، والشبه تعرض، والاعتراضات ترد.. فكانت الآيات تنزل بما تتطلبه تلك الوقائع من بيان، وما تقتضيه تلك الحوادث من أحكام، وما تستدعيه تلك الشبه من رد، وتلك الاعتراضات من إبطال، إلى غير ما ذكرنا من:
مقتضيات نزول الآيات المعروفة بأسباب النزول.

وفي بيان الواقعة عند وقوعها، وذكر حكم الحادثة عند حدوثها، ورد الشبهة عند عروضها، وإبطال الاعتراض عند وروده ـ ما فيه من تأثير في النفوس، ووقع في القلوب، ورسوخ في العقول، وجلاء في البيان، وبلاغة في التطبيق، واستيلاء على السامعين.

وما كان هذا كله ليأتي لولا تفريق الآيات في التنزيل، وترتيلها وتنضيدها هذا الترتيل العجيب، وهذا التنضيد الغريب، الذي بلغ الغاية من الحسن والمنفعة، حتى أنه ليصح أن يعد وحده وجهاً من وجوه الإعجاز.

حظنا من العمل بهذه الحكمة:

ان نقرأ القرآن ونتفهمه، حتى تكون آياته على طرف ألسنتنا، ومعانيه نصب أعيننا؛ لنطبقِ آياته على أحوالنا، وننزلها عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع.

فإذا حدث مرض قلبي أو اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه.
وإذا عرضت شبهة أو ورد اعتراض، طلبنا فيه الرد والإبطال.

وإذا نزلت نازلة طلبنا فيه حكمها، وهكذا نذهب في تطبيقه وتنزيله على الشؤون والأحوال إلى أقصى حد يمكننا.

اقتداء:

انظر إلى هذه الحكمة في هذا الترتيل: كيف كان تنزل آية على حسب الوقائع؟

أليس في هذا قدوة صالحة لأئمة الجُمَع وخطبائها: في توخيهم بخطبهم الوقائع النازلة، وتطبيقهم خطبهم على مقتضى الحال؟
بلى والله، بلى والله!

---

(١) وهما الآيتان ٢٤٠ و٢٤١ من سورة البقرة: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحَول...﴾.

ولقد كانت الخطبة النبوية، والخطب السلفية كلها على هذا المنوال، تشتمل مع الوعظ والتذكير على ما يقتضيه الحال.

وأما هذه الخطب المحفوظة المتلوة على الأحقاب والأجيال فما هي إلا مظهر من مظاهر قصورنا وجمودنا.

فإلى الله المشتكى وبه المستعان.

الحق والبيان في آيات القرآن

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

[الفرقان: ٣٣]

لما رد تعالى اعتراضاتهم، وأبطل شبهاتهم.. أخبر تعالى بأنه لا يزال القرآن كذلك: يدمغ باطلهم بحقه فيزهقه، ويصدع غشاء تمويههم بصادق بيانه فيمزقه؛ لطمأنة قلب نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وتثبيته ووعد له بدوام النصر والتأييد.

(المثل) هو الشبه. هذا أصله، ثم يطلق على الكلام الذي قيل أول ما قيل في مقام، ثم لحسنه وإيجازه حفظ وجرى على الألسنة، وصار يقال في كل مقام يشابه مقاله الأصلي الذي قيل فيه أولاً لمشابهة المقام الثاني للمقام الأول.

ثم صار يطلق أيضاً على كل كلام فيه بيان لشيء وتصوير له، سواء أطابق ذلك البيان والتصوير الواقع وأتى بالحق، أم لم يطابق الواقع ولم يأت الحق. وهذا المعنى هو المراد هنا.

فإن المشركين جاءوا بكلمات في حق الله تعالى، وفي حق كتابه، وفي حق ملائكته، وفي حق نبيه لم يطابقوا فيها الواقع، ولا أتوا فيها بحق:

كقولهم في الله وملائكته: **﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾** [الفرقان: ٢١].

وفي نبيه: **﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾** [الفرقان: ٧].

وفي القرآن: **﴿أساطير الأولين اكتتبها﴾** [الفرقان: ٥] **﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾** [الفرقان: ٣٢].

فهذه هي أمثالهم التي ضربوها فضلوا.

وجاء القرآن بعد كلماتهم الباطلة بكلمات الحق الدامغة مثل قوله تعالى: **﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾** [الفرقان: ٦]. **﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾** [الفرقان: ٧] **﴿وكذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾** [الفرقان: ٣٢].

فهذه هي أمثال الله التي جاءت بالحق وأحسن تفسيراً.

(التفسير): الكشف عن المعنى.

وصلت الجملة لمشاركتها لما قبلها في الخبرية، والمخبر عنهم والموضوع المتحدث عنه مما جاءوا به من الباطل، وما رد عليهم من الحق.

وجملة ﴿جئناك﴾ خالية من كاف الخطاب المفعول في: ﴿لا يأتونك﴾. والحصر بالنفي وإلا في تلك الحال ـ والتقدير: ولا يأتونك بمثل في حال من أحوالك إلا في حال مجيئنا لك بالحق وأحسن تفسيراً.

والتعبير بالمضارع في ﴿يأتونك﴾ يفيد الحدوث وتجدد الإتيان منهم.

والتعبير بالماضي في ﴿جئناك﴾ مع أنه في معنى المستقبل يفيد تحقق المجيء، وهو المناسب لمقام الوعد والتثبيت.

المعنى:

ولا يأتيك يا محمد، هؤلاء المشركون وأمثالهم، بكلام يحسنونه ويزخرفونه، يصورون به شبهة باطلة، أو اعتراضاً فاسداً، إلا جئناك بالكلام الحق الذي يدمغ باطلهم، ويدحض شبههم وينقض اعتراضهم، ويكون أحسن بياناً وأكمل تفصيلاً.

اهتداء:

إذا تتبعت آيات القرآن وجدتها قد أتت بالعدد الوافر من شُبَه الضالين واعتراضاتهم، ونقضتها بالحق الواضح والبيان الكاشف في أوجز لفظ وأقربه وأبلغه.

وهذا قسم عظيم جليل من علوم القرآن يتحتم على رجال الدعوة والإرشاد أن يكون لهم به فضل عناية، ومزيد دراية وخبرة.

ولا نحسب شبهة ترد على الإسلام، إلا وفي القرآن العظيم ردها بهذا الوعد الصادق من هذه الآية الكريمة.

فعلينا عند ورود كل شبهة من كل ذي ضلالة أن نفزع إلى آي القرآن، ولا إخالنا إذا أخلصنا القصد وأحسنا النظر إلا واجديها فيها.

وكيف لا نجدها في آيات ربنا التي هي الحق وأحسن تفسيراً؟!

اقتداء:

لنقتد بالقرآن فيما نأتي به من كلام في مقام الحجاج، أو مقام الإرشاد.

فلنتوخَّ دائماً الحق الثابت بالبرهان أو بالعيان، ولنفسره أحسن التفسير ولنشرحه أكمل الشرح، ولنقربه إلى الأذهان غاية التقريب.

وهذا يستدعي صحة الإدراك، وجودة الفهم ومتانة العلم لتصور الحق ومعرفته.

ويستدعي حسن البيان وعلوم اللسان لتصوير الحق وتجليته والدفاع عنه.

فللاقتداء بالقرآن في الإتيان بالحق وأحسن بيان، علينا أن نحصل هذه كلها، ونتدرب فيها، ونتمرن عليها، حتى نبلغ إلى ما قدر لنا منها.

هذا ما على أهل الدعوة والإرشاد، وخدمة الإسلام والقرآن.

فأما ما على عموم المسلمين من هذا الاقتداء: فهو دوام القصد إلى الإتيان بالحق، وبذل الجهد في التعبير بأحسن لفظ وأقربه.

ومن أخلص قصده في شيء وجعله من وكده أُعين ـ بإذن الله تعالى ـ عليه.

حشر الكفار إلى النار

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ۝٣٤﴾

[الفرقان: ٣٤]

لما أبطل شبههم، بيَّن مآلهم وجزاءهم.

(الحشر) السوق والجمع، (المكان) المنزل، (والسبيل) الطريق.

فصلت الجملة[١] لأنها بيان لحالهم في الآخرة، وهو غير الموضوع المتقدم.

عرف المسند إليه بالإشارة في قوله: ﴿**أولئك شر مكانًا**﴾؛ للتنبيه على أن المشار إليه وهو «الذين» المتقدم، حقيق بما بعد اسم الإشارة من قوله: ﴿**شر مكانًا وأضل سبيلاً**﴾؛ بسبب ما اتصف به المشار إليه المتقدم، مما دلت عليه الصلة، وهو حشرهم على وجوههم إلى جهنم، الذي ما أصابهم إلا بما قدمت أيديهم. في الحقيقة هم أحقاء بكونهم شراً مكاناً، وأضل سبيلاً، بسبب ما أداهم إلى ذلك الحشر، فاكتفي بذكر المسبب عن السبب[٢].

وأفعل التفضيل[٣] لم يذكر معه المفضل عليه؛ ليفيد أن مكانهم شر مكان من أمكنة الشر، وسبيلهم أضل سبيل من سبل الضلال.

وإسناد الضلال للسبيل مجاز.

المعنى:

هؤلاء المشركون القائلون للمقالات المتقدمة، ومن كان على شاكلتهم في الكفر والعناد

---

(١) أي جملة: ﴿**الذين يحشرون**﴾ فُصلت ولم توصل بالواو.

(٢) أي حشرهم على وجوههم سببه ما قدمت أيديهم.

(٣) وهو قوله «شرّ» و«أضلّ».

الذين يجمعون ويساقون إلى جهنم مقلوبين على وجوههم: أولئك شر مكاناً ومستقراً، فإنهم أهل النار، وأضل طريقاً فإنهم سلكوا طريق الكفر الذي أداهم إلى ذلك المستقر.

حديث:

أخرج الشيخان عن أنس بن مالك ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن رجلاً قال: يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟!»[1].

فقه:

من هذا الحديث علمنا: أنه يجب فيما يرد من الأخبار عن اليوم الآخر أن يحمل على ظاهره، ولو كان غير معتاد في الدنيا؛ لأن أحوال العالم الآخر لا تقاس على أحوال هذا العالم.

توجيه:

رفعوا وجوههم في الدنيا عن السجود لله، فأذل الله تلك الوجوه فمشوا عليها في المحشر.

ورفعوا رؤوسهم كبراً عن الحق، فنكسها الله يوم القيامة.

ومشوا في طريق النظر والاستدلال مشياً مقلوباً، فمشوا في الآخرة مشياً مقلوباً.

فكان ما نالهم من سوء تلك الحال جزاء وفاقاً لما أتوا من قبيح الأعمال، وما ربك بظلام للعبيد.

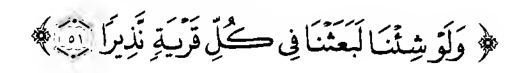
تحذير:

فيما يذكره الله ـ تعالى ـ من هذا الجزاء العادل، تخويف عظيم لنا من سوء الأعمال التي تؤدي إلى سوء الجزاء، وخصوصاً من مثل ما ذكر فيما تقدم من ترك السجود والكبر على الحق والنظر المقلوب.

عصمنا الله والمسلمين أجمعين بالعلم والدين، وهدانا سنن المرسلين آمين يا رب العالمين.

من إكرام الله تعالى عبده

تحميله أعباء الرسالة وحده



﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾

[الفرقان: ٥١]

قد استفيد من الآيات المتقدمة ما كان يكابده النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من إذاية

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٥ باب ١، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم حديث ٥٤.

قومه، وما كان يلقاه من مكابرتهم للحق، وتعنتهم بالباطل، وقد أحاط به الأعداء من كل جانب، ولقيته العقبات من كل ناحية، وما كان يعانيه من الجهد الجهيد في إنذارهم، وتبليغ دين الله تعالى إليهم.

وهو في ذلك كله جاهد في القيام بتبليغ الأمانة، ناهض بأعباء الرسالة، ماض في تلك السبيل، ليس معه من نذير.

وقد كان ذلك مما تتفسخ له القوى البشرية لولا تأييد من الله، فأراد تعالى في هذه الآية أن يثبته في مقامه، ويؤنسه في انفراده؛ فيبين له أن تخصيصه بالقيام هذا المقام العظيم، هو لأجل تعظيمه وتكريمه، وتخصيصه بالأجر الكثير، والثواب الذي ليس له من مثيل.

(البعث) الإرسال.

(القرية) منازل الناس حيث يقيمون ويكونون مجتمعاً كبيراً أو صغيراً.

(النذير) المخوف من الوقوع في الشر والهلاك.

مفعول المشيئة محذوف قياساً، وتقدير الكلام: ولو شئنا أن نبعث. والبعث في كل قرية منتف بحكم لو، لأنها هنا تدل على امتناع جوابها لامتناع شرطها.

المعنى:

لو أردنا لأرسلنا في كل بلدة ومصر رسولاً، ينذرهم ويخوفهم من حلول نقمتنا بهم، بكفرهم بنا، ومعصيتهم لنا، فيخف عنك عبء ما حملت، ويسقط عنك بذلك تعب كثير.

ولكنا لم نرد ذلك، وحملناك أنت وحدك أعباء وأثقال النذارة لجميع القرى؛ ليظهر فضلك بعموم رسالتك؛ ويعظم أجرك بعظم جهادك وصبرك؛ ويكثر ثوابك بكثرة من يؤمن بك، ومن تود وتعمل ليؤمن بك.

حديث:

صح عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنه قال:

«أعطيت خمساً لم يعطهم أحد قبلي.

كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود.

وأحلّت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي.

وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً؛ فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان.

ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر.

وأعطيتُ الشفاعة».

هكذا جاء هذا الحديث عن جابر بن عبد الله في صحيح مسلم[١].

---

(١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٣.

وجاء فيه من طريق أبي هريرة زيادة: «وختم بي النبيون»[1]

فتعميم رسالته وختم النبوة به في الحديث الصحيح من طريقيه من مقتضى معنى الآية: فإنه لما عممت رسالته، ولم يكن معه رسول في حياته، وختمت به النبوة، فلا يكون كذلك بعد وفاته. ثبتت له كرامة الخصوصية، وعظمة المنزلة، وجزالة المثوبة، وهو ما كنا بيناه في معنى الآية.

وما أحسن التفسير عندما تعضده الأحاديث الصحاح!!.

تأسّ ورجاء:

قد ثبت في السنة ما يكون من كثرة الجهل، وموت السنة، وانتشار البدعة؛ وقد أيد ذلك الواقع والمشاهدة.

فإذا كان دعاة العلم والسنة وخصوم الجهل والبدعة، فلا بد أن يكونوا قليلاً من العدد الكثير. خصوصاً في مبدإ أمرهم وأول دعوتهم، ولا بد أن يلقوا ما يلقون، ويقاسوا ما يقاسون.

ومما يثبت قلوبهم في عظيم مواقفهم: تأسيهم بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي جاء وحده بالحق، والناس كلهم على الباطل، فما زال يجاهد حتى لقي ربه.

ومما يثبت قلوبهم أيضاً: رجاؤهم - إذا أخلصوا النية وأحسنوا الاقتداء - فيما يكون لهم من الثواب كذلك فيمن اهتدى بهم، وفيمن بذلوا جهدهم في هدايته، وكانت لهم الرغبة العظيمة في إيصال الخير إليه وإن لم يرجع إليهم.

عدم طاعة الكافرين والجهاد بالقرآن العظيم

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

[الفرقان: ٥٢]

لما بين له ما خصصه به من الكرامة، دعاه إلى مقابلة ذلك بعدم طاعة أهل الكفر، والثبات على جهادهم بالقرآن.

(الفاء) تفريعية. و (الطاعة) الامتثال للطلب.

و (الجهاد) بذل الجهد من ناحيتك في مقابلة من هو باذل جهده في الناحية المقابلة لك، هذا مقتضى صيغة فعال.

﴿**جهاداً كبيراً**﴾ مصدر مبين للنوع المطلوب بصفته، وهي ﴿**كبيراً**﴾.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٥. ونصّه: «فُضّلت على الأنبياء بستّ: أعطيت جوامع الكلم، ونُصرت بالرعب، وأُحلّت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرسلت إلى الخلق كافّة، وخُتم بي النبيّون».

المعنى:

لما أكرمناك بعموم رسالتك، وختم النبوة بك فقابل هذه النعمة بإخلاص الطاعة لربك.

ولا تطع الكافرين أعداء الله وأعداءك، في أي شيء يدعونك إليه من مقتضيات كفرهم: كالرجوع إليهم، والسكوت عن بعض كفرهم.

وابذل كل جهدك في دعوتهم للدين الحق، ومقاومة ما هم عليه من الباطل بالقرآن العظيم، وجاهدهم بهذا القرآن جهاداً كبيراً، بتحمل كل ما يأتيك من ناحيتهم من بلاء وإذاية والصبر عليه، والثبات على الدعوة والمقاومة.

تعميم:

كما لا تجوز طاعة الكافرين في شيء مما يمليه عليهم كفرهم، كذلك لا تجوز طاعة العصاة في شيء مما تمليه عليهم معصيتهم، لأن الجميع فيه مخالفة لدين الله.

وكما يجاهد أهل الكفر بالقرآن العظيم الجهاد الكبير؛ كذلك يجاهد به أهل المعصية لأنه كتاب الهداية لكل ضال، والدعوة لكل مرشد.

وفي ذكر الكافرين تنبيه على العصاة على التنبيه بالأعلى على الأدنى؛ لاشتراكهم في العلة وهي المخالفة.

اقتداء:

ما كان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ليطيع الكافرين، وإنما جاء هذا النهي تهييجاً له على تمام مخالفتهم ومعاكستهم في جميع مناحي ومظاهر كفرهم.

والخطاب وإن كان له فالحكم شامل لأمته، فلا يجوز للمسلم أن يطيع كافراً أو عاصياً في أي شيء من نواحي الكفر، ونواحي المعصية.

وكما أن الجهاد بالقرآن العظيم هو فرض عليه، فكذلك هو فرض على أمته هكذا على الإجمال. وعند التفصيل تجده فرضاً على الدعاة والمرشدين الذين يقومون بهذا الفرض الكفائي على المسلمين.

فالنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قدوة لأمته فيما اشتملت عليه الآية من نهي وأمر.

استدلال:

هذه الآية نص صريح في أن الجهاد في الدعوة إلى الله وإحقاق الحق من الدين، وإبطال الباطل من شبه المشبهين وضلالات الضالين، وإنكار الجاحدين، هو بالقرآن العظيم.

ففيه بيان العقائد وأدلتها، ورد الشبه عنها.

وفيه بيان الأخلاق محاسنها ومساويها، وطرق الوصول إلى التحلي بالأولى، والتخلي عن الثانية ومعالجتها.

وفيه أصول الأحكام وعللها.
وهكذا فيه كل ما يحتاج إليه المجاهد به في دين الله.

فيستفاد منها كما يستفاد من آيات أخرى غيرها، أن على الدعاة والمرشدين أن تكون دعوتهم وإرشادهم بالقرآن العظيم.

ميزان:

عندما يختلف عليك الدعاة، الذين يدعي كل منهم أنه يدعوك إلى الله تعالى، فانظر: من يدعوك بالقرآن إلى القرآن، ومثله ما صح من السنة لأنها تفسيره وبيانه، فاتبعه لأنه هو المتبع للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في دعوته وجهاده بالقرآن، والمتمثل لما دلت عليه أمثال هذه الآية الكريمة من آيات القرآن.

نعمة ومنقبة:

قد سمّى الله تعالى الجهاد بالقرآن جهاداً كبيراً. وفي هذا منقبة كبرى للقائمين بالدعوة إلى الله بالقرآن العظيم. وفي ذلك نعمة عظيمة من الله عليهم حيث يسرهم لهذا الجهاد، حتى ليصح أن يسموا بهذا الاسم الشريف «مجاهدون». فحق عليهم أن يقدروا هذه النعمة، ويؤدوا شكرها بالقول والعمل، والإخلاص والصبر والثبات واليقين.

جعلنا الله والمسلمين منهم وحشرنا في زمرتهم أجمعين.

تعاقب الليل والنهار للتفكير والعمل

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

[الفرقان: ٦٢]

لما سأل المشركون بقولهم: ﴿وما الرحمن﴾؟ كما يسألون عن المجهول! ذكر لهم القرآن ما يعرفهم به من عظيم آياته، وجلائل إنعاماته، التي هي من آثار رحمته؛ فذكر لهم بروج السماء، والشمس والقمر، ثم ذكر لهم تعاقب الليل والنهار.

﴿خلفة﴾ يقولون: خلفت الفاكهة بعضها بعضاً خلفاً ـ بالتحريك وخلفة، إذا صارت خلفاً من الأولى. وخلف زيد عمراً يخلفه إذا جاء بعده في مكانه. فالخلفة مصدر. وهو لما كان على وزن فعلة دال على الهيئة كالركبة بمعنى الهيئة من الركوب، فالخلفة إذن هيئة من الخلوف. فإذا قلت: خلفه خلفاً أو خلوفاً. فقد أردت مطلق الحدث، وإذا قلت: خلفه خلفة فقد أردت هيئة خاصة من المخلوف.

(التذكر) قبول التذكير، فإن مخلوقات الله مذكرات للعبد بربه. فتذكره هو قبوله ذلك التذكير، واعتباره واتعاظه به.

(الشكور) مصدر شكر بمعنى القيام بعبادته وطاعته، لأجل نعمه.

﴿أو﴾ للتفضيل والتنويع؛ لأن المستفيدين من اختلاف الليل والنهار هم المتذاكرون والشاكرون، فلا تمنع من أن يكون الشخص الواحد متذكراً شاكراً في آن واحد.

﴿خلفة﴾ مفعول ثان لجعل، على معنى جعلها ذوي خلفة. وفي الإخبار تقول: الليل والنهار خلفة، والرجلان خلفة على هذا المعنى، أي يخلف أحدهما الآخر.

وكان مفرداً على الاثنين لأنه مصدر[١].

والجار في ﴿لمن أراد﴾ يتعلق بـ ﴿جعل﴾ وكان الجعل لهما، لأنهما المستفيدان منه، ولم يكرر الاسم الموصول لأن الشخص الواحد يمكن أن يتصف بالصفتين معاً.

وكرر فعل الإرادة لأنها لا بد منها في التذكر وفي الشكر.

وقيل: ﴿أن يَذَّكَّرَ﴾ ليفيد المضارع الحدوث والتجدد، فإن الغفلة مستولية على الإنسان، والآيات المرئية ما تزال تحدث له التذكر وتجدده له.

وقيل: ﴿شكوراً﴾ لمناسبة رؤوس الآي.

المعنى:

يقول تعالى: وهو الذي جعل الليل والنهار، ووضعهما يختلفان ويتعاقبان على هيئة مخصوصة في التخالف والتعاقب؛ ليستفيد من ذلك العباد.

من أراد أن يتذكر فيعتبر بما فيهما من انتقال وتغير ونظام وتقدير. ويستدل بذلك على وجود خالقهما، وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته، ورحمته بمخلوقاته.

أو أراد أن يشكر؛ فيقوم بعبادة خالقه المنعم عليه بجلائل النعم ودقائقها التي منها هذا الاختلاف والتعاقب بين هذين الوقتين، الذي لا يصلح حال الإنسان، ولا تنتظم أعماله ولا يستقيم عمرانه إلا به.

فقه لغوي:

اختيرت لفظة الخلفة هنا، لدلالتها على الهيئة، فتكون منبهة على هيئة هذا الاختلاف، بالطول والقصر المختلفين في جهات من الأرض. وذلك منبه على أسباب هذا الاختلاف من وضع جرم الأرض وجرم الشمس.

وذلك كله من آيات الله الدالة عليه، وبتلك الهيئة من الاختلاف المقدر المنظم عظمت النعمة على البشر، وشملتهم الرحمة.

فكانت هذه اللفظة الواحدة منبهة على ما في اختلاف الليل والنهار من آية دالة، ومن نعمة عامة. وهكذا جميع ألفاظ القرآن في انتقائها لمواضعها.

---

(١) المصادر يستوي فيها المفرد والمثنى والجمع.

فقه شرعي:

لما كان جعل الليل والنهار خلفة لأجل التذكر والعمل، كان كل واحد منهما صالحاً للعمل الذي يعمل في صاحبه. فمن فاته عمل بالليل أتى به في النهار، ومن فاته عمل بالنهار أتى به في الليل. وهذا إذا كان من العادات فهو على سبيل التدارك، وإذا كان من العبادات فهو على سبيل القضاء.

وقد روى ابن جرير ـ بسند حسن[1]: «أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال: فاتتني الصلاة الليلة! فقال: أدرك ما فاتك من ليلتها في نهارك، فإن الله جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر، أو أراد شكوراً».

ومن هذا ما رواه مسلم والأربعة عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنما قرأه من الليل»[2].

فقه قرآني:

حياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها، مبنية على الأركان الثلاثة:

الإرادة، والفكر، والعمل.

وهي المذكورات في هذه الآية، لأن التذكر بالتفكر والشكر بالعمل. فاستفادة الإنسان مما خلقه الله له، وجعله لأجله، لا تكون إلا بهذه الثلاثة.

وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لا بد للإنسان منها:

فالعمل متوقف على البدن.

والفكر متوقف على العقل.

والإرادة متوقفة على الخلق.

فالتفكير الصحيح من العقل الصحيح، والإرادة القوية من الخلق المتين، والعمل المفيد من البدن السليم.

فلهذا كان الإنسان مأموراً بالمحافظة على هذه الثلاثة: عقله، وخلقه، وبدنه، ودفع المضار عنها، فيثقف عقله بالعلم، ويقوِّم أخلاقه بالسلوك النبوي، ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء، وتوقي الأذى، والتريض على العمل.

---

(١) تفسير الطبري (٩/٤٠٥ ـ الأثر رقم ٢٦٤٥٠) بإسناده عن ابن حميد قال: ثنا يعقوب القمي، عن حفص بن حميد، عن شمر بن عطية، عن شقيق.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها حديث ١٤٢، وأبو داود في التطوع باب ١٩، والترمذي في الجمعة باب ٥٦، والنسائي في قيام الليل باب ٦٥، وابن ماجة في الإقامة باب ١٧٧، والدارمي في الصلاة باب ١٦٧. ورواه أيضاً مالك في الموطأ (كتاب القرآن، باب ما جاء في تحزيب القرآن، حديث ٣) موقوفاً على عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

موعظة:

قال الإمام ابن العربي: سمعت ذا نشمند الأكبر ـ يعني الغزالي ـ يقول:

إن الله خلق العبد حياً عالماً وبذلك كماله. وسلط عليه آفة النوم، وضرورة الحدث، ونقصان الخلقة، إذن الكمال للأول الخالق.

فما أمكن الرجل من دفع النوم، بقلة الأكل، والسهر في الطاعة فليفعل.

ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين ستة، ينام ليلها فيذهب النصف من عمره لغواً.

وينام نحو سدس النهار راحة فيذهب له ثلثاه، ويبقى له من العمر عشرون سنة.

ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجل ثلثي عمره في لذة فانية، ولا يتلف عمره سهرة في لذة باقية، عند الغني الوفي، الذي ليس بعديم ولا ظلوم. اهـ.

سلوك:

حافظ على العبادات في أوقاتها، واقض ما فاتك.
واربط أعمالك بأوقاتها، وتدارك ما فاتك.
ووجه قصدك إلى ما ترى من آيات الله متفكراً.

ووجه قصدك في جميع أعمالك لله سامعاً مطيعاً ـ تكن عبداً ذاكراً شاكراً سعيداً ـ إن شاء الله ـ في الدارين.

وفقنا الله إلى ذلك والمسلمين أجمعين.

القرآن يصف عباد الرحمن

الصفة الأولى والثانية:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣]

لما تجاهل المشركون الرحمن، واستكبروا عن السجود له، عرفهم القرآن بالرحمن: بخلقه، وتدبيره وإنعامه، كما مضى في الآيات المتقدمة.

ثم عرفهم بعباده الذين عرفوه بذلك، فآمنوا به، وخضعوا له، بما اشتملت عليه هذه الآيات من صفاتهم.

وكما كانت مخلوقات الله المذكورة سابقاً دالة عليه، ومعرفة به، بما فيها من آثار قدرته وآثار

رحمته، كذلك كان عباده المذكورون أدلة عليه، ومعرفين به، بأقوالهم، وأفعالهم، وهديهم، وسلوكهم ومظاهر آثار رحمة الله عليهم.

فذكروا بعد ذلك تلك المخلوقات، وذكرت هي قبلهم؛ لأنها كانت أدلة لهم، والدليل سابق على المستدل، سبْق المستفاد منه على المستفيد.

وفي تعريف القرآن لعباد الرحمن بعد تعريفه بالرحمن، تشريف كبير لهم، وتبكيت لأولئك المتجاهلين المتكبرين.

ووجه آخر في المناسبة، وهو أنه لما ذكر التذكر والشكر في الليل والنهار في الآية المتقدمة، ذكر صفات المتذكرين الشاكرين، وما أثمره لهم تذكرهم وشكرهم، ترغيباً في التذكر والشكر.

وقولهم للجاهلين سلاماً من مقتضى هونهم ورفقهم، فلذلك قرن به وعطف عليه.

﴿عباد﴾ جمع عبد بمعنى المملوك الذليل الخاضع، أو جمع عابد كصاحب وصحاب، وتاجر وتجار: بمعنى المطيع والقائم بما يرضي ربه، والأول هنا أظهر.

﴿الرحمن﴾ المنعم الذي تتجدد نعمه في كل آن.

﴿يمشون على الأرض﴾ يتنقلون عليها.

﴿هونًا﴾ هان الأمر يهون هونًا بمعنى سهل. ومنه «هو عليّ هين» أي سهل. وشيء هين على وزن فعل أي سهل، ويقال هين بالتخفيف.

ومن صفات المؤمن أنه هين لين، من الهون بمعنى السهولة في أخلاقه ومعاملته.

وفي مسند أحمد عن ابن مسعود مرفوعاً: «حُرِّم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس»[1].

وهو على ما فسرنا من السهولة في أخلاقه ومعاملته، وذلك هو الذي يقربه من الناس.

وفسر الهون في الآية بالحلم، والوقار، والسكينة، والتواضع والطاعة، وكلها ترجع إلى السهولة واللين.

وفسر بعدم الفساد في الأرض، وعدم التجبر والتكبر، لأنها كلها أضداد للسهولة واللين.

﴿خاطبهم﴾ كلهم ﴿الجاهلون﴾ السفهاء القليلو الأدب السيئو الأخلاق. والجهل ضد العلم، ويطلق بمعنى السفه والطيش؛ لأنها عنه ينشآن.

ومنه قول الشاعر.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/٤٤١٥). وأخرجه أيضاً الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع باب ٤٥ (حديث ٢٤٨٨) بلفظ: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار: على كل قريب هين سهل».

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا[1]

ومنه ﴿الجاهلون﴾ في الآية.

﴿سلاماً﴾ السلام كالسلامة معناهما: التعري من الآفات والمكروهات.

وصلت الجملة بما قبلها بالواو، لاشتراكهما في القصد وهو التعريف بالرحمن وبعباده. وعباد مبتدأ، والذين خبر.

وأضاف العباد للرحمن تخصيصاً لهم وتفصيلاً وتقريباً، وفيه تعريض بأولئك المتجاهلين المتكبرين المبعدين.

وهوناً منصوباً على أنه مفعول مطلق، والتقدير مشياً هوناً أو على أنه حال من فاعل يمشون، أي هينين. ومجيء المصدر حالاً كثير، ولمصدريته أفراد والموصوف جمع، نظير الزيدون عدل.

و ﴿يمشون على الأرض هوناً﴾ تركيب كنائي، أريد به معناه، ولازم معناه:

فهم يمشون هينين برفق وتثبت، لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً، هذا أصل المعنى وهو مراد.

ومراد أيضاً لازمه وهو سهولتهم وتواضعهم وعدم تكبرهم ورفقهم في الأمور وبعدهم عن الإفساد.

ومراد لازم آخر أيضاً: وهو سيرهم في الحياة وتصرفهم في جميع الأمور، ومعاملتهم للناس، فإذا كانوا أهل رفق وسهولة في مشيتهم في الأرض، فكذلك هم أهل رفق وسهولة في الأمور الأخرى مما ذكرنا؛ لأن الرفق والسهولة خلق فيهم، فكما هو في المشي هو في غيره.

وكانت الصلة بالمضارع[2] ليفيد التجدد، فإن المشي هو في الأرض ضروري للإنسان.

وكان المعطوف على الصلة بصورة الشرط[3]؛ لأن خطاب الجاهلين لهم ليس مما يكون دائماً.

وكان التعليق بإذا لأن مخاطبة الجاهلين لهم بالسوء أمر محقق.

ومتى سلم أهل العلم والدين من الجاهلين؟!!

---

(١) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، ومطلعها:

ألا هبّي بصحنك فاصبحينا ولا تُبقي خمور الأندرينا

(شعر عمرو بن كلثوم: ص ٤٠ ـ طبعة الدار العالمية).

وقوله: «فنجهل فوق جهل الجاهلينا» معناه: فنهلكه فنعاقبه بما هو أعظم من جهله. وقال الزوزني في شرح المعلقات (ص ٢٥٢): «أي لا يسفهن أحد علينا فنسفه عليهم فوق سفههم علينا».

(٢) في «يمشون».

(٣) في قوله: «وإذا خاطبهم».

ولم يذكر ما يخاطبهم به الجاهلون للعلم بأن خطاب الجاهل أي السفيه لا يكون إلا سوءاً مما يمليه عليه جهله وسفهه.

ونصب ﴿سلاماً﴾ على أنه مفعول مطلق والتقدير: قالوا قولاً سلاماً، أي ذا سلام، فيشمل كل قول فيه سلامة من الأذى والمكروه: كسلام عليكم، ويغفر الله لكم، وسامحكم الله، ونحو ذلك.

أو نصب على أنه مفعول به، أي قالوا هذا اللفظ سلاماً نفسه.

المعنى:

يقول تعالى: وعباد الرحمن ومماليكه القائمون بحق العبودية له، هم أهل الرفق والسهولة الذين يمشون على الأرض هينين في مشيهم، وفي معالجتهم لشؤون الحياة، ومعاملتهم للناس لحلمهم وتواضعهم، غير مستكبرين ولا متجبرين، ولا ساعين في الأرض بالفساد.

وإذا خاطبهم السفهاء بما لا ينبغي من الخطاب قابلوهم بالحلم، وقالوا لهم: سلاماً، لأنهم سلموا من الجهل؛ فسلم المخاطب لهم من أن يجهلوا عليه ولو جهلوا؛ أو قالوا لهم من الكلام ما فيه سلامة من الأذى والمكروه.

الأحكام:

في الآية استحباب الرفق في المشي، وكراهية العنف والاضطراب؛ ومن العنف الضرب بالرجل والخفق بالنعل، فإذا كانا بعجب وخيلاء فهو حرام.

وفيها الإغضاء عن الجاهل ومقابلة كلمته السيئة بالكلام الحسن وكراهة مجاراته في خطابه ومماثلته، وإذا كان في ذلك فتنة أو مفسدة محققة كان حرامًا.

تمييز:

ليس من الهون في المشي التثاقل والتماوت فيه.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لجماعة رآهم كذلك: «لا تميتوا علينا ديننا أماتكم الله».

وأن عائشة رضي الله عنها، رأت قوماً يتماوتون، فسألت عنهم؛ فقيل لها: هؤلاء قوم من القراء. فقالت: لقد كان عمر من القراء، وكان إذا مشى أسرع، وإذا تكلم أسمع، وإذا ضرب أوجع.

وكان مشيه ـ رضي الله عنه ـ إلى السرعة خلقة لا تكلفاً. والخير في الوسط.

وليس هون المشي وحده يعرفك بأن صاحبه من عباد الرحمن، فرب ماش هوناً رويداً وهو ذئب أطلس[1]. ولكن بالهون في المشي، وبما ذكرنا في فصل التراكيب والمعنى من لوازمه.

---

(١) الذئب الأطلس: هو الذنب الأمعط الذي في لونه طُلْسة. والطُّلْسة: الغبرة إلى السواد. انظر المعجم الوسيط (ص ٥٦١).

بيان وردّ:

اشتملت الآية على بيان الأدب في معاملة الجاهلين من أفراد الناس، سواء أكانوا مسلمين أم غيرهم.

وما اشتملت عليه من الأدب قد جاء في آيات كثير: مثل: **﴿وأعرض عن الجاهلين﴾** [الأعراف: ١٩٩].

وقوله تعالى: **﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾** [القصص: ٥٥].

فهو أدب مشروع مؤكد وحكم دائم محكم، وهو في معاملات الأفراد كما ترى.

فلا ينافي ما شرع من الحرب عند وجود أسبابها، وتوفر شروطها بين الأمم والجماعات. وهي من الأمور العامة كما ترى.

فبطل قول من زعم أن هذه الآية بالنسبة لغير المسلم منسوخة بآية السيف، لأن هذه الآية ثابت حكمها في حال وآية السيف ثابت حكمها في حال أخرى، فلا تنسخ إحداهما الأخرى.

وما أكثر ما قتلت أحكام بآية السيف هذه! وهي عند التحقيق غير معارضة لها؛ لمباينة حالها لحالها.

تمثيل واستدلال:

جاء في الصحيح من طرق مجموع ألفاظها:

أن رهطاً من اليهود دخلوا على النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقالوا: السام عليكم (والسام الموت) ففهمتها عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: وعليكم السام واللعنة وغضب الله عليكم. فقال لها رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم: ـ مهلاً يا عائشة عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش: إن الله يحب الرفق في الأمور كلها. فقالت له عائشة: أو لم تسمع ما قالوا؟ فقال لها: أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم: قد قلت: «وعليكم». فيستجاب لي فيهم (لأنه دعاء بحق) ولا يستجاب لهم فيَّ[1] (لأنه دعاء بباطل وظلم).

فقد خاطبه هؤلاء الجاهلون بالسوء فقال لهم كلمة سالمة من القبح، ليس فيها لفظ الإذاية، وهو السام، بعيدة عن الإفحاش، خالصة للرفق، فهي من العقول السلام: أي ذي السلام من مقتضى الآية على الوجه الأول من وجهيها.

---

(١) روي في الصحاح من طرق عديدة؛ فرواه البخاري في الأدب باب ٣٥ و٣٨، والجهاد باب ٩٨، والاستئذان باب ٢٢، والدعوات باب ٥٩ و٦٣. ومسلم في السلام حديث ١٠ و١١ و١٣. والترمذي في السير باب ٤٠، والاستئذان باب ٧. وأحمد في المسند (٢/١١٤، ١٧٠، ٢٢١، ٣/١٤٠، ١٤٤، ٢١٠، ٢١٤، ٢١٨، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٦٢، ٢٨٩، ٢٨٣، ٦/٣٧، ١١٦، ١٣٤، ١٣٥، ١٩٩، ٢٢٩).

ففي الحديث مثال لقول السلام في خطاب الجاهل، ودليل على عموم الحكم وإحكامه.

سؤال وجوابه:

على الوجه الثاني في الآية وهو أنه يقول للجاهل سلاماً، يقال: هل يسلم عليه إذا كان كافراً؟.

فيقال: نعم؛ كما قال إبراهيم لأبيه «سلام عليك». وقد قال الله تعالى: **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم﴾**. [الممتحنة: ٤] ولم يستثن إلا قوله لأبيه: «لأستغفرن لك».

نعم هو سلام موادعة ومتاركة، لا سلام تحية وكرامة.

لطيفة تاريخية:

قالوا: إن إبراهيم ابن المهدي العباسي كان منحرفاً عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فرآه في النوم قد تقدمه لعبور قنطرة، فقال له إبراهيم:

إنما تدعي هذا الأمر يعني الخلافة بامرأة، يعني فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ونحن أحق به منك. وحكى إبراهيم رؤياه للمأمون، وقال له: فما رأيت له بلاغة في الجواب كما يذكر عنه!

فقال له المأمون: فما أجابك به؟ قال كان يقول لي: «سلاماً سلاماً» فنبهه المأمون على هذه الآية، وقال: يا عم، قد أجابك بأبلغ جواب! فخزي إبراهيم واستحيا. ا هـ.

فرضي الله عن الإمام الهاشمي ما أبلغه حياً وميتاً!!

توجيه وسلوك:

القول السلام محمود ومطلوب في كل حال، وإنما خصت حالة خطاب الجاهل، لأنها الحالة التي تثور فيها ثائرة الغضب بما يكون من سفهه ومهاترته.

فعلى المؤمن أن يكون حاضر البال بهذه الآية عندما تسوق إليه الأقدار جاهلاً، فيخاطبه بما لا يرضيه حتى يسلم من شره، ويكسر من شرته[1]، فيسلم له عرضه ومروءته ودينه، ويسلم ذلك الجاهل أيضاً من اللجاج في الشر والتمادي فيه.

فيكون المؤمن بقوله السلام، وتأدبه بأدب القرآن قد حصل السلامة للجميع.

وأعظم به من فضل وأجر في الدنيا والدين.
وفقنا الله لذلك والمسلمين أجمعين.

---

(١) الشِّرَّة: الحدة (المعجم الوسيط: ص ٤٧٨).

الصفة الثالثة:

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾

[الفرقان: ٦٤]

لما ذكر فيما تقدم سلوكهم مع الخلق ذكر في هذه الآية سلوكهم في القيام بعبادة الحق. وفيما تقدم بيان حالهم عند اختلاطهم بالعباد، وفي هذه بيان حالهم عند تفردهم لرب العباد.

﴿يبيتون﴾ من البيتوتة، وهي أن يدركك الليل نمت أو لم تنم. ويقابلها الظلول وهو أن يدركك النهار.

(السُّجَّدُ) جمع ساجد. (والقيام) جمع قائم، وهو من الأوزان التي يشترك فيها المصدر والجمع.

﴿الذين﴾ عطف على الخبر الأول، وأعيد لفظ ﴿الذين﴾ لاستقلال الحالة الثانية عن الأولى.

وقدم الجار ليفيد تخصيص عبادتهم بربهم ويفيد الكلام عبادتهم وإخلاصهم.

وقدم ﴿سجداً﴾ لأن السجود أقرب أحوال العبد للرب، لحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[١].

ووقع ﴿قياماً﴾ في موقعه مناسباً للفاصلة.

المعنى:

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يحيون الليل، فيبيتون يصلون لربهم، يراوحون بين السجود والقيام.

بيان وترغيب:

هذه الآية من آيات الحث على قيام الليل، مثل قوله تعالى:

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون﴾ [السجدة: ١٦].

وقد بينت السنة المطهرة مقداره. فثبت في الموطأ من طريق أبي سلمة عن عائشة رضي الله تعالى عنها: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة مسلم في الصلاة حديث ٢١٥. والنسائي في المواقيت باب ٣٥، والتطبيق باب ٧٨. والترمذي في الدعوات باب ١١٨. وأحمد في المسند (٢/٤٢١).

إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً لا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً»[١].

والسلام بعد كل ركعتين لحديث: «صلاة الليل مثنى مثنى»[٢].

وثبت عند مسلم[٣] من طريق سعد بن هشام، عنها[٤] بأنه كان يفتتح صلاته بالليل بركعتين خفيفتين، فتلك ثلاث عشرة.

وقد ثبت ذلك في الموطأ من طريق عروة عنها، قالت:

«كان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يصلي بالليل ثلاث عشرة ركعة»[٥].

وهذا هو الغالب من أحواله، وقد كان يصلي أقل منه في بعض الأحوال.

فقد ثبت عند البخاري من طريق مسروق عنها: «أن صلاته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالليل سبع، وتسع، وإحدى عشرة سوى ركعتي الفجر»[٦].

ومثل ما جاء عن عائشة من انتهاء ركعاته إلى ثلاث عشرة جاء في الموطأ[٧] من حديث ابن عباس.

---

(١) الحديث في الموطأ (كتاب صلاة الليل، حديث رقم ٣). وأخرجه أيضاً البخاري في التراويح باب ١. ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها حديث ١٢٥. والترمذي في الصلاة باب ٢٠٨. والنسائي في قيام الليل باب ٣٦. وأحمد في المسند (٦/٣٦، ٧٣، ١٠٤).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (كتاب صلاة الليل، حديث ٧) والترمذي في الجمعة باب ٦٥، من حديث ابن عمر أنه كان يقول: «صلاة الليل والنهار مثنى مثنى، يسلّم من كل ركعتين». وأخرجه مالك في الموطأ (كتاب صلاة الليل، حديث ١٣) والبخاري في الوتر باب ١، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها حديث ١٤٥؛ عن عبدالله بن عمر، أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن صلاة الليل، فقال رسول الله ﷺ: «صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة تُوتر له ما قد صلّى».

(٣) كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث ٨٧ و٨٨.

(٤) أي عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه مالك في الموطأ (كتاب صلاة الليل، حديث ١٠). وأخرجه أيضاً مسلم في صلاة المسافرين وقصرها حديث ١٢٣.

(٦) أخرجه البخاري في التهجّد باب ١.

(٧) كتاب صلاة الليل، حديث رقم ١١. ولفظ الحديث عن عبدالله بن عباس أنه بات ليلة عند ميمونة زوج النبي ﷺ، وهي خالته. قال: فاضطجعت في عرض الوسادة واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في طولها. فنام رسول الله ﷺ، حتى إذا انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله ﷺ، فجلس يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران، ثم قام إلى شنّ معلق فتوضأ منه فأحسن وضوءه، ثم قام يصلي. قال ابن عباس: فقمت فصنعت مثل ما صنع. ثم ذهبت فقمت إلى جنبه، فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسي وأخذ بأذني اليمنى يفتلها. فصلى ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم أوتر، ثم اضطجع حتى أتاه المؤذن، فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح.

وجاء فيه أيضاً من حديث زيد بن خالد الجهني(١).

وفي هذه السنة العملية الثابتة بيان للقدر الأكمل، الذي يكون به العبد ممن يصدق عليهم هذا الوصف من صفات عباد الرحمان.

الصفة الرابعة:

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾

[الفرقان: ٦٥ و٦٦]

لما ذكر حسن سلوكهم مع الخلق، واجتهادهم في عبادة الحق، ذكر خوفهم من ربهم، واعتمادهم عليه في نجاتهم، وعدم اعتزازهم بأعمالهم، فهم يأتون ما يأتون من محاسن الأعمال، ولا يعتمدون إلا على الكبير المتعال.

(الغرام) مادة (غ ر م) تدور على معنى الملازمة مع الثقل والشدة، ولذا فسر الغرام بالشر، وبالعذاب، وبالهلاك الملازم.

﴿ساءت﴾، بمعنى قبحت، مثل بئس لإنشاء الذم.

(المستقر) محل الإقامة أي البقاء.

﴿ساءت﴾ فاعلة الضمير المخصوص بالذم.

و ﴿مستقراً ومقاماً﴾ تمييز مفسر للضمير.

وجملة ﴿إن عذابها﴾ تعليل للجملة الدعائية، وفصلت عنها لكمال الانقطاع بينهما.

وجملة: ﴿إنها ساءت﴾ مؤكدة لمضمون الجملة قبلها مع اختلاف في المعنى: فإن ما أفادته الأولى من فداحة عذابها وملازمته، أكدته الثانية بما أفاده من مقامه ومستقرها، ففصلت عنها لما بينهما من كمال الاتصال نظير: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ [البقرة: ٢].

والتأكيد فيها بـ «إنّ»، لأنه قد لوح وأشير في الكلام السابق إلى هذا الخبر، وشأن السامع لهذا أن يستشرف له استشراف المتردد الطالب، فينزل منزلة المتردد فيؤكد له الخبر.

ووجه التلويح بهذا الخبر: أنه لما سئل صرف عذاب جهنم كان هذا مشيرًا، إلى قبح هذا العذاب وشدته. فهذا نظير ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ [هود: ٣٧].

المعنى:

من صفاتهم أنهم يدعون الله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم؛ لأن عذابها عذاب

---

(١) كتاب صلاة الليل، حديث رقم ١٢.

شديد، فادح، ملح، ملازم. ولأنها بئست المستقر الذي يستقر ويثبت فيه، وبئست المقام الذي يقام ويمكث فيه.

* * *

رد واستدلال:

زعم قوم أن أكمل أحوال العابد، أن يعبد الله تعالى لا طمعاً في جنته، ولا خوفاً من ناره. وهذه الآية وغيرها رد قاطع عليهم.

ومثلها قول إبراهيم ـ عليه وعلى آله الصلاة والسلام ـ ﴿**والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين**﴾ [الشعراء: ٨٢]، وفي نصوص لا تحصى كثرة.

وزعموا أن كمال التعظيم لله ينافيه أن تكون العبادة معها خوف من عقابه، أو طمع في ثوابه. وأخطأوا فيما زعموا:

فإن العبادة مبناها الخضوع والذل والافتقار، والشعور بالحاجة والاضطرار. وإظهار العبد هذه العبودية بأتمها، ومن أتم مظهر لها، أن يخاف، ويطمع، كما يذل، ويخضع؛ ففي إظهار كمال نقص العبودية القيام بحق الإجلال والتعظيم للربوبية.

ولهذا كان الأنبياء ـ عليهم وآلهم الصلاة والسلام ـ هم أشد الخلق تعظيماً لله، وأكثرهم خوفاً من الله، وتعوذاً من عذاب الله، وسؤالاً لما عند الله، وكفى بهم حجة وقدوة.

وإن هذه المقالة[١] تكاد تُفضي إلى طرح الرجاء والخوف، وعليهما مبنى الأعمال، لما فيهما من ظهور العبودية بالذل والاحتياج.

ومن دعاء القنوت الثابت المحفوظ: «وإليك نسعى ونحفد[٢]، نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد» وهذا ضروري في الدين.

ولكن مثل هذه المقالة إنما يجر إليها:

الغلو وقلة الفقه في الدين، وفي الكتاب والسنة، وما كان عليه هَدْيُ السابقين الأولين.

اعتبار ونصيحة:

إن جهنم هي أقبح مستقر وأقبح مقام.

وإن الدنيا هي مطية الآخرة؛ فمن ساء مستقره ومقامه في الدنيا، ساء كذلك مستقره ومقامه في الآخرة.

وإن ملازمة العذاب في الآخرة على قدر ملازمة المعاصي في الدنيا؛ فمن لازمها بالكفر،

---

(١) أي مقالة القائلين بأن كمال التعظيم لله ينافيه أن تكون العبادة معها خوف من عقابه أو طمع في ثوابه.

(٢) نحفد: نسرع في العمل والخدمة (النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/٤٠٦ ـ مادة حفد).

ومات عليه، دامت له تلك الملازمة، ومن لازمها بالإصرار على الكبائر كانت له، على حسب تلك الملازمة.

فعلى العاقل أن يحسن مقره ومقامه، وأن يجتنب كل موطن تلحقه فيه الملامة، وأن يجتنب مجالس السوء والبدعة، ويلازم مجالس الطاعة والسنة.

وأن يسرع بالتوبة مفارقاً الذنوب، وألا يصر على شيء من القبائح والعيوب.

وأن يكون سريع الرجوع إلى الله ولو عظم ذنبه وبلواه، فالله يحب التوابين ويغفر للأوابين جعلنا منهم أجمعين آمين.

أيهما أكمل:
العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب؟ أم العبادة دونهما؟

زيادة بيان على قوله تعالى: ﴿**والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غرامًا**﴾.

تمهيد:

قد قال قوم: إن العبادة دون رجاء ثواب ولا خوف عقاب هي أكمل العبادات!.

وأنكرنا مقالتهم فيما كتبناه على قوله تعالى: ﴿**والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غرامًا**﴾ فيما سبق.

وقلنا في الإنكار عليهم:

«وزعموا» أن كمال التعظيم لله ينافيه أن تكون العبادة معها خوف من عقابه، أو طمع في ثوابه، «وأخطأوا فيما زعموا».

وذكرنا إثر ذلك بعض الأدلة التي اعتمدنا عليها.

* * *

وبعد أن مضى على ذلك ثلاثة أشهر كاملة!! نشر الشيخ المولود الحافظي مقالاً رداً علينا، دون أن يذكر جميع أدلتنا، ودون أن يتعرض لنقضها في سندها أو متنها، أو عدم انطباقها، أو إفادتها لما سبقت لإفادته، ودون أن يعارضها بمثلها في الرتبة والدلالة.

وأطال بما بعضه خارج عن محل النزاع، وبعضه هو نفس الدعوى المحتاجة إلى الاستدلال.

فرأينا ـ إثر اطلاعنا على مقاله ـ أن نعود لذكر أدلتنا التي اعتمدنا عليها فيما اخترناه: من أن وضع العبادة الشرعية، على رجاء الثواب وخوف العقاب، وبيان دلالتها على المدعى. ثم نتكلم على بعض ما في مقاله، فنقول:

حقيقة العبادة:

إن العبادة هي غاية الذل والخضوع، مع الشعور بغاية الضعف والافتقار. ومن مقتضى الضعف أن يخاف وَيَوْجَلَ، ومن مقتضى الافتقار أن يرجو ويطمع:

١ ـ فخوف العبد من عقاب ربه، هو من مقتضى اعترافه بضعفه وقوة ربه، وشهوده لعزته وقهره، وعموم تصرفه في خلقه، وأنه لا معقب لحكمه، وأنه لا يؤمن من مكروهه.

٢ ـ وطمعه في ثوابه، هو من مقتضى اعترافه بحاجته وفقره وغنى ربه، وفضله، وتصديقه بوعده؛ فهو يعبده ويخاف ألا يقبل عبادته، ويخشى نقمته. ويعبده ويرجو رحمته، وينتظر مثوبته.

وفي عبادته هذه إظهار لغاية العبودية بنقصها وحاجتها، وقيام بحق التعظيم والإجلال للربوبية، والاعتراف لذلك المقام بالقدرة والعزة، والغنى والرحمة والكمال.

فوضعت العبادة في الدين على خوف العقاب، ورجاء الثواب، لما في ذلك من إظهار غاية عبودية العبد بضعفه وافتقاره، أمام ربه الغني الرحيم القوي المتين.

الأدلة:

والدليل على هذا ستسمعه، من الكتاب، والسنة، وأقوال السلف:

أولاً:

أما الكتاب: فقوله تعالى:

١ ـ **﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾** [السجدة: ١٥، ١٦، ١٧].

ووجه الدليل من الآية:

أن هؤلاء المذكورين فيها، هم الكمل من عباد الله الصالحين، بدليل حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه المروي في الصحيح ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم:

«يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذخراً بله ما أطلعتم عليه»[1].

ثم قرأ قوله تعالى: **﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾**.

ومع كمالهم لم تتجرد عبادتهم من الخوف والطمع.

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣٥، وبدء الخلق باب ٨، وتفسير سورة ٣٢ باب ١. ومسلم في الإيمان حديث ٣١٢، وصفة الجنة حديث ٢ ـ ٥. والترمذي في صفة الجنة باب ١٥، وتفسير سورة ٣٢ باب ٢، وسورة ٥٦ باب ١. وابن ماجة في الزهد باب ٣٩. والدارمي في الرقاق باب ٩٨ و١٠٥. وأحمد في المسند (٣١٣/٢، ٣٧٠، ٤٠٧، ٤١٦، ٤٣٨، ٤٦٢، ٤٦٦، ٤٩٥، ٥٠٦).ج

ووجه آخر:

وهو أن الله تعالى ذكر لنا عبادتهم؛ لنعرف العبادة الشرعية كيف تكون؟ فذكرها مع الخوف والطمع، فعرفنا أن العبادة وضعت في الشرع على ذلك.

ووجه ثالث:

وهو أنه تعالى ذكر لنا صفاتهم وعبادتهم؛ لنقتدي بهم فيها، فعلم أن العبادة التي يدعونا ربنا إليها هي العبادة خوفاً وطمعاً.

- ومثل هذه الآية:

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾ [آل عمران: ١٩١ - ١٩٤].

ووجه الدليل منها كالتي قبلها.

وتزيد عليها ببيان صريح دعائهم وطلبهم الوقاية من النار، وغفران وتكفير السيئات.

٣ - ومثلها قوله تعالى:

﴿والذين يقولون ربنا أصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غرامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].
ووجه الدليل منها كالتي قبلها.

٤ - ومثلها قوله تعالى:

﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرًا ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرًا﴾ [الإنسان: ٧ - ١٠].

ووجه الدليل منها مثل ما تقدم وتزيد ببيان أن خوف اليوم العبوس لا ينافي الا طعام لوجه الله.

٥ - ومثلها قوله تعالى:

﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٢].

ووجه الدليل كما تقدم، وفيها أيضاً بيان أن خوف سوء الحساب لا ينافي الصبر ابتغاء وجه الله تعالى.

٦ ـ ومثلها قوله تعالى:

﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١]، ووجه الدليل كما تقدم.

ومعنى الآية: أنهم يعطون ما أعطوا من أعمال البر والطاعات، وقلوبهم خائفة من أنهم راجعون إلى ربهم، فيخافون ألا تقبل منهم. ففيها بيان أنهم كانوا يعملون راجين قبول الأعمال، خائفين من عدم قبولها.

فهؤلاء هم الكمل من عباد الله، وهذه هي عبادتهم في صريح هذه الآيات الكريمة التي ذكرت فيها صفاتهم.

وكلها بكثرتها وصراحتها دالة دلالة قطعية لما قلناه: من أن العبادة الشرعية موضوعة على رجاء الثواب والخوف من العقاب؛ إذ ذلك هو أظهر مظاهر العبودية بذلها وخضوعها، وضعفها وحاجتها وفقرها، وحالتها المباينة غاية المباينة لمقام الربوبية، مقام ذي الجلال والإكرام.

ولا تجد في القرآن العظيم، آية واحدة دالة دلالة صريحة على ذكر عبادة ـ هكذا ـ دون خوف أو طمع.

٧ ـ ونزيد على الآيات المتقدمة، آية دالة على حال عبادة المعصومين عليهم الصلاة والسلام، وهي قوله تعالى: **﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾** [الشعراء: ٨٢].

ووجه الدليل في الآية: أن إبراهيم عليه السلام أخبر عن نفسه بصيغة المضارع، المفيد للتجدد، أنه يطمع من الله أن يغفر له خطيئته؛ فدل ذلك على أنه كان في عبادته طامعاً.

ومعلوم أنه معصوم، وأنه مُؤَمَّنٌ من العذاب، وأن ما سماه خطيئة هو بالنسبة إلى مقامه الرفيع من باب: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»[1].

ومع ذلك كله فالمقصود من الدليل حاصل، وهو أنه خاف المؤاخذة ـ المؤاخذة اللائقة بمقامه ـ وطمع في الغفران، وكانت عبادته على الطمع والخوف.

ولا يقال: إنه كان معلماً للناس؛ لأنه إخبار عن نفسه، وخبره صدق ثابت، فلا بد أن يكون كما أخبر.

---

(١) نصّ حديث ذكره القاري في الأسرار المرفوعة (ص ١٨٦) والشوكاني في الفوائد المجموعة (ص ٢٥٠) والعجلوني في كشف الخفا (٤٢٨/١) والألباني في السلسلة الضعيفة (ص ١٠٠).

ثانياً:

وأما من السنة فمنها:

١ ـ دعاء القنوت المشهور: نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك الجد.

ووجه الدليل منه: أن الصلاة أشرف أحوال العبد وأجل مقاماته، وأعظم عباداته، وقد علم أن يدعو فيها هذا الدعاء الصريح، في رجاء الرحمة وخوف العذاب، وما كان ذلك إلا لأن العبادة الشرعية موضوعة عليهما.

٢ ـ ومنها حديث: (١)

«وأما السجود فادعوا فيه فقمن[٢] أن يستجاب لكم» وهو حديث صحيح[٢].

وفي الصحيح أيضاً: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[٣].

ووجه الدليل: أن أقرب أحوال العبد من ربه السجود، وهو محل للدعاء، والداعي يرجو القبول، ويخاف المنع، فالعبادة في أقرب أحوال العبد موضوعة على الرجاء والخوف.

٣ ـ ومنها الحديث الصحيح:

«إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك. اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت.

فإن مت من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به»[٤].

ووجه الدليل منه: أنه تعليم لما يقوله المسلم فيما قد يكون آخر حال يلقي عليه ربه، ولا ينبغي أن يلقاه إلا على أكمل حال؛ فعلمنا هذا الدعاء الصريح في الرغبة والرهبة ليقوله المؤمن، ولو كان من أكمل الكمل.

---

(١) قمن: بفتح الميم وكسرها، لغتان مشهورتان؛ ومعناه: حقيق وقدير.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، حديث رقم ٢٠٧ عن ابن عباس بلفظ: قال: كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال: «أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له، ألا وإني نُهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الربّ عزّ وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمنٌ أن يستجاب لكم».

وروى أحمد في المسند (١/ ١٥٥) نحوه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة مسلم في الصلاة حديث ٢١٥. والترمذي في الدعوات باب ١١٨. والنسائي في المواقيت باب ٣٥، والتطبيق باب ٧٨. وأحمد في المسند (٢/ ٤٢١).

(٤) من حديث البراء بن عازب. أخرجه البخاري في الوضوء باب ٧٥، والدعوات باب ٥. ومسلم في الذكر حديث ٥٦. وأبو داود في الأدب باب ٩٨.

فدل على أن الرغبة والرهبة عليهما وضعت العبادة في جميع الأحوال.

٤ ـ ومنها الحديث الصحيح:

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «كنت نائمة إلى جنب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ففقدته فلمسته بيدي فوضعت يدي على قدميه وهو ساجد يقول: أعوذ برضاك من سخطك(١)، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك(٢) أنت كما أثنيت على نفسك»(٣).

ووجه الدليل: أنه في الحال التي هو فيها أقرب ما يكون من ربه، وهي حالة سجوده، استعاذ برضى الله من سخطه، وبعاقبته من عقوبته.

ثم لما لم يستطع الاحاطة بأفعاله، رد الأمر لذاته، فاستعاذ به منه. وهو في الجميع مستعيذ، والمستعيذ طالب، والطالب راج وطامع في نيل المطلوب. فلم يفارق عبادته الرجاء والطمع حتى في هذه الحالة التي بينه وبين ربه، لأنه كان ساجداً في جنح الليل، دون حضور أحد من الناس، إلا عائشة التي كانت نائمة واستيقظت، فاطلعت عليه في تلك الحال.

٥ ـ ومنها الحديث الصحيح عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ الذي كان يعلمهم رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إياه كان يعلمهم السورة من القرآن رواه مالك وفيه:

«اللهم أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والمات»(٤).

ووجه الدليل منه: أنه علمهم هذه الاستعاذة الصريحة في الخوف الرجاء كسائر ما علمهم من الدعوات المبنية عليهما.

وهكذا تجد جميع دعواته المأثورة على الرغبة، والرهبة، والرجاء والخوف. ولا تجد دعاء واحداً علمهم فيه أن يتوجهوا إلى الله تعالى، دون رغبة ولا رهبة، ولا رجاء ولا خوف.

---

(١) أعوذ برضاك من سخطك: قال النووي في شرح صحيح مسلم: قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله تعالى: في هذا معنى لطيف، وذلك أنه استعاذ بالله تعالى وسأله أن يجيره برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته، والرضاء والسخط ضدّان متقابلان، وكذلك المعافاة والعقوبة؛ فلما صار إلى ذكر ما لا ضدّ له وهو الله سبحانه وتعالى استعاذ به منه لا غير، ومعناه الاستغفار من التقصير في بلوغ الواجب من حقّ عبادته والثناء عليه.

(٢) لا أحصي ثناء عليك: أي لا أطيقه ولا آتي عليه، وقيل: لا أحيط به.

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ٢٢٢. وأبو داود في الصلاة باب١٤٨. والنسائي في الطهارة باب ١١٩، والتطبيق باب ٤٧ و٦٦ و٧١ و٧٢، وعشرة النساء باب ٤. وابن ماجة في الإقامة باب ١١٩. وأحمد في المسند (٦/٥٨، ١٤٧، ٢٠١، ٢٣٨).

(٤) الحديث في الموطأ (كتاب القرآن، باب ما جاء في الدعاء، حديث رقم ٣٣). وأخرجه أيضاً مسلم في المساجد ومواضع الصلاة حديث رقم ١٣٤.

ولو كانت العبادة الخالية من الطمع والخوف هي أكمل العبادة... لكان بيَّنها لهم بياناً شافياً صريحاً، كعادته في بيان الكمالات، وهو الحريص على دلالتهم على كل خير. فكيف لا يدلهم على هذا المقام بصريح المقال، لو كان من الكمال، بحيث يدعي لها بعض الناس؟؟!

النتيجة:

فقد بان بما ذكرنا توارد آيات الكتاب، وأحاديث السنة في صراحة وجلاء على مشروعية العبادة، مقرونة بالرغبة والرهبة، والرجاء والخوف.

ولم نظفر بآية واحدة، أو حديث واحد، فيه التصريح بمشروعيتها مجردة منهما، فضلاً عن أنها أكمل منها معهما.

وما كنا لنترك أدلة الكتاب والسنة الصريحة لرأي أحد كائناً من كان.

٦ ـ وإننا نورد فيما يلي حديثاً من صحيح البخاري، يبين لنا كيف كان الصحابة ـ سادة هذه الأمة ـ يعبدون الله تعالى، يرجون قبول أعمالهم لديه:

«قال أبو بردة بن أبي موسى الأشعري. قال لي عبد الله بن عمر:

هل تدري ما قال أبي لأبيك؟ قال قلت: لا.

قال: فإن أبي قال لأبيك: يا أبا موسى، هل يسرك إسلامنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهجرتنا معه، وجهادنا وعملنا كله معه يردّ لنا، وأن كل عمل عملناه بعده نجونا منه كفافاً: رأساً برأس؟

قال أبي ـ يعني أبا موسى ـ لا والله؛ قد جاهدنا بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وصلينا، وصمنا، وعملنا خيراً كثيراً، وأسلم على أيدينا بشر كثير، وإنا لنرجو ذلك.

فقال أبي ـ يعني عمر ـ لكني أنا، والذي نفس عمر بيده، لوددت أن ذلك يرده لنا، وأن كل شيء عملناه بعد أن نجونا منه كفافاً رأساً برأس.

فقلت ـ أبو بردة ـ: إن أباك والله خير من أبي»[1].

ووجه الدليل: عملهم على الرجاء، وخوفهم من عدم القبول، والعقاب على المخالفة، وإن اختلفا فيما اختلفا فيه.

ولا نجد في كلام واحد منهم، أنه كان يجرد عبادته عن الطمع والخوف، وما كان المقام الأكمل لقوتهم وهم أفقه الناس في الدين، وأحرصهم على الخير. هذه هي أدلتنا فيما ذهبنا إليه، ورددنا على مخالفيه.

وهي أكثر من هذا عدّاً في كتاب الله وسنة رسوله، وفيما ذكرناه كفاية ـ إن شاء الله ـ لمن

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٤٥.

نصح وأنصف، وأخلص الإيمان بقوله تعالى: **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾** [النساء: ٥٩].

* * *

والآن نعطف بالكلام على مقال الشيخ ونحصره في مواضع:

١ ـ أنكرنا على من زعموا أن مرتبة العبادة العليا ـ أن يعبد الله تعالى لذاته، دون الطمع في ثوابه، ولا الخوف من عقابه، ونسبنا إليهم الخطأ.

ولما وجدنا آيات الكتاب وأحاديث السنة طافحة، بأن عبادة الله مقرونة بالخوف والطمع كما قدمنا، نسبنا خطأهم إلى قلة التفقه في الدين أي في أدلة الدين، وهي الآيات والأحاديث المذكورة.

وما عسى أن يقال فيمن لم تكفه تلك الآيات والأحاديث كلها، على صراحتها واتفاقها، إلّا أنه لم يتفقه فيها؟

ولما لم نجد آية واحدة ولا حديثاً واحداً يصرح بمدعاهم.. حملناهم على الغلو.

هذا كله دون أن نصرح بشخص ولا بطائفة؛ لأن الكلام مع القول والدليل.

فأبى حضرته إلّا أن يحمل كلامنا على طائفة مخصوصة يحب هو اليوم التظاهر بالدفاع عنها، ثم تطرق من ذلك إلى رمينا بما يناسب غرضه من الجراءة وقلة النصيحة، والتطاول على الأئمة... إلى ما يريد أن يصفنا به؛ ليقول القارىء إن حضرته موصوف بضده، وربك أعلم بتلك الأوصاف وأهلها!!

٢ ـ كان استدلالنا بآية «وعباد الرحمن»، على الوجه الذين بيناه فيما تقدم، دون أن نذكر الحصر، ولا أن نشير إليه، ولا من مقتضى موضوعنا أن نقصر عباد الرحمن على تلك الصفات.

لكن حضرته أخذ يقرر في قواعد الحصر الضرورية عند المبتدئين، وخرج من ذلك إلى أن الآية لا حصر فيها، وأننا تسرعنا، وما تدبرنا، ولم نحسن تطبيق قواعد العلوم على موضوع النزاع!!

وفي الحق: أن حضرته هو الذي لم يحسن تنزيل ما طول به في الحصر على كلام لم ندع فيه الحصر، ولم نستدل به، وإنما استدللنا بالآية مثل ما استدللنا بغيرها على الوجه الذي تقدم، وعلى ما معه من الوجوه.

٣ ـ ما في كلام الإمام الرازي، من أن الله مستحق للعبادة لذاته، وأنه لو أمر بالعبادة بلا ثواب ولا عقاب لوجبت.. فهو حق مسلم، وليس هو موضوع النزاع، إذ موضوع النزاع:

هل العبادة مع الخوف والرجاء أكمل؟ أم العبادة دونهما؟

وما فيه من أن «من عبد الله للثواب والعقاب. . فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب، والله واسطة»:

إذا كان يعني به أنه عبد الله للثواب من حيث ذاته، والعقاب من حيث ذاته، دون امتثال للأمر، وتوجه للرب. . فهذا ليس كلامنا فيه.

وإن كان يعني أنه يعبد للثواب والعقاب من حيث أن العبادة الشرعية موضوعة على رجاء الثواب وخوف العقاب. . فهو يعبد الله امتثالاً لأمره فكلامه ممنوع؛ لأن العبادة هي التوجه بالطاعة لله امتثالاً لأمره، وقياماً بحقه، مع الشعور بالضعف والذل أمام قوة وعز الربوبية، وذلك يبعث على الخوف المأمور به، ومع الشعور بالفقر والحاجة أمام غنى وفضل الربوبية، وذلك على الرجاء المأمور به.

فالمعبود في الحقيقة والواقع هو المتوجه إليه بالطاعة، وهو الله تعالى؛ لا الثواب الذي تعلق به الرجاء، ولا العقاب الذي تعلق به الخوف.

وكيف يكون الثواب هو المعبود، والعقاب هو المعبود، والله هو الذي شرعهما؟! فهل يشرع عبادة غيره؟!

وما هذا إلا من عدم التأمل في مثل قوله تعالى:

﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ [الإسراء: ٥٨] أي شأنه أن يحذر ومن حقه أن يحذر.

وهل هذا إلا من عدم التفقه في قوله تعالى ـ في أم القرآن والسبع المثاني التي يناجي بها المصلي ربه، وهو في أعظم عبادة: ـ **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** [الفاتحة: ٥]. فإن المستعين طالب للإعانة، والطالب راج قبول طلبه خائف من عدم قبوله.

وقوله تعالى فيها: **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾** [الفاتحة: ٦] طلباً كذلك، فليتفقه المتفقهون في كلام رب العالمين.

٤ ـ ونقل كلام الإمام الرازي في باب المحبة قوله:

«وأما العارفون، فقد قالوا: يحب الله تعالى لذاته، وأما حب خدمته وحب ثوابه فدرجة نازلة».

ونحن نقول: إن الذات الأقدس الموصوف بالكمالات، المفيض للإنعامات. . تتعلق به قلوب المحبين، موصوفاً بكمالاته وإنعاماته التي منها ثوابه وجزاؤه، وتلك المحبة تبعث على خدمته بطاعته، والتقرب إليه بأنواع العبادات.

وأما عبادة الذات مجرداً عن الإنعامات ـ فهو نوع من التعطيل في الاعتقاد، والتقصير في الشهود.

وإذا كانت المحبة عملاً من أعمال العبد القلبية التي يتقرب بها إلى الله . . فهي عبادة.

وقد بينا بالأدلة المتقدمة أن العبادة في الإسلام، موضوعة على مصاحبة الرجاء والخوف، والمحب للرب ذي الجلال والإكرام، والبطش والإنعام ـ لا يغيب عن إجلاله بالخوف والتذلل له بالطمع، كحاله في سائر العبادات.

٥ ـ ونقل من كلام النيسابوري قوله:

«المحققون نظرهم على المعبود لا على العبادة، وعلى المنعم لا على النعمة».

ونرد عليه:

(أ) فإن كان مراده: أن نظرهم على المعبود أي اعتمادهم في القبول على المعبود لا على العبادة ـ فهذا حق، وليس كلامنا فيه.

(ب) وإن كان مراده: أن نظرهم على المعبود أي توجههم إلى المعبود دون العبادة ـ فهذا أيضاً حق؛ لأن العبادة متوجه بها إليها، وليس كلامنا في هذا.

(ج) وإن كان مراده: دون تقرب بالعبادة، فهذا باطل، لأن الله تعالى قال: «وابتغوا إليه الوسيلة» أي ما يقربكم إليه من طاعته.

(د) وإن كان مراده: دون شعور بالعبادة، فهذا أيضاً باطل؛ لأن العابد ينوي العبادة ويقصد بها القربة، ويتوجه بها مخلصاً فيقول: «إياك نعبد»، فكيف يكون لا شعور له بها؟

وأما قوله: «وعلى المنعم لا على النعمة».

(أ) فإن أراد: أن المتقرب إليه هو الله المنعم دون النعمة ـ فهذا حق، وليس كلامنا فيه.

(ب) وإن أراد: أن رجاء نعمة الثواب حين التوجه لله والتقرب إليه بالطاعة ينافي التقرب إلى المنعم، ويعد تقرباً للنعمة ـ فهذا هو الذي أبطلناه بالأدلة السابقة، ونقضناه في الموضع الثالث.

(ج) وإن أراد: أن ذكر العبد لنعم الله عليه مخل بكمال عبادته ـ فهذا باطل أيضاً؛ لأن عبادة الله شكراً على ما آتى من النعم، وطلباً للمزيد من أرفع المقامات. وقد قال الله تعالى: ﴿**إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً لم يك من المشركين شاكراً لأنعمه**﴾ [النحل: ١٢٠]. ﴿**رب أوزعني أن اشكر نعمتك**﴾ [النمل: ١٩]، ﴿**أن أشكر لي ولوالديك**﴾ [لقمان: ١٤]، ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾ [إبراهيم: ٧].

٦ ـ استدل النيسابوري:

«بأنه قيل لنبي إسرائيل: «اذكروا نعمتي». ولأمة محمد «اذكروني».

وهذا منقوض بقوله تعالى: ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم**﴾

[آل عمران: ١٠٣] وقوله: ﴿اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود﴾ [الأحزاب: ٩].

٧ ـ نقل من كلام النيسابوري ما يفيد:
أن عبادة الله لكونه إلهاً، وكون المخلوق عبداً، لا يكون معها رغبة في الثواب، ولا رهبة من العقاب، وأنها هي أعلى الرتب.

ونحن نقول: من مقتضى شعورك بعبوديتك.. شعورك بضعفك وفقرك، وأن من مقتضى علمك بالله، شهودك لقوته وفضله. وذاك الشعور، وهذا الشهود، يبعثان فيك الرجاء والخوف؛ فتكون وأنت تعبده لأنه إله، ولأنك عبد راجٍ خائف.

ودعوى تجرد العبادة عنهما، قد أبطلناها بالأدلة السابقة.

٨ ـ نقل قول الإمام ابن العربي:
«أمر الله عباده بعبادته، وهي أداء الطاعة بصفة القربة، وذلك بإخلاص النية؛ بتجريد العمل عن كل شيء إلا لوجهه، وذلك هو الإخلاص الذي تقدم بيانه».

ثم زعم هو من عنده:
أن من مقتضى تجريد العمل عن كل شيء: تجريده من رجاء الثواب، وخوف العقاب. وأن الإخلاص هو ما كان لوجه الله لكونه إلهاً لا غير.

وهذا صريح منه في أن رجاء الثواب وخوف العقاب ينافيان الإخلاص، وهو باطل لقوله تعالى: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾ [الإنسان: ٩]. فخافوا وعملهم لوجه الله بنص القرآن.

وروى الأئمة في الصحيح أن أبا طلحة قال: يا رسول الله، إني أسمع الله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران: ٩٢] وان أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها[1] عند الله، فضعها حيث أراك الله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بخ[2]، ذلك مال رابح! ذلك مال رابح[3]»[4]!!

---

(١) أرجو برّها وذخرها: يعني لا أريد ثمرتها الدنيوية الفانية بل أطلب مثوبتها الآجلة الأخروية الباقية.
(٢) قال أهل اللغة: بخ، بإسكان الخاء وتنوينها مكسورة. قال ابن دريد: معناه تعظيم الأمر وتفخيمه.
(٣) قوله «مال رابح» رويت بوجهين: «رابح» بالباء، و«رايح» بالياء. فرابح بالباء معناها واضح. ورايح بالياء فمعناه رايح عليك أجره ونفعه في الآخرة.
(٤) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٤٤، والوكالة باب ١٥، والوصايا باب ١٧ و٢٦، وتفسير سورة ٣ باب ٥، والأشربة باب ١٣. ومسلم في الزكاة باب ٤٢. والدارمي في الزكاة باب ٢٣. وأحمد في المسند (١٤١/٣، ٢٥٦، ٢٨٥). ورواه مالك في الموطأ (كتاب الصدقة حديث ٢).

فأقره على قوله: أرجو برها وذخرها. ولم يقل له: إن هذا مناف للإخلاص، كما يقول الشيخ وهو (يسمبط ويشنبط)[1] في كلام الإمام ابن العربي.

ثم ما لك ـ يا أخي ـ ولابن العربي؟!

حسبك ابن سينا وأمثاله، الذين يحاولون تطبيق العبادة الاسلامية على الفلسفة اليونانية، والآراء الأفلاطونية.

أما ابن العربي فهو حكيم إسلامي، وفقيه قرآني، وعالم سني ـ حقيقي ـ لا يبني أنظاره إلا على أصول الاسلام، ودلائل الكتاب والسنة. وهناك كلامه في إرادة المأذون فيه مع العبادة من أمور الدنيا، به الرجاء والخوف.

واسمع كلامه الصريح من الدليل الصحيح، في الرد على مثل زعمك: قال على قوله تعالى: **﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾** [البقرة: ١٩٨]: «المسألة الثانية، قال علماؤنا: في هذا دليل على جواز التجارة في الحج مع أداء العبادة، وأن القصد إلى ذلك لا يكون شركاً، ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه، خلافاً للفراء في أن الحج دون تجارة أفضل أجراً».

وقال على قوله تعالى: **﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة﴾** [الأحزاب: ٢٩]: «وهذا يدل على أن العبد يعمل محبة في الله ورسوله لذاتيهما وفي الدار الآخرة لما فيها من منفعة الثواب».

٩ ـ ونقل كلاماً للإمام الغزالي في المحبة، وقدمنا في الموضع الثامن الكلام على مثله، وبينا أن المحبة عبادة، وأنها موضوعة كسائر العبادات الشرعية على الرجاء والخوف بالأدلة المتقدمة.

١٠ ـ وقال: وكان من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم:

«اللهم اجعل حبك أحب الأشياء إليّ، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندي، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك» وقد تقرر: أن خوفه خوف إجلال وتعظيم، لا خوف النار والعقاب اهـ.

ونقول: إن خوف الإجلال لا يخرج به العبد عن ضعف وذل العبودية، ومشاهدة قوة وفضل الربوبية، فلا يتجرّد خوفه الإجلالي عن خوف المؤاخذة: المؤاخذة التي ليست ناراً ولا عذاباً، ولكنها مؤاخذة مناسبة لذلك المقام العالي.

بدليل أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام، وهو مثل نبينا عليه الصلاة السلام في العصمة، وعدم التعذيب بالنار والعقاب، وقد خاف المؤاخذة ـ فقال: **﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي**

---

(١) يسمبط ويشنبط: عبارة عامة تجري على الألسنة في المغرب كله، ومعناها القول الذي لا ضابط له ولا أصل، وإنما يلقيه صاحبه جزافاً وخبط عشواء وينقل بلا وعي ولا دراية (حاشية المطبوع ـ ص ٣٤٨).

يوم الدين﴾ [الشعراء: ٨٢]، ولا خطيئة له، ولجميع الأنبياء والمرسلين، لا من الكبائر ولا من الصغائر على كل حال.

وبدليل أنه هو عليه الصلاة والسلام قال:

«والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»، رواه البخاري[1]. وليس هذا لذنب لا صغير ولا كبير، وإنما لعلمه بالله، وعظيم حقه وشدة تعظيمه لربه؛ فيخاف المؤاخذة، فيطلب المغفرة.

فبان بهذا أن خوف الإجلال لا يتجرّد عن خوف المؤاخذة.

وبعد هذا البيان، نقول لحضرته: لا تستدل بالحديث دون بيان رتبته، ولا ذكر لمخرجه، وما هكذا يكول استدلال الأمناء من العلماء، وإنه يرمي الأحاديث هكذا مهملة، اختلط الحق بالباطل، وتجرأ على السنة النبوية الغبي والجاهل، حتى بلغ الأمر إلى نسبة الأحاديث إلى كتب الإسلام المتفق عليها ولا وجود لها فيها!

أما نحن:

فلا نعرف هذا الدعاء في الصحاح المتداولة عندنا، فليتك تبين من أين جئت به؟ حتى نعرف مقدار ما تعتمد في احتجاجك عينه.

١١ ـ وقال: للأنبياء عليهم الصلاة والسلام حالتان:
(أ) حالة مع الله تعالى لا يرون فيها غير جلاله وعظمته.

(ب) وحالة مع الخلق.. يستغفرون ويستعيذون من النار وسوء المنقلب، وفتنة القبر والدجال، ويطلبون الرحمة والثواب والجنان اهـ.

قد بينا أن رؤية جلال الله مما يبعث على الخوف من المؤاخذة، كما مضى عن إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فلا يتجردون عن الخوف: خوف الإجلال وخوف المؤاخذة في حالتهم مع الله. وقد دل حديث عائشة الذي قدمناه.. أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم، كان في سجوده في جوف الليل، والناس نيام فيما بينه وبين ربه ـ استعاذ برضا الله من سخطه، وبمعافاته من عقابه. فكانوا يستعيذون ويرجون ويخافون في حالتهم مع الله.

وأما حالتهم مع الناس فإنهم كانوا يعلمون، وكانوا يخبرون عن أنفسهم بخوفهم وطمعهم. كما أخبر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بطمعه، وأخبر محمد عليه الصلاة والسلام أصحابه بأنه أتقاهم لله، وأخوفهم له، وأخبر عن استغفاره لربه، وإخبارهم حق صدق لا شك فيه.

ولا يجوز أن يقال:

---

(١) في كتاب الدعوات، باب ٣، حديث رقم ٦٣٠٧؛ من حديث أبي هريرة.

إنهم قالوه لمجرد التعليم، وهو في الواقع لا حقيقة له؛ إذ الإخبار عن النفس بشيء أنه كان وهو لم يكن.. هو الكذب الذي عصمهم الله منه، ونزههم عنه، ولو تفطن حضرته لهذا لما قال ما قال!!

١٢ ـ وذكر حديث الإحسان:
«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

وهذا الحديث يقتضي دوام المراقبة لله عند كل حركة وسكون، حتى لا تكون من العبد مخالفة فيهما، وحتى يأتي بعبادته على غاية الإتقان في صورتها وأتم الإخلاص بها.

وقد علمت أن مقتضى العبادة الشرعية الشعور بضعف وذل وفقر العبودية أمام عز وقوة وفضل الربوبية؛ فينبعث الرجاء والخوف في العابد، وهما مما يحملانه على تمام الإحسان في العبادة: بإتقانها والإخلاص فيها.

ثم من مقتضى مراقبة الله تعالى، مشاهدته: أي مشاهدة جلاله وجماله؛ جلاله بصفات القهر والبطش والملك والسلطان، وجماله بصفات الفضل والرحمة والإحسان؛ وبصدق المشاهدة لصفات الجلال يخاف العبد ويخشى؛ وبصدق المشاهدة لصفات الجمال يرجو ويطمع. فصدق الشهود لا بد معه من الرجاء والخوف.

وإذا غاب العبد عن الشعور بالموجودات، فإنه لا يغيب عن مشاهدة جلال وجمال الذات، الباعثين للخوف والرجاء. وإذا لم يشهدهما وزعم أنه يشهد الذات مجرداً.. فإنه لم يكن في الحقيقة مشاهداً، بل كان غافلاً معطلاً جامداً.

وأما غيبوبة العابد عن نفسه ـ إن كانت ـ فإنها حالة عارضة غير ثابتة، وليست مشروعة لا بنص من آية ولا من حديث، فضلاً عن أن تكون فاضلة كاملة.

فالحديث دل على المراقبة والمشاهدة الشرعيتين، اللتين يكون العبد عابداً العبادة الشرعية، الموضوعة على الرجاء والخوف حسب الأدلة المتقدمة.

١٣ ـ ونقل كلام ابن سينا في كتاب الإشارات وكلام شراحه، وهو مثل ما تقدم لنا إبطاله بأدلة الكتاب والسنة، والشرح بهما لمعنى العبادة المشروعة.

وإذا كنا نبحث عن العبادة التي شرعها الله لعباده على لسان رسوله.. فإننا لا نعرفها إلا من الكتاب والسنة، وقد قدمنا من أدلتها ما جلى المسألة للعيان، وأغنى فيها عن كل كلام.

---

(١) رواه من حديث أبي هريرة البخاري في الإيمان باب ٣٧، وتفسير سورة ٣١ باب ٢، ومسلم في الإيمان حديث ٥ و٦. ورواه مسلم في الإيمان حديث ١ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الخلاصة:

١ ـ إن العبادة المشروعة هي القصد إلى الطاعة، مع الشعور بضعف العبد وذله، وحاجته وفقره، ومشاهدته لجلال ربه وقدرته وعزته، وجماله وفضله ورحمته؛ فيكون بتلك المشاهدة خائفاً من عقابه أو مؤاخذته راجياً لثوابه وإنعامه.

٢ ـ وإن هذه العبادة هي عبادة الكُمَّلِ من عباد الله الذين وصفهم بأفضل صفاتهم في كتابه، وهي عبادة أنبيائه ورسله، الذين ذكر عبادتهم القرآن، وهي عبادة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ التي دلت عليها صحاح الآثار، وعبادة أصحابه الثابتة النقول.

٣ ـ وخلصنا من هذا إلى أن العبادة المجردة من الخوف والرجاء ـ منافية لصدق مشاهدة الجلال والجمال، مخالفة لعبادة الأنبياء والمرسلين، وعباد الله الصالحين. وأنه لم يرد فيها نص صريح من كتاب أو سنة، مثل واحد من الأدلة المتقدمة المتكاثرة.

وأنها ما دامت كذلك ليس لنا أن نعدها مشروعة، فضلاً عن أن نعدها كاملة، فضلاً عن أن ندعي أنها أكمل؛ لأن مشروعية الشيء لا تثبت إلا بدليل صحيح صريح.

وأنى لنا ذلك في العبادة المجردة عن الرجاء والخوف؟!

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. والحمد لله رب العالمين.
غرة رمضان ١٣٥١ هـ.

الصفة الخامسة:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

[الفرقان: ٦٧]

مضى وصفهم بأنهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتربي النفس على استصغار الدنيا وما فيها، وعلى تعظيم الرب والوقوف عند حدوده. فلا يعظمن شيء من الدنيا عند أهل الصلاة فيمسكوا عن بذله في الحق، ولا يستهويهم شيء منها فينتهكوا لأجله حدود الله وحرماته.

ولما كان المال هو أعز شيء في هذه الدنيا، وهو أعظم سبب لنيل مبتغياتها، وصفوا بأنهم في تصرفاتهم فيه على أكمل حال، وهي حالة العدل، التي أثمرتها لهم الصلاة، فلا يمسكونه عن حق، ولا يبذلونه في باطل.

﴿أنفقوا﴾ بذلوا المال في وجه من الوجوه.
(الإسراف) مجاوزة الحد المشروع، (الإقتار) التقتير، التضييق.

(القوام) العدل بين الشيئين، أي المعتدل ما بينهما. وسمي العدل بين الشيئين قواماً، لاستقامة طرفيه واعتدالها، فلا إلى هذا ولا إلى ذاك.

﴿وكان﴾ أي هو، أي إنفاقهم المفهوم من أنفقوا، ﴿بين ذلك﴾ خبر كان، و ﴿قوامًا﴾ حال مؤكدة. فلو قيل: وكان بين ذلك لكان كافياً، ولكن أكد بـ ﴿قوامًا﴾، لما فيه من صريح اللفظ المفهم للعدل، والإنفاق يكون ولا يكون والشأن أن يكون؛ ولهذا علق، وكان التعليق بـ«إذا».

وقدم نفي السرف على نفي التقتير؛ لأن الإسراف شرهما، ففيه مجاوزة الحدود، وضياع المال، وفي التقتير مفسدته مع بقاء المال فينفقه في الخير، وقد يبقى لغيره فينتفع به.

المعنى:

إذا أنفقوا أموالهم لم يتجاوزوا الحد المشروع، ولم يضيقوا فيقصروا في القدر المطلوب. وكان إنفاقهم بين التجاوز والتضييق، عدلاً مستوياً لا إفراط فيه ولا تفريط.

وصفهم بالقصد الذي هو وسط بين الغلو والتقصير، وهو الحالة بين الحالتين، والحسنة بين السيئتين.

تحديد:

الإسراف مذموم فهو ما كان في منهي عنه نهي تحريم، أو كراهة، أو في مباح قد يؤدي إليهما.

فالأول: كمن أولم وليمة أنفق فيها جميع ماله، وأصبح بعدها هو وأهله للضيعة والحاجة.

والثاني: كمن أولم وليمة دعته إلى الاستدانة، وإن كان يظن القدرة على الأداء، لأن الدين محذر ومستعاذ منه.

والثالث: كالاستمرار على إيلام الولائم مع القدرة عليها في الحال، مما قد يؤدي إلى الأمرين المذكورين في المآل.

والتقتير مذموم أيضاً:
فهو ما كان إمساكاً عن مأمور به أمر وجوب.
أو استحباب.
أو عن مباح يؤدي إليهما.

فالأول: كمن يمسك عن أهله شحاً حتى يذيقهم ألم الجوع والبرد.

والثاني: كمن لا يذيقهم بعض الطيبات التي يخص بها نفسه من السوق.

والثالث: كمن يمسك عن تطييب خاطر زوجته ببعض الكماليات مع قدرته عليها، مما قد يفسد قلب زوجته عليه، أو يحملها على ما لا يرضيه.

والقوام العدل هو الممدوح:
فهو أن ينفق في الواجب والمندوب، وما يؤدي إليهما، ويمسك عن المحرم والمكروه وما يؤدي إليهما، ويتسع في الحلال دون مداومة في الأوقات، واستيفاء لجميع اللذات واستهتار بالمشتهيات.

تطبيق:

حالة وطننا في الأعم الأغلب في الولائم والمآتم لا تخلو من السرف فيها، الذي يؤدي إلى التقتير من بعدها فيكون الإثم قد أصاب صاحبها بنوعيه، وأحاط به من ناحيتيه، والشر يجر إلى الشر، والإثم يهدي إلى مثله، وعلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين علق كثير ممن سمعناهم يشكون هذه الحالة ـ آمالهم في معالجتها، خصوصاً في المآتم. حقق الله الآمال.

وثم نوع آخر موجود في غالب القطر، ويكثر في بعض الجبال.

وهو أن بعض المأمورين من شيوخ الطوائف، يأتون بثلة من أتباعهم، فينزلون على المنتمين إليهم من ضعفاء الناس، فيذبح لهم العناق إن كانت، ويستدين لشرائها إن لم تكن، ويفرغ المزاود، ويكنس لهم ما في البيت، ويصبح معدماً فقيراً مديناً، ويصبح من يومه صبيته يتضاغون، ويمسي أهل ذلك البيت المسكين يطحنهم البؤس، ويميتهم الشقاء ميتات متعددة في اليوم.

وشر ما في هذا الشر أنه يرتكب باسم الدين، ويحسبه الجهال أنه قربة لرب العالمين: فأما إذا جاء وقت شد الرحال إلى الأحياء والأموات، وتقديم النذور والزيارات، فحدث هنالك عن أنواع السرف والكلفات، والتضييع للحقوق والواجبات.

نصيحة:

فيا ليت الذين تأتيهم تلك الوفود ويسألونهم فرداً فرداً عن حالهم، ومن أين بما جاؤوهم به من أموالهم؟ فعساهم أن يطلعوا على بؤس أولئك المساكين فترق لهم قلوبهم، ويرجعوا إليهم مالهم أو يزيدوهم من عندهم، وليقتصروا على من يجدونهم أهل قدرة على ما دفعوه لهم من أموالهم.

فهذه نصيحة إذا عملوا بها خففت من الشر والبؤس عن الزائرين، ومن الإثم واللوم عن المزورين.

فهل بها من عاملين؟ وفقنا الله والمسلمين.

الصفة السادسة والسابعة والثامنة:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾

[الفرقان: ٦٨]

ثبت في الصحيحين ـ واللفظ لمسلم[١] ـ أن عبد الله بن مسعود قال:

---

(١) في كتاب الإيمان حديث رقم ١٤٢.

«قال رجل: يا رسول الله، أي الذنب أكبر [عند الله][(١)]؟
قال: أن تدعو لله نداً وهو خلقك.
قال: ثم أي؟
قال: أن تقتل ولدك مخافة من أن يطعم معك.
قال: قلت: ثم أي؟
قال: أن تزاني حليلة جارك.
فأنزل الله [عز وجلّ][(١)] تصديقها: «الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر. . .»[(٢)].

المطابقة بين الآية وسبب نزولها:

تواردت الآية والحديث في الإثم الأول على شيء واحد، وتواردا أيضاً في الثاني والثالث. إلا أن في الحديث ذكر فرد من العام هو شر أفراده وأكبرها إثماً، وفي الآية ذكر العام.

ولا شك أن شر قتل النفس هو قتل الولد، لما في ذلك زيادة على قتل النفس من الخروج عن حنان الفطرة، وارتكاب ضد ما توجبه الرعاية والكفالة، وسوء الظن بالله المتكفل برزق الخليقة.

كما أن الزنا بحليلة الجار، هو شر أفراد الزنا لما فيه زيادة على الزنا من انتهاك حرمة الجار، وخيانة الأمانة، فإنهم ما تجاوروا حتى أمن بعضهم بعضاً، وإدخال الفساد على أساس التكوين الاجتماعي في الناس وهو التجاوب والتقارب.

لما أثبت لهم أصول الطاعات في الآيات المتقدمة، نفى عنهم أمهات المعاصي في هذه الآية؛ تنبيهاً على أن الإيمان الكامل هو ما تثبت معه الطاعات وتنتفي المعاصي، وذلك هو غاية الامتثال للأوامر والنواهي.

وفيه تعريض بما كان عليه المشركون من الاتصاف بهذه المعاصي من دعائهم آلهتهم مع الله، وقتلهم النفس وارتكابهم فاحشة الزنا.

وقدم إثبات الطاعات على انتفاء المعاصي؛ تنبيهاً على أن من راض نفسه على الطاعة ودانت نفسه بالإخبات والانقياد للأوامر الشرعية، ضعفت منه أو زالت دواعي الشر والفساد، فانكف عن المعصية.

نكتة استطرادية:

فمن هنا نعلم أن على المسلم الذي يعمل لتزكية نفسه، أن يواظب على الطاعات بأنواعها،

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من صحيح مسلم.

(٢) وأخرجه أيضاً مسلم في الإيمان حديث رقم ١٤١. والبخاري في تفسير سورة ٢ باب ٣، وسورة ٢٥ باب ٢، والأدب باب ٢٠، والديات باب ١، والحدود باب ٢٠، والتوحيد باب ٤٠. وأبو داود في الطلاق باب ٥٠. والترمذي في تفسير سورة ٢٥ باب ١ و٢. والنسائي في التحريم باب ٤. وأحمد في المسند (١/ ٣٨٠، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٦٢).

وأن يجتهد في حصول الأنس بها، والخشوع فيها؛ فإن ذلك زيادة على ما يثبت فيه من أصول الخير، يقلع منه أصول الشر ويميت منه بواعثه.

قامت الشريعة على المحافظة على حقوق الله، وحقوق عباده، وحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً؛ فمن دعا مع الله غيره، وأشرك به سواه، فقد أبطل حق الله وأعدم عبادته.

ومن قتل النفس فقد تعدى على أول حق جعله الله لعباده بفضله، وهو حق الوجود، وعمل على إبطال وجودهم وفناء نوعهم وزوال عبادتهم، فلهذا قرن قتل النفس بدعاء غير الله معه.

ولما كان الزنا فيه بطلان النسب وفساد الخلق والجسد، وذلك مؤد إلى الاضمحلال والزوال، والشرور والأهوال، قرن بقتل النفس فذلك قتل حقيقي، وهذا قتل معنوي.

(الدعاء) هو النداء لطلب أمر أو تنبيه عليه.

(الإلّه) هو المعبود.

(حرم الله النفس) جعل لها حرمة ومنعة، فلا يجوز التعدي عليها. ومادة (ح ر م) تفيد المنع في جميع تصاريفها.

(الحق) هو الثابت من مقتضيات القتل في الشرع.

وصف النفس بالاسم الموصول المعروف الصلة؛ لأن تحريم الله لها أمر مركوز في النفوس، معروف للبشر بما جاءهم من جميع الشرائع. وكان النفي للفعل بصيغة المضارع للإشارة إلى استمرار ذلك النفي.

المعنى:

والذين لا يدعون ولا يعبدون مع الله إلهاً آخر، فيشركون به سواه في عبادتهم إياه، ولكنهم يخلصون له العبادة، ويفردونه بالطاعة، ويوحدونه في ربوبيته وألوهيته.

ولا يقتلون النفس التي جعل الله لها حرمة، وحرم قتلها بالسبب إلا الحق الثابت في دين الله المعارض لحرمتها، المقتضي لقتلها بالزنا بعد الإحصان، أو الكفر بعد الإيمان، أو القتل للنفس العمد العدوان.

ولا يزنون فيأتون ما حرم الله عليهم إتيانه من الفروج.

* * *

مزيد بيان لتوحيد الرحمن:

ما يزال الذكر الحكيم يسمي العبادة دعاء ويعبر به عنها؛ ذلك لأنه عبادة، فعبر عن النوع ببعض أفراده، وإنما اختير هذا الفرد ليعبر به عن النوع؛ لأن الدعاء مخ العبادة وخلاصتها؛ فإن العابد يظهر ذلك أمام عز المعبود، وفقره أمام غناه، وعجزه أمام قدرته، وتمام تعظيمه له وخضوعه بين يديه. ويعرب عن ذلك بلسانه بدعائه وندائه وطلبه منه حوائجه.

فالدعاء هو المظهر الدال على ذلك كله. ولهذا كان مخ عبادته.

وقد جاء التنبيه على هذا في السنة المطهرة: فعن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم:

«الدعاء هو العبادة» ثم قرأ ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ [غافر: ٦٠]. رواه أحمد والترمذي وأبو داود رحمهم الله والنسائي وابن ماجة[١].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الدعاء مخ العبادة» رواه الترمذي[٢] رحمه الله.

فتطابق الأثر والنظر على أن الدعاء عبادة فمن دعا غير الله فقد عبده وإن كان هو لا يسمي دعاءه لغير الله عبادة؛ فالحقيقة لا ترتفع بعدم تسميته لها باسمها وتسميته لها بغير اسمها، والعبرة بتسمية الشرع التي عرفناها من الحديثين المتقدمين لا بتسميته.

لما ثبت أن الدعاء عبادة فالداعي عابد، والمدعو معبود، والمعبود إله؛ فمن دعا شيئاً فقد اتخذه إلهه؛ لأنه فعل له ما لا يفعل إلا للإله؛ فهو وإن لم يسمّه إلهاً بقوله فقد سماه بفعله؛ ألا ترى إلى أهل الكتاب لما اتبعوا أحبارهم ورهبانهم في التحليل والتحريم ـ وهما لا يكونان إلا من الرب الحق العالم بالمصالح ـ قال الله تعالى فيهم:

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ [التوبة: ٣١] وإن كانوا لا يسمونهم فحكم عليهم بفعلهم، ولم يعتبر منهم عدم التسمية لهم أرباباً بألسنتهم.

فكذلك يقال فيمن دعا شيئاً أنه اتخذه إلهاً نظراً لفعله وهو دعاؤه ولا عبرة بعدم تسميته له إلهاً بلسانه.

وفي حديث عدي بن حاتم الذي رواه الترمذي وغيره، أنه قال للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لما سمعه يقرأ هذه الآية[٣]: «إنهم لم يكونوا يعبدونهم؟».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«أليس كانوا إذا حرموا عليهم شيئاً حرموه، وإذا أحلوا لهم شيئاً أحلوه؟» قال: «قلت نعم» قال: «فتلك عبادتهم إياهم»[٤].

قال الإمام الجصّاص: ولما كان التحليل والتحريم لا يجوز إلا من جهة العالم بالمصالح، ثم

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦) وأبو داود في الوتر باب ٢٣. والترمذي في تفسير سورة ٢ باب ١٦، وسورة ٤٠ باب ١، والدعوات باب ١. وابن ماجة في الدعاء باب ١. ولم أجده في المجتبى للنسائي، ولعلّه في السنن الكبرى له.

(٢) في كتاب الدعاء، باب ١ حديث رقم ٣٣٧١. وقوله «مخ العبادة» أي خالص العبادة ولبّها.

(٣) أي الآية السالفة: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾.

(٤) رواه الترمذي في تفسير سورة التوبة، باب ١٠، حديث رقم ٣٠٩٥.

قلد هؤلاء أحبارهم ورهبانهم في التحليل والتحريم، وقبلوه منهم، وتركوا أمر الله تعالى فيما حرم وحلل، صاروا متخذين لهم أرباباً إذ نزلوهم في قبول ذلك منهم منزلة الأرباب ا هـ.

وعلى وزانه تقول: لما كان الدعاء عبادة، والعبادة لا تكون إلا للإله، كان الداعي لشيء من المخلوقات متخذاً إياه إلهاً، لما نزله بدعائه إياه منزلة الإله، سواء دعاه وحده دون الله، أو دعاه مع الله. والعياذ بالله.

تحذير وإرشاد:

ما أكثر ما تسمع في دعاء الناس «يا ربي والشيخ»، «يا ربي وناس ربي»، «يا ربي والناس الملاح». وهذا من دعاء غير الله، فإياك أيها المسلم وإياه، وادع الله ربك وخالقك وحده وحده وحده، وأنف الشرك راغم.

* * *

الوعيد على فعل هذه الموبقات

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾

[الفرقان: ٦٨، ٦٩]

إذا أمر القرآن بشيء ذكر فائدته وثمرته للعباد في الدارين، وكذلك إذا نهى عن شيء ذكر مضرته وسوء عاقبته عليهم فيهما. فلما ذكر في صدر الآية نفي تلك المعاصي عن عباد الرحمن الذي يفيد النهي عنها ذكر هذا الوعيد لبيان سوء عاقبتها وقبح أثرها.

نكتة استطرادية:

هذه هي سنة القرآن في التربية، وهي أنجح الطرق في جعل المأمور والمنهي، يتمثل للأمر والنهي من كل نفسه، ويعمل لتنفيذهما بعقله وإرادته. فالتربية التي تنبني على امتثال الأمر والنهي من غير المعصوم، والانقياد لهما انقياداً أعمى ـ مخالفة لتربية القرآن. والخير كله في اتباع القرآن، في جميع ما يفيده القرآن.

اسم الإشارة راجع للثلاثة المذكورة من قبل.

﴿يلق﴾ يقابل ويصادف. ﴿أثامًا﴾ عقاباً جزاء على إثمه فالأثام جزاء الإثم.

﴿يضاعف﴾ يزاد له على الأصل فيعذب عذابين أو أنواعاً من العذاب.

﴿يخلد﴾ يبقى. وطول البقاء يسمى خلوداً. كما قالت العرب في أثافي الصخور: خوالد، لطول بقائها بعد دروس الأطلال لا لدوام بقائها؛ إذ لا دوام لها.

وعلى هذا قول المخبل السعدي:

الا رمـادًا هـامـدًا دفـعـت عـنـه الـريـاح خـوالـد سحـم

(المهان) الذليل المحتقر الذي يفعل به ما يذله ويحقره.

﴿يضاعف﴾ بدل من ﴿يلق﴾، بدل كل من كل. قال الخليل: لأن مضاعفة العذاب هي لقي الأثام.

وعندي أنه بدل بعض من كل، لأن لقي العذاب على تلك الآثام يكون في الدنيا والآخرة، ومضاعفة العذاب والخلود فيه تكون في الآخرة، وبهذا تكون الآية قد أفادت أن المرتكب لما تقدم من المعاصي ـ الشرك وقتل النفس والزنا ـ ينال جزاءه دنيا، وأخرى، وعذاب الأخرة المضاعف المستمر أشد وأبقى.

وهذا هو الجاري على سنة القرآن في التخويف بسوء عاقبة المعصية عاجلاً وآجلاً، والتنبيه على أن الآجل أشد وأفدح من العاجل.

المعنى:

ومن يأت هذه الأفعال؛ فدعا مع الله إلّهاً آخر، أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق، أو زنا، فإنه يلقى وينال جزاء معصيته في دنياه، وجزاءها في أخراه، ويكون عذابه عليها في الآخرة مضاعفاً مزيداً عليه أنواع أخرى، ويستمر فيه باقياً ذليلاً محقراً.

توجيه:

إنما ضوعف لأهل هذه الكبائر العذاب؛ لأن كل كبيرة منها مضاعفة المفاسد والشرور.

ففي دعاء غير الله الجهل بالله، والكفر بنعمة الله، والإبطال لحق الله.

وفي قتل النفس تأييم وتيتيم وتأليم لغير من قتل وفتح لباب شر بين أولياء القاتل والمقتول، وتَعَدٍّ على جميع النوع، وتهوين لهذا الجرم الكبير.

وفي الزنا جناية على النسل المقطوع، وعلى من أدخل عليهم من الزنا من ليس منهم، وعلى أصحاب الإرث في خروج حقهم لغيرهم، وغير ما ذكرنا في جميعها كثير، فكانت المضاعفة من باب جعل الجزاء من جنس العمل، وهو من مقتضى الحكمة والعدل.

تذكر:

يذكرنا القرآن بمضاعفة العذاب على كبائر الآثام، لنذكر عندما تحدثنا أنفسنا بالمعصية سوء عاقبتها، وتعدد شرورها، وتشعب مفاسدها، ومضاعفة العذاب بحسب ذلك عليها، لنـزدجر وننكف، فنسلم من الشر المتراكم، والعذاب المضاعف، ونفوز بأجر التذكر وثمرة التذكير.

جعلنا الله والمسلمين ممن انتفع بالذكرى، وسلم من فتن الدنيا والأخرى، بمنه وكرمه آمين.

استثناء التائبين من المذنبين

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

[الفرقان: ٧٠]

أخرج الشيخان عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ واللفظ لمسلم[١]، قال ابن عباس: «نزلت هذه الآية بمكة ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر... مهاناً﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

فقال المشركون: وما يغني عنا الإسلام وقد عدلنا بالله، وقد قتلنا النفس التي حرم الله، وأتينا الفواحش؟

فأنزل الله عز وجل: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً﴾ الآية.

[قال: فأما من دخل في الإسلام وعَقَلَهُ ثم قَتَلَ فلا توبة له][٢]»[٣].

لما ذكر تعالى عظائم الذنوب وأكبر كبائرها، وتوعد بالوعيد الشديد عليها، عقبها بذكر التوبة منها، ورغب فيها؛ لينبه عباده على طريق الرجوع إليه، وأن من تاب منهم إلى الله تاب الله عليه.

(التوبة) الرجوع إلى الله، أي الرجوع من معصية الله إلى طاعته، وذلك بالندم على ما فات، والعزم على عدم العود إليه، وهذان من عمل القلب. وبالإقلاع عما هو ملتبس به، وهذا من عمل الجوارح.

(الإيمان) عندما يذكر مع الأعمال يراد به تصديق القلب ويقينه واطمئنانه بعقائد الحق.

والعمل الصالح هو العمل الطيب المشروع من طاعة الله على العباد، سواء كان من عمل الباطن وهو عمل القلب أو من عمل الظاهر وهو عمل الجوارح.

والعمل الصالح من ثمرات الإيمان الدال وجودها على وجوده، وكمالها على كماله، ونقصها على نقصه، وعدمها على اضطرابه ووشك انحلاله واضمحلاله.

(التبديل) التحويل فتجعل الحسنة مكان السيئة.

(الغفور) الستار للذنوب، المتجاوز عنها.

(الرحيم) المنعم الدائم الإنعام.

---

(١) كتاب التفسير، حديث رقم ١٩.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من صحيح مسلم، وهو تتمة الحديث.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في تفسير سورة الفرقان باب ٣ و٤. ومسلم في التفسير حديث رقم ١٩. وأبو داود في الفتن باب ٦. والنسائي في التحريم باب ٢.

﴿إلا من تاب﴾ استثناء من يفعل، استثناء متصلاً لأن الذي يتوب من جملة من فعل، والفاء في ﴿فأولئك﴾ تفريعية، لتفرع التبديل على التوبة، وعاطفة الجملة أولئك على جملة استثنى، التي قامت مقامها إلا. كما عطفت عليها الجملة الأخيرة جملة وكان، ونظير هذا من يقم منكم فله درهم إلا زيداً فله درهمان.

المعنى:

يستثنى من ذلك الوعيد الشديد بمضاعفة العذاب والخلود فيه مهاناً، من رجع إلى الله عن الشرك وقتل النفس والزنا بالتوبة الصادقة، وشفع توبته بالعمل الصالح الدال على صدق تلك التوبة، فهؤلاء بتوبتهم وعملهم الصالح يقلبهم الله ويجعل مكان سيئاتهم حسنات، وكان الله غفوراً يتجاوز عن ذنوب عباده؛ فقد تجاوز عما كان منهم من شرك أو قتل أو زنا. رحيماً منعماً على عباده، فقد أنعم عليهم بالحسنات مكان ما تقدم من سيئاتهم.

ترتيب وتوجيه:

يكون العاصي في غمرات معصيته، فإذا ذكر الله، ووفقه الله أسف على حاله ورجع إلى ربه، وهذه أول الدرجات في توبته، فإذا استشعر قلبه اليقين، واطمأن قلبه بذكر الله صمم على الإعراض عن المعصية، والإقبال على الطاعة؛ فإذا كان صادقاً في هذا العزم، فلا بد أن يظهر أثر ذلك على عمله، فلهذا روعيت الحالة الأولى فذكرت التوبة، والثانية فذكر الإيمان، والثالثة فذكر عمل صالح.

تأييد واقتداء:

روى الأئمة عن كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أحد الثلاثة الذين خلفوا[1].

وأنه لما جلس بين يدي النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعدما تاب الله عليه.

قال: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي إلى الله، وإلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «أمسك بعض مالك فهو خير لك».

قال: فقلت: فإنني أمسك سهمي الذي بخيبر[2].

فهذا الصحابي الجليل رأى أن من توبته أن يعمل هذا العمل الصالح ليكون دليلاً على صدق توبته، كما اقتضته الآية فتأيد بفهمه ما قدمنا، وكان خير قدوة للتائبين.

وجوه التبديل:

لما كانت السيئة لا تنقلب حسنة كان معنى التبديل هو جعل الحسنة مكان السيئة.

---

(١) الذين خلفوا عن غزوة تبوك. وقد ورد ذكرهم في الآية ١١٨ من سورة التوبة: ﴿**وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت..**﴾ الآية.

(٢) رواه البخاري في الوصايا باب ١٦، وأبو داود في الأيمان باب ٢٣.

وهذا على وجوه:

أولها: محو السيئات الماضية بالتوبة، وكتابة حسنة التوبة وما فيها من عمل باطن وظاهر كما تقدم.

وثانيها: تركه المعصية وإتيانه بالعمل الصالح، حتى صار يعمل الصالحات بعدما كان يعمل السيئات.

وثالثها: أن نفسه كانت بالمعصية مظلمة شريرة فتصير بالتوبة والعمل الصالح منيرة خيرة.

فالتبديل في الكتب والعمل وحالة النفس.

مسألتان أصوليتان

الأولى: هل يخرج غير التائب من النار؟

استثنى الله التائب من مضاعفة العذاب والخلود فيه مهانًا، فبقي غير التائب للخلود.

والخلود كما قدمناه في الآية السابقة طول البقاء، ولا يقتضي التأبيد وقد لا يكون؛ فمع التأبيد لا خروج ومع عدمه الخروج.

وغير التائب الذي بقي للخلود المطلق في الآية هو: المشرك والقاتل والزاني.

فأما المشرك فلا خروج له من النار؛ لقوله تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾**[1] [النساء: ٤٨ و١١٦].

وأما القاتل والزاني إذا كانا من أهل الإيمان فإنهما يخرجان بعد شديد العذاب بما معهما من الإيمان؛ لأحاديث صحيحة، منها ما رواه الشيخان عن أنس رضي الله عنه:

«يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة.

ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن برَّة.

ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة»[2].

زاد البخاري في رواية قتادة عن أنس: «من إيمان» مكان «خير» وهذا من عدل الله ورحمته، فإنه أذاقهم من العذاب الشديد والهوان المخزي جزاءهم، ثم أخرجهم من النار، وما أضاع عليهم إيمانهم، إن الله بالناس لرؤوف رحيم.

---

(١) **﴿... ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾**.

(٢) رواه البخاري في التوحيد باب ١٩. ومسلم في الإيمان حديث ٣٢٥. والترمذي في صفة جهنم باب ٩. وأحمد في المسند (١١٦/٣، ١٧٣، ٢٧٦). والبُرّة، بضم الباء: واحدة البُر وهو حبّ القمح. والذرّة: المراد الواحدة من الذرّ، وهو الحيوان المعروف الصغير من النمل. ومعنى يزن: أي يعدل.

الثانية: هل لقاتل النفس ظلمًا وعدوانًا من توبة؟

ذهب ابن عباس في المشهور عنه، الذي رواه الشيخان[١] وغيرهما: أنه لا توبة له. وقال في هذه الآية: إنها نزلت في المشركين، وذكر سبب نزولها كما تقدم. وقال ـ إثره ـ أما من دخل في الإسلام وعقله، ثم قُتل فلا توبة له[٢].

وقال في هذه الآية: إنها آية مكية نسختها آية مدنية وهي آية الفرقان[٣]: ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً**﴾ [النساء: ٩٣].

ومراده بالنسخ التخصيص: يعني أن لفظة «من» في ﴿**إلا من تاب**﴾ عامة، تشمل القاتل فتقضي بعمومها أن له توبة. وأن آية الفرقان التي جاءت في القاتل خصصتها وأخرجته من عمومها.

قال ابن رشد ـ بنقل الأبّي ـ: وإلى هذا ذهب مالك لأنه قال: «لا يؤمن القاتل وإن تاب».
قال ابن رشد: وهذا لأن القتل فيه حق لله، وحق للمقتول، وشرط التوبة من مظالم العباد رد التبعات أو التحلل، وهذا لا سبيل للقاتل إليه إلا بأن يعفو عنه المقتول قبل القتل.

وذهب جمهور السلف، وأهل السنة: إلى أن للقاتل توبة، ونظروا في هذه الآية إلى عموم لفظها لا إلى خصوص سبب نزولها، وجعلوا عموم ﴿**ومن يقتل**﴾ في آية الفرقان مخصصاً بمن تاب، المستثنى في هذه الآية. فابن عباس خصص من تاب بمن يقتل. وهم عكسوا فخصصوا من يقتل بمن تاب.

ويرجح تخصيصهم العمومات الدالة على قبول التوبة من كل مذنب مثل قوله تعالى: ﴿**ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً**﴾ [النساء: ١١٠].

وقوله: ﴿**وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات**﴾ [الشورى: ٢٥].

وقوله: ﴿**وقابل التوب**﴾ [غافر: ٣].

وحديث: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[٤] في عمومات كثيرة. والظاهر إذا كثرت تفيد القطع.

قدوة في الفتوى:

قال ابن رشد: كان ابن شهاب[٥] إذا سئل يستفهم السائل ويطاوله، فإن ظهر له أنه لم يقتل يفتيه بأنه لا توبة له، وإن تعرف بأنه قتل أفتاه بأن التوبة تصح.

---

(١) صحيح البخاري (كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة الفرقان، باب ٢) وصحيح مسلم (كتاب التفسير، حديث رقم ١٩).

(٢) لفظ مسلم في التفسير حديث ١٩.

(٣) يعني ـ كما في صحيح مسلم ـ أن الآية ٧٠ من سورة الفرقان، وهي قوله تعالى ﴿**إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً . .**﴾ نسخت قوله تعالى: ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلّهاً آخر**﴾ إلى قوله: ﴿**مهانًا**﴾.

(٤) رواه من حديث ابن مسعود ابن ماجة في الزهد باب ٣٠ حديث رقم ٤٢٥٠.

(٥) هو ابن شهاب الزهري محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب بن عبدالله بن الحارث بن زهرة =

قال ابن رشد: وإنه لحسن من الفتوى، فهكذا ينبغي مراعاة الأحوال في تنزيل الأقوال، فإن من لم يقتل يجب التشديد عليه وسد الباب في وجهه، ومن قتل ينبغي ترغيبه في الرجوع إلى الله.

وفي مراعاة هذا الأصل والاقتداء بهذا الإمام فوائد كثيرة في الحث على الخير، والكف عن الشر، والحكيم من ينزل الأشياء في منازلها، كانت أعمالاً أو كانت أقوالاً.

ترهيب:

ما أعظم هذا الذنب وما أكبره!! ونعوذ بالله من ذنب اختلف أئمة السلف في قبول توبة مرتكبه، وقد أجمعوا على قبول توبة الكافر.

ولعظم شأن الدماء؛ كانت أول ما يقضى فيه يوم القيامة بين الخلق[1].

فإياك أيها الأخ أن تلقى الله تعالى بمشاركة في سفك قطرة من دم ظلماً ولو بكلمة، فإن الأمر صعب، والموقف خطير!!

* * *

بشارة التائبين إلى رب العالمين

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾

[الفرقان: ٧١]

لما أفادت الآية السابقة أن التوبة تمحو السيئات، جاءت هذه الآية إثرها تبين ما لأهلها من جزيل الإنعامات، وعظيم الدرجات.

(المتاب): مصدر كالمرجع.

خالف جواب الشرط وهو (يتوب) فعل الشرط وهو ﴿تاب﴾ بمتعلقه وهو ﴿إلى الله﴾، ومعموله وهو ﴿متابًا﴾.

وعبر بالمضارع في الجواب ليفيد التجدد باعتبار تجدد المثوبات للراجعين إلى الله.

ونون ﴿متابًا﴾ تنوين تفخيم وتعظيم.

= القرشي الفقيه الحافظ. فقيه حافظ متفق على جلالته وإتقانه، أخرج له البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة. توفي سنة ١٢٣ أو ١٢٤ أو ١٢٥ هـ. انظر ترجمته في تهذيب التهذيب (٩/٤٤٥) وتاريخ البخاري الكبير (١/٢٢٠) والجرح والتعديل (٨/٣١٨) وسير أعلام النبلاء (٥/٣٢٦) وحلية الأولياء (٣/٣٦٠).

(١) كما ورد في الحديث عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «أول ما يُقضى بين الناس في الدماء». أخرجه البخاري في الديات باب ١، والرقاق باب ٤٨. ومسلم في القسامة حديث ٢٨. والترمذي في الديات باب ٨. والنسائي في التحريم باب ٢. وابن ماجة في الديات باب ١. وأحمد في المسند (١/٣٨٨، ٤٤١، ٤٤٢).

المعنى:

ومن تاب التوبة الصادقة، وعمل عملاً صالحاً دليلاً على صدق توبته، فإنه يرجع إلى الله الذي يحب التوابين ويحب المتطهرين، ويحسن لقاءهم ويجزل ثوابهم ـ رجوعاً وأي رجوع: رجوع العز والتكريم إلى الحليم الكريم!.

ترغيب:

دعا الله بهذا عباده المذنبين حتى لا يتسرب القنوط إلى قلوبهم، وهو محرم عليهم، ولا يحول بينهم وبين خالقهم ذنب وإن عظم.

ورغبهم في التوبة بأنها رجوع إليه وكفى، وأن الرجوع إليه فيه من الخير والشرف فوق ما تصوره الألفاظ. فما أحلمه من رب كريم، وما أرحمه بعباده المذنبين!

فهذا داعي الله فأجيبوه، وهذا باب الله فلجوه؛ فإنكم مهما رجعتم إليه لا تطردوا، ومهما قصدتم إليه تقبلوا وتكرموا.

اللهم فكما فتحت لنا بابك فوفقنا إليه، وتب علينا لنتوب، إنك أنت التواب الرحيم.

* * *

الصفة التاسعة:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾

[الفرقان: ٧٢]

لما وصفهم بالصفات المتقدمة الدالة كلها على كمال أخلاقهم، واستقامة أعمالهم في ظواهرهم وبواطنهم، بانبنائها على قوة إيمانهم وصحة علمهم، فكانوا أهل الحق المتصفين بـه في علمهم وعملهم، القائمين عليه في جميع أحوالهم ـ وصفهم هنا ببعدهم عن الباطل ومشاهده ومجانبتهم لأهله.

(الشهود): هو الحضور الذي يكون فيه إدراك بالحواس أو بالبصيرة.

و (الشهادة): هي الإخبار عن علم حصل عن شهود. و ﴿**لا يشهدون**﴾ يحتمل أن يكون من الشهود، وأن يكون من الشهادة. و ﴿**الزور**﴾ أصله الميل ويطلق على الكذب، لأنه ميل عن الحقيقة، وعلى كل باطل من الأقوال والأعمال، لأنه ميل عن الحق.

إذا كان ﴿**لا يشهدون**﴾ بمعنى لا يحضرون، فالزور مفعول به. وإذا كان بمعنى لا يخبرون فالزور مفعول مطلق بعد حذف المضاف. والأصل: ولا يشهدون شهادة الزور.

المعنى:

على الاحتمال الأول: والذين لا يحضرون مشاهدة الباطل والإثم في كل مجلس تتعدى فيه الحدود، أو تنتهك فيه الحرمات، أو يحكم فيه بالجور أو تعظم فيه الطواغيت، أو يدعى فيه بدعوى

الجاهلية، أو تُحْيَى فيه معالم الوثنية، أو تطمس فيه السنة النبوية، أو يدعى فيه أحد مع الله، أو يضرع إلى سواه.

وعلى الاحتمال الثاني: والذين لا يشهدون شهادة الزور ولا يخبرون إلا بالحق الواقع.

ترجيع وترجيح:

يلزم من أنهم لا يشهدون مشاهدة الباطل أنهم لا يشهدون بالزور لوجهين:

الأول: لأنهم إذا كانوا لا يحضرون مجالس الباطل فبالأحرى أنهم لا يقولونه.

والثاني: أن مشهد شهادة الزور من مشاهد الباطل التي لا يحضرونها؛ فيكون الوجه الأول أولى لأنه أشمل.

توسع في البيان:

على أنه من بلاغة القرآن أن تأتي مثل هذه الآيات بوجوه من الاحتمالات متناسبات غير متناقضات؛ فتكون الآية الواحدة بتلك الاحتمالات كأنها آيات: نظير مجيء الآية بقراءتين، فتكون كآيتين مثل قوله تعالى: ﴿**إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**﴾ [الحجرات: ٦].

وقوله تعالى في آية الوضوء: ﴿**وأرجلكم**﴾[1] [المائدة: ٥] بالنصب عطفاً على الوجه فيفيد غسل الأرجل، وتلك هي الحالة الأصيلة العامة. وبالخفض عطفاً على الرؤوس فيفيد مسح الأرجل وتلك هي حالة الرخصة عند لبس الخفاف.

فتكون هذه الآية باحتمالها مفيدة تنزههم عن شهود الباطل، وعن شهادته.

موعظة:

قال جار الله[2] في الكشاف، عن هؤلاء الموصوفين من عباد الرحمن:

إنهم ينفرون عن محاضر الكذابين، ومجالس الخطائين فلا يحضرونها، ولا يقربونها؛ تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله؛ وصيانة لدينهم عما يثلمه لأن مشاهدة الباطل شركة فيه.

ولذلك قيل في النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة: هم شركاء فاعليه في الإثم، لأن حضورهم دليل الرضا به وسبب وجوده والزيادة فيه؛ لأن الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة ورغبتهم في النظر إليه اهـ.

وهذا كما قال؛ فإن حضور مشاهد الباطل إقرار لأهلها عليها، وترك للنهي عن المنكر. وقد قال الله تعالى:

﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه**﴾ [المائدة: ٧٨].

---

(١) ﴿**وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين**﴾.

(٢) هو جار الله الزمخشري صاحب تفسير الكشّاف.

وقال تعالى: **﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾** [الأنعام: ٦٨].

فتعم الآية كل ظالم، فلا تجوز لأحد مجالستهم مع ترك النكير عليهم، ولا يكفي أن ينكر ويجلس؛ لأنه يكون ببقائه معهم قد أظهر ما يدل على الرضا بفعلهم، ونقض بالفعل إنكاره عليهم بالقول.

وروى الطبراني والبيهقي بإسناد حسن عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يقفن أحدكم موقفاً يقتل فيه رجل ظلماً، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه»[١].

فأخبر أن اللعنة تنزل على الحاضرين لعدم دفعهم، واقتضى أنهم غير راضين بقلوبهم، وأحرى إذا رضوا.

فلا يجوز من هذا الحديث وغيره حضور الظلم والقبائح مع عدم دفعها، ولو مع عدم الرضا بها.

وروى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال لأصحابه لما وصلوا الحجر ـ ديار ثمود:

«لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم»[٢].

فإذا كان هذا فيمن ماتوا من أهل العذاب، فمثلهم مجالس أهل السوء والفساد، فإذا نزلت اللعنة والعذاب عمتهم ومن كان معهم.

وشهادة الزور المرادة بالنص على الوجه الثاني[٣]، أو اللزوم على الوجه الأول[٤] من أكبر الذنوب إثماً، وشر الكبائر مفسدة تنقلب بها الحقائق، وتضيع بها الحقوق، وتبطل المعاملات، وتزول الثقة بين الناس، وتتعرض النفوس والأموال والأعراض للأذى والشر، وتنعدم طمأنينة الناس على ما يعلمون من أنفسهم.

وصح عنه ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ أنه قال:

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١١/٢٦٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٢٨٤) والمتقي الهندي في كنز العمال (١٣٤١١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٥٣، وأحاديث الأنبياء باب ١٧، وتفسير سورة ١٥ باب ٢، والمغازي باب ٨٠. ومسلم في الزهد حديث ٣٨ و٣٩. وأحمد في المسند (٢/٩، ٥٨، ٦٦، ٧٢، ٧٤، ٩١، ٩٦، ١١٣، ١٣٧).

(٣) أي شهادة الزور.

(٤) أي عدم مشاهدة الباطل.

«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ألا وشهادة الزور، وقول الزور. وكان متكئاً فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا ـ شفقة عليه ـ ليته سكت»[1].

فجلس لها، وبقي يكررها، لعظم شرها، وكبر مفسدتها، وعظم الإثم فيها على حسب ذلك منها.

أعاذنا الله والمسلمين منها ومن كل زور.

* * *

الصفة العاشرة:

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾

[الفرقان: ٧٢]

نفى عنهم فيما تقدم حضور مشاهد الزور، وأخبر هنا أنهم لا يقفون عند اللغو عندما يمرون عليه، تَرَقِّيًا في وصفهم بالبعد عن الباطل والإثم والعبث، ومجانبة أهله.

(اللغو) مصدر لغا يلغو أي قال باطلاً فهو القول الباطل، ومثله الفعل الباطل من كل ما لا فائدة فيه، ولا نتيجة له، مما شأنه أن يلغى ويطرح.

و (الكريم): الخالص العنصر فهو الزكي غير المتدنس، ومن مقتضى ذلك حسن أخلاقه، واستقامة أعماله، وسلامته من الرذائل.

(كرامًا) حال من فاعل ﴿مروا﴾ الثاني، ليبين وصفهم عند المرور.

المعنى:

وإذا مروا في طريقهم بقول يقال، أو فعل يفعل مما لا فائدة فيه جاوزوه معرضين عنه، أزكياء غير متدنسين بشيء منه، ولا ملتفتين لأهله.

موعظة:

في الإقبال على اللغو شغل للبال به، وتكدير للخاطر بظلمته، وتضييع للوقت فيه، ولكل كلمة تسمعها أو فعلة تشهدها أثر في حياتك وإن قل. وقد يعقبها ضدها فتزول بعدما شغلت وعطلت. وقد يردفها مثلها فتثبت وتنمو وتسوء عاقبتها ولو بعد حين.

وبقدر ما تلتفت إلى اللغو تلتفت عن كرمك، وبقدر ما يعلق بك منه ينقص من ذكائك.

---

(١) رواه البخاري في الشهادات باب ١٠، والأدب باب ٦، والاستئذان باب ٣٥. ومسلم في الإيمان حديث ١٤٣ و١٤٤. والترمذي في الشهادات باب ٣، والبر باب ٤، وتفسير سورة ٤ باب ٥. وأحمد في المسند (٣/١٣١، ٥/٣٦، ٣٨).

وبقدر ما تتساهل بالوقوف عليه تقرب من الدخول فيه، وإذا دخلت فيه واستأنست بأهله جرك إلى الزور وعظائم الأمور.

وللشر أسباب متواصلة، وأنساب متصلة يؤدي بعضها إلى بعض، فينتقل المغرور الغافل من خفيها إلى جليها، ومن صغيرها إلى كبيرها.

فالحازم من لم يسامح نفسه في قليلها، ويباعد كل البعد عنها وعن أهلها، وقد هدتنا هذه الآيات لنهتدي، وذكرت عباد الرحمن لنقتدي.

* * *

الصفة الحادية عشرة:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾

[الفرقان: ٧٣]

لما وصفهم فيما تقدم بإعراضهم عن الباطل، ومجانبتهم لأهله، وبعدهم عنه، وصفهم هنا بإقبالهم على الحق، وإكبابهم عليه، متفهمين مستبصرين.

﴿ذكروا﴾ وعظوا ونبهوا. ﴿بآيات ربهم﴾ هي آيات القرآن، وفيها التذكير بآيات الأكوان التي ترى بالعيان.

(الخرور) هو السقوط كسقوط الساجد. (الأصم) فاقد حاسة السمع، أو الذي لا يتدبر ما يسمع فلا ينتفع به، وهو المراد هنا.

و(الأعمى) فاقد حاسة البصر، أو الذي لا يعتبر فيما يبصر فلا ينتفع به، ويكون الأعمى بمعنى فاقد الإدراك القلبي وهو عمى البصيرة، وما هنا يحتمل الوجهين الأخيرين.

عبر بـ «إذا» لأن التذكير مما هو واقع محقق كالذي يسمع من القرآن في الصلاة ومن الخطب في الجمع.

وبنى الفعل للنائب لأن التذكير بالآيات يجب قبوله من أي مذكر كان.

و ﴿صماً وعمياناً﴾ حال من الواو ضمير الجماعة في ﴿لم يخروا﴾، والنفي منصب على الحال التي هي قيد في الكلام.

وإذا كان الكلام مقيداً بقيد كما هنا، فإن النفي ينصب على ذلك القيد في غالب الاستعمال العربي. ونظيره: ما رأيت زيداً راكباً نفياً للركوب لا للرؤية. ولا يلقاني مسلّماً نفياً للسلام لا للقاء.

فلم ينف عنهم الخرور، وإنما نفى عنهم الصمم والعمى عند الخرور.

المعنى:

ومن صفات عباد الرحمن: أنهم إذا ذكرهم مذكر بآية ربهم التي أنزلها على نبيهم ـ صلى الله

عليه وآله وسلم ـ بما فيها من ذكر مخلوقاته وإنعاماته، وأيامه في أوليائه وأعدائه، ووعده ووعيده، وترغيبه وترهيبه ـ أقبلوا عليها، وأكبوا على سماعها، بآذان واعية، وأبصار راعية، وقلوب حاضرة، وعقول متدبرة. لا كمن يقبلون عليها ويكبون على سماعها، ولكنهم لا يسمعون ولا يبصرون، لأنهم لا يعقلون ولا يتدبرون.

عموم الحاجة للتذكير:

بعدما ذكر تعالى من صفات عباد الرحمن ما ذكر. . ذكر استماعهم للتذكير، تنبيهاً على أن التذكير محتاج إليه في كل حال، فإذا كان الموصوفون بتلك الصفات يحتاجون إليه فغيرهم أولى، وذلك لأن الغفلة من طبع الإنسان، ودوام الغفلة صدأ القلوب، وصقالها هو التذكير.

قبول التذكير من كل مذكر:

كما تقبل كلمة الحق من كل قائل، كذلك يقبل التذكير من كل مذكر، ولو كان المذكَّر من أكمل العباد، والمذكِّر من أوساطهم، أو أدناهم. وفي عباد الرحمن المذكورين في استماعهم إذا ذكروا من أي مذكر ـ القدوة الحسنة.

ما يكون به التذكير:

قال الله تعالى: **﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾** [ق: ٤٥]، **﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾** [القمر: ١٧]، **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾** [الحشر: ٧].

فالتذكير بآيات القرآن والأحاديث النبوية، هذا هو التذكير المشروع المتبوع، والدواء الناجع المجرب. ولذلك تجد مواعظ السلف كلها مبنية عليه راجعة إليه والنصح لله ولرسوله وللمسلمين في لزوم ذلك والسير عليه.

أقسام الناس عند التذكير:

الناس عند تلاوة آيات القرآن على قسمين:

(أ) معرضين. (ب) ومقبلين.

فالمعرضون غير المؤمنين.

والمقبلون على قسمين:

(أ) مقبلين بظاهرهم دون باطنهم.

(ب) ومقبلين بظاهرهم وباطنهم.

فالمقبلون بظاهرهم دون باطنهم هم المنافقون.

والمقبلون بظاهرهم وباطنهم على قسمين:

(أ) مستمعين، مستبصرين، حاضرين، متدبرين.

(ب) وغافلين غير متدبرين غير سامعين ولا مبصرين.

والأقسام كلها مذمومة إلا قسم المقبلين بظواهرهم وبواطنهم، المستمعين المستبصرين. وهذا القسم هو الذي وصف به عباد الرحمن، فكانوا مباينين لأهل الإعراض من الكافرين والمنافقين، ولأهل الغفلة، وعدم التدبر من المؤمنين.

تحذير وتنبيه:

قد صورت الآية حالة المؤمن بالقرآن الذي ينكب عليه، ويتلقاه بالقبول، ثم لا يتفهمه ولا يتدبره، بحالة الأصم الأعمى في عدم انتفاعه بما انكب عليه، تقبيحاً لعدم التفهم والتدبر من المؤمن للآيات، وتحذيراً منه وتنبيهاً على أن الانتفاع بالقرآن الذي تتفتح به البصائر، وتتسع به المدارك، وتتهذب به الأخلاق، وتتزكى به النفوس، وتتقوم به الأعمال، وتستقيم به الأحوال؛ إنما يكون بتفهمه، وتدبره، دون مجرد الانكباب عليه بلا تفهم ولا تدبر.

أمر وإرشاد:

الآيات الدالة على طلب التدبر والتفهم لآيات القرآن العظيم كثيرة، منها الآية المتقدمة، ومنها قوله تعالى: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب**﴾ [ص: ٢٩].

فعلينا أن نحضر قلوبنا عند سماعها، ونستعمل عقولنا في فهمها، ونحمل أنفسنا على الاتعاظ بها، فإذا صدقت النية وأخلص التوجه فتح على العبد من وجوه العلم والعمل ـ بإذن الله ـ بما لم يكن له في بال.

وإن الله وصف هذا الكتاب بأنه مبارك؛ لزيادة خيراته وتيسيره للذاكرين ـ ترغيباً لنا في فهمه وتدبره، واستنزال الخيرات واستزادة البركات منه.

فأقبل ـ يا أخي ـ على القرآن: على استماعه وعلى تفهمه، والزم ذلك حتى يصير عادة لك وملكة فيك.. تر من فضل الله وإقباله عليه ما يدنيك ـ إن شاء الله ـ ويعليك، ويعود بالخير الجزيل عليك.

والله نسأل لنا ولكم الإقبال على الله بتلاوة وتدبر كتابه، والتأدب بجميع آدابه، حتى نحشر في زمرة أحبابه، بمنه وكرمه آمين.

الصفة الثانية عشرة:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾

[الفرقان: ٧٤]

لما وصفهم في الآيات المتقدمة، بما دل على أنهم أهل خير وكمال في أنفسهم.. وصفهم في هذه بما دل على محبتهم الخير والكمال لغيرهم من قرابتهم: أزواجهم، وذريتهم، ومن سواهم.

وقدم الأزواج على الذرية لأنهم ألصق ولأنهم الأصل.

فقه هذه المناسبة:

فطر الإنسان على محبته لنفسه، لتحمله هذه الفطرة على المحافظة عليها، والدفاع عنها، وتكميلها بكل وجوه الكمال. وكان من مقتضى هذه المحبة رغبته في الوجود والبقاء، ومما هو قوة في وجوده ومظهر لبقائه أن يرى الناس على فكره وصفاته وأحواله، فيرى نفسه ممثلة في غيره، وأفكاره وصفاته وأحواله باقية ببقاء الناس.

فالخير الكامل من طبعه، ومن مقتضى فطرته.. أنه يحب انتشار الخير والكمال في الناس.

والشرير الناقص من طبعه ومن مقتضى فطرته أنه يحب انتشار الشر والنقص فيهم. فلذا كان لازماً لتتميم وصف عباد الرحمن ذكر محبتهم الخير والكمال لغيرهم.

ميزان من هذه المناسبة:

قد تخفى عليك دخيلة نفس الإنسان فيمكنك أن تعرفها بما يجري به لسانه، فإذا جرت كلماته بمحبة انتشار الخير والكمال فهو من أهلهما، وإذا جرت بالضد فهو على الضد؛ فما يحب الإنسان انتشاره هو الدليل على صفات نفسه، وهو ميزان تزنه به في الشر والخير، والنقص والكمال.

(الهبة) العطاء من غير عوض، ولا تكون على الحقيقة التامة إلا من الله، فهو الغني الوهاب.

(من) ابتدائية فمن ناحية الأزواج والذرية تكون قرة الأعين.

(الأزواج) جمع زوج، وهو يصدق على الرجل والمرأة، والنساء شقائق الرجال وهذا الدعاء كما يكون من المؤمنين يكون من المؤمنات.

كما تصدق الآيات المتقدمة على الموصوفين من الصنفين بتلك الصفات.

(الذرية) من تناسل منهم من أبنائهم وبناتهم. وقرئت بالإفراد لاتحادها في أصل النسل، وبالجمع لاختلافها في الفروع والأنساب.

﴿قرة أعين﴾: بردها إن كانت من القر وهو البرد، وسكونها إن كانت من القرور بمعنى الاستقرار.

(الإمام) هو المتبع المقتدى به، وأفرد، لأن المراد به الجنس، وحسن الإفراد من جهة اللفظ لوقوعه فاصلة على وزان ما قبلها وما بعدها. ومن جهة المعنى أن أئمة الهدى كنفس واحدة، لاتحاد طريقهم بالسير على الصراط المستقيم، واتحاد وجهتهم بالقصد إلى الله تعالى وحده.

﴿قرة أعين﴾ تركيب كنائي فإذا كانت القرة من القر فهو كناية عن السرور، لأن العين في حالة السرور باردة، وإذا سالت منها دموع في حالة الفرح كانت باردة. وإذا كان الإنسان في حالة حزن فالعين تكون سخنة؛ بسبب ثورة النفس وآلامها التي تثير الحرارة، فإذا سالت منها دموع الحزن كانت سخنة.

ومما يقال على هذا: أقر الله عين المحق، وأسخن عين المبطل.

وجاء عليه قول أبي تمام:

فأما عيون العاشقين فأسخنت وأما عيون الشامتين فقرت

فقرة أعينهم على هذا، كناية عن سرورهم بأزواجهم وذريتهم، بما هم عليه من الخير والكمال وإعانتهم لهم عليهما.

وإذا كانت القرة من القرور، فهي كناية عن سكون النفس بحصولها على ما يرضيها من الأزواج والذرية.

ومعنى هذا أن النفس إذا لم تحصل على ما يرضيها، تعلقت بما عند غيرها وتشوقت إليه، فتمتد إليه العين، ويطمح إليه البصر. وإذا حصلت على ما يرضيها زالت عن ذلك التعلق وانكفت عن التشوف؛ فسكنت العين فلم تمتد إلى غير ما عندها، ولم يطمح البصر إليه؛ ولهذا كما كان قرور العين كناية عن رضى النفس وسكونها كان امتداد العين كناية عن اضطراب النفس وتشوفها وتعلقها. وعليه قوله تعالى:

﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ [طه: ١٣١].

فقرة أعينهم على هذا كناية عن رضى أنفسهم بما يكون لهم من أزواج وذرية، موصوفين بالصفات المرضية، من طاعة الله في القيام بوظائف الدين والدنيا، وإعانتهم لهم على القيام بها.

المعنى:

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يدعون ربهم، يسألونه أن يهب لهم أزواجاً وذرية، تقر بهم أعينهم، بأن يكونوا موصوفين بمثل صفاتهم سائرين على منهاجهم، معينين لهم على ما هم عليه، ويسألونه أن يكونوا على أكمل حال في العلم والعمل والاستقامة، يقتدي بهم فيها المتقون.

الأحكام:

الأول:

التزوج وطلب النسل هو السنة: سنة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وسنة أصحابه عليهم الرضوان، وسنة عباد الرحمن، وليس من شريعته الحنيفية السمحة؛ الرهبانية، والتبتل.

وقد رأى قوم من الزهاد رجحان الانقطاع إلى العبادة على التزوج والاشتغال بالسعي على الزوج والذرية، فرد عليهم أئمة الدين والفتوى بأن في التزوج اتباعاً للسنة، وفي السعي على الأهل ما هو من أعظم العبادة.

وفي التزوج تكثير سواد الأمة والمدافعين عن الملة والقائمين بمصالح الدين والدنيا، وفي هذا ما فيه من الأجر والمثوبة.

وفي التبتل مخالفة السنة، وانقطاع النسل، وضعف الأمة وتعطيل المصالح، وخراب العمران، وكفى بهذا كله شراً وفساداً!!

الثاني:

سؤال العبد من ربه أن يهب له من الزوج والذرية ما تقر به عينه، يقتضي سعيه بقدر استطاعته لتحصيل ذلك فيهما، ليقوم بالسببين المشروعين من السعي والدعاء.

فعليه أن يختار ويجتهد عندما يريد التزوج.

وأن يقصد إلى ذات الدين[1].

وفي اختياره واجتهاده في جانب الزوجة سعي في اختيار الولد؛ فإن الزوجة الصالحة شأنها أن تربي أولادها على الخير والصلاح.

ثم عليه أن يقوم بتعليم زوجه وأولاده وتهذيبهم وإرشادهم، فيكون قد قام بما عليه في الابتداء والاستمرار، مع دوام التضرع إلى الله تعالى والابتهال.

الثالث:

ما تقر به الأعين يحصل به الفرح والسرور؛ فالفرح والسرور بما هو خير وطاعة من حيث أنه نعمة من الله وفضل ـ محمود ومشروع.

الرابع:

طلب الرتب العليا في الخير والكمال والسبق إليها والتقدم فيها، مما يدعونا إليه الله، ويرغبنا بمثل هذه الآية فيه، كما قال تعالى:

﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾[البقرة: ١٤٨، والمائدة: ٤٨]؛ لأن طلب الكمال كمال؛ ولأن من كانت غايته الرتب العليا، إن لم يصل إلى أعلاها لم ينحط عن أدناها، وإن لم يساو أهلها لم يبعد عنها.

ومن لم يطلب الكمال بقي في النقص، ومن لم تكن له غاية سامية قصر في السعي، وتوانى في العمل.

فالمؤمن يطلب أسمى الغايات حتى إذا لم يصل لم يبعد، وحتى يكون في مظنة الوصول بصحة القصد وصدق النية.

الخامس:

من الدين الاقتداء بأهل العلم والعمل والاستقامة في الهَدْي والسمت.

---

(١) روى البخاري في كتاب النكاح، باب ١٥، حديث ٥٠٩٠، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «قال تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك».

السادس:
لا يكون الإمام إلا تقياً فاق غيره في التقوى.

السابع:
إن اقتداء المتقين بأئمتهم إنما هو في التقوى؛ لأنهم ما كانوا أئمة إلّا بها، فالآية أفادت: أن المتقين يقتدون بأئمتهم، وأن أئمتهم متقون مثلهم، وأكمل منهم التقوى، وأن اقتداءهم بهم في التقوى لا في غيرها؛ فمن حاد عنها فلا إمامة له.

تمييز:
الخَيِّرُ الكامل، المقدم في الخير والكمال، المقتدى به فيهما إذا طلب الإمامة من حيث الخير والكمال نفسهما، ومن حيث حمل الناس عليهما بالقدوة الصالحة له فيهما؛ لأن فعل الخير والاتصاف بالكمال دعوة إليهما بالعمل، وهي أبلغ من الدعوة بالقول؛ ومن حيث انتشارهما في الناس وسعادة الناس بهما. إذا طلب الإمامة من هذه الحيثيات فطلبه مشروع محمود، وهو طلب عباد الرحمن المذكور في الآية. وإذا طلب الإمامة والتقدم لأجل الترأس والتقدم، فهذا طلب مذموم من عمل المتكبرين لا من عمل المتقين.

فعلى الداعي أن يميز هذا التمييز ليخلص القصد في دعائه ويكون على صواب فيه.

كلمة عظيمة من إمام عظيم:

قال مجاهد[1] التابعي الجليل الثقة الثبت المفسر الكبير:

«أئمة، نقتدي بمن قبلنا ويقتدي بنا من بعدنا». ذكره البخاري[2]، ورواه ابن جرير بسند صحيح[3]. يعني أن الذين يقتدي بهم الناس من بعدهم هم الذين كانوا يقتدون بسلفهم الصالح من قبلهم.

فالذين أحدثوا في الدين ما لم يعرفه السلف الصالح لم يقتدوا بمن قبلهم، فليسوا أهلا لأن يقتدي بهم من بعدهم.

فكل من اخترع وابتدع في الدين ما لم يعرفه السلف الصالح فهو ساقط عن رتبة الإمامة فيه.

---

(١) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي المخزومي مولاهم المقري، المفسر، مولى قيس بن السائب. ثقة، إمام في التفسير وفي العلم. أخرج له الستة. توفي سنة ١٠١ أو ١٠٢ أو ١٠٣ أو ١٠٤ هـ. انظر ترجمته في تهذيب التهذيب (٤٢/١٠) وميزان الاعتدال (٤٣٩/٣) وسير أعلام النبلاء (٤٤٩/٤) وديوان الإسلام (ت: ١٨٠١) والثقات (٤١٩/٥) والكاشف (١٢٠/٣) وتاريخ البخاري الكبير (٤١١/٧) والجرح والتعديل (١٤٦٩/٨).

(٢) في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ٢.

(٣) تفسير الطبري (٤٢٥/٩) بسنده عن ابن بشار، عن مؤمل عن ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد.

سلوك واقتداء

كان الأعرابي الجاهل المشرك يأتي للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيؤمن به، ويصحبه يتعلم منه الدين، ويأخذ عنه الهدى، فيستنير عقله بعقائد الحق، وتتزكى نفسه بصفات الفضل، وتستقيم أعماله على طريق الهدى؛ فيرجع إلى قومه هادياً مهدياً، إماماً يقتدى به ويؤخذ عنه كما اقتدى هو بالنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأخذ عنه.

فعلى كل مؤمن أن يسلك هذا السلوك، فيحضر مجالس العلم التي تذكره بآيات الله، وأحاديث رسوله ما يصحح عقيدته، ويزكي نفسه، ويقوِّم عمله.

وليطبق ما يسمعه على نفسه، وليجاهد في تنفيذه على ظاهره وباطنه، وليداوم على هذا، حتى يبلغ إلى ما قدر له من كمال فيه، فيرجع وهو قد صار قدوة لغيره في حاله وسلوكه.

وطلبة علم الدين، الذين وهبوا نفوسهم لله، وقصروا أعمارهم على طلب العلم لدعوة الخلق إلى الله، هم المطالبون ـ على الأخص ـ بهذا السلوك ليصلوا إلى إمامة الحق، وهداية الخلق على أكمل حالة، ومن أقرب طريق.

فاللهم وفقنا، واهدنا إلى سنة نبينا، إذا اقتدينا وإذا اقتدي بنا. آمين يا رب العالمين.

جزاء عباد الرحمن

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾

[الفرقان: ٧٥ و ٧٦]

لما ذكر في الآيات المتقدمة صفاتهم وأعمالهم، ذكر ما أعد لهم من عظيم الجزاء على تلك الأعمال، تنبيهاً على ما وضعه تعالى، بمشيئته وحكمته ورحمته، من الارتباط بين هذه الأعمال، وهذا الجزاء، وإفضائها إليه، إفضاء السبب لمسببه؛ ليسعى الراجون لهذا الجزاء من طريق هذه الصفات وهذه الأعمال، كما يسعى لسائر المسببات من طريق أسبابها، وتؤتى جميع الأمور من أبوابها.

وفي هذا حث لأهل هذه الأعمال على التمسك بما هم به عاملون.

وتنبيه لأهل الغرور على بطلان ما هم به مغترون، والكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني[1].

---

(١) الحديث عن شداد بن أوس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله». رواه أحمد في المسند (١٢٤/٤) والترمذي في القيامة باب ٢٥. وابن ماجة في الزهد باب ٣١.

﴿يجزون﴾ يعطون في مقابلة أعمالهم.

﴿الغرفة﴾ البيت الأعلى فوق بيت، وأل فيه للجنس، فيصدق بالمتعدد.

﴿صبروا﴾ حبسوا نفوسهم. والباء فيه سببية.

﴿يلقون﴾ من لقوا بمعنى يجدون، ويلقون من لقى بمعنى تلقيهم الملائكة أي تقابلهم وتتلقاهم.

﴿تحية﴾ دعاء بالحياة.

﴿سلاماً﴾ دعاء بالسلامة.

﴿خالدين﴾ باقين. ﴿مستقراً﴾ هو المكان الذي ينتهي إليه من غيره ويثبت فيه.

﴿مقاماً﴾، هو المكان يقام ويمكث فيه.

جملة ﴿أولئك﴾ مستأنفة، فإن تلك الصفات والأعمال تشوق السامع إلى معرفة مآلهم، وثمرة أعمالهم، فيسأل عنها؛ فكانت الجملة جواباً لذلك السؤال المقدر.

وعرف المسند إليه[1] بالإشارة تنبيهاً على استحقاقه للمسند[2] كان بما تقدم من صفات.

وجملة ﴿حسنت﴾ مستأنفة بيانية؛ لأن من عرف حالتهم من الحياة والسلامة والبقاء، يتشوق لمعرفة حال مكان هذه الحياة السالمة الباقية، فيسأل عنه؛ فوقعت جملة ﴿حسنت﴾ موقع الجواب عن هذا السؤال المقدر. وهي إنشائية أفادت إنشاء مدح الغرف بالحسن، وتعظيم ذلك الحسن.

وقدم المستقر؛ لأن أول الحلول استقرار، والمقام ببقاء الاستقرار واستمرار المكث.

المعنى:

أولئك الذين ذكرت صفاتهم وأفعالهم، يعطون جزاء أعمالهم البيوت العلالي في الجنة، بسبب صبرهم، وحبسهم لأنفسهم على الطاعات والمجاهدات وكفهم لها عن المعاصي والشهوات.

وتتلقاهم الملائكة بالتحية والسلام، باقين في هذا النعيم المقيم، وسكنى علالي الجنة التي هي أحسن مستقر ينتهي إليها الإنسان ومقام يمكث فيه.

تطبيق حديث وفقهه:

روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال:

---

(١) المسند إليه هو «أولئك».

(٢) المسند هو «يجزون... إلخ».

«إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري[١] الغابر[٢] في الأفق من المشرق والمغرب، لتفاضل ما بينهم.

قالوا يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟

قال: بلى، ـ والذي نفسي بيده ـ رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[٣].

فهذا الحديث بيّن أن أهل الغرف هم أكمل المؤمنين، وأعلاهم درجة في الجنة بهذا المقدار من البعد، فهم الموصوفون بالصفات المذكورة في الآية المتقدمة على أتمها.

ومن لم يكن مثلهم فيها لم يكن في منازلهم التي جوزوا بها عليها، وكان على حسب حظه من الإيمان، في منزلة من منازل أهل الجنة الذين يتراءون أهل الغرف.

فدرجات أهل الجنة في منازلهم على حسب سلوكهم في أعمالهم:

﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢].

دلالة:

دلت الآية على السبب الذي أفضى بهم إلى هذا الجزاء العظيم، وهو أعمالهم.

ودلت على السبب الذي تمكنوا به من القيام بهذه الأعمال، وهو الصبر لقوله تعالى: **﴿بما صبروا﴾**.

ومن أعظم الحكمة معرفة الأسباب والمسببات، وارتباط بعضها ببعض، فلا ينهض بامتثال المأمورات وترك المنهيات إلّا من صبر، والصبر خلق من الأخلاق التي تتربى وتنمو بالمران والدوام، فواجب على المكلف أن يجعل تربية نفسه عليه، وتعويدها به من أكبر همه، إذ لا يقوم بالتكاليف الشرعية إلّا به؛ بل ولا يستطيع الحياة في هذه الدار الدنيا الموضوعة على المحنة والابتلاء إلّا إذا تمسك بسببه.

بيان القرآن للقرآن:

في هذه الآية: أنهم يلقون تحية وسلاماً؛ وقد بيّن من يتلقاهم بذلك في قوله تعالى:

﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ [النحل: ٩٧]. فالملائكة هم

---

(١) الكوكب الدري: فيه ثلاث لغات، الأكثرون «دُرِّيّ» بضم الدال وتشديد الياء بلا همز. والثانية بضم الدال مهموز ممدود. والثالثة بكسر الدال مهموز ممدود. وهو الكوكب العظيم. قيل: سمي دريًّا لبياضه كالدر، وقيل: لإضاءته، وقيل: لشبهه بالدر في كونه أرفع من باقي النجوم كالدرّ أرفع الجواهر.

(٢) الغابر: الذاهب الماشي الذي تدلّى للغروب وبعد عن العيون.

(٣) رواه البخاري في بدء الخلق باب ٨، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها حديث رقم ١١.

الذين يتلقونهم في السلام، والدعاء لهم بالطيب، وهو مما يدخل في التحية؛ لأن من طيبهم طيب حياتهم.

وما أكثر ما تجد في القرآن!!، فاجعله من بالك تهتد - إن شاء الله - إليه.

اقتداء ورجاء:

هؤلاء السالكون، وما ذكر من أعمالهم وأحوالهم هو سلوكهم؛ ولما سلكوا الصراط المستقيم، بالعمل المستقيم، انتهى بهم السير إلى أحسن قرار ومقام، إلى دار النعيم المقيم، في جوار الرحمن الرحيم.

فإذا اشتقت إلى نهايتهم فتمسك ببداياتهم، وزن أعمالك بأعمالهم، وأحوالك بأحوالهم، فإذا جعلت ذلك مَن همك، وحملت عليه نفسك بصادق عزمك، وصبرت كما صبروا رجوت أن تظفر بما ظفروا.

فالله نسأل لنا ولك وللمسلمين صحة الاقتداء، وصدق الرجاء، وحسن الجزاء.

﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل: ٩٧].

قيمة العباد عند ربهم بقدر عبادتهم

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾

[الفرقان: ٧٧]

قد أفادت الآية السابقة كمال حال عباد الرحمن في نفوسهم وعقولهم، وأخلاقهم، وأعمالهم، وأفادت عظيم منزلتهم عند ربهم، ورفيع ما أعد لهم من درجاتهم، جزاء على صالحاتهم وحسناتهم.

وجاءت هذه الآية تفيد أن ذلك المقام العظيم الذي كان عند ربهم، إنما هو بسبب عبادتهم. وتعلن للناس أن عبادتهم هي الشيء الوحيد، الذي يكون لهم به قدر وقيمة عند ربهم، وبدونها لا يكون لهم وزن عند خالقهم، ولا يكونون شيئاً يبالى به.

وأن من كذب وخلع بتكذيبه ربقة العبادة، فقد حقّت عليه كلمة العذاب، وهو واقع به لا محالة.

﴿ما يعبأ بكم﴾ ما يبالي بكم. (العبء) هو الثقل فما عبأت به: بمعنى ما كان له عندي وزن ولا مقدار. وعبأت به: كان له عندي وزن ومقدار. وعدي بالباء لأنه بمعنى ما باليت.

﴿دعاؤكم﴾ عبادتكم من إطلاق الجزء على الكل.

﴿كذبتم﴾ كفرتم فلم تعبدوا.

﴿لزاماً﴾ ملازماً، وأصل اللزام مصدر لازم واختير هنا للتنبيه على أن بين المكذبين والعذاب ملازمة من الطرفين: فهم بتكذيبهم قد ألزموا أنفسهم العذاب فلازمهم العذاب.

جواب ﴿لولا﴾ محذوف لدلالة ما تقدم، وتقدير الكلام: لولا دعاؤكم ما عبأ بكم. وجملة ﴿فقد كذبتم﴾ واقعة موقع التعليل لكلام مقدر تقديره ـ والله أعلم ـ: لا يعبأ بكم فقد كذبتم، أي لأنكم قد كذبتم، فالفاء تعليلية. وأما جملة ﴿فسوف يكون﴾ فمتسببة عما قبلها، فالفاء فيها سببية. وضمير ﴿يكون﴾ عائد على العذاب المفهوم من المقام.

المعنى:

قل للذين أرسلت اليهم: ما يبالي بكم ربي، ولا يعبأ بكم، ولا يكون لكم عنده وزر، لولا إيمانكم وعبادتكم.

فإذا كذبتم وكفرتم، فهو لا يعبأ بكم، وسوف يكون العذاب ملازماً لكم بسبب تكذيبكم.

تحرير في المخاطب:

المخاطبون هم الذين كذبوا، ثم إن ما لحقهم بسبب التكذيب من العذاب الملازم فهو خاصٌّ بهم، وبالمكذبين أمثالهم. وما كان موجهاً لهم من جهة أنهم عباد ـ وهو أن الله لا يعبأ بهم لولا دعاؤهم ـ فهو عالم لجميع العباد لمماثلتهم لهم في العبودية لله، واستغناء الله عنهم، وفرض العبادة عليهم، وعدم التقدير لهم إلّا بها.

تفسير أثري:

أخرج البخاري في كتاب التفسير، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

«خمس قد مضين: الدخان، والقمر، والروم، والبطشة، واللزام». ورواه في مواضيع أخرى من صحيحه[1].

وعني بالدخان المذكور، في قوله تعالى: ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ [الدخان: ١٠] وبالقمر المذكور في قوله تعالى: ﴿وانشق القمر﴾ [القمر: ١].

وبالبطشة المذكورة، في: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ [الدخان: ١٦]. وباللزام المذكور في هذه الآية.

وفسر ابن مسعود البطشة الكبرى بيوم بدر، وفسر اللزام به أيضاً[2]. فهي في الحقيقة أربع وعدها خمساً باعتبار الوصفين البطش والملازمة.

---

(١) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب التفسير (تفسير سورة الفرقان، باب ٤، حديث ٤٧٦٧) و(تفسير سورة الدخان، باب ١ و٦، حديث ٤٨٢٠ و٤٨٢٥). وأخرجه أيضاً بأطول من هذا في تفسير سورة الدخان، باب ٥، حديث ٤٨٢٤، وتفسير سورة يوسف، باب ٤، حديث ٤٦٩٣.

(٢) انظر تفسير الطبري (٩/٤٢٨ ـ الأثر رقم ٢٦٥٧٣).

وفسر الحسن[1] اللزام بعذاب يوم القيامة.

ومن عادة السلف أنهم يفسرون اللفظ بما يدخل في عمومه دون قصد للقصر عليه. ولا منافاة حينئذ بين التفسيرين، فيكونون قد توعدوا على تكذيبهم بلزوم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

ترهيب:

رتب لزوم العذاب على التكذيب، فأعظم العذاب الأكمل التكذيب، وهو تكذيب الكفر. ثم أصناف العذاب لازمة لتكذيب العصيان بالعدل والحكمة في التقسيم والترتيب.

استنباط:

لما كانت مقادير العباد عند ربهم بحسب عبادتهم، فالأنبياء - عليهم السلام - أعلى الناس منزلة عند الله فهم أعظمهم عبادة لله، وهم أتقاهم له وأشدهم خشية منه. وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه مالك وغيره:

«والله إني أرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي»[2].

وقال أيضاً: «والله إني لأتقاكم لله، وأعلمكم بحدوده»[3].

سؤال استطرادي وجوابه:

كيف يخشى وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟

---

(١) هو الحسن بن أبي الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ. وهو رأس الطبقة الثالثة من التابعين. ثقة، فقيه، فاضل، مشهور، روى له الستّة في الصحاح. انظر ترجمته في تهذيب التهذيب (٢/٢٦٣) وتقريب التهذيب (١/١٦٥) وخلاصة تهذيب الكمال (١/٢١٠) والكاشف (١/٢٢٠) وتاريخ البخاري الكبير (٢/٢٨٩) والجرح والتعديل (٣/١٧٧) وميزان الاعتدال (١/٤٨٣) ولسان الميزان (٢/١٩٩) وطبقات خليفة بن خياط (١٧٢٦) وأخبار القضاة (٢/٣) وحلية الأولياء (٢/١٣١) وطبقات ابن سعد (٩/٤٩) وسير أعلام النبلاء (٤/٥٦٣) والثقات لابن حبان (٤/١٢٢).

(٢) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها مالك في الموطأ (كتاب الصيام، حديث ٩) ومسلم في الصيام حديث ٧٩، وأحمد في المسند (٦/٦٧، ١٢٢، ١٥٦، ٢٢٦، ٢٤٥).

(٣) روى الحديث مرسلاً مالك في الموطأ (كتاب الصيام، حديث رقم ١٣) والشافعي في الرسالة (رقم ١١٠٩ بتحقيق أحمد محمد شاكر): عن عطاء بن يسار؛ أن رجلاً قبّل امرأته وهو صائم في رمضان، فوجد من ذلك وجداً شديداً، فأرسل امرأته تسأل له عن ذلك، فدخلت على أم سلمة زوج النبي ﷺ فذكرت ذلك لها، فأخبرتها أم سلمة أن رسول الله ﷺ يقبّل وهو صائم. فرجعت فأخبرت زوجها بذلك، فزاده ذلك شرًّا. وقال: لسنا مثل رسول الله ﷺ، الله يحلّ لرسول الله ﷺ ما شاء. ثم رجعت امرأته إلى أم سلمة، فوجدت عندها رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما لهذه المرأة؟» فأخبرته أم سلمة فقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبرتيها أني أفعل ذلك؟» فقالت: قد أخبرتها. فذهبت إلى زوجها فأخبرته، فزاده ذلك شرًّا وقال: لسنا مثل رسول الله ﷺ، الله يحل لرسول الله ﷺ ما شاء. فغضب رسول الله ﷺ وقال: «والله إني لأتقاكم لله وأعلمكم بحدوده».

أجاب العلماء عن هذا بأجوبة:

١ ـ منها أنه لا يخشى العقاب، ولكنه يخشى العتاب.

٢ ـ ومنها قول الأكثر؛ أنه غفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، بشرط امتثاله لما أمر به.

ذكر هذين ابن العربي في «القبس».

٣ ـ ومنها أنها خشية الإجلال، ومشاهدة عظمة الربوبية، وأنه لا يجب عليه تعالى شيء.

وهذان الحديثان الصحيحان من الأدلة الصريحة عند أهل العلم، على أن العبادة الشرعية الإسلامية لا تتجرد من الخوف، حتى عبادة أفضل الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

تعليل:

الإنسان مهيأ للكمال بما فيه من الجزء النوراني العلوي، وهو روحه.

ومعرض للسقوط والنقصان بما فيه من أخلاط عناصر جزئه الأرضي الظلماني، وهو جسده.

ولا يخلص من كدرات جثمانه ولا ينجو من أسباب نقصانه إلا بعبادة ربه، التي بها صفاء عقله، وزكاء نفسه، وطهارة بدنه في ظاهره وباطنه.

فبعبادة ربه يكمل فيرقى في مراتب الكمال، ويدنو من الملأ الأعلى، عند الرب الأعلى ذي الجلال والإكرام.

فالله طيب لا يقبل إلا الطيب، وإليه يصعد الكلم الطيب، ولا طيب ولا كمال إلا للعابدين، فلا قيمة ولا قبول لغيرهم عند رب العالمين.

إرشاد وتحذير:

قد بيَّن لك الطريق الذي يوصلك إلى مولاك ويرقيك في مراتب كمالك وعلاك، وما هو إلا عبادة ربك: فكن عبداً له في اختيارك واضطرارك وفي جميع أحوالك.

واحذر أن تعتمد على شيء غير عبادته.

واحذر أن تتوجه بشيء من عبادتك لغيره.

ومن عبادتك ـ بل هو مخ عبادتك ـ دعاؤك وسؤالك واستغاثتك.. فإياك إياك أن تتوجه منه بشيء لغيره. فكن دائماً عبداً لله، وكن دائماً عبداً له وحده، فذلك حقه عليك، وذلك السبب الوحيد الذي ينجيك ويعليك.

والله نسأل أن يقصرنا على عبادته، ويديمنا على الإخلاص في التوجه إليه، حتى نلقاه على ملة الإسلام، وهدى عباده الصالحين، آمين يا رب العالمين.

القسم الثالث

في سورة النمل

في هذا القسم ستة فصول، تحتوي على هذه المواضيع:

١ ـ ملك النبوة مجمع الحق والخير، ومظهر الجمال والقوة.
٢ ـ طبيعة ملك النبوة، وطبيعة ملك البشر.
٣ ـ العلم.
٤ ـ إرث النبوة.
٥ ـ جند سليمان.
٦ ـ وادي النمل.
٧ ـ شكر النعم.
٨ ـ قصة الهدهد.
٩ ـ الملكة بلقيس.
١٠ ـ السجود لله وحده.

ملك النبوة مجمع الحق والخير ومظهر الجمال والقوة

الفصل الأول

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النمل: ١٥ ـ ٢٥]

تمهيد:

(النبوة): منزلة من الكمال التام البشري، يهيىء الله لها من يشاء من عباده، فيكون بذلك مستعداً لتلقي الوحي والاتصال بعالم الملائكة، ولتحمل أعباء ما يلقي إليه وتكاليف تبليغه بالقول والعمل، وتحمل كل بلاء يلقاه في سبيل ذلك التبليغ.

و (الملك): ولاية على المجتمع لحفظ نظامه، تقتضي عموم النظر، وشمول التصرف في روابط الناس، ومعاملاتهم وتصرفاتهم، وتسييرهم في ذلك كله على أصول عادلة توصل كل أحد إلى حقه، وتكفه عن حق غيره، ليعيشوا في رخاء وسلام، ويبلغوا غاية ما يستطيعون من متع الحياة.

وقد يتصف الشخص بالنبوة دون الملك؛ فيكون مبلغاً عن الله، ولا يكون له التنفيذ والإدارة والتنظيم.

وقد يتصف الشخص بالملك دون النبوة.

وقد وجد الشخصان في (شمويل) و (طالوت)، فكان الأول نبياً، وكان الثاني ملكاً كما قال تعالى: ﴿**وقال لهم نبيّهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً**﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقد يجمع بينهما مثل داود وسليمان عليهما السلام.

ثم إن (الملك) قد تكون الأصول التي يستند إليها مستمدة من أوضاع البشر، لحفظ مصالحهم في الحياة الدنيا؛ فيكون ملكاً بشرياً، وقد تكون تلك الأصول مستمدة من وحي الله؛ بما فيه حفظ مصالح العباد في الدنيا، وتحصيل سعادتهم فيها وفي الأخرى، فيكون ملك نبوة.

من طبيعة ملك النبوة:

١ ـ التزام الحق ونصرته حيثما كان بإقامة ميزان العدل في القول والحكم والشهادة بين الناس أجمعين، المعادين والموالين، كما قال تعالى:

﴿**وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى**﴾ [الأنعام: ١٥٢].

﴿**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾ [النساء: ٥٨].

﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾ [المائدة: ٨].

﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً**﴾ [النساء: ١٣٥].

٢ ـ وبالوفاء بالعقود والعهود بين الأفراد والجماعات، كما قال تعالى: ﴿**أوفوا بالعقود**﴾ [المائدة: ١]، ﴿**وبعهد الله أوفوا**﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها..**﴾ [النحل: ٩١] ﴿**ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة**﴾ [النحل: ٩٢].

وبغير هذا من وجوه التزام الحق ونصرته.

٣ ـ وبث الخير بين الناس بنشر الهداية والإحسان دون تمييز بين الأجناس والألوان، كما قال تعالى:

﴿**وافعلوا الخير لعلكم تفلحون**﴾ [الحج: ٧٧]، ﴿**وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**﴾ [الممتحنة: ٨].

٤ ـ ومن طبيعته الدعوة إلى القوة والتنويه بها وبناء الحياة عليها، لكن في نطاق العدل والرحمة ولدفاع المعتدين، كما قال تعالى:

﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾ [الأنفال: ٦]، ﴿**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس**﴾، وقبلها ﴿**وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾ [الحديد: ٢٥] فقوة الحديد لحفظ الكتاب والميزان وحمل الناس عليهما. ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما**

اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [البقرة: ١٩٤]. **﴿والـذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين﴾** [الشورى: ٣٩، ٤٠].

٥ ـ ومن طبيعته الدعوة إلى الجمال والتحبيب به في جميع مـظاهر الحيـاة، لكن في نطاق الفضيلة والعفاف، كما قال تعالى:

﴿لقـد خلقنا الإنسـان في أحسن تقويم﴾ [التـين: ٤] **﴿وصوركم فـأحسن صوركم﴾** [التغابن: ٣]. **﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾** [طه: ٥٠]، **﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾** [الصافات: ٦] **﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت﴾** [يونس: ٤٥]، **﴿فأنبتنا به حدائق ذات بهجة﴾** [النمل: ٧] **﴿من كل زوج بهيج﴾** [ق: ٧]، **﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾** [الأعراف: ٣٢]، **﴿اليوم أحل لكم الطيبات﴾** [المائدة: ٥]، **﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلـك أزكى لهم إن الله خبير بمـا تصنعون﴾** [النور: ٣٠].

من طبيعة الملك البشري:

الملك البشري، وإن روعيت في أوضاعه هذه الأصول الأربعة، إلا أنه:

١ ـ لا يقيم ميزان العدل بين أبناء المملكة وغيرهم: فـنـراه يكيل لهؤلاء بمكيـال ولهؤلاء بمكيال.

ولا يرعى من العهود ـ في الغالب ـ إلا ما يعارض مصلحته أو تلزمه بمراعاته قوة خصمه.

٢ ـ كما أنه يكاد يقصر بره وإحسانه على أبناء جلدته، ومن كانوا من جنسه ولونه.

٣ ـ كما أنه يبني أمره على القوة المطلقة فتندفع من رغباته إلى أقصى ما يمكنها أن تصل إليه؛ فيكون البغي والتساقط[1] والعدوان.

٤ ـ كما أنه تستهويه زينة الحياة الدنيا وزخارفها، فتمتد يده إليها حيثما وجدها، فتتنازعها الأيدي بالقوة والحيلة، وتذهب في أقانيها[2] الشهوات بالناس إلى النقص والرذيلة.

* * *

ثم إن من طبيعة الملك من حيث أنه ملك ـ سواء أكان بشرياً أم نبوياً ـ مظاهر الأبهة والجمال والقوة والفخامة؛ لما جبل عليه الخلق من اعتبار المظاهر والتأثر بها. وهذا إذا كان في الحق فهو محمود مطلوب، وإذا كان للباطل والبغي والتعظيم النفسي فمذموم متروك.

---

(١) كذا في الأصل المطبوع بالسين بعد التاء؛ ولعلّ الصواب «التقـاسط» بالقـاف بعد التـاء، من قَسَطَ قَسْطاً وقُسُوطاً: جار وعدل عن الحقّ. انظر المعجم الوسيط (ص ٧٣٤).

(٢) أقانيها: لم أجد هذه الصيغة في كتب اللغة. ويريد: اقتنائها؛ القِنْوة والقُنوة والقُنْية والقِنْيَة: الكسبة. وقَنوت الشيء قُنُوًّا وقُنْوانًا واقتنيته: كسبته. انظر لسان العرب (١٥/ ٢٠١ ـ مادة قنا).

ومن الأول أمر النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وعمه العباس ـ رضي الله عنه ـ أن يحبس أبا سفيان عند خطم[١] الجبل، حتى تمر عليه كتائب المسلمين؛ وذلك لإدخال الرعب على قلبه بما يرى من النظام والقوة.

فحبسه العباس، فجعلت الكتائب تمر به، فيسأل العباس عن كل كتيبة، فإذا أخبره قال: ما لي ولبني فلان؟

حتى مر رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في كتيبته الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلّا الحدق[٢] من الحديد؛ فقال: من هؤلاء؟ فقال العباس: هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في المهاجرين والأنصار. فقال أبو سفيان: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً.

قال العباس: فقلت له: إنها النبوة، فقال: فنعم إذن.

قصد أبو سفيان عظمة الملك القاهر التي كان يعرفها من الأكاسرة وأمثالهم، فنفى ذلك العباس ورده إلى النبوة، التي هي أصل تلك القوة، وذلك الملك النبوي المستند إلى الوحي الإلهي، ولم يرد نفي الملك جملة.

ومنه[٣] ما كان من معاوية بالشام:

لما قدم عليه عمر وجده في أبهة من الجند والعدة، فاستنكر ذلك، وقال له: أكسروية يا معاوية؟! فاعتذر معاوية بأنهم في ثغر تجاه العدو، وأنهم في حاجة إلى مباهاة العدو بزينة الحرب والجهاد، فسكت عمر وأقره.

فذلك المظهر من مظاهر طبيعة الملك من حيث هو ملك، وإنما أنكره عمر لما خاف فيه من تعظم واستعلاء وإعجاب؛ فلما كان للحق والمصلحة أقره.

ومن أقوى الأدلة على أن تلك المظاهر إذا كانت للحق والمصلحة فهي محمودة مطلوبة، ما قصه الله علينا في هذه الآيات عن ملك سليمان نبي الله عليه الصلاة والسلام.

* * *

نعم في مسند أحمد أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو

---

(١) في اللسان (١٢/١٨٦ ـ مادة خطم): «الخُطْمَةُ: رَعْنُ الجبل». والرَّعْنُ: الأنف العظيم من الجبل تراه متقدماً، وقيل: الرعن أنف يتقدم الجبل. انظر اللسان (١٣/١٩٢ ـ مادة رعن).

(٢) الحَدَقُ: جمع الحَدَقَة، وهو السواد المستدير وسط العين (اللسان: ١٠/٣٩ ـ مادة حدق). وقوله هنا: «لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد» أي أنهم كانوا متدرعين بالحديد من أعلاهم إلى أسفلهم بحيث لا يرى منهم إلا سواد أحداقهم.

(٣) أي من مظاهر الأبهة والجمال والقوة والفخامة.

يكون نبياً عبداً، فاختار أن يكون نبياً عبداً[١]. وكان ذلك تواضعاً منه.

ولا ينفي هذا أنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما كان مبلغاً عن الله تبارك وتعالى، كان قائماً على الحكم والتنفيذ وإدارة الشؤون العامة، وتنظيم المجتمع، مما يسمى ملكاً نبوياً مستنداً إلى الوحي الإلهي؛ لأن التحيز راجع إلى حالته الشخصية الكريمة، فخير بين أن يكون لشخصه من مظاهر الملك مثل ما كان سليمان، أو لا تكون له تلك المظاهر، فاختار ألا تكون، وأن يكون مظهره مظهراً عادياً مثل مظهر العبد العادي.

كما أن سليمان ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي كان ملكاً نبياً لم ينف عنه العبودية، وإنما ينفي عنه مظهرها العادي.

فهما حالتان للقائمين على الملك جائزتان، كان على إحداهما سليمان، وعلى الأخرى محمد عليهما الصلاة والسلام.

وحالة أفضل النبيين أفضل الحالتين. وقد اختار عمر رضي الله عنه الفضلى، وأقر معاوية على الفاضلة الأخرى.

* * *

ولما كان محمد ـ ﷺ ـ جاء بملك النبوة، كان القرآن العظيم جامعاً للأصول التي ينبني عليها ذلك الملك، وجاء فيه مثل هذه الآيات التي نكتب عليها، ليبين صورة ملك النبوة، ومظهراً صادقاً من مظاهره فيما قصت علينا من ملك سليمان عليه السلام. وهي ثلاثون آية، من الآية الخامسة عشرة من سورة النمل، إلى الآية الرابعة والأربعين منها:

الفصل الأول

الآية الأولى

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

[النمل: ١٥]

﴿علماً﴾ نوعاً عظيماً ممتازاً من العلم جمعا به بين الملك والنبوة، وقاما بأمر الحكم والهداية.

﴿وقالا﴾ قولهما متسبب وناشىء عن العلم، لكنه لو قيل: «فقالا» بالفاء، لما أفاد أن غير

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢/٢٣١) ولفظه عن أبي هريرة؛ قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ، فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا المَلَك ما نزل منذ يوم خُلق قبل الساعة. فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك فقال: أفملكاً نبيًّا يجعلك أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد! قال: «بل عبداً رسولاً».

القول تسبب منهما عن العلم. ولما عطف بالواو دل على أن هنالك أعمالاً كثيرة عظيمة كانت منهما في طاعة الله وشكره، نشأت عن العلم وعليها عطف قولهما هذا.

﴿**فضلنا**﴾ أعطانا ما فقنا به غيرنا.

﴿**على كثير**﴾ فهنالك كثير لم يفضلا عليه ممن ساواهما أو فاقهما.

﴿**من عباده المؤمنين**﴾ ففضلا بين أهل الفضل، فكانا من أفضل الفاضلين، وذلك بما أعطيا من النبوة وملكها.

المعنى:

يخبرنا الله ـ تعالى ـ عما أعطى لهذين النبيين الكريمين من هذا الخير العظيم، وعما كان منهما من الشكر له، والمعرفة بعظيم قدر عطائه، وإظهار السرور به، مع الاعتراف لغيرهما بما كان من مثله أو نحوه، ومن إعلانهما ما كان لله عليهما من نعمة التفضيل العظيمة بحمده والثناء عليه.

تنويه وتأصيل:

قد ابتدأ الحديث عن الملك العظيم بذكر (العلم)، وقدمت النعمة به على سائر النعم، تنويهًا بشأن العلم، وتنبيهاً على أنه هو الأصل الذي تنبني عليه سعادة الدنيا والأخرى، وأنه هو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا، وأن الممالك إنما تنبني عليه وتشاد، وأن الملك إنما ينظم به ويساس، وأن كل ما لم يبن عليه فهو على شفا جرف هار، وأنه هو سياج المملكة ودرعها، وهو سلاحها الحقيقي، وبه دفاعها، وأن كل مملكة لم تحم به فهي عرضة للانقراض والانقضاض.

إحماض[1]**:**

قال أبو الطيب المتنبي:

أَعْلَى المَمَالِكِ مَا يُبْنَى على الأَسَلِ والطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّيهنَّ كالقُبَلِ

نعم إن محبي الممالك الصادقين في محبتها، والذين تصلح لهم ويصلحون لها، هم الذين يستعذبون في سبيلها الموت، ويكون الطعن عندهم مثل القبل على ثغور الحسان.

فأما الممالك التي تبنى على السيف فبالسيف تهدم، وما يشاد على القوة فبالقوة يؤخذ.

وإنما أعلى الممالك وأثبتها ما بني على العلم، وحمي بالسيف. وإنما يبلغ السيف وطره ويؤثر أثره، إذا كان العلم من ورائه.

ولكن أبا الطيب ـ شاعر الرجولة والبطولة، شاعر المعارك والمطامع ـ لا يرى أمامه إلا الحرب، وآلات الطعن والضرب فلا يمكن أن يقول ـ وقد غمرته لذة الانتصار، واستولت نشوة الغلب والظفر على لبه وخياله ـ إلا ما قال.

(١) الإحماض: الإفاضة فيما يؤنس من الحديث والكلام (المعجم الوسيط: ص ١٩٨).

فقه وأدب:

يجوز لمن أنعم الله عليه بنعمه وفضله بفضيلة أن يفرح بتلك النعمة ويظهر فرحه بها، في معرض حمد الله عليها، من حيث أنها كرامة من الله، لا من حيث أنها مزية من مزاياه فاق بها سواه، مثل فعل هذين النبيين الكريمين، وكما قال تعالى: ﴿**قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا**﴾ [يونس: ٥٨].

وكثيراً ما يكون التفات المرء إلى نفسه حاجباً له عن غيره، فيذكر من شأنه ما أفرحه، ويسكت عن غيره، وفيهم من هو مثله ومن يفوقه، فقد يجر هذا إلى عجب بنفسه، وغمط لحق من عداه.

فلهذا كان من أدب مقام الفرح بنعمة الله وحمده عليها، ذكر نعمته العامة عليه وعلى غيره، والإشارة إلى من فضلوا عليه؛ فيكبح من نفسه بتذكيرها بقصورها، ويرضي الله باعترافه لذي الفضل بفضله، وحكمة الله وعدله، وبوقوفه كواحد ممن أنعم عليهم من عباده.

إرشاد وإشادة:

أذكار الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ من حمد وتسبيح وتهليل وغيرها أفضل الأذكار، وأجمعها وأسلمها. وقد اشتمل الكتاب العزيز على كثير منها.

فعلى المسلم الحريص على الخير بها علماً وعملاً؛ فقد رأيت ما يحف بإظهار الفرح بنعمة الله من مخاطر إذا لم يتنبه لها، وقد جاء هذا الحمد النبوي محصلاً للقصد، سالماً من كل خطرة بعباراته الموزونة الشاملة، التي لا يصدر مثلها إلا منهم لكمال علمهم وأدبهم، عليهم الصلاة والسلام.

الفصل الثاني

الآية الثانية

﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾

[النمل: ١٦]

(الإرث) انتقال ما كان للميت إلى الحي، فيقوم فيه الوارث مقام الموروث، سواء أكان مالاً أو ملكاً أو علماً أو مجداً. والمراد هنا الملك والنبوة.

﴿**علمنا**﴾ أعطينا العلم، ولم يذكر المعلم ـ وهو الله ـ للعلم به فإن هذا التعليم ليس من معتاد البشر، ولا من طرقهم.

﴿منطق الطير﴾ نطقها وهو تصويتها، وقد يطلق النطق على كل ما يصوت به الحيوان، فالحيوان ناطق، والجماد صامت.

﴿وأوتينا﴾ أعطينا، والنون في الفعلين للعظمة إذ هي حالته التي هو عليها.

﴿من كل شيء﴾ هو على معنى التكثير، أو على معنى العموم الحقيقي، فيما تقتضيه تلك العظمة، مما يؤتاه الأنبياء والملوك.

﴿الفضل﴾ الزيادة. ﴿المبين﴾ الظاهر الذي لا خفاء به.

المعنى:

قام سليمان مقام أبيه داود عليهما الصلاة والسلام، فكان في بني إسرائيل من بعد نبياً ملكاً. وأراد سليمان أن يشهر نعمة الله عليه وينوه بها ويدعو قومه إلى الإيمان به وطاعته؛ فدعا الناس وذكر لهم ما خصه الله به من علم منطق الطير، وعظائم الأمور، مما هو خارق للعادة معجز للبشر، آية على نبوته. وتحداهم بذلك الفضل الذي امتاز به عن جميع الناس، وهو مشاهد لهم لا يمكنهم إنكاره كما لا تمكنهم معارضته.

فقه وتحقيق:

من ميزة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أنهم يخرجون من الدنيا دون أن يعلقوا بشيء منها، فلا يورثون ديناراً ولا درهماً وإنما يورثون العلم.

وفي الصحيح «إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»[1].

فلم يرث سليمان من داود مالاً، وإنما ورث ما نوه به من العلم والملك، وما دل عليه ذلك من النبوة، وقد خصصه الله بذلك دون بقية إخوته.

تفرقة:

الشيء الموروث إن كان من أمور الدنيا وأعراضها ومتناولات الأبدان ومتصرفاتها، فإنه ينتقل بذاته من الميت إلى الحي، وينقطع عنه ملك الميت.

وما كان من صفات الروح فإنه لا يفارق الميت ـ لبقاء الروح ـ وإنما يقوم الحي مقام الميت في أداء ما كان يؤديه الميت من أعمال متصفاً بمثل ما كان متصفاً به الميت، متحلياً بمثل حليته.

---

(١) رُوي هذا الحديث عن أبي هريرة وعمر وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وعائشة، كما ذكر الترمذي في جامعه (كتاب السير، باب ٤٤، حديث ١٠٦٨). والحديث رواه الإمام مالك في الموطأ (كتاب الكلام، حديث ٢٧). وأحمد في المسند (١/٤، ٦، ٩، ١٠، ٢٥، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٦٠، ١٦٢، ١٦٤، ١٧٩، ١٩١، ٢٠٨، ٢/٤٦٣، ٦/١٤٥، ٢٦٢). والبخاري في الخمس باب ١، وفضائل أصحاب النبي ﷺ باب ١٢، والمغازي باب ١٤ و٣٨، والنفقات باب ٣، والفرائض باب ٣، والاعتصام باب ٥. ومسلم في الجهاد حديث ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٦. وأبو داود في الإمارة باب ١٩. والترمذي في السير باب ٤٤. والنسائي في الفيء باب ٩ و١٦.

فإرث سليمان للملك هو من المعنى الأول فداود بعد موته لم يبق ملكاً، وإرثه للعلم والنبوة هو من المعنى الثاني فداود بعد موته على علمه ونبوته.

تفرقة أخرى:

إذا كان الموروث مالاً فإنه يستحق بالقرابة شرعاً.

وإذا كان علماً أو نبوة أو ملكاً فإنها لا تستحق بها.

فلم يرث سليمان من داود ما ورثه منه لأنه ابنه، وإنما كان ذلك تفضلاً من الله ونعمة، ولهذا لما دعا سليمان الناس لم يذكر لهم أبوة داود، وإنما ذكر لهم ما كان به أهلاً لمقامه، مما خصه الله به من علم وقوة، ومظاهر الملك ومعجزة النبوة.

عجائب الخلقة وحكمة العربية:

للحيوانات كلها[1] فهم وإدراك وأصوات تدل بها على ما في نفسها، وتتفاهم بها أجناسها بعضها عن بعض. ومن تلك الأصوات ما يكون أخفى من أن يصل إليه سمعنا؛ ومنها ما نسمعه، ومما نسمعه، ما نفهم مرادها به ومنه ما لا نفهمه، فلا نسمع صوت النملة ولكننا نسمع صوت الهرة - مثلاً - ونميز بين صوتها الذي تدل به على غضبها، وصوتها الذي تدل به على طلبها.

وفي مملكة النمل ومملكة النحل - مثلاً - من النظام والترتيب والتقدير والتدبير، ما لا يبقى معه شك فيما لهذه الحيوانات من إدراك وتمييز، وما بينها من تفاهم، بل كثير من الحيوانات تصير بالترويض تفهم عنا كثيراً من العبارات والإشارات، وتأتي بالأعمال العجيبة طبق ما يراد منها وتدل عليه فهذا أصل ما بلغت إليه من إدراكها ونطقها اللذين أخبر بهما القرآن.

وتلك الغاية من الإدراك والنطق، لا سبيل لنا إليها لاختلاف الخلقة وجهل مدلولات الأصوات.

وقد أدركها سليمان - عليه السلام - بتعليم من الله كرامة له، وآية على نبوته، ومعجزة للناس.

فمن حكمة اللغة العربية الشريفة، أن سمت أصوات الحيوانات نطقاً، كما سمت - في المتعارف - اللفظ الذي يعبر به عما في الضمير نطقاً، لأن الأصوات لغير الإنسان تقوم مقام الألفاظ للإنسان، فهي طريق تفاهمها وطريق فهم ما يمكن للإنسان فهمه عنها.

فللّه هذه اللغة ما أعمق غورها! وما أدق تعبيرها.

نظر وإيمان:

قد شوهد بالعيان في أنواع من الحيوانات: حسن تدبيرها لأمر معاشها، ودقة سعيها في

---

(١) كانت بالأصل «كلهم». ولعل الصواب ما أثبتناه.

جلب منافعها، ودفع مضارها، فمن الجائز أن يصل إدراكها بالفطرة إلى ما وراء ذلك من وجود خالقها ورازقها.

وهذا هو الذي أخبرنا به القرآن في هذه الآيات من أمر النملة وأمر الهدهد الآتيين من بعد.

فنحن مؤمنون لجوازه عقلاً، وثبوته سمعاً، مثل سائر السمعيات.

تمييز:

قد شارك الحيوان الإنسان في الإدراك والتمييز، وبلغ إدراكه إلى معرفة وجود خالقه ورازقه، ولكن الإنسان يمتاز عنه بقوة التحليل والتركيب لكل ما يصل إليه حسه وإدراكه، وتطبيق ذلك على كل ما تمتدّ إليه قدرته ويكون في متناول يده، فمن ذلك التركيب والتحليل والتطبيق تغلب على عناصر الطبيعة، وتمكن من ناصيتها، واستعمال حيوانها وجمادها في مصلحته، ورقي أطوار التقدم في حياته، ولفقدان الحيوان ـ غير الإنسان[1] ـ هذه القوة بقي في طور واحد من حياته ومعيشته.

فإدراك الحيوان فطري إلهامي يعطاه من أول الخلقة، والإنسان يعطى أصل الإدراك الإجمالي، ثم بتلك القوة يتسع أفق إدراكه، ويستمر في درجات التقدم.

وهذه القوة التي يمتاز بها الإنسان هي العقل، وهي التي ساد بها هذا العالم الفاني.

توجيه:

ذكر سليمان عليه السلام منطق الطير، وهو قد علم منطق غير الطير أيضاً فقد فهم نطق النملة، ذلك لأن الحيوانات ـ غير الإنسان ـ مراتب: الزاحفة، والماشية، والطائرة، وأشرفها الطائرة[2]، فاقتصر على الطير تنبيهاً بالأعلى على الأدنى.

تنزيه وتبيين:

عبر سليمان عليه السلام عن نفسه بنون العظمة، ونوه بذلك الفضل المبين، وما كان عليه السلام ليتعظم بسلطان، ولا ليتطاول بفضل؛ فالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أشد الخلق تواضعاً لله وأرحمهم بعباده.

وإنما أراد تعظيم نعمة الله في عيون الناس، وتفخيم ملك النبوة في قلوب الرعية؛ ليملأ نفوسهم بالجلال والهيبة، فيدعوهم ذلك إلى الإيمان والطاعة، فينتظم الملك، ويهنأ العيش، وتمتد بهم أسباب السعادة إلى خير الدنيا والآخرة، وهذا هو الذي توخاه سليمان عليه السلام من المصلحة بإظهار العظمة.

ولذا لم يقل: «عَلمت». ولا: «لي» و«عندي كل شيء». ولم يقل «فضلي» فهو فضل من علمه وآتاه فضله به عمن سواه.

---

(١) قوله: «الحيوان غير الإنسان» باعتبار أن الإنسان حيوان ناطق، فهو من جنس الحيوان. فالحيوان جنس والإنسان نوع كما في التقسيم المنطقي.

(٢) الحيوانات الطائرة أفضل من الحيوانات الماشية؟ هذا موضع نظر.

ترغيب واقتداء:

يذكر الله ـ تعالى ـ لنا في شأن هذا النبي الكريم ما أعطاه من علم، وما مكنه منه من عظيم الأشياء.

ترغيباً لنا في طلب العلم، والسعي في تحصيل كل ما بنا حاجة إليه من أمور الدنيا.

وتشويقاً لنا إلى ما في هذا الكون من عوالم الجماد، وعوالم الأحياء.

وبعثاً لهممنا على التحلي بأسباب العظمة من العلم والقوة.

وحثاً لنا على تشييد الملك العظيم الفخم على سنن ملك النبوة.

فقد كان سليمان عليه السلام نبياً، وما كان ملكه ذلك إلا بإذن الله ورضاه، فهو فيما ذكره الله من أمره قدوة وأي قدوة مثل سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

الفصل الثالث

الآية الثالثة

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

[النمل: ١٧]

(الحشر) الجمع من أماكن متفرقة.

﴿جنوده﴾ هم المنتظمون في سلك عسكريته، فجمعوا له عند الحاجة إليهم في سفر أراده.

﴿يوزعون﴾ يكفون عن الخروج عن النظام في السير، فيمنع أولهم من سبق آخرهم، وآخرهم من التأخر عن سابقهم، ويمنعون من الخروج عن الصفوف إلى اليمين أو الشمال، لأن وزعه عن الشيء معناه كفه عنه.

وفي ترتيب الجنود في الذكر مراعاة الأقوى، وأعلاهم في ذلك الجن، ثم الإنس، ثم الطير.

وفاعل (حشرهم) الأعوان الحاشرون. وفاعل (وزع) هم الضباط المنظمون.

المعنى:

كان لسليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الجن والإنس والطير جنود معينون معروفون يتركب منهم عسكره. يكونون متفرقين، فإذا عرض أمر جمعهم.

وكان له أعوان يعرفون أولئك الجنود ويعرفون أماكنهم، فهم الذين يجمعونهم عند الحاجة إليهم.

فأراد سليمان أن يسافر، فأمر أعوانه بجمع الجنود فجمعوهم له. فلما اجتمعوا تولى رؤساؤهم تنظيمهم فساروا مع سليمان في كثرة ونظام، يتولى أولئك الرؤساء تنظيمهم في سيرهم ويمنعونهم من الخروج عن النظام.

تفصيل:

كما أن للإنس من يعرفهم من أعوان سليمان ومن ينظمهم من رؤسائهم، كذلك يكون للجن، وكذلك يكون للطير.

وسلطة سليمان على الجن وتسخيره لهم وسلطته على الطير وفهمه لها وفهمها عنه معجزة له، وخصوصية ملك لم يَنْبَغِ لأحد من بعده!!

تاريخ وقدرة:

تفيدنا الآية صورة تامة لنظام الجندية في ملك سليمان.

فقد كان الجنود يسرحون من الخدمة ويجمعون عند الحاجة.

وكانت أعيانهم معروفة مضبوطة.

وكانت لهم هيئة تعرفهم وتضبطهم وتجمعهم عند الحاجة.

وكان لهم ضباط يتولون تنظيمهم.

وكان النظام محكماً لضبط تلك الكثرة ومنعها من الاضطراب والاختلال والفوضى.

تعرض علينا الآية هذه الصورة التاريخية والواقعية تعليماً لنا، وتربية على الجندية المضبوطة المنظمة.

ولا شك أن الخلفاء الأولين قد عملوا على ذلك في تنظيم جيوشهم، إنَّ مثل هذه الآية كان له الأثر البليغ السريع في نفوس العرب لما أسلموا. فسرعان ما تحولوا إلى جنود منظمة مما لم يكن معروفاً عندهم في الجاهلية.

وبقيت الآية على الدهر مذكرة لنا بأن النظام أساس كل مجتمع واجتماع، وأن القوة والكثرة وحدهما لا تغنيان بدون نظام، وأن النظام لا بد له من رجال أكفاء يقومون به ويحملون الجموع عليه، وأولئك هم الوازعون.

طبيعة وشريعة:

في عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان نجد الطبيعة ـ بصنع الله ـ تستخلص الأعلى من الأدنى، والأقوى من الأضعف، فتجد الممتاز من أصل الخلق وبانتخاب الطبيعة في هذه العوالم الثلاث، كما تجد الذهب في المعدن وتجد الزهر والثمر في النجم[1] والشجر، وتجد الملكة من النمل والنحل مثلاً.

---

(١) النجم من النبات: ما لا ساق له (المعجم الوسيط: ص ٩٠٥).

فالإنسان لم يخرج عن هذا القانون الطبيعي.
ففيه الممتازون الذين يحتاج إليهم النوع الإنساني في صلاح حاله ومآله.

ومنهم الذين يتولون حكمه وتنظيمه في أممه ومجتمعاته وجماعاته؛ فالهيئة الحاكمة والأفراد المنظمون والقادة المسيرون من ضروريات المجتمع الإنساني ومقررات الشرع الإسلامي، مثل ما في هذه الآية من أمر الوازعين.

ولما ولي الحسن البصري القضاء قال:

لا بد للسلطان من وزعة أي أعوان يكفون الناس عن الشر والفساد، ويتولون تربيتهم وتنظيمهم.

وفي رواية: لا بد للناس من وازع ـ أي كاف ـ يكف بعضهم عن بعض، وهو الحاكم وأعوانه.

وفي حديث ذكره أهل الغريب: من يزع السلطان وعقابه الدنيوي أكثر ممّن يكفهم عن الشر الوعد والوعيد في القرآن[1].

وقد قال الله تعالى:

﴿وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾ [الحديد: ٢٥].

الآية الرابعة

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

[النمل: ١٨]

﴿أتوا على وادي النمل﴾ هبطوا إليه من مكان أعلى منه، وهو بالشام أو بالحجاز، لم تتوقف العبرة على تعيينه فلم يعين، وأضيف للنمل لكثرته فيه.

﴿نملة﴾ لفظها مؤنث، ومعناها محتمل مثل شاة وحمامة.

---

(١) ذكر هذا الحديث ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٨٠) بلفظ: «من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن» قال ابن الأثير: أي من يكفّ عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن يكفّه مخافة القرآن والله تعالى؛ يقال: وَزَعَهُ يَزَعُهُ وَزْعًا فهو وازِعٌ، إذا كفَّهُ ومنعه».

﴿مساكنكم﴾ هي قرى النمل التي يسكنها تحت وجه الأرض، المحكمة الوضع والتركيب والتقسيم. ولذلك قيل فيها: مساكن، ولم يقل غيران[١].

﴿لا يحطمنكم﴾ لا يكسرنكم بالحوافر والأقدام.

﴿لا يشعرون﴾ لا يحسون بوجودكم.

الإتيان بـ «إذا» وجوابها، لإفادة أن قولها كان بسبب إتيانهم عند أول ما أتوا.

﴿لا يحطمنكم﴾ نهتهم عن أن يحطمهم، والحطم ليس من فعلهم حتى ينهوا عنه، وإنما المعنى: لا تكونوا خارج مساكنكم فيحطمكم، فنهتهم عن السبب، والمراد النهي عن السبب، لما في ذلك من الإيجاز المناسب لسرعة الإنذار لسرعة النجاة، ولما في ذكر المسبب ـ وهو الحطم ـ من التخويف الحامل على الإسراع إلى الدخول.

والجملة مؤكدة للأولى فكأنها قالت: ادخلوا مساكنكم لا تبقوا خارجها. ونظير التركيب في التعبير بالمسبب عن المسبب: لا أرينك ههنا؛ أي لا تكن هنا فأراك.

المعنى:

سار سليمان ـ ﷺ ـ في تلك الجنود العظيمة يحيط به الإنس والجن وتظلّلهم الطير، حتى هبطوا على وادي النمل، فرأتهم كبيرة النمل وقائدته، فصاحت في بني جنسها، فنادتهم للتنبيه، وأرشدتهم إلى طريق النجاة: بأمرهم الدخول في مساكنهم، وحذرتهم من الهلاك بحطم سليمان وجنوده لهم عن [عدم][٢] شعور منهم، فلا يكون اللوم عليهم، وإنما اللوم على النمل إذْ[٣] لم يسرع بالدخول.

عبرة وتعليم:

عاطفة الجنسية غريزة طبيعية:

فهذه النملة لم تهتم بنفسها فتنجو بمفردها.

ولم ينسها هول ما رأت من عظمة ذلك الجند إنذار بني جنسها؛ إذ كانت تدرك بفطرتها أن لا حياة لها بدونهم، ولا نجاة لها إذا لم تنج معهم، فأنذرتهم في أشد ساعات الخطر أبلغ الإنذار.

ولم ينسها الخوف على نفسها وعلى بني جنسها من الخطر الداهم، أن تذكر عذر سليمان وجنده.

فهذا يعلمنا أن لا حياة للشخص إلا بحياة قومه، ولا نجاة لهم إلا بنجاتهم، وأن لا خير لهم فيه إلا إذا شعر بأنه جزء منهم.

---

(١) جمع غار، وهو كل منخفض من الأرض (المعجم الوسيط: ص ٦٦٥).

(٢) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل؛ وهي زيادة ضرورية لاستقامة المعنى.

(٣) كانت بالأصل: «إذا» والصواب ما أثبتناه.

ومظهر هذا الشعور أن يحرص على خيرهم كما يحرص على نفسه، وألا يكون اهتمامه بها دون اهتمامه بهم.

واجب القائد والزعيم:

هذه النملة هي كبيرة النمل، فقد كان عندها من قوة الإحساس ما أدركت به الخطر قبل غيرها، فبادرت بالإنذار.

فلا يصلح لقيادة الأمة وزعامتها إلا من كان عنده من بعد النظر، وصدق الحدس، وصائب الفراسة، وقوة الإدراك للأمور قبل وقوعها، ما يمتاز به عن غيره، ويكون سريع الإنذار بما يحس وما يتوقع.

عظة بالغة:

هذه نملة وفت لقومها، وأدت نحوهم واجبها!!
فكيف بالإنسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه؟!

هذه عظة بالغة لمن لا يهتم بأمور قومه، ولا يؤدي الواجب نحوهم، ولمن يرى الخطر داهماً لقومه، فيسكت ويتعامى، ولمن يقود الخطر إليهم ويصبه بيده عليهم.

آه ما أحوجنا ـ معشر المسلمين ـ إلى أمثال هذه النملة!

الآية الخامسة

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

[النمل: ١٩]

(التبسم) انفراج الشفتين على الأسنان، وقد يكون للغضب، وقد يكون للسخرية، وقد يكون للضحك، وهو الأكثر، وهو بدايته؛ ولهذا قيد بـ «ضاحكًا».

﴿**أوزعني أن أشكر**﴾ ألهمني شكر نعمتك. وتحقيقه في اللغة والتصريف، أنك تقول: وزعت الشيء أي كففته وأوزعني الله الشيء أي جعلني أزع ذلك الشيء أي أكفه. كما تقول: ركبت الفرس وأركبني زيد الفرس، أي جعلني أركبه، فأوزعني شكر نعمتك: أي اجعلني أزع أي أكف شكر نعمتك، أي أمنعه من أن يذهب عني وينفلت مني، فالمقصود: اجعلني ملازماً لشكرك فلا أنفك لك شاكراً.

﴿**نعمتك**﴾ عام يشمل كل نعمة لله عليه وعلى والديه.

﴿وأن أعمل﴾ معطوف على ﴿أن أشكر﴾ فيقدر مثل تقديره.

﴿ترضاه﴾ وصف مؤكد وقد يكون للتقييد على ما سيأتي، لأن العمل الصالح يرضى عنه الله، وإنما ذكر الوصف؛ ليفيد أن رضى الله مقصود بالعمل الصالح.

﴿أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ اجعلني معهم. وأكمل الصالحين الأنبياء والمرسلون صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

وتحقيقه: أن الصالحين بما امتازوا به من كمال صاروا كأنهم في حمى خاص بهم، لا يدخل عليهم فيه إلا من كان مثلهم، فلهم مقامهم في الرفيق الأعلى، ولهم منازلهم في الجنة، ولهم ذكرهم الطيب عند الله وعند العباد. وهذه المنازل والمقامات لا يدخلها العبد إلا برحمة من الله بتيسير لأسبابها، وتفضل عظيم.

المعنى:

لما سمع سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ كلام النملة تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ السرور والتعجب من قولها، وطلب من ربه ـ تعالى ـ أن يلهمه شكر ما أنعم به عليه وعلى والديه، وأن يلهمه عملاً صالحاً ينال به رضاه، وطلب منه تعالى أن يجعله في الصالحين، بأن يثبت اسمه بينهم، ويقرن ذكره بذكرهم، ويلحقه بهم، ويسكنه الجنة معهم، بما يغمره به من رحمته وفضله وإحسانه.

توجيه:

وصدور ذلك الإنذار البليغ من مثل تلك النملة في ضعفها وصغرها طريف مستظرف، ككل شيء يصدر من حيث لا ينتظر صدوره منه، فهذا مبعث تعجب سليمان ﷺ.

وشهادة النملة له ولجنوده بأنهم لو وطئوا النمل لوطئوه عن غير شعور، فهم لرحمتهم وشفقتهم وارتباطهم بزمام التقوى وأخذهم بالعدل لا يتعمدون التعدي على أضعف المخلوقات العجماء. هذه الشهادة أدخلت السرور على سليمان ﷺ لما دلت عليه من ثبوت هذا الوصف العظيم له ولجنده، وظهوره منهم واشتهارهم به. كما بعث سروره شعوره بما آتاه الله من الملك العظيم والعلم الذي لم يؤته غيره، حتى فهم ما همست به النملة، وهي من الحكل[1] الذي ليس له صوت يستبان في حال من الأحوال.

أدب من سرّته النعمة:

نعم الله على العبد تدخل عليه السرور بجبلة الفطرة، والفرح بنعمة الله من الاعتراف بفضله والإكبار لنواله.

ومن أدب العبد ـ حينئذ ـ أن يسأل الله التوفيق لشكر تلك النعمة بصرفها في الطاعة،

---

(١) الحُكْلُ: جمع أَحْكَل، وهو الأعجم من الطيور والبهائم، وما لا يسمع له صوت كالذرّ والنمل (المعجم الوسيط: ص ١٩٠).

والتوفيق بشكرها، بما يقوم به من أعمال صالحة في رضى الله، كما فعل سليمان ﷺ.

إذا أنعم الله على الأبوين بنعمة الإيمان والصلاح، فهي نعمة على ولدهما إذا اتبعهما، وتكون تلك النعمة من الله عليهما سيما في حسن تربيتهما له وتوجيهه في الوجهة الصالحة.

كما أن نعمة الله على الولد هي نعمة على والديه فهو من أثرهما، ومثل حسناته في ميزانهما، لأنهما أصل ذلك وسببه، ويدعو له الناس، فيدعون لهما ويدعو هو لهما، وقد يؤذن له فيشفع لهما.

فالنعمة على الوالد هي نعمة مزدوجة بينهما، ولهذا ذكر سليمان ـ ﷺ ـ نعمة الله على والديه مع نعمته عليه.

الغاية المطلوبة:

إن شعور العبد برضى الله عنه، هو أعظم لذة روحية تعجز عن تصويرها الألسن. وإحلال الرضوان على أهل الجنة أكبر من كل ما في الجنة من نعيم؛ فالغاية التي يسعى إليها الساعون ويعمل لها العاملون هي رضى الله.

فالعمل الصالح ترتضيه العقول، وتستعذبه الفطر، ولكنه لا يفيد صاحبه إذا لم يبغ به مرضاة الله؛ ولهذا قال سليمان ﷺ: ﴿**ترضاه**﴾.

جمع وتحقيق:

قال الله تعالى:

﴿**ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾ [النحل: ٣٢] فأفاد أن الأعمال سبب في دخول الجنة.
وفي هذه الآية: ﴿**وأدخلني برحمتك**﴾ فأفاد أن الدخول بالرحمة ولا منافاة ما بينهما.

فالأعمال سبب شرعي لدخول الجنة، والهداية إليه والتوفيق فيه وقبوله هو رحمة من الله جزاء؛ لأنه لا ينتفع به؛ إذ هو الغني عن خلقه، وإنما تفضل فجعله سبباً في نيل ثوابه، ثم تفضل فجعل الجزاء مضاعفاً إلى عشرة أضعاف كثيرة، إلى الموفي للصابرين أجرهم بغير حساب.

دقيقة روحية:

إن الأرواح النورانية الطاهرة السامية لا لذة لها حقيقية في هذا العالم الفاني المادي المنحط، وإنما لذتها الحقيقية في عالمها العالي الأقدس، وفي الرفيق الأعلى الأطهر، وفي معاشرة أمثالها من النفوس الطيبة الزكية، في ذلك القدس الأسنى، فهي دائمة الشوق إليه، والانجذاب نحوه.

ولذا كان من دعوات الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الدخول في الصالحين واللحوق بهم؛ مثل قول سليمان هنا، وقول إبراهيم: ﴿**رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين**﴾ [الشعراء: ٨٣] وقول يوسف: ﴿**توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين**﴾ [يوسف: ١٠١].

وفقنا الله لشكر ما مَنَّ به من سابق النعمة، وللقيام فيما بقي من العمر بواجب الخدمة، وختم لنا باللحوق بعباده الصالحين آمين.

الفصل الرابع

الآية السادسة

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠﴾

[النمل: ٢٠]

﴿تفقد﴾ التفقد تطلبك ما فقدته وغاب عنك، وتعرفك أحواله. **﴿لا أرى﴾** لا أبصر.

﴿الهدهد﴾، هو (تبيب) وهو طائر صغير الجرم منتن الريح ليس من كرام الطير، ولا من سباعها.

﴿ما لي لا أرى﴾؟ استفهم عما حصل له فمنعه من الرؤية، حيث ظن أولاً أن الهدهد كان حاضراً، وإنما هو لم يره.

﴿أم كان من الغائبين﴾؟ استفهم عن غيبته حيث ظن ثانياً أنه غائب فاستفهم عن صحة ما ظن، فكلمة أم فيها إضراب، وفيها استفهام، فأضرب إضراب انتقال من ظن إلى ظن.

﴿كان من الغائبين﴾؛ تعريض بقبح فعله، لما انحط عن شرف الحضور، وكان من الغائبين.

المعنى:

تطلب سليمان ـ عليه السلام ـ معرفة ما غاب عنه من أحوال الطير فلم ير الهدهد، وأخذ يتساءل فظن أن شيئاً ستره عنه فلم يره، ولما لم يكن شيء من ذلك، ظن أنه كان غائباً غير حاضر، وذلك هو الظن الأخير الذي حصل به اليقين.

تعليم وقدرة:

من حق الرعية على راعيها أن يتفقدها، ويتعرف أحوالها؛ إذ هو مسؤول عن الجليل والدقيق منها.

يباشر بنفسه ما استطاع مباشرته منها، ويضع الوسائل التي تطلعه على ما غاب عليه منها.

وينيط بأهل الخبرة والمقدرة والأمانة تفقد أحوالها حتى تكون أحوال كل ناحية معروفة مباشرة لمن كلف بها.

فهذا سليمان على عظمة ملكه واتساع جيشه وكثرة أتباعه، قد تولى التفقد بنفسه، ولم يهمل أمر الهدهد على صغره وصغر مكانه.

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «لو أن سخلة[١] بشاطىء الفرات يأخذها الذئب ليسأل عنها عمر».

وهذا التفقد والتعرف هو على كل راع في الأمم والجماعات والأسر والرفاق وكل من كانت له رعية.

تعليل وتحرير:

تفقد سليمان جنس ما معه من الطير للتعرف كما ذكرنا، وذِكْرُ الطير هو الذي تعلقت به القصة، وليس في السكوت عن غير الطير ما يدل على أنه لم يتفقده. فالتفقد لم يكن للهدهد بخصوصه، وإنما لما تفقد جنس الطير فقده ولم يجده، فقال ما قال.

فلا وجه لسؤال من سأل: كيف تفقد الهدهد من بين سائر الطير.

تدقيق لغوي وغوص علمي:

سأل سليمان عن حال نفسه، فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ ولم يسأل عن حال الهدهد فيقل: ما للهدهد لا أراه؛ فأنكر حال نفسه قبل أن ينكر حال غيره.

فنقل الحافظ الامام ابن العربي عن الامام عبد الكريم بن هوازن القشيري شيخ الصوفية في زمانه قال:

«إنما قال ما لي لا أرى لأنه اعتبر حال نفسه إذ علم أنه أوتي الملك العظيم، وسخر له الخلق، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العمل، فلما فقد نعمة الهدهد توقع أن يكون قصر في حق الشكر فلأجله سلبها؛ فجعل يتفقد نفسه، فقال: ما لي».

وكذلك تفعل شيوخ الصوفية إذا فقدوا آمالهم تفقدوا أعمالهم. هذا في الآداب، فكيف بنا اليوم ونحن نقصر في الفرائض؟!

توجيه:

مثل هذه المعاني الدقيقة القرآنية الجليلة النفيسة من مثل هذا الإمام الجليل من أجلّ علوم القرآن وذخائره.

إذ هي معاني صحيحة في نفسها.
ومأخوذه من التركيب القرآني أخذاً عربياً صحيحاً.
ولها ما يشهد لها من أدلة الشرع.

وكل ما استجمع هذه الشروط الثلاثة فهو صحيح مقبول.

---

(١) السخلة: الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد. جمعهاسَخْلٌوسِخالٌ وسُخْلان (المعجم الوسيط: ص ٤٢٢).

ومنه فهم عمر وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أجل رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من سورة النصر[١].

أما ما لم تتوفر فيه الشروط المذكورة، وخصوصاً الأول والثاني؛ فهو الذي لا يجوز في تفسير كلام الله، وهو كثير في التفاسير المنسوبة لبعض الصوفية: كتفسير ابن عبد الرحمن السلمي من المتقدمين، والتفسير المنسوب لابن عربي من المتأخرين.

الآية السابعة

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾

[النمل: ٢١]

﴿عذاباً شديداً﴾ بنتف ريشه، هكذا فسره ابن عباس وجماعة من التابعين[٢].

﴿بسلطان مبين﴾ بحجة قاطعة توضح عذره في غيبته. سميت الحجة سلطاناً لما لها من السلطة على العقل في إخضاعه.

أفادت «أو» أن المحلوف على حصوله هو أحد الثلاثة، فإذا حصلت الحجة فلا تعذيب ولا ذبح، ولو لم تحصل لفعل أحدهما.

وقدم التعذيب لأنه أشد من القتل، وحالة الغضب تقتضي تقديم الأشد.

المعنى:

يقسم سليمان على معاقبة الهدهد ـ وقد تحقق غيبته ـ بالتعذيب أو بالذبح، إذا[٣] لم يأته بالحجة التي تبين عذره في تلك الغيبة، ولا يستثني للعفو ولا يجعل سبباً لسلامته من العقوبة إلا الحجة.

---

(١) روى البخاري في صحيحه (كتاب تفسير القرآن، باب ٤، حديث ٤٩٧٠) عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم. فدعا ذات يوم فأدخله معهم، فما رُؤيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم؛ قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾؟ فقال بعضهم: أُمرنا نحمدُ الله ونستغفره إذا نُصرنا وفُتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجَلُ رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ وذلك علامة أجلك ﴿فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توّاباً﴾. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول.

(٢) منهم مجاهد وقتادة والضحاك ويزيد بن رومان وابن زيد وحسين بن أبي شداد. انظر تفسير الطبري (٩/٥٠٦، ٥٠٧).

(٣) كانت بالأصل «إذْ» والصواب ما أثبتناه.

توجيه واستنباط:

ليس في الآية ما يفهم خصوص نتف الريش من لفظ العذاب الشديد، وإنما فهم ابن عباس - رضي الله عنه - وأئمة من التابعين ذلك بالنظر العقلي والاعتبار؛ فإن نتف ريشه يعطل خاصية الطيران فيه، فيتحول من حياة الطير إلى حياة دواب الأرض، وذلك نوع من المسخ، وقد علم أن المسخ في القرآن أشنع عقوبة في الدنيا، فلهذا فسروا العذاب الشديد بنتف الريش.

والإنسان خاصيته التفكير في أفق العلم الواسع الرحيب، فمن حرم إنساناً - فرداً أو جماعة - من العلم فقد حرمه من خصوصية الإنسانية، وحوله إلى عيشة العجماوات، وذلك نوع من المسخ، فهو عذاب شديد، وأي عذاب شديد؟!

كان هذا الهدهد من جنود سليمان التي حشرت له، وقد كان في مكانه الذي عين له وأقيم فيه، فلما فارق وترك الفرجة في صفه وأوقع الخلل في جنسه استحق العقاب الصارم الذي لا هوادة فيه.

وهذا أصل في صرامة أحكام الجندية وشدتها؛ لعظم المسؤولية التي تحملتها وتوقف سلامة الجميع على قيامها بها، وعظم الخطر الذي يعم الجميع إذا أخلت بها.

تقدير العقوبة:

جرم الهدهد صغير، وما كلف إلا بما يستطيعه من الوقوف في مكانه والبقاء في مركزه، ولكن جرمه بإخلاله بهذا الواجب كان جرماً كبيراً؛ فإن الخلل الصغير مجلبة للخلل الكبير، فقدرت عقوبته على حسب كبر ذنبه لا على حسب صغر ذاته.

تنبيه وإرشاد:

كل واحد في قومه أو في جماعته هو المسؤول عنهم من ناحيته، مما يقوم به من عمل حسب كفاءته واستطاعته، فعليه أن يحفظ مركزه ولا يدع الخطر يدخل، ولا الخلل يقع من جهته؛ فإنه إذا قصر في ذلك وترك مكانه فتح ثغرة الفساد على قومه وجماعته، وأوجد السبيل لتسرب الهلاك إليهم. وزوال حجر صغير من السد المقام لصد السيل يفضي إلى خراب السد بتمامه.

فإخلال أي أحد بمركزه - ولو كان أصغر المراكز - مؤد إلى الضرر العام.

وثبات كل واحد في مركزه وقيامه بحراسته هو مظهر النظام والتضامن وهما أساس القوة.

الحق فوق كل أحد:

لقد أغضب سليمان غياب الهدهد، فلذا توعده هذا الوعيد، وأكده هذا التأكيد، ولكن سلطان سليمان في قوته وملكه ومكانته يجب أن يخضع لسلطان آخر هو أعظم من سلطانه: هو سلطان الحق، والحق فوق كل أحد، وملك سليمان ملك حق، فلا بد له من الخضوع لسلطان الحجة، ليقيم ميزان العدل، والعدل أساس الملك، وسياج العمران. اهـ.

الفصل الخامس

الآية الثامنة

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

[النمل: ٢٢]

﴿مكث﴾أقام. وقرأ عاصم بفتح الكاف.
﴿غير﴾ صفة زمان محذوف فالتقدير زماناً غير بعيد.

فاعل (مكث) هو الهدهد مثل فاعل قال الآتي.
﴿أحطت﴾، الإحاطة بالشيء، عقلياً هي العلم به من جميع نواحيه.

﴿سبأ﴾ اسم مدينة باليمن، سميت باسم سبأ جد العرب اليمانية حمير وغيرها، وصرفه الجمهور على اعتبار المكان، ومنه من الصرف المكي والبصري على اعتبار البلدة[1].

﴿بنبأ﴾ النبأ الخبر الذي له شأن وخطورة. و (اليقين) المحقق؛ جعله نفس اليقين مبالغة في تحققه.

وفي الكلام إيجاز بالحذف إذ المعنى: فجاء الهدهد فسأله سليمان عليه السلام عن سبب مغيبه فقال: . . .

المعنى:

لم تطل غيبة الهدهد عن مركزه في جنود سليمان، فلم يلبث في غيبته إلا زماناً قصيراً، وكان سؤال سليمان عن غيبته فور رجوعه، فأسرع بالجواب والاعتذار عن الغيبة، والدفاع عن نفسه، فقال: اطلعت على شيء لم تطلع أنت عليه، وعرفته من جميع نواحيه، وقد أتيتك من بلدة سبأ بخبر خطير، ذي شأن عظيم تيقنته غاية اليقين.

توجيه واستنباط:

كان في جواب الهدهد حجة بينة لسبب غيابه، وذلك لأنه لم يذهب عابثاً، ولا لغرض خاص به، وإنما ذهب مستطلعاً مكتشفاً، فحصَّل علماً، وجاء بخبر عظيم في زمن قصير، فرجحت هذه الفوائد العظيمة بتركه لمركزه في الجند فسقطت عنه المؤاخذة.

فإن قيل: إن أصل مفارقته لمركزه دون استئذان كان مخالفة يستوجب عليها العقوبة؟

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان (٣/١٨١): «سبأ: أرض باليمن مدينتها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، فمن لم يصرف فلأنه اسم مدينة، ومن صرفه فلأنه اسم البلد فيكون مذكراً سمي به مذكراً. وسميت هذه الأرض بهذا الاسم لأنها كانت منازل ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان».

فالجواب أن هذه المخالفة كانت لقصد حسن وهو الاستطلاع، وأثمرت خيراً، فاستحق العفو عن تلك المخالفة التي كانت عن نظر، ولم تكن عن تهاون وانتهاك للحرمة.

فإن قيل: ما الذي أوقع في نفس الهدهد رغبته في طلب ما طلب؟

فالجواب: أنه يجوز أن يكون قد مر باليمن من مكان بعيد ببصره الحاد، فرغب في المعرفة، أو أن يكون قد مر باليمن من قبل، ولم يتحقق من حالها فأراد أن يتحقق.

وهذه الآية مأخذ من مآخذ الأصل القائل: إن المخالف للأمر عن غير انتهاك للحرمة لا يؤاخذ بتلك المخالفة.

ومن فروع هذا الأصل سقوط الكفارة عمن أفطر رمضان متعمّدًا[1] متأولاً تأويلاً قريباً.

عزة العلم وسلطانه:

ابتدأ الهدهد جوابه معتزاً بما أحاط به من العلم، متجملاً بما حصل منه، مظهراً لارتفاع منزلته به، متحصناً به من العقاب.

ولم تمنعه عظمة سليمان ـ عليه السلام ـ من إظهار علمه وإعلان اختصاصه به دون سليمان.

أدب واقتداء:

قد سمع سليمان هذا الهدهد وأقره عليه، فللصغير أن يقول للكبير وللحقير أن يقول للجليل: علمت ما لم تعلم، وعندي ما ليس عندك؛ إذا كان من ذلك على يقين، وكان لقصد صحيح.

ومن أدب من قيل له ذلك ولو كان كبيراً جليلاً أن يتقبل ذلك، ولا يبادر برده، وعليه أن ينظر فيه ليعرف مقدار صدق قائله فيقبله أو يرده بعد النظر والتأمل؛ إذ قد يكون في أصغر مخلوقات الله وأحقرها من يحيط علماً بما لم يحط مثل سليمان ـ عليه السلام ـ في علمه وحكمته، واتساع مدركاته.

وكفى بمثل هذا زاجراً لكل ذي علم عن الإعجاب بعلمه، والاعتزاز بسعة اطلاعه، والترفع عن الاستفادة ممن دونه.

مدرك عقيدة:

لا يعلم أحد من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ شيئاً مما غاب عنه إلا بإعلام الله، فليس لهم كشف عام عن جميع ما في الكون، وإنما يعلمون منه ما أطلعهم الله عليه.

ومن مدارك ذلك هذه القصة: فإن سليمان عليه السلام، لم يكن يعلم من مملكة سبأ شيئاً حتى أطلعه الله عليه بواسطة الهدهد.

---

(١) تحرفت في الأصل المطبوع إلى «معتمداً». بتقديم العين على التاء. فاقتضى التصحيح.

وإذا كان هذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فغيرهم من عباد الله الصالحين من باب أحرى وأولى.

تحقيق تاريخي:

رويت في عظم ملك سليمان روايات كثيرة ليست على شيء من الصحة، ومعظمها من الإسرائيليات الباطلة التي امتلأت بها كتب التفسير، مما تلقى من غير تثبت ولا تمحيص، من روايات كعب الأخبار ووهب بن منبه، وروى شيئاً من ذلك الحاكم في مستدركه، وصرح الذهبي ببطلانه.

ومن هذه المبالغات الباطلة أنه ملك الأرض كلها مشارقها ومغاربها، فهذه مملكة عظيمة بسبأ كانت مستقلة عنه، ومجهولة لديه، على قرب ما بين عاصمتها باليمن وعاصمته بالشام.

الفصل السادس
الآية التاسعة

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾

[النمل: ٢٣]

﴿**وجدت**﴾ أصبت ﴿**امرأة**﴾ هي بلقيس بإجماع المفسرين والمؤرخين.

﴿**تملكهم**﴾ تتولى أمرهم ملكة عليهم. وعبر بالمضارع تصويراً للحال العجيب وهو أن تتولى ملكهم امرأة.

وعاد الضمير على سبأ ضمير جمع مذكر[1] على معنى القوم، إذ كانوا يسمون باسم أبيهم، فذكر لفظ سبأ أولاً بمعنى المدينة[2] وأعيد عليه الضمير بمعنى القوم على أسلوب الاستخدام.

﴿**من كل شيء**﴾ لفظ عام أريد به كل ما تحتاج إليه، من أشياء الملك والسلطان والقوة والعمران.

﴿**عرش**﴾ هو سرير الملك الذي تجلس عليه ﴿**عظيم**﴾ في كبره وقوته وحسنه.

المعنى:

يقول الهدهد لسليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ مبيناً الخبر العظيم الذي جاء به:

إني وجدت أولئك القوم الذين يسكنون تلك المدينة، قد جعلوا امرأة ملكة عليهم، وقد

---

(١) في «تملكهم».

(٢) في «وجئتك من سبأ».

أعطيت تلك الملكة كل ما تحتاج إليه[1] في نظام ملكها وعظمته، ومن مظاهر تلك العظمة السرير العظيم الذي تجلس عليه بين أهل مملكتها.

عظمة المملكة العربية اليمنية:

كانت بلقيس ملكة على اليمن، في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد. وقد كانت ملكة عظيمة على مملكة عظيمة راقية.

والهدهد الذي شاهد ملك سليمان وعظمته، قد استعظم ملكها وعرشها، وعظمة العرش عنوان عظمة الملك؛ فلذا خصصه الهدهد بالذكر، ورغب سليمان في الإتيان به.

تفوق العرب على الإسرائيليين:

كل ذلك الرقي وتلك العظمة بلغتها المملكة العربية اليمنية بنفسها، من تفكيرها وعملها من قرون بعيدة.

فأما الإسرائيليون - وهم إذ ذاك في القرن الخامس من تاريخهم - فإنهم لم يبلغوا في ذلك العهد إلى شيء من ذلك.

وما كان لسليمان من بناءات ومنشآت فهو مما صنعته له الجن والشياطين، كما جاء في آيات من القرآن عديدة.

ولم يترك بنو إسرائيل من الآثار ما يدل على شيء ذي بال من الفن والقوة.

فأما ما تركته اليمن فهو شيء كثير قائم مشاهد والاكتشافات ما زالت تظهر منه شيئاً فشيئاً.

ولاية المرأة الملك:

ثبت عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال:

«لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»[2].

قاله لما بلغه أن الفرس ملكوا عليهم امرأة؛ فاقتضى هذا ألا تلي المرأة ولاية ولا إمارة ولا قضاء.

وأيدت هذا النص الصحيح السنة العملية، فأخذ به جمهور أئمة الإسلام، وجاءت روايات عليلة عن بعضهم، لم يلتفت إليها، ولم يعمل بها.

تعليل:

لا تصلح المرأة للولاية.

---

(١) تحرفت في الأصل المطبوع إلى «إليها» فاقتضى التصحيح.

(٢) أخرجه من حديث أبي بكرة البخاري في المغازي باب ٨٢، والفتن باب ١٨. والترمذي في الفتن باب ٧٥. والنسائي في القضاء باب ٨. وأحمد في المسند (٥/٣٨، ٤٣، ٤٧، ٥١).

من ناحية خلقتها النفسية، فقد أعطيت من الرقة والعطف والرأفة ما أضعف فيها الحزم والصرامة اللازمين للولاية.

وفي اشتغالها بالولاية إخلال بوظيفتها الطبيعية الاجتماعية التي لا يقوم مقامها فيها سواها وهي القيام على مملكة البيت، وتدبير شؤونه، وحفظ النسل، بالاعتناء بالحمل والولادة وتربية الأولاد.

دفع اعتراض:

في تواريخ الأمم نساء تولين الملك، ومن المشهورات في الأمم الإسلامية: شجرة الدر في العصر الأيوبي، ومنهن من قضت آخر حياتها في الملك، وازدهر ملك قومها في عهدها.

فما معنى نفي الفلاح عمن ولوا أمرهم امرأة؟

هذا اعتراض بأمر واقع، ولكنه لا يرد علينا.

لأن الفلاح المنفي هو الفلاح في لسان الشرع، وهو تحصيل خير الدنيا والآخرة، ولا يلزم من ازدهار الملك أن يكون القوم في مراضاة الله، ومن لم يكن في طاعة الله فليس من المفلحين، ولو كان في أحسن حال فيما يبدو من أمر دنياه.

على أن أكثر من ولوا أمرهم امرأة من الأمم إذا قابلهم مثلهم، كانت عاقبتهم أن يغلبوا.

الآية العاشرة

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

[النمل: ٢٤]

﴿من دون الله﴾ تجاوزوا عبادة الله إلى عبادة الشمس.
﴿زين﴾ حسن، ﴿أعمالهم﴾ سجودهم للشمس وغيره من أعمال كفرهم.
﴿فصدهم﴾ صرفهم صرفاً شديداً.
﴿السبيل﴾ هو الطريق الوحيد المعهود للنجاة وهو توحيد الله.
﴿لا يهتدون﴾ لا يكون منهم سلوك في طريق الحق والسداد.

جملة ﴿وجدتها﴾ مستأنفة للبيان جواباً على تقدير سؤال فالكلام السابق بين حالتها من ناحية الدنيا، فتشوقت نفس السامع إلى معرفة حالتها من ناحية الدين.

وعدم اهتدائهم مسبب عن صد الشيطان لهم، وصده مسبب عن تزيينه لأعمالهم، هذا ما تفيده (الفاء)[1].

---

(١) في قوله تعالى: ﴿فصدهم﴾.

المعنى:

وجدتها وقومها مجوساً يعبدون الشمس فيسجدون لها، ولا يسجدون لله.

وقد تمكن الشيطان منهم فحسن في أعينهم أعمالهم، فصرفهم عن عبادة الله وتوحيده، مع ظهور الدلائل ووضوح الآيات؛ فثبتوا على ضلالهم: لا يكون منهم اهتداء لطريق النجاة الظاهر، في حال من الأحوال.

سلاح الشيطان وأصل الضلال:

محبة الإنسان نفسه غريزة من غرائزه، وهو محتاج إليها ليجلب لنفسه حاجتها ويدفع عنها ما يضر بها، ويسعى في تكميلها.

هذه هي الناحية النافعة والمفيدة من هذه الغريزة.

ولكنها من جهة أخرى هي مدخل من أعظم مداخل الشيطان على الإنسان، فيحسن له أعماله، وهو لمحبة نفسه يحب أعماله ويغتر بها؛ فيذهب مع هواه في تلك الأعمال على غير هدى ولا بيان، فيهلك هلاكاً بعيداً.

فاستحسان المرء لأعماله هو أصل ضلاله، وتزيين الشيطان لتلك الأعمال هو أحد أسلحة الشيطان.

الوقاية:

فعلى المرأ أن يتهم نفسه في كل ما تدعوه إليه، وأن يزن جميع أعماله بميزان الشرع الدقيق، خصوصاً ما تشتد رغبته فيه، ويعظم حسنه في عينيه.

الآية الحادية عشرة

﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النمل: ٢٥]

﴿ألا يسجدوا﴾ عدم سجودهم، فـ «أنْ» مصدرية، و«لا» نافية، وهو بدل بعض من أعمالهم خصص بالذكر لأنه أصل كفرهم ومبعث فساد أعمالهم.

﴿الخبء﴾ الشيء المخبوء، فَعْل بمعنى مفعول، يقال: خبأت الشيء أخبؤه خبأ، بمعنى: سترته عن العيون.

فالخبء يشمل كل ما احتوته السموات والأرض مما يبرزه الله للخلق لمنفعتهم فتشاهده العيون مثل المطر والنبات، أو تدركه العقول، مثل بدائع الخلق، ودقائق الصنع.

ومنه ما يكشفه الله لعلماء الأكوان من أسرار الخلقة عندما يستعملون عقولهم ووسائلهم العلمية، فيأتون بما فيه نفع للعباد ورقي للعمران.

(ما يخفون) ما يكتمون في أنفسهم أو عن غيرهم. (ويعلنون) يظهرون للناس.

المعنى:

زين لهم الشيطان من أعمالهم على الخصوص عدم سجودهم لله، الذي أقام عليهم الحجة، بما يخرجه لهم من الخيرات المختبئات في السموات والأرض: من أمطار السماء، ونبات الأرض، مما يدل على عظيم قدرته، ولطف علمه الذي أحاط بما ببواطن الأشياء وظواهرها، وبما تنطوي عليه السرائر، أو تواريه الستائر، وبما هو ظاهر للعموم.

استدلال وتوجيه:

السجود مظهر لغاية الذل والخضوع والانقياد والاستسلام، وتلك أصل العبادة. ولا يستحقها من العبد إلا من هو ـ حقيقة ـ المنعم الغني الكامل القوي، وما هو إلا خالقه؛ فاستدل على استحقاق الله السجود دون غيره، بما ذكر من إخراجه الخبء، ويشمل علمه لما خفي وما علن.

وذلك متضمن لكماله وإنعامه وشمول علمه وعموم سلطانه.

* * *

انبنى على أن السجود عبادة، ولا يستحقها إلا الخالق تحريم السجود للمخلوق، فلا يجوز أن يعظم به أحد أحداً، ولو لم يقصد به العبادة.

أما إذا قصد به العبادة فهو الكفر البواح.

تحذير:

كثيراً ما رأينا في الرسوم التي تنشرها الصحف أناساً من المسلمين راكعين، أو مقاربين للسجود لذي سلطان.

فعلى المسلم أن يحذر من ذلك فلا يفعله، ولا ينحني لأحد من الخلق، وأن ينكره إذا رآه.

تشويق القرآن إلى علوم الأكوان:

من أساليب الهداية القرآنية إلى العلوم الكونية، أن يعرض علينا القرآن صوراً من العالم العلوي والسفلي، في بيان بديع جذاب، يشوقنا إلى التأمل فيها، والعمق في أسرارها.

وهنا يذكر لنا ما خبأه في السموات والأرض لنشتاق إليه، وننبعث في البحث عنه، واستجلاء حقائقه، ومنافعه؛ بدافع غريزة حب الاستطلاع، ومعرفة المجهول.

وبمثل هذا انبعث أسلافنا في خدمة العلم، واستثمار ما في الكون، إلى أقصى ما استطاعوا، ومهدوا بذلك السبيل لمن جاء بعدهم.

ولن نعز عزهم إلا إذا فهمنا الدين فهمهم وخدمنا العلم خدمتهم.

ترتيب في الاستدلال:

إخراج الخبء لا يكون إلا من العالم بذلك الخبء، الذي أحاط علمه به في حال ستره، وفي حال ظهوره، فيدل ذلك على شمول علمه لما ظهر وما بطن، ومنه ما يخفون وما يعلنون، ولذلك عطفه عليه؛ لترتبه عليه، ترتب المدلول على دليله.

الآية الثانية عشرة

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾

[النمل: ٢٦]

﴿**العرش**﴾ مخلوق عظيم من عالم الغيب، أعظم من السموات والأرض.

المعنى:

الموصوف بتلك الصفات، والمنعم بتلك الإنعامات، المستحق للسجود منهم ـ وقد زين لهم الشيطان عدم السجود له ـ هو الله الذي لا معبود غيره، ولا يستحق العبادة سواه؛ خالق المخلوقات كلها، والمالك لها، والمدبر لأمرها، والمتصرف فيها، من أصغر مخلوق إلى أعظم مخلوق، وهو عرشه العظيم، الذي فاق كل ما نرى من عالم الشهادة.

توجيه الترتيب:

لما ذكر استحقاقه للعبادة بكمالاته وإنعاماته، ذكر أن لا مستحق للعبادة غيره، إذ لا يشاركه في تلك الكمالات والإنعامات سواه؛ فكأن الجملة كالنتيجة لما قبلها.

ولما ذكر وحدانيته في الألوهية فلا يعبد سواه، ذكر وحدانيته في الربوبية، بانفراده بالخلق والملك والتصرف والتدبر لهذا المخلوق العظيم، ونبه به على ما دونه من المخلوقات.

ولما كان الحديث على عظمة ملك العباد: ملك النبوة وغيره، ذكر عظمة ملك الله، التي تصغر إزاءها كل عظمة.

قد يتماثل اللفظان، ولكن يجب أن يعبر كل واحد بمعنى لائق بالمقام الذي قيل فيه.

فلقد جاء في حق سليمان عليه السلام: ﴿**وأوتينا من كل شيء**﴾ [النمل: ١٦]، ووصف الهدهد بلقيس بأنها ﴿**أوتيت من كل شيء**﴾ [النمل: ٢٣]، ولما كان المتحدث عنه أولاً هو سليمان، فكل شيء يعم ما يحتاج إليه من أمر النبوة وملك النبوة.

كما أنه قد قال عنها: ﴿**ولها عرش عظيم**﴾ [النمل: ٢٣].
وقال عن الله: ﴿**رب العرش العظيم**﴾ [المؤمنون: ٨٦، النمل: ٨٦].
فعرش عظيم بين عروش الملوك.

وعرش الله عظمته أعظم من السموات والأرض.
وهكذا لا بد من اعتبار المقام في فهم الكلام.

للعبرة والقدرة:

قد ألهم الله الحيوانات إلى ما قد يخفى عن بعض العقلاء، مضى منا كلام عن هذا فيما تقدم من هذه الآيات الكريمة.

وهذا الهدهد بين الهداهد[١]، فله إلهام خاص، يقتضيه تخصيصه بهذا الموقف، واتصاله بسليمان عليه السلام، وزمن الأنبياء زمن خرق العوائد، وظهور الآيات.

وقد كان في حسن بيانه، وترتيب أخباره، وبديع تهديه، عبارة بالغة لأولي الألباب.

فقد تحصن بالعلم، ونوه بالنبأ المتيقن، وفصل النبأ فشرح حاليها الدنيوية والدينية، وتنقل من تشويق إلى تشويق أبلغ منه. فكان متثبتاً فيما أخبر، بارعاً فيما صور، مستدلاً فيما قرر، وفيما أنكر، بصيراً بكيد الشيطان للإنسان، متفطناً للأنبياء الضلالات بعضها على بعض، خبيراً بترتيب الأدلة وحسن الاستنتاج.

وفيما ذكر الله لنا من هذه العبر البالغة من هذا الحيوان الأعجم حث لنا على ـ أن نسلك ـ عندما نخبر ونبين، أو نبحث وننظر، أو نستدل ونرتب ونعلل ـ أن نسلك هذا المسلك.

وإذا كان الله ـ تعالى ـ قد بعث غرابًا، ليتعلم منه ابن آدم كيف يواري سوءة أخيه[٢]، فكذلك ذكر لنا أمر هذه الهدهد الممتاز بين الهداهد لنقتدي به، تنبيهاً لنا على أخذ العلم من كل أحد، والاستفادة من كل مخلوق، والشعور دائماً بالنقص للسلامة من شر أدواء الانسان: العجب، والكبر، والغرور ﴿**وقل رب زدني علماً**﴾ [طه: ١١٤]، ﴿**وفوق كل ذي علم عليم**﴾ [يوسف: ٧٦].

لمحة نفيسة:

الظواهر دلائل البواطن: فالمرء يعرف من سبحات[٣] وجهه، وفلتات لسانه.

وكثيراً ما تدل كلماته على مهنته أو فكرته وعقيدته، كما تدل هيئته أو لبسته وشمائله.

وما يباشره المرء تنطبع به نفسه، ويصطبغ خياله، فيجري على لسانه في تشبيهاته وتمثيلاته وفنون قوله، فقد تختلف العبارات عن شيء واحد في وقت واحد باختلاف نفسيات المتكلمين عليه.

---

(١) ويجمع أيضاً على «هداهيد» (المعجم الوسيط: ص ٩٧٨).

(٢) كما ورد في الآية ٣١ من سورة المائدة: ﴿**فبعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصْبَحَ من النادمين**﴾.

(٣) السُّبحات: مواضع السجود (المعجم الوسيط: ص ٤١٢).

وقد عرف الهدهد بين الطيور بثقوب البصر، والاهتداء إلى الماء في جوف الأرض، خصوصاً هدهد سليمان الممتاز بين الهداهد، فلما استدل ذكر من صنع الله ما هو أقرب إليه، وأغلب عليه، وهو إخراج الخبء الذي منه الماء المخبوء في جوف الأرض.

إشارة علمية:

دلالة الصنعة على الصانع نظرية عقلية قطعية.

فكل ذي صنعة، في مكنته أن يستدل بصنعته عن وجود خالق هذا العالم وكماله؛ يشاهد أن صنعته ما كانت إلا به، وبما له من قدرة فيها، وعلم بها؛ فهداه ذلك إلى أن هذا العالم ما كان إلا من خالق قادر عالم.

فالهدهد ذكر ما هو من عمله في الاستدلال على وجود الخالق تعالى ووحدانيته، ومثله كل ذي صنعة.

وفي كُـلِّ شَيْءٍ لـه آيَـةٌ تَـدُلُّ عـلى أَنَّـهُ الـوَاحِـدُ

القسم الرابع

في سورة يٓس

في هذا القسم:

١ ـ يس والقول في فواتح السور، والفائدة العلمية.
لطف الله في جعل حد للعقل.
خفاء بعض الأحكام ووجهه.
قيام الحجة على الإنسان بما عرف.
٢ ـ الحكمة في هذه الآيات.
٣ ـ العقائد وأدلتها من هذه الآيات.
٤ ـ الوحي مصدر الإسلام.
٥ ـ الإسلام دين العز والرحمة.
٦ ـ النذارة ثمرة الرسالة.
٧ ـ لا يؤمن من سبق في علم الله عدم إيمانه.
٨ ـ لا حجة لمن مات على كفره، بما سبق من علم الله فيه.
٩ ـ تمثيل حال المعرضين عن الحق المعاندين فيه.
١٠ ـ من استوى عنده الإنذار وعدمه، لا يرجى منه إيمان.
١١ ـ الحياة بعد الموت.
١٢ ـ إحصاء الأعمال.
١٣ ـ الإحصاء العام في الكتاب الإمام.

المرسل والرسالة والرسول والمرسل إليهم



(فاتحة سورة يس)

تمهيد:

مثل هذا اللفظ مما افتتحت به بعض سور القرآن للعلماء فيه طريقتان:

الطريقة الأولى:

أنه لفظ له معنى يعلمه الله، فهو من المتشابه الذي لا يعلمه الراسخون، وإنما يؤمنون به، ويردون علمه إلى عالمه.

سؤال وجوابه:

القرآن أنزل للبيان، ولا بيان إلا بالإفهام، فكيف يكون في القرآن لفظ لا يُفهم له معنى؟

والجواب: أن عدم فهم معنى من بضع عشرة كلمة افتتحت بها بعض السور، لا يخل ببيان القرآن، لما أنزل لبيانه من عقائد وآداب وأحكام وغيرها من مقاصد القرآن.

توجيه وتنظير:

إن الله تعالى أعطانا العقل، الذي به ندرك الآيات التي نصبها لنا؛ لنستدل بها على وجوده ووحدانيته وقدرته، وعلمه وحكمته، ولطفه ورحمته.

وبالنظر في هذه الآيات نصل - بتيسير الله - بعقولنا إلى إدراك بدائع عجيبة، وأسرار غريبة، ما تزال تتجلّى لنا ما دمنا نتأمل فيها، ونعتبر بها.

وما يزال الإنسان يكتشف منها حقائق مضت عليها أزمان، وهو يعدّها من المحال، ويجتني منها فوائد ما كانت تخطر له - في أحقابه الماضية - على بال.

غير أن استجلاء هذه الحقائق، واستحصال هذه الفوائد من الآيات الكونية - على نفاستها وعظيم نفعها - محفوف بخطر الإعجاب بذلك العقل، حتى يحسب أنه محيط بالحقائق كلها، وأن مدركاتها يقينيات بأسرها.

فيؤديه حسبانه الأول[1] إلى الفتنة بالمدركات، فيحسب أن لا شيء بعدها فقد يخرج إلى إنكار خالقها.

ويؤديه حسبانه الثاني[2] إلى الذهاب في ظنونه وأوهامه وفرضياته، إلى غايات لا نسب بين اليقين وبينها.

---

(١) أي أنه محيط بالحقائق كلها.

(٢) أي أن مدركاتها يقينيات بأسرها.

فكان من لطف الله بالإنسان أن جعل لعقله حداً يقف عنده، وينتهي إليه، ليسلم من هذا الخطر: خطر الإعجاب بالعقل.

ففي آيات الله الكونية حقائق كثيرة تقف العقول حيارى أمامها، وقد تشهد آثارها، ولا تستطيع أن تعرف كنهها، كحقيقة الكهرباء في الكون، وحقيقة الروح والعقل في الإنسان.

فمثل هذه الحقائق المنغلقة التي يرتد عقل الإنسان إليه عنها خاسئاً وهو حسير، هي التي تعرِّفه بقدره، وبعظمة هذا الكون، وفخامة أمره، فيقف بعقله عند حد النظر والاعتبار، والاستدلال ببديع الصنعة وعظيم النعمة على حكمة الله البالغة، ومنّته السابغة، دون خلط للأوهام بالحقائق، ولا فتنة بالمخلوق عن الخالق.

هذه الحقائق التي خفيت عن العقل البشري، فلم يدرك كنهها، لم تقدح في دلالة آيات الأكوان، على ما دلت عليه من وجود الخالق ووحدانيته، وقدرته، وعلمه، وحكمته، وفضله، وإحسانه، ورحمته.

فكذلك لم يقدح في بيان القرآن ودلالة آياته، خفاء معاني بضع عشرة كلمة من كلماته.

وكما كان خفاء تلك الحقائق في الآيات الكونية، إيقافاً للعقل عند حده، وتعريفاً له بقدره، وتنبيهاً له على عظم آيات ربه؛ كذلك كان خفاء هذه المعاني في الآيات القرآنية لمثل ذلك.

ونظير الآيات الكونية والآيات الكلامية في هذا الجلاء العام، والخفاء الخاص.. جملة من الأحكام:

كعدد الصلوات، والركعات، والسجدات، التي خفيت على العقول حكمتها، وقد ظهرت الحكم الكثيرة الجلية في سائر أحكام الشريعة غيرها.

ولم يقدح في حكمة الشريعة في أحكامها، خفاء ما خفي في بعضها.

كما لم يقدح خفاء ما خفي من حقائق الآيات الكونية، ومعاني الآيات الكلامية في دلالتها وبيانها.

والحكمة هنا في هذه الأحكام هي الحكمة المتقدمة فيهما.

ونظير الآيات الكونية، والآيات الكلامية، والأحكام الشرعية، في هذا الخفاء الجزئي تصرفات الله في خلقه بمجاري أقداره.

فقد تظهر حكمة الله فيها، وقد تخفى.
وقد تخفى دهراً وتظهر بعد مدة.

وقد نبهنا الله على هذه الحقيقة، بما قص علينا في قصة يوسف عليه السلام، وما كان مجهولاً من حكم قدر الله في مبدإ أمره، وما ظهر من تلك الحكم الباهرة للقدر في آخر أمره.

وبما قصه علينا في قصة أم موسى ـ عليه السلام ـ لما أوحى إليها بقذفه في اليم، وعدم الخوف عليه، وما كان من عواقب أمره.

وكما لا ينفي الحكمة عن تدبير الله عدم ظهورها.. كذلك لا ينفي الحكمة عن شرعه عدم فهمها، ولا يقدح في دلالة الآيات وبيانها، عدم إدراك كنهها، أو عدم فهم معناها.

ففي خلق الله، وفي شرع الله، وفي قدر الله، وفي كلام الله، ما يخفى على العقول إدراك حقيقته، أو حكمته، أو معناه، لطفاً من الله بالإنسان وتنبيهاً له.

وقد قامت الحجة عليه فيما جهل بما عرف، وتجلت له بدائع الخلقة وجلائل النعمة فيما ظهر، فآمن بوجود مثلها فيما خفي.

إذ الرب الحكيم الرحيم، لا يكون منه إلا ما هو حكمة، وفيه نعمة.

فكان الإنسان(١) في القسم الأول(٢) مدركاً مستدلّاً معتبراً، قد استعمل عقله فأداه إلى الإيمان واليقين فيما ظهر. وكان في القسم الثاني(٣) مصدقاً مذعناً لربه صاغراً، قد أدرك الحجة فآمن بالغيب فيما استتر، فجمع بين النظر والاستدلال، والتسليم والإذعان.

فهذا توجيه وجود لفظ من كتاب الله لا نفهم معناه ـ عند من يقول به ـ ببيان حكمته، مع تنظيره بمثله في خلق الله وشرعه وقدره.

بناء العمل على هذا العلم:

قد رأيت كيف يقف العقل عاجزاً أمام بعض أسرار الخلق والقدر والشرع.

والقرآن مع يقينه بما علم منها أن ما عجز عن إدراكه، ما هو إلا مثل ما عرف في كماله في الحق والحكمة والنعمة؛ إذ الجميع ـ ما عرف وما عجز عنه ـ من إله واحد حكيم خبير، رحمن رحيم.

فليذكر الناظر في خلق الله، وقدره، وشرعه، وكلامه، دائماً هذه الحقيقة:

وهي ثبوت الحق والحكمة والنعمة في جميعها، وإمكان عجز عقله في بعض المواضع والأحوال عن إدراكها؛ فيكون عمله في خلق الله هو النظر والبحث والتحليل والاكتشاف، واستجلاء الحقائق الكونية، واستخراج الفوائد العلمية والعملية، إلى أقصى حد توصله إليه معلوماته وآلاته.

حتى إذا انتهى إلى مشكل استغلق عليه اعترف بعجزه، ولم يرتكب من الأوهام والفروض البعيدة ما يكسو الحقيقة ظلمة، ويوقع الباحث من بعده في ضلالة أو حيرة.

فكثيراً ما كانت الفروض الوهمية الموضوعة موضع اليقينيات، سبباً في صد العقول عن النظر، وطول أمد الخطأ والجهل(٤).

---

(١) أي المؤمن كما يؤخذ من كلامه بعد. (٢) أي فيما عرف حكمته. (٣) أي فيما خفي عليه حكمته.

(٤) كفرضية تسطيح الأرض وثباتها بقيم مسلّمة قرونًا عديدة فكانت سببًا في صدّ العقول عن اكتشافات أخرى مهمة.

ويكون عمله في قدر الله هو الاعتبار في تصاريف القدر، واتعاظ بأحوال البشر، واستحصال قواعد الحياة من سير الحياة.

فإذا رأى من تصاريف القدر ما لم يعرف وجهه ولم يتبين له ما فيه من عدل وحكمة وإحسان ورحمة. . . فليذكر عجزه، وليذكر ظهور ما خفي عنه من مثل ذلك في وقت، ثم ظهر له؛ فيوقن أن هذا مثله، وأنه إذا طالت به الأيام قد يظهر له من وجهه ما خفي منه، فيتلقاه الآن بالتسليم والتنزيه، راداً علمه إلى الله تعالى، مفوضاً أمره إليه.

ويكون عمله في شرع الله هو الفهم لنصوص الآيات والأحاديث، ومقاصد الشرع وكلام أئمة السلف، وتحصيل الأحكام وحكمها، والعقائد وأدلتها، والآداب وفوائدها، والمفاسد وأضرارها.

حتى إذا بلغ إلى حكم لم يعرف حكمته وقضاء لم يدر علته، ذكر عجزه فوقف عنده، فلم يكن من المرتابين ولا من المتكلفين.

ولم يمنعه عجزه عن تعليل وتبين وجه ذلك القليل عن المضي في التفهم والتدبر لما بقي له من الكثير.

ويكون عمله في كتاب الله هو التفهم والتدبر لآياته، والتفطن لتنبيهاته، ووجوه دلالاته، واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه، على ما دلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها، وما جاء من التفاسير المأثورة، وما نقل من مفهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم، المشهود لهم بذلك من أمثالهم.

فإذا وقف أمام المتشابه رده إلى المحكم، وإذا انتهى إلى فواتح السور ذكر عجزه فآمن بما لها من معنى، وقال: الله به أعلم.

فبهذا السير النظري، والعمل العلمي المبني على اليقين بعدل الخالق جل جلاله، وحكمته ورحمته في خلقه، وقدره وشرعه وكلامه، ومعرفة العبد بقدره ومقامه، يزداد السائر على مقتضاه إيماناً وعلماً، وفوائد جمة، ويسلم من الغرور والأوهام والفتنة.

وهو سبيل الراسخين الذين يقولون فيما لا يفهمونه:
﴿**آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب**﴾ [آل عمران: ٧].

* * *

الطريقة الثانية:

وذهبت جماعة من أهل العلم، من السلف والخلف، إلى أن هذه الفواتح قد فهمت العرب المراد منها، ولذلك لم تعترض على البيان بها، ولا طعنت في عربيته بعدم فهمها، وإن كنا لا نجد في كلامها ما نعرف به المعنى الذي فهمته منها.

وممن ذهب إلى ذلك الإمام أبو بكر بن العربي، فقال في كتاب «القبس على موطأ مالك بن أنس»:

«وليست من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، فإن محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لو خاطب الكفار منها بما لا يفهم لكان ذلك أقوى أسبابها في الطعن عليه، وكانوا يقولون: هذا يتكلم بما لا نفهم، وهو يدعي أنه بلسان عربي مبين، وما حمعسق في اللسان؟! وما كهيعص في الكلام؟.

فدل أنهم فهموا الغرض وعرفوا المقصود».

اختلاف المتأولين:

أ ـ منهم طائفة تكلمت على كل لفظ من ألفاظ الفواتح، وذكرت له معنى، واختلفوا في تلك المعاني التي ذكروها، وهي كما ذكر الإمام ابن العربي:

لا سبيل إلى تمييز واحد منها بدليل لأنه معدوم، ولا بأثر لأنه غير منقول.

ولا تطمئن إلى شيءٍ منها القلوب التي عاشت على اليقين.
ولا تسلم واحداً منها العقول التي اعتادت قفو[1] العلم على نور الدليل.

ب ـ ومنهم طائفة أخذتها كلها بوجه واحد، فقال بعض:

إنها حروف تنبيه تقرع الأسماع، فتلفت السامعين إلى الاستماع والتدبر؛ لما اشتملت عليه السورة من الأحكام والعقائد والآداب وغيرها، من مقاصد القرآن. فهي نظير (ألا والهاء) في مألوف الاستعمال.

ج ـ وقال بعضهم: إنها حروف تعجيز وإفحام وتقريع؛ لأن القرآن الذي عجزوا عن معارضته، من هذه الحروف وأخواتها تركبت كلماته فكأنما يقال لهم:

ما هذا الذي عجزتم عنه إلا كلام من جنس كلامكم، وما ركبت كلماته إلا مما ركبت منه كلماتكم، وهذا لعجزهم أفضح، ولتقريعهم أوجع.

ومما يؤيد هذا أن أكثر هذه الفواتح ذكر بعده الكتاب المعجز وصفاته مثل قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ [البقرة: ١ و٢]. **﴿الٓمٓ الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزَّل عليك الكتاب بالحق﴾** [آل عمران: ١ ـ ٣]. **﴿الٓمٓصٓ كتاب أنزل إليك﴾** [الأعراف: ١ و٢]. **﴿الٓر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾** [يونس: ١]، **﴿الٓر كتاب أحكمت آياته﴾** [هود: ١]، **﴿الٓر تلك آيات الكتاب المُبين﴾** [يوسف: ١]، **﴿طسٓمٓ تلك آيات الكتاب المُبين﴾** [القصص: ١ و٢]، **﴿الٓمٓ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾** [السجدة: ١ و٢]، **﴿حمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾** [غافر: ١ و٢] وغيرها.

---

(١) القَفْوُ: الاتّباع. وفي التنزيل العزيز: **﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم﴾**.

الفائدة العملية:

قد افتتحت هذه السور من القرآن العظيم بكلمات التنبيه، وجاءت أول سورة منه بعد الفاتحة مفتتحة به.

فلتكن عند قراءته في انتباه، وإقبال على استيعاب لفظه، وتفهم معناه، فإن التالي للقرآن والسامع له في حضرة الرب على بساط القرب، والغفلة في هذا المقام من قلة الأدب.

ومن قل أدبه في مقام الإحسان والكرامة، استوجب أضعاف ما يستوجبه غيره من العتب والملامة، وتعرض لموجبات الحسرة والندامة.

فالله نسأل أن يجعلنا من قرآنه على انتباه واستحضار، آناء الليل وأطراف النهار، العاملين به بالعشي والإبكار، إنه الجواد الكريم الستار.

تابع المرسل والرسول والرسالة والمرسل إليهم:

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾

[يٓس: ٢ ـ ٦]

﴿الحكيم﴾: هو الموصوف بالحكمة، وأصل اللفظ من حكم بمعنى أمسك، فالحكمة هي العلم الصحيح الذي يمسك صاحبه عن الجهالات والضلالات والسفالات؛ فيكون ذا إدراك للحقائق قويم وخلق كريم، وعمل مستقيم لا يحكم إلا عن تفكير، ولا يقول إلا عن علم، ولا يفعل إلا على بصيرة؛ فإذا نظر أصاب، وإذا فعل أصاب، وإذا نطق أتى بفصل الخطاب.

ووصف القرآن بالحكيم، لأنه هو العلم الصحيح المثمر لهذا كله، و(الصراط المستقيم) هو دين الإسلام الذي جاء به جميع المرسلين قبل النبي ﷺ.

﴿تنزيل﴾ بمعنى منزل، وهو الصراط المستقيم.
﴿العزيز﴾ الغالب الممنع الذي لا نظير له.
﴿الرحيم﴾ المنعم الدائم الإنعام والإحسان.

(الإنذار) الإعلام بوقوع ما يُخاف منه، وهو الهلاك والعذاب العاجل والآجل.

و(الغافل) عن الشيء: التارك له المعرض عنه مع حضوره لديه لاشتغال باله بسواه.

المعنى:

أقسم الله تعالى بالقرآن الحكيم على أن محمداً ـ ﷺ ـ من المرسلين رداً على من قالوا: «لست مرسلاً»، في حال أنه على دين الإسلام الذي بعثه الله، ثابتاً عليه في عقده وقوله وفعله وجميع أمره.

وأخبر تعالى أن هذا الإسلام الذي جاء به النبي ـ ﷺ ـ نزله عليه القوي الغالب الذي لا يغالب، العديم الشبه والنظير، والمنعم الدائم الإنعام المستمر الاحسان.

وبيّن تعالى أنه كان من المرسلين لينذر الأمة العربية، ويُعلمها سوء عاقبة ما هي عليه من الشرك والضلال.

تلك الأمة التي ما أُنذر آباؤها، فهي مشتغلة بما توارثته من آبائها من عبادة الأوثان وارتكاب الإثم والعدوان، وأنواع الضلال والخسران، معرضة عن توحيد خالق الأرض والسموات، وعن النظر فيما نصب للدلالة عليه من الآيات، طال عليها أمد الجهالة، واستولت عليها أسباب الضلالة، فتمكنت منها الغفلة التمكن التام؛ فذهبت في أوديتها البعيدة المدى، كالأنعام أو أضل من الأنعام.

* * *

أصل المعرفة والسلوك من هذه الآية الكريمة:

خلق الله الخلق حنفاء موحدين، فأتتهم الشياطين فأضلتهم عن سواء السبيل، فمن رحمته ـ تعالى ـ بهم أن أرسل إليهم رجالاً منهم لهدايتهم، وأنزلَ عليهم كتباً منه لدلالتهم.

فالله هو المرسل، تلك الكتب هي رسائله، وأولئك الرجال هم رسله، والخلق هم المرسل إليهم.

المعرفة:

فللمرسِل العلو والكمال، وله الخلق والأمر، ومنه الرحمة والعدل والإحسان والفضل، وله الربوبية والألوهية دون شريك ولا مثال.

وفي تلك الرسائل الحق والحكمة، والنور المُخرج من كل ظلمة، والفرقان في كل شبهة، والفصل في كل خصومة، بها تفتح البصائر، وتطهر الضمائر، وتعرف طريق الحق والهدى من طرائق الباطل والضلال.

ولأولئك الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أكمل ما يمكن للإنسان من كمال، وأكمل المعرفة بالمرسِل ـ تعالى ـ وأعظم الخشية له، وأكمل الرحمة بالخلق، وأشد الشفقة عليهم، وأكمل العلم بما جاءوا به، وأعظم التمسك به، وأكثر الاتباع له.

فلا كمال إلا بالاقتداء بهم، ولا نجاة إلا باتباعهم، ولا وصول إلى الله تعالى إلا باقتفاء آثارهم.

وللمرسَل إليهم عجز المخلوق وضعفه أمام خالقه، وحاجته وافتقاره إليه، وعليه حق عبادته وطاعته والرجاء لفضله، والخوف من عقابه والفكر في آياته ومخلوقاته، والنهوض للعمل في مرضاته، واستثمار أنواع نعمائه، والشكر له على جميع آلائه.

فبمعرفة هذه الأربعة حق معرفتها، ومعرفة مقام كل واحد منها وما له فيه؛ كمال الانسان العلمي، الذي هو أصل كماله العملي، والشرط اللازم فيه.

وقد اشتملت هذه الآيات على هذه الأربعة في حق الأمة المحمدية:
فالمرسِل هو ﴿العزيز الرحيم﴾.
والرسالة هي: ﴿القرآن الحكيم﴾.
والرسول هو محمد ﷺ المخاطب بـ ﴿إنك لمن المرسلين﴾.
والمرسل إليهم هم العرب الذين: ﴿ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾.

* * *

تمهيد:

لما ضل الخلق عن طريق الحق والكمال، الذي يوصلهم إليه: إلى مرضاته والفوز بما لديه، أرسل إليهم الرسل ليعرفوهم بأن ذلك الطريق هو الإسلام، وليكونوا أدلتهم في السير، وقادتهم إلى الغاية، وأنزل عليهم الكتب لينيروا لهم بها الطريق، ويقودوهم على بصيرة، ويتركوهم على البيضاء ليلها كنهارها[١]، لا يهلك عليها إلا من ظلم نفسه فحاد عن السواء، أو تخلف عن القافلة فكان من الهالكين.

فالقافلة هم الخلق، والطريق هو الإسلام، والأدلة هم الرسل، والمصابيح هي الكتب، والغاية هو الله جل جلاله.

السلوك:

فعلى من يريد النجاة من المهالك والفوز بأسنى المطالب وأعلى المراتب، أن ينضم إلى القافلة الربانية، يتعاون مع أفرادها، ويقوم بحق الرفقة فيها، ويعدّ نفسه جزءاً منها: لا سلامة له[٢] إلا بسلامتها؛ فهو يحب لكل واحد منها ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، ويهديه إلى ما يهديها إليه من خير؛ ويقيه مما يقيها منه من سوء.

وأن يطيع أولئك الأدلة، ويقتفي آثارهم، وينزل بنزولهم، ويرتحل بارتحالهم، وأن يرجع في معرفة وجوه السير وأصنافه وأوقاته ومنازله إليهم، دون أدنى اعتراض ولا مخالفة.

ويقابل ما يتحملونه من مشاق الدلالة ومتاعب القيادة بغاية ما يستطيع من الأدب معهم، والتعظيم والانقياد لهم، والمحبة فيهم، وحسن الثناء عليهم، وطلب عظيم الجزاء من الله تعالى لهم على عظيم إحسانهم.

وأن يلتزم ذلك الطريق، ويسير في سوائه غير مائل إلى جنباته، ولا ذاهب في بنياته[٣].

---

(١) روى ابن ماجة في مقدمة سننه (باب ١ حديث رقم ٥) عن أبي الدرداء قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقر ونتخوّفه، فقال: «آلفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده لتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صبًّا حتى لا يُزيغ قلبَ أحدكم إزاغة إلا هي؛ وايم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء». ومعنى قوله: «على مثل البيضاء» أي على قلوب بيضاء نقية عن الميل إلى الباطل، لا يميلها عن الإقبال على الله تعالى السرّاء والضرّاء.

(٢) كانت في الأصل المطبوع: «لها» والصواب ما أثبتناه.

(٣) بُنَيَّةُ الطريق: طريق صغير يتشعّب من الجادة (المعجم الوسيط: ص ٧٢).

لا مُفْرِطًا في السير يسبق الرفقة فينفرد بلا دليل ولا مُفَرِّطًا[١] فيه فيتخلف عنها بلا معين، نمطاً وسطاً مع الجماعة، لا من الغلاة ولا مع المقصرين.

وأن يستنير بما رفعه أولئك الأدلة من مصابيح الهداية، وأن يسير تحت أنوارها الساطعة، مفتح البصر للاستضاءة بها، غير مغلق الأجفان عنها، متعرفاً بها أديم الأرض، وموقع قدمه منها.

وأن يعرف عظيم الغاية التي هو سائر إليها، فيقصر همه كله في الوصول إليها، ويحضرها قلبه في كل لحظات سيره ليسرع مع الرفعة إليها، وتخف عليه[٢] مشاق الطريق واتعابها، ويعذب لديه كل ألم في الانتهاء إليها.

فبسلوك هذا الطريق القويم، بدلالة الرسول الكريم، وأنوار الكتاب المبين، إلى رب العالمين الرحمن الرحيم ـ كمال الإنسان العملي المبني على الكمال العلمي.

وقد اشتملت هذه الآيات على ذكر السالكين، وهم المنذرون، وعلى الدليل وهو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى الطريق وهو «الصراط المستقيم» المنزل من الله، وعلى ما يبين الطريق، وهو القرآن الحكيم.

* * *

الحكمة في هذه الآيات:

قال ابن وهب: سمعت مالك ـ رضي الله عنه ـ يقول:

«الحكمة الفقه في دين الله والعمل به». ففي الفقه في دين الله الكمال العلمي، وفي العمل به الكمال العملي.

وهذه الآيات ـ على إيجازها ـ قد اشتملت على أصول ما به كمال الإنسان العلمي، وكماله العملي، اللذان بهما كماله الروحي والبدني، ونعيمه الدنيوي والأخروي.

وما كماله العلمي وكماله العملي إلا بالمعرفة الصحيحة، والسلوك المستقيم، وهما اللذان تقدم [في][٣] الفصل السابق بيانهما.

وفسر مالك الحكمة بهما؛ إذ الفقه في دين الله هو المعرفة الصحيحة، والعمل به هو السلوك المستقيم، وهما الحكمة التي وصف به في الآية الأولى القرآن العظيم؛ لأ[illegible]تاب العلم والعمل اللذين لا يكون بدونهما حكيم.

---

(١) المُفْرِطُ: من فعل أفرط، أي جاوز الحدّ والقدر في قول أو فعل. والمفَرِّطُ: من فعل فَرَّط، أي قصّر في الأمر وضيّعه حتى فات (المعجم الوسيط: ص ٦٨٣).

(٢) تحرّفت في الأصل المطبوع إلى: «عليها».

(٣) سقطت من الأصل المطبوع.

فكما اشتملت هذه الآيات على أصول الحكمة، دلت على أصلها ومأخذها، وما يكون الإنسان بعلمه والعمل بما فيه من أهلها، وهو القرآن الحكيم.

توجيه القسم في الآيات:

أقسم الله بالقرآن الحكيم على أن محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من المرسلين، لينذر الغافلين حال أنه على صراط عظيم مستقيم، منزل من العزيز الرحيم؛ لأن القرآن هو كتاب محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذي كان يتخلق به، ويهتدي بما فيه، وينذر به، ويدعو إليه ويبينه للناس بقوله وفعله، وهو برهانه وحجته، وآيته ومعجزته.

كما أنه كتاب الإسلام الذي هو الصراط المستقيم.

فيه حجته ودلائله، فيه أحكامه وحكمه، فيه آدابه وشمائله.

فيه بيان حقيقته وما هو منه، ونفي ما ليس منه عنه.

فيه بيان تاريخه وتاريخ الإنسانية معه.

فيه ذكر أوليائه وحسن بلائهم في سبيله، وحسن أثره فيهم، والعود بالعاقبة المحمودة عليهم، وذكر أعدائه وجهدهم في مقاومته، وسقوط شبههم أمام حجته، وذهاب باطلهم أمام حقه، وشدة أخذه لهم على ظلمهم، ونزول نقمته بهم، وحلول دائرة السوء عليهم.

فيه الإسلام كله، فمن طلبه فيه وجده ونجا به؛ ومن طلبه في غيره ضل وكان من الهالكين.

* * *

عقائد وأدلتها من هذه الآيات:

العقيدة الأولى: محمد صلى الله عليه وآله وسلم رسول الله.

دليلها الأول:

القرآن الحكيم الذي جاء به رجل أمي، ما قرأ ولا كتب، ولا دارس العلماء، ولا عرف الكتب.

ودليلها الثاني:

موافقة دعوته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لدعوة المرسلين ـ صلوات الله عليهم ـ إلى عبادة الله وحده، وتصديق ما جاءهم به من عنده، دون أن يسألهم على ذلك أجراً، وهذا من قوله تعالى: **﴿إنك لمن المرسلين﴾**.

فهو من المرسلين من جهة إرساله؛ لأنه منهم في أقواله وأفعاله نظير قوله تعالى: **﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾** [الأحقاف: ٩] وقوله: **﴿بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾** [الصافات: ٣٧]. وقوله: **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾** النساء: ١٦٣].

ودليلها الثالث:

هذا الدين الكامل الجامع، الذي هدي به النوع الإنساني أفراداً وجماعات إلى ما فيه

سعادته، فأطلق فكره، وسدد نظره، وقوم عقائده، وهذب أخلاقه، ونظم اجتماعه، ووضع له قواعد الحياة والعمران على العدل والإحسان، ووجههم إلى خالقهم، وما أعد لهم عنده من النعيم المقيم والرضوان التام.

ودليلها الرابع:

سلوكه هو في حياته على الصراط المستقيم، من يوم عرف الدنيا حتى فارقها؛ فكان يمثله على أكمل وجه، ولا يُخِلّ بشيء منه، ثابتاً عليه، لا يحيد قيد شعرة عنه، دون أن تحفظ عنه زلة، ولا تعرف منه في القيام به والدعوة إليه فترة[1]، ولا تقف أمامه قوة، ولا ترد له حادثة عزمه، ولا تحمله على هوادة فيه رغبة ولا رهبة، ولا تبدل حاله رخاء ولا شدة.

فكان في كرم خلقه، وتمام زهده، وعظيم تألهه[2] وتوجهه لربه، بعدما فتح الله له الفتح المبين، ودخل الناس أفواجاً في الدين.

كما كان أيام كان وحيداً بين أعظم أعدائه من المشركين، وما هذا من شأن البشر وطبعهم لولا عصمة وتأييد رب العالمين.

العقيدة الثانية: القرآن كلام الله ووحيه:

ودليلها:

أنه حكيم، فما فيه من العلم وأصول العمل، لا يمكن أن يكون إلا عند الله، في عقائده ودلائلها وأحكامه وحكمها وآدابه وفوائدها.

إلى ما فيه من حقائق كونية، كانت مجهولة عند جميع البشر، وما عرفت لهم إلا في هذا العصر الأخير.

ومن أشهرها: مسألة الزوجية الموجودة في جميع هذا الكون حتى أصغر جزء منه، وهو الجوهر الفرد المركب من قوتين: موجبة وسالبة.

جاءت هذه المسألة في آيات كثيرة منها قوله تعالى:
﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ [الذاريات: ٤٩].

ومنها مسألة حياة النبات، التي جاءت في مثل قوله تعالى:
﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ومنها مسألة تلاقح النباتات بواسطة الرياح التي تنقل مادة التكوين من الذكر إلى الأنثى، جاءت في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: **﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾** [الحجر: ٢٢]. فهذه حقائق

---

(١) الفَتْرَة: الضعف والانكسار (المعجم الوسيط: ص ٦٧٢).
(٢) التألُّه: التنسّك والتعبّد (المرجع السابق: ص٢٥).

علمية كونية، أجمع عليها علماء العصر أنها من المكتشفات الحديثة، ولم تكن معلومة عند أحد من الخلق قبل اكتشافها، ولا كانت عندهم الآلات الموصلة إلى معرفتها.

وكفى بهذا القلّ من الكثر دليلاً على أن هذا القرآن ما كان إلا من عند الله الذي خلق الأشياء، ويعلم حقائقها.

العقيدة الثالثة: الاسلام دين الله الذي شرعه وارتضاه:

ودليلها مستفاد من وصفه بأنه صراط مستقيم، فهو تشريع تام عام لجميع أعمال الإنسان: أعمال قلبه، وأعمال لسانه، وأعمال جوارحه، وجميع معاملاته الخاصة والعامة بين أفراده وأممه، ولا تخرج كلية من كلياته ولا جزئية من جزئياته عن هذا الأصل العام، المتجلي في جميع الأحكام، وهو «الحق والخير والعدل والإحسان».

* * *

وقد وضع عقلاء الأمم شرائع في بعض نواحي أعمال الإنسان، ولكنها بإجماع المتشرعين لا تخلو من نقص واعوجاج واضطراب، فهم ما يفتئون يتعبونها بالتكميل والتقويم والتعديل على مر الأيام.

ولو عرضت كل حكم من أحكامه على الأصل العام الذي ذكرناه، لوجدته منطبقاً عليه ظاهراً فيه، حتى ما خفي وجهه على الأمم الأجنبية من الإسلام أيام تأخرها قد ظهر لها فضله ونفعه أيام تقدمها فجاء كبراء عقلائها يعترفون فيها بصواب ما شرعه فيها الإسلام.

ثم هم يعجزون عن تطبيقها على أممهم، للعادة الغالبة والوراثة القديمة، منها مسألة الطلاق، وتعدد الزوجات، وتحريم الربا تحريماً باتاً.

فكم من عالم غير مسلم، صرح بأن الحق والعدل والخير للإنسانية في هذه المسائل، هو ما شرعه الإسلام، على الوجه الذي شرعه الإسلام.

بهذه الاستقامة التامة العامة المضطردة، في شرع ما جاء به رجل أمي، من أمة أمية جاهلية، يجزم كل عاقل بأنه ليس من وضع العباد، وإنما هو من وضع خالق العباد.

الوحي مصدر الإسلام

جملة ﴿**تنزيل العزيز الرحيم**﴾ بينت وجه استقامة ذلك الصراط الذي هو الإسلام، بأنه تنزيل العزيز الرحيم.

وأفادت أن جميع هذا الدين وحي من الله منزل على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم؛ وهذا لأن مرجع الإسلام في أصوله وفروعه إلى القرآن، وهو وحي من الله، وإلى السنة النبوية، وهي وحي أيضاً لقوله تعالى: ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾ [النجم: ٢، ٣].

وكل دليل من أدلة الشريعة فإنه يرجع إلى هذين الأصلين، ولا يقبل إلا إذا قبلاه ودلا عليه.

وكل شيء ينسب للإسلام، ولا أصل له فيهما، فهو مردود على قائله. وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[١].

الإسلام دين العز والرحمة:

ذكر من أسمائه تعالى في هذا الموطن (العزيز الرحيم)، للتنبيه على أن هذا الدين الذي نزله الرب الموصوف بالعزة والرحمة، هو دين عزة ورحمة.

ومن مقتضى العزة القوة والمنعة والرفعة، ومن مقتضى الرحمة الفضل والخير والمصلحة، وهذه كلها متجلية في أحكام الإسلام.

والعدل والإحسان اللذان أمر الله بهما وانبنت أحكام الإسلام عليهما لا يكونان إلا عن العزة والرحمة فالذليل لا ينهض بالحكم، ولا يقيم ميزان العدل، والقاسي لا يكون منه إحسان.

اهتداء واقتداء:

فالمسلم المتحقق بالاسم المهتدي بهدايته، لا يكون إلا عزيزاً رحيماً.

فالذلة من المسلم نقص في إسلامه، والقساوة مثلها نقص فيه.

وقد ذكر الله تعالى سادات المسلمين في عزتهم فقال: ﴿**والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون**﴾ [الشورى: ٣٩] وذكرهم في رحمتهم فقال: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ [الحشر: ٩] ونعم القدوة هم لجميع المسلمين.

النذارة ثمرة الرسالة:

كان من المرسلين[٢] لينذر الغافلين. فالأول كمال، والثاني تكميل.

وقد فطر الله رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على الرحمة وحب الخير؛ فكانوا أحرص الناس على نجاة الناس وكمالهم وسعادتهم، فصبروا على تكذيبهم وإذايتهم، حتى أدوا أمانة الله إليهم، وأقاموا حجته عليهم، وكان الله ينجيهم ومن آمن بهم، وينزل عقوبته بالمكذبين لهم، وينصرهم عليهم؛ فأعلم محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم، بأنه من المرسلين لينذر ـ ليتأسى بهم، ويصبر صبرهم، ويرجو من نصر الله له وإهلاك أعدائه ما كان منه تعالى لهم.

---

(١) أخرجه من حديث عائشة البخاري في الصلح باب ٥، ومسلم في الأقضية حديث ١٧ و١٨، وأبو داود في السنة باب ٥، وابن ماجة في المقدمة باب ٢، وأحمد في المسند (٦/١٤٦) وأخرجه البخاري أيضاً تعليقاً في الاعتصام في ترجمة الباب ٢٠، والبيوع في ترجمة الباب ٦٠.

(٢) في قوله تعالى: ﴿**إنك لمن المرسلين**﴾ الآية ٣ من سورة يس.

اقتداء:

العلماء ورثة الأنبياء. وما ورث الأنبياء ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، والعلم مستمد من الرسالة، فعلى أهله واجب التبليغ والنذارة، والصبر على ما في طريق ذلك من الأذى والبلايا، والعطف على الخلق والرحمة، وقد قال الله تعالى: **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾** [التوبة: ١٢٢].

التدريج في الإنذار:

أرسل الله محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - للعالمين بشيراً ونذيراً.

ودرجه في النذارة على مقتضى الحكمة، من القريب إلى البعيد.

فأمره بانذار عشيرته بقوله تعالى: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾** [الشعراء: ٢١٤]، فصعد الصفا فنادى بطون قريش حتى نادى العباس عمه، وصفية عمته، وفاطمة ابنته، وقال لهم: اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً[١].

وأمره بإنذار من حول مكة من العرب بقوله تعالى: **﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾** [الشورى: ٧] على الوجه الأقرب في معنى: «ومن حولها» المؤيد بصدر الكلام وهو قوله: **﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً﴾** [الشورى: ٧]

ومثلها في إنذار العرب ما في هذه الآية، وهو قوله: **﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾** [يّس: ٦].

فكان يعرض نفسه على قبائل العرب في المواسم[٢].

وأمره بتعميم الإنذار بمثل قوله تعالى: **﴿يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾** [الأعراف: ١٥٨].

فأرسل رسله إلى الأمم تحمل كتبه إلى ملوكها بالدعوة إلى الإسلام، وكان ذلك هو الإنذار العام.

الدفاع أشكال:

قد كان النبي يرسل إلى قومه خاصة، وأرسل نبينا صلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس عامة، بمثل قوله: **﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾** [الأنعام: ١٩]، أي بالقرآن كل من بلغه القرآن. ولا

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة البخاري في الوصايا باب ١١، وتفسير سورة ٢٦ باب ٢. والنسائي في الوصايا باب ٦. والدارمي في الرقاق باب ٢٣.

(٢) روى ابن ماجة في سننه (المقدمة، باب ١٣، حديث ٢٠١) عن جابر بن عبدالله قال: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في المَوْسِمِ فيقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه فإن قريشًا قد منعوني أن أبلّغ كلام ربي».

يشكل على ذلك مثل ما تقدم من الآيات في إنذار عشيرته الأقربين، وقومه العرب، لأنه ابتدأ بهما، لحكمة التدريج، وحق القريب، لا للتخصيص بدليل ما جاء من آيات التعميم.

اقتداء:

هكذا على المرء أن يبدأ في الإرشاد والهداية بأقرب الناس إليه، ثم من بعدهم على التدريج.

وعندما يقوم كل واحد منا بإرشاد أهله وأقرب الناس إليه، لا نلبث أن نرى الخير قد انتشر في الجميع: فمن الأسَر تتركب الأمة؛ فعندما يعنى كل واحد بأسرته ترتقي الأمة كلها بارتقاء أسرها، كارتقاء أي كل بارتقاء أجزائه؛ فيكون المعتني بأسرته في الوقت نفسه معتنياً بأمته. وعندما يقصد بخدمة أسرته خدمة أمته يثاب ثواب خادم الجميع: أسرته بالفعل، وأمته بالقصد، أو أسرته مباشرة وأمته بواسطة، وكل هذا مما يثاب المرء شرعاً عليه.

استطراد واستنباط:

لما كان العرب لم يأتهم نذير قبل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بنص هذه الآية وغيرها، فهم في فترتهم(١) ناجون لقوله تعالى: **﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾** [الإسراء: ١٥]

ولقوله: **﴿وأن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾** [المائدة: ١٩] وغيرهما، وكلها آيات وقواطع في نجاة أهل الفترة.

ولا يستثنى من ذلك إلا من جاء فيهم نص ثابت خاص: كعمرو بن لحي أول من سَيَّبَ السوائب، وبدل في شريعة إبراهيم وغير، وحلل للعرب وحرم.

فأبوا النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ناجيان بعموم هذه الأدلة.

ولا يعارض تلك القواطع حديث مسلم عن أنس رضي الله عنه:

أن رجلاً قال للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار». فلما قَفَّى(٢) الرجل دعاه، فقال: «إن أبي وأباك في النار»(٣)؛ لأنه خبر آحاد(٤)، فلا يعارض القواطع. وهو قابل للتأويل بحمل الأب على العم مجازاً، يحسنه المشاكلة اللفظية، ومناسبته لجبر خاطر الرجل، وذلك من رحمته ﷺ وكريم أخلاقه.

---

(١) الفَتْرة: المدة تقع بين زمنين أو نبيين. وقال تعالى: **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم على فترة من الرسل﴾** سورة المائدة الآية ١٩.

(٢) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٩٤ ـ مادة قفا): «أي ذهب مدلياً، وكأنه من القفا: أي أعطاه قفاه وظهره».

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٣٤٧، وأبو داود في السنّة باب ١٧.

(٤) خبر الآحاد لا يفيد القطع بل الظنّ فقط، بعكس الحديث المتواتر الذي يفيد القطع.

سبب الغفلة ودواؤها:

أفادت الفاء في قوله تعالى: ﴿فهم غافلون﴾ أن غفلتهم تسببت عن عدم إنذارهم؛ فكل أمة انقطع عنها الإنذار وترك فيها التذكير واقعة في الغفلة لا محالة. ولما كان ترك الإنذار والتذكير موقعاً في الغفلة، فالإنذار والتذكير يزيلانها؛ فقد عرفتنا الآية الكريمة بسبب الغفلة وبعلاجها لنحذر سببها ونعالج أنفسنا وغيرنا بعلاجها.

تطبيق:

كان الناس منذ زمن قريب لا يسمعون ولا يسمع منهم لفظ الاهتداء بهداية القرآن العظيم، والاقتداء بهدي الرسول الكريم، صلى الله عليه وآله وسلم، والسير بسيرة السلف الصالح، في النهوض بأعباء الدنيا والدين، وهم ـ إلا قليلاً ـ عن هذا غافلون.

أما اليوم بعد أن نهض العلماء المصلحون بواجبهم[1]، ونشروا دعوة الحق في قومهم، فقد أصبح ذلك معروفاً عند أكثر الناس، وفي متناول الناس بجميع طبقاتهم.

وإنا لنرجو من فضل الله المزيد، ونشاهد ذلك والحمد لله كل يوم يزيد، فالحمد لله على ما علّم وألهم وبصر ويسّر، ونسأله دوام التوفيق والتسديد يا رب العالمين.

لا يؤمن من سبق في علم الله عدم إيمانه

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

[يس: ٧ ـ ١١]

علم الله أن نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقوم بالنذارة لقومه ويبذل غاية جهده في تنبيههم من الغفلة، وإنقاذهم من الهلكة.

وعلم أنهم لا يؤمن به إلا أقلهم، وعلم أن ذلك يكون من أعظم ما يؤلم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لشدة حرصه على إيمانهم، وعظيم شفقته عليهم، ولعدم ظهور ثمرة ما بذله من جهد في هدايتهم.

فأراد ـ تعالى ـ أن يقوي قلب نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على تحمل ذلك بإعلامه به

---

(١) يشير إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أنشأها ابن باديس (حاشية المطبوع: ص ٤٩٤).

من أول الأمر، إذ ليس المؤلم المتوقع كالمؤلم الذي يصدم عن مفاجأة، وأعظم منه الذي يصدم مع توقع ضده، كما هنا: فإن المتوقع منهم بعد الإنذار البالغ بالبرهان الساطع، هو إيمان أكثرهم لا كفره.

﴿حق﴾ وجب وثبت. ﴿القول﴾ قول الله فيهم بما سبق في علمه أنهم لا يؤمنون. ﴿فهم﴾ أي أكثرهم.

نفى الإيمان عنهم نفياً مؤكداً بالإخبار عن ضميرهم بحملة لا يؤمنون. وقرنت الجملة بالفاء السببية؛ لتفيد أن من سبق في علم الله عدم إيمانه لا يرجى إيمانه بحال؛ فارتباط الثاني بالأول ارتباط لا انفكاك له.

المعنى:

لقد وجد وثبت ما سبق في علم الله، في أكثرهم، وما كان في قوله بعدم إيمانهم؛ فلا يرجى من ذلك الأكثر ـ الذي سبق في علم الله عدم إيمانه ـ إيمان.

سؤال:

ما مات النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حتى عَرَجَ[1] الإسلام جزيرة العرب ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ولا شك أن الذين ماتوا على الكفر هم الأقل بالنسبة لمن آمنوا، فما معنى قوله تعالى: ﴿حق القول على أكثرهم﴾؟.

جوابه:

الذين قام النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بإنذارهم وأقام بين ظهرانيهم مكرراً للنذارة عليهم صباح مساء، مدة ثلاث عشرة سنة، هم أهل مكة؛ فهم الذين تتعين إرادتهم من الضمير في قوله تعالى: ﴿أكثرهم﴾ ولا شك أن أكثر من أنذرهم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من أهل مكة ماتوا على الكفر.

سؤال على هذا الجواب:

هذا يقتضي أن المراد بلفظة «قوماً» المتقدمة: أهل مكة مع أن المفسرين فسروها بالعرب.

جوابه:

نسلم بهذا، ويكون تفسير «قوماً» بالعرب نظراً لمماثلتهم لأهل مكة في وجوب إنذارهم، باعتبار مشاركتهم لهم في الوصف، وهو غفلتهم لعدم إنذار آبائهم.

لا حجة لمن مات على كفره بما سبق من علم الله فيه:

قامت حجة الله على خلقه بما ركب فيهم من عقل، وما مكنهم من اختيار، وما نصب لهم[2] من آيات مشاهدات، وما أرسل إليهم من رسل بآيات بينات.

---

(١) عرج: ارتفع وعلا (المعجم الوسيط: ص ٥٩١).

(٢) كانت في الأصل المطبوع: «لها».

وهذه كلها أمور معلومة لديهم، ضرورية عندهم، لا يستطيعون أن ينكروا شيئاً منها؛ فلا يمكنهم أن يجحدوا ما عندهم من عقل ومن اختيار، ولا أن ينفوا ما يشاهدونه من الآيـات في المخلوقات، ولا أن ينكروا مجيء الرسل إليهم وما تلوا عليهم من آيات.

وبهذه الأشياء قامت حجة الله عليهم، وكان جزاؤهم على ما اختاروه بعدها لأنفسهم.

فأما ما سبق من علم الله فهو أمر مغيب عنهم، غير مؤثر فيهم؛ لأن العلم ليس من صفات التأثير ولا دافع لهم، فليس لهم أن يحتجوا به لأنفسهم؛ لأنهم لم يعملوا لأجله، كيف وهو مغيب منهم؟ وإنما عملوا باختيارهم الذي يجدونه بالضرورة من أنفسهم.

توجيه للترتيب:

تقوم حجة الله على العبد أولاً.
ويعمل هو ـ كاسباً ومكتسباً ـ باختياره ثانياً.
ويظهر لنا ما سبق من علم الله فيه بعد أن اختار ما اختار ثالثاً.

ولهذا قدمت النذارة وما يرتبط بها على هذه الآية التي فيها بيان ما سبق من علم الله فيهم.

تقريب:

قد يكون لرجل ولدان هو عالم بنفسيتهما، وأخلاقهما، وسيرتهما.

ثم يأمرهما بأمر فيه الخير لهما، وهو يعلم ـ بما علم من أحدهما ـ أنه يمتثل، ويعلم ـ بما علم من الآخر ـ أنه يخالف.

ويقول لأهل بيته: إن فلاناً سيمتثل، وإن فلاناً سيخالف.

فيظهر ما قاله وما علمه في كل واحد منهما؛ فجازى الممتثل على طاعته، وجازى المخالف على عصيانه.

فلا شك أن هذا الرجل قد أحسن إلى ولديه بما أمرهما به من خير، وفعل ما تقتضيه أبوته من النصح والإرشاد، ولا يقدح في ذلك علمه بما سيكون منهما.

كما أن هذين الولدين قد نال كل واحد منهما ما سبق دون أن يكون للمخالف منهما حجة على مخالفته بما كان يعلمه منه أبوه.

لله المثل الأعلى، فقد أحاط بكل شيء علماً، فعلم من سيطيعه ومن سيعصي.

ولكنه الحكم العدل، فلم يكن ليجازيهم على سابق علمه فيهم، الذي لا دخل لهم فيه.

بل جعل جزاءهم بعد إقامة الحجة عليهم بما يكون من اختيارهم، ليكون جزاؤهم على ما عملوا وما قدمت ايديهم وما لهم دخل فيه بالكسب والاكتساب.

تعليم:

أرأيت كيف أن الله - تعالى - لم يجاز الخلق على مقتضى علمه فيهم، وهو العلم الذي لا يتخلف، وإنما جعل جزاءهم على أعمالهم.

فهذا تعليم لنا كيف تكون معاملتنا بعضنا لبعض؛ فلا نجازي على مجرد الظن، بل ولا على مجرد اليقين؛ وإنما تكون المجازاة بعد صدور الأعمال.

فرُبَّ شخص قدرت فيه الخير أو الشر، ففعل ضد ما قدرت؛ فلو جازيته قبل الفعل لما طابق جزاؤك موضعه، ولنال كل ما لا يستحقه.

فالحكمة والعدل والمصلحة في ربط المجازاة بالأعمال، وهذا ما كان من الله في مجازاة خلقه، وهذا ما ينبغي أن نربط به المجازاة بيننا.

* * *

تمثيل حال المعرضين عن الحق المعاندين فيه:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾

[يَس: ٨ و٩]

لما ذكر عدم إيمانهم، وكان مبدأ ذلك بإعراضهم عن الحق واختيارهم الكفر على الإيمان، ذكر ما عاقبهم الله به من منعهم عن الخير ودوام الإعراض عنه.

(الغل) ما يجعل في العنق محيطًا به.

(الذقن) مجمع اللحيين، ملتقى عظميهما تحت الفم.

﴿**مقمحون**﴾ رافعون رؤوسهم. يقال: قمح البعير قموحاً إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع عن الشرب. ويقال: أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعاً لضيقه.

(السد) الحاجز بين الشيئين.

﴿**فأغشيناهم**﴾ جعلنا عليهم غشاء أي غطاء، أحاط بجميع الذات فمنع العيون من الإبصار.

﴿**فهي إلى الأذقان**﴾ أي الأغلال منتهية من أسفل الأعناق إلى الأذقان. وهذا كناية عن عرضها، ولذا فرع عليه ﴿**فهم مقمحون**﴾.

وفرع عدم إبصارهم على جعل سد أمامهم وسد خلفهم؛ لالتزاق السدين بهم، وضغطهما عليهم، فكما لا يستطيعون معهما تحركًا لا يستطيعون إبصاراً. وكيف يبصر من وجهه ملتزق بالحائط مثلاً؟

المعنى:

إنا جعلنا في أعناق هؤلاء الذين لا يؤمنون أغلالاً ضيقة عريضة، تركتهم رافعين رؤوسهم عن مناهل الإيمان، لا يستطيعون أن يطأطئوا رؤوسهم إليها فيرتووا.

وجعلنا أمامهم حجاباً وخلفهم حجاباً محيطين وملتزقين بهم ومغطّين لجميع ذواتهم، فلا يستطيعون معهما تحركاً ولا إبصاراً.

توجيه التمثيل:

دعوا إلى الإيمان والتوحيد ومكارم الأخلاق، وهذه أمور مدرك حسنها بالفطرة السليمة، فهي كالماء الذي تقبل عليه الحيوانات بفطرتها، فلما أعرضوا عنها شبهوا بالإبل المقمحة عن الماء.

ثم إن هذه الأمور كما يدرك حسنها بالفطرة السليمة، تدرك باستعمال النظر فيما بين يدي الإنسان من الآيات التي يراها ويشاهدها، وما خلفه من أيام الله في الأمم التي بلغته أخبارها وأنباؤها.

فلما أعرضوا عما يرون وما قد سمعوا شبهوا بمن جعل بين سدين ملتزقين ومحيطين به، فجمد في مكانه؛ فلا هو يتحرك إلى ناحية ولا هو يبصر شيئاً.

ترهيب:

كل ما دعا إليه الإسلام من عقائد وأخلاق وأعمال، فهو مما تقبله الفطر السليمة، وتدركه العقول بالنظر الصحيح.

فمن قابل دعوة الإسلام بالإعراض والعناد، وخالف فطرته، وعاكس عقله، كان حقيقاً بهذا العقاب الشديد من طمس البصيرة، والطبع على القلب؛ فذكر الله لنا هذه العقوبة بهذا التمثيل البليغ، الذي صورها في أبشع وأفظع صورة؛ ليحذرنا من الإعراض عن الحق والعناد له، ويخوفنا بعاقبة ذلك على أهله.

تعليم:

لكل إنسان فطرته وعقله، فعلينا إذا دعينا إلى شيء أن نعرضه عليهما راجعين إلى الفطرة الإنسانية وإلى العقل البشري منزهين عن الأغراض والأهواء والأوهام والشبهات.

فإذا كان هلاك هؤلاء بعدم الاستفادة منهما، فإن النجاة عندما تعرض الأمور بالرجوع إليهما.

ونجد القرآن العظيم يخاطب العقل والفطرة؛ ليعلمنا الرجوع إليهما والاستفادة منهما.

* * *

من استوى عنده الانذار وعدم الانذار لا يرجى منه إيمان:

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يٓس: ١٠]

لما ذكر ـ تعالى ـ عدم إيمانهم لما سبق من علم الله فيهم ذكر هنا سبباً آخر لذلك، وهو استواء الإنذار وعدمه لديهم.

ذكر هذا السبب إثر ما تقدم من وصف حالهم في شدة الإعراض، للتنبيه على أن من فسدت فطرته، وانطمس عقله، يستوي عنده الإنذار وعدمه، فلا يكون منه إيمان على كل حال.

﴿سواء﴾ بمعنى مستو. والهمزة الأولى[1] أصلها للاستفهام، وليس مراداً هنا، وتسمى في مثل هذا التركيب همزة التسوية، لوقوعها بعد لفظها، ودخولها على الأول من أمرين يراد التسوية ما بينها. وهي حينئذ من أدوات السبك ولذا يكون تأويل الكلام هكذا: سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك.

المعنى:

إن أكثر أهل مكة الذين حكم الله بعدم إيمانهم، بلغوا من شدة الإعراض والعناد إلى حيث استوى عندهم الضدان: الإنذار وعدم الإنذار، فمحقق منهم عدم الإيمان ومأيوس من صدوره من ناحيتهم.

تحذير:

يذكر الله ـ تعالى ـ حالة هؤلاء الذين استوى عندهم الشيء وضده، يحذرنا منها، ومما يؤدي إليها، من إهمال الفطرة وترك النظر.

فإن الإنسان إنما يمتاز على بقية الحيوان بتمييزه بين الحقائق بالفطرة والفكرة، وإدراكه الفوارق ما بينها. فإذا سلب هذه المزية التحق بالعجماوات؛ بل كانت العجماوات خيراً منه لبقاء فطرتها سليمة لإدراك ما فيها استعداداً لإدراكه.

* * *

تجديد الإنذار للمنتفعين به وتبشيرهم:

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ [يٓس: ١١]

لما ذكر تعالى المأيوس من انتفاعهم بإنذار النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ذكر الذين ينتفعون به تأنيساً له بهم، وتقوية له بظهور ثمرة إنذاره فيهم.

---

(١) في قوله: «أأنذرتهم».

﴿الذكر﴾ القرآن. وهو من أسمائه التي تكررت في التنزيل، و«أل» فيه العهد.
﴿الغيب﴾ الخلوة عندما يغيب الإنسان عن عيون البشر.
(التبشير) الإخبار بما يسر.
(المغفرة) سترة الذنب بالتجاوز عنه وعدم المؤاخذة به.
(الأجر) الجزاء على العمل.

(الكريم) الطيب الشريف في نفسه الدافع في إثره الذي لا يشوب ذاته نقص ولا منفعته ضرر.

وأفاد المضارع في ﴿تنذر﴾ تجديد الإنذار للمتبعين، وذكر اسم ﴿الرحمن﴾ ليفيد التركيب أنهم يخشونه مع العلم برحمته، وذلك يقتضي جمعهم بين الخوف والرجاء.
ذكر المنتفعين بعد المأيوس من انتفاعهم، ترقية من الأدنى إلى الأعلى، ولأنهم كالزبدة التي يحصل عليها بعد طرح غيرها، ولإراحة القلب من أولئك، لتتوجه العناية التامة إلى هؤلاء.

وذكرت الخشية بعد الاتباع لأنها لا تحصل إلا به.

وجيء بعد بالتبشير مقروناً بالفاء، لأنه إنما يكون لأهل الاتباع والخشية، بسبب اتباعهم وخشيتهم.

وذكر الأجر بعد المغفرة لأن التحلية بعد التخلية، والتزين بعد إزالة الأدران.

المعنى:

إنما يتجدد إنذارك وينتفع به الذين آمنوا، وهم الذين اتبعوا القرآن وخافوا الله في خلواتهم، لصدق إيمانهم خاشين نقمته، راجين رحمته.

وهؤلاء كما تنذرهم وينتفعون بإنذارك، بشرهم ـ على اتباعهم للقرآن، وخشيتهم بالغيب للرحمن ـ بمغفرة ذنوبهم، وجزاء ـ شريفًا رفيعًا طيبًا نافعًا[1] لا نقص فيه ولا تنغيص ـ على أعمالهم.

دفع إشكال:

أمر النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالإنذار العام، ثم كان ممن أنذرهم قوم مأيوس منهم، وهؤلاء هم المراد بقوله تعالى: ﴿لقد حق القول﴾... الآيات، وهم الذين جاء فيهم قوله تعالى: ﴿فأعرض عن من تولى عن ذكرنا﴾ [النجم: ٢٩] إذ لا فائدة من إنذارهم.

وكان قوم آخرون آمنوا وهؤلاء هم المرادون بقوله: ﴿إنما تنذر﴾ الآية.

فلا منافاة بين قوله تعالى: ﴿لتنذر قوماً﴾ الذي يقتضي التعميم، وقوله: ﴿إنما تنذر﴾ الذي

---

(١) جاءت في الأصل المطبوع: «شريف رفيع طيب نافع» والصواب ما أثبتناه؛ لأن كل هذه الألفاظ نعوت لـ«جزاء» المنصوب بـ«بشرهم».

يقتضي التخصيص؛ لأن الأول في مقام الإنذار العام، والثاني في مقام تجديد الإنذار والانتفاع به، وأما الإعراض فلا يكون إلا عن المأيوس منه من الكافرين.

إرشاد:

طريق السلوك الشرعي إنما هي اتباع القرآن، وأكمل أحوال العبد أن يخشى الله ويرجو رحمته.

وأهل الاتباع والخشية لا يستغنون عن تجديد الانذار، وذلك بدوام التذكير المشروع في الإسلام، وتذكير المؤمنين بإنذارهم وتبشيرهم؛ فلا يَأْمَنُون(١) من عذاب الله ولا يقنطون من رحمته.

صفة المؤمن من هذه الآيات:

المؤمن الكامل هو من سلمت فطرته، وصح إدراكه، واتبع القرآن في عقده، وخلقه، وعمله، واستوت خلوته وجلوته، وسره وعلنه؛ وعبد الله راجياً رحمته، خائفاً عذابه، يخيفه الإنذار، وترجيه البشرى بالمغفرة والأجر الكريم.

ثبتنا الله والمسلمين على الايمان مع هذه الصفات إلى الممات، آمين يا رب العالمين.

الحياة بعد الموت

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [يٓس: ١٢]

اشتملت الآيات المتقدمة على ذكر الرسول وصفته، ورسالته التي جاء بها - وهي القرآن - ووصفها، والمرسل وهو العزيز الرحيم، والمرسل إليهم، وتعميم بالنذارة، وانقسامهم إلى معرضين معاندين، ومقبلين متبعين؛ فجاءت هذه الآية مشتملة على ما تكون فيه نتيجة ذلك وثمرته، وهو يوم القيامة.

ووجه آخر(٢) وهو أن أمهات أصول العقائد ثلاثة: الإيمان بالله، والإيمان برسول الله، والإيمان باليوم الآخر.

وقد انتظمت الآيات المتقدمة تقرير الأصل الثاني(٣) بالقسم عليه(٤) على ما تقدم من البيان، وانتظمت الأصل الأول(٥) ضمنًا بذكر العزيز الرحيم(٦).

فجاءت هذه الآية لتقرير الأصل الثالث(٧).

(٢) جاءت في الأصل المطبوع: «يؤمنون» والصواب ما أثبتناه، فلا يأمنون؛ من الأمْن.

(٢) أي في سبب الارتباط.

(٣) الإيمان برسول الله ﷺ.

(٤) بقوله تعالى: ﴿يس والقرآن الحكيم﴾.

(٥) الإيمان بالله تعالى.

(٦) ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾.

(٧) الإيمان باليوم الآخر.

سؤال:

كيف يذكر الأصل الأول ـ وهو الأصل الأول ـ إلا بما ذكر به من الذكر الضمني؟

الجواب:

ذلك لأمرين:

الأول: أن هذه الأصول الثلاثة تذكر في أول السور، غير أن بعض السور تخصص بالحديث على بعض الأصول أكثر من غيره، ولا يذكر فيها غيره إلا ضمنًا كما هنا.

الثاني: أن تقرير الأصل الثاني هو تقرير للأصل الأول؛ إذ جميع دلائل النبوة، دلائل على وجود الخالق وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته.

(الإحياء): إيجاد الحياة في الجسم؛ ولا يكون إلا من الله.

و (الميت): الجسم الذي يقبل الحياة ولا حياة فيه، سواء أكانت فيه وزالت، أم لم تكن فيه بعد كالجنين قبل نفخ الروح فيه.

أكدت الجملة لأن الخطاب مع منكري البعث والنشور، وأكد اسم «إنّ»[1] بـ ﴿**نحن**﴾ ليفيد الاختصاص، فهو المحيي دون غيره.

وعبر بـ ﴿**نحيي**﴾ فعلاً مضارعاً ليفيد تجديد الإحياء واستمراره، فيشمل إحياءه للأجنة في الدنيا، وإحياءه الثاني في الأخرى. وكثيراً ما جاء في القرآن الاستدلال على الإحياء الثاني بالإحياء الأول؛ فتكون كلمة ﴿**نحيي**﴾ قد اشتملت على العقيدة وهي الإحياء الثاني، ودليلها وهو الإحياء الأول.

المعنى:

يعرف الله ـ تعالى ـ عباده بأنه هو الذي يحيي الموتى دون غيره، ويذكرهم بما يشاهدونه من ذلك فيهم، وهم أجنة في بطون أمهاتهم؛ فيؤمنون بأنه يحييهم كذلك بعد موتهم، فيستعدون من حياتهم الأولى لحياتهم الثانية.

* * *

إحصاء الأعمال المباشرة وغير المباشرة:

﴿**ونكتب ما قدَّموا وآثارهم**﴾.

لما أعلم الخلق بأنهم يحيون بعد الموت، أعلمهم بأن أعمالهم المباشرة وغير المباشرة مكتوبة عليهم؛ لأن حياتهم بعد الموت، لنيل جزاء ما كتب عليهم من أعمالهم.

(قدم الشيء): جعله قدامه. وأعمال المرء التي يباشرها قدمها قبله في طريقه إلى الآخرة، فهي محفوظة حتى يلحقها.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿**إنّا**﴾.

و (الأثر) ما يحصل من العمل، كالذي يحصل على وجه التراب من وضع الأقدام ويبقي بعد رفعها الإنسان ما يحصل من أعماله التي باشرها.

عبر بـ ﴿نكتب﴾ مضارعاً ليفيد التجدد والاستمرار، فما من عمل أو أثر يتجدد إلا ويكتب.

وأسند الكتابة إليه، والكاتبون الملائكة، لأنهم بأمره يكتبون.

المعنى:

يعلم الله ـ تعالى ـ عباده بأنه يكتب كل أعمالهم التي يعملونها ويباشرونها بأنفسهم.

ويكتب كذلك ما يعمله غيرهم، إذا كان متسبباً عن أعمالهم وأثراً لها.

تنظير:

مثل هذه الآية ـ في الدلالة على أن العبد مؤاخذ بما عمل مباشرة، وما عمله غيره، وكان من آثار عمله ـ قوله تعالى:

﴿يُنبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ [القيامة: ١٣] فالذي أخره، هو أثره المذكور في[1] هذه الآية.

تأييد وبيان:

في صحيح مسلم من طريق جابر[2] بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: «جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ عليهم الصوف، فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة، فحث الناس على الصدقة فأبطأوا عنه؛ حتى رؤي ذلك في وجهه..

قال: ثم إن رجلاً من الأنصار جاء بصرة من ورق، ثم جاء آخر، ثم تتابعوا حتى عُرف السرور في وجهه، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم:

«من سن في الإسلام سنّة حسنة فعُمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء. ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعُمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء»[3].

وفيه من طريق أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال:

«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً.

---

(١) لفظة «في» ساقطة من الأصل المطبوع.

(٢) كذا في الأصل المطبوع، وهو خطأ. والصواب «جرير». انظر المراجع المذكورة في الحاشية التالية.

(٣) رواه مسلم في العلم حديث ١٥، والزكاة حديث ٦٩ و٧٠. والنسائي في الزكاة باب ٦٤. وابن ماجة في المقدمة باب ١٤. والدارمي في المقدمة باب ٤٤. وأحمد في المسند (٣٥٩/٤، ٣٦٠، ٣٦٢).

ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»[١].

فتأيد بهذين الحديثين فهم المعنى المتقدم من الآية، وهو أن العبد له وعليه من آثار أعماله مما لم يباشره بنفسه، مثل ما له وما عليه من أعماله التي يباشرها.

وبيَّن الحديث الأول: أن ما تسبب عن عملِ المرء يعد أثراً لعمله عندما يعمل به في حياته مثلما يعمل به بعد مماته، إذ الذي جاء بالصرة أولاً قد تسبب في مجيئه مجيء من بعده على إثره، والحديث سيق في شأنهم؛ فتكون حالتهم أول ما يشمل.

كما بيَّن الحديث الثاني: أن أثر القول كأثر الفعل، إذ الكل عمل.

وبيَّن الحديثان: أن نيل المرء جزاء عمله الذي لم يباشره لا ينقص من جزاء العامل المباشر شيئاً.

تنبيه:

من صورة الواقعة التي ورد فيها الحديث الأول علمنا: أن المراد بمن سن سنة حسنة أو سيئة، هو من ابتدأ طريقاً من الخير في أعمال البر والإحسان، وما ينتفع به الناس من شئون الحياة. ولا يشمل ذلك ما يحدثه المحدثون من البدع في العبادات من الزيادات والاختراعات؛ إذ الزيادة على ما وضعه الشرع من العبادات وحدده افتيات[٢] عليه واستنقاص له؛ وهذه هي البدعة التي قال فيها النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[٣].

تحذير:

على العاقل ـ وقد علم أنه محاسب على أفعاله وعلى آثار أقواله ـ ألا يفعل فعلاً ولا يقول قولاً حتى ينظر في عواقبه، فقد تكون تلك العواقب أضر عليه من أصل القول وأصل الفعل؛ فقد يقول القول مرة، ويفعل الفعل مرة، ثم يقتدي به فيه آلاف عديدة في أزمنة متطاولة.

حقاً إن هذا لشيء تنخلع منه القلوب، وترتعد منه الفرائص، وصدق القائل من السلف رضي الله عنهم: «السعيد من ماتت معه سيئاته».

---

(١) أخرجه مسلم في العلم حديث ١٦، والذكر حديث ١. وأبو داود في السنّة باب ٦. والترمذي في العلم باب ١٥، وثواب القرآن باب ١٤. وابن ماجة في المقدمة باب ١٤. والدارمي في فضائل القرآن باب ١.

(٢) افْتَات في الأمر: استبدّ به ولم يستشر من له الرأي فيه (المعجم الوسيط: ص ٧٠٥).

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه من حديث جابر بن عبدالله (من دون عبارة: وكل ضلالة في النار) مسلم في الجمعة حديث ٤٣، وابن ماجة في المقدمة باب ٦، وأحمد في المسند (٣/ ٣١٠) ومن حديث العرباض بن سارية: أبو داود في السنّة باب ٥، وابن ماجة في المقدمة باب ٧، وأحمد في المسند (٤/ ١٢٦، ١٢٧). ولفظة «وكل ضلالة في النار» لم ترد في الصحيح.

الإحصاء العام في الكتاب الإمام:

﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾.

لما أعلم العباد بأنه يكتب لهم وعليهم أعمالهم، أعلمهم بأنه تعالى قد كتب كل الأشياء لا خصوص أعمالهم تعمياً بعد تخصيص.

(الإحصاء) تحصيل الشيء بالعد وضبطه والإحاطة به.

(الإمام) ما يؤتم ويقتدى به، والكتاب إمام لأنه يتبع فيؤخذ بما فيه ويعتمد عليه.

و (المبين) المظهر لما فيه، فكل ما فيه ظاهر فيه.

أصل الكلام: أحصينا كل شيء أحصيناه. فحذف أحصينا الأول لدلالة الثاني، فكان هذا أقوى في ثبوت الإحصاء ووقوعه على كل شيء.

المعنى:

يعلم الله عباده بأنه حصل كل شيء من ذوات وأقوال وأفعال، وجميع ما كان في العالم وما يكون، وأثبته فرداً فرداً في كتاب إمام معتمد، مظهر للأشياء التي فيه، فهي ثابتة ظاهرة جلية.

اعتبار:

فقد أحاط الله بكل شيء علماً، فهو غني بعلمه عن هذه الكتابة، ولكنه جعل هذا الكتاب إظهاراً لعظمة ملكه وليعلم عباده الضبط والإحصاء في جميع أمورهم وليبالغوا في محاسبة أنفسهم وليعلموا أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم[1]؛ فيزول من قلوبهم الخوف من الحوادث والمخلوقات وتعظم ثقتهم بالله.

وفي ذلك أعظم قوة في هذه الحياة، وأكبر راحة للقلب من صروفها.

نسأل الله سبحانه أن يقوي قلوبنا بالإيمان، وأن يريحنا باليقين، وأن يعيذنا من الخوف إلا منه، ومن الخضوع إلا له آمين يا رب العالمين.

---

(١) كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ من طريق أبيّ بن كعب وعبدالله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت؛ وفي الحديث: «... ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله تعالى ما قبله الله تعالى منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متّ على غير هذا لدخلت النار». أخرجه أبو داود في سننه (كتاب السنّة، باب ١٦، حديث رقم ٤٦٩٩).

القسم الخامس

آيات بيِّنات

في هذا القسم:

١ ـ سبيل السعادة والنجاة.
٢ ـ كيف تكون الدعوة إلى الله، والدفاع عنها.
٣ ـ دعوة أهل الكتاب.
٤ ـ الاجتماع العام للأمر الهام، وارتباط الجماعة بأمر الإمام.
٥ ـ الود من إكرام الله لأولياء الله.
٦ ـ حسن التلقي، وطلب المزيد.
٧ ـ من وعد الله للصالحين.
٨ ـ دفاع الله عن المؤمنين.
٩ ـ أكل الحلال والعمل الصالح.
١٠ ـ الفرار إلى الله، والفرار من الله.

١ ـ سبيل السعادة والنجاة

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٨ ﴾

[يوسف: ١٠٨]

تمهيد:

خلق الله [تعالى] محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أكمل الناس، وجعله قدوتهم، وفرض عليهم اتباعه والائتساء به[١]، فلا نجاة لهم من المهالك والمعاطب، ولا وصول لهم إلى السعادة في دنياهم وأخراهم، ومغفرة خالقهم ورضوانه ـ إلا باقتفاء آثاره والسير في سبيله.

فلهذا أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يبين سبيله بياناً عاماً للناس، لتتضح المحجة للمهتدين، وتقوم الحجة على الهالكين.

أمره أن يبينها البيان الذي يصيرها مشاهدة بالعيان، ويشير إليها كما يشار إلى سائر المشاهدات، فقال له: ﴿**قل هذه سبيلي**﴾.

ثم بين سبيله بثلاثة أشياء: الدعوة إلى الله على بصيرة، وتنزيه الله تعالى، والبراءة من المشركين، فقال: ﴿**أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين**﴾.

الدعوة إلى الله:

فالنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من يوم بعثه الله إلى آخر لحظة من حياته، كان يدعو الناس كلهم إلى الله، بأقواله وأفعاله وتقريراته وجميع مواقفه في سائر مشاهده.

وكانت دعوته هذه بوجوهها كلها واضحة جلية لا خفاء بها، كما قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء»[٢]، فكانت مشاهدة معينة، كما أشير إليها في الآية إشارة المعين المشاهد.

---

(١) حيث قال جلّ وعلا: «﴿**لقد كان لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة**﴾ سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٢) أخرجه ابن ماجة في سننه (المقدمة، باب ١ حديث ٥) عن أبي الدرداء قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقر ونتخوّفه، فقال: «آلفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده لتصبنّ عليكم الدنيا صَبًّا حتى لا يزيغ قلب أحدكم إزاغة إلاّ هِيَهْ. وايم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء». وقوله: «البيضاء» أي على قلوب بيضاء نقيّة عن الميل إلى الباطل، لا يميلها عن الإقبال على الله تعالى السرّاء والضرّاء.

كان يدعو إلى دين الله، ويبين هو ذلك الدين ويمثله: يدعو إلى عبادة الله وتوحيده وطاعته، ويشاهد الناس تلك العبادة والتوحيد والطاعة، فكان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كله دعوة إلى الله.

فما دعا إلى نفسه؛ فقد مات ودرعه مرهونة في دين.

وما دعا إلى قومه، فقد كان يقول: «لا فضل لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بتقوى الله»(١).

كان يدعو الناس كلهم، إذ هو رسول الله إلى الناس كلهم، فكتب الكتب وأرسل الرسل، فبلغت دعوته إلى الأمم وملوك الأمم.

كان يدعو الكافرين كما يدعو المؤمنين، يدعو أولئك إلى الدخول في دين الله ويدعو هؤلاء إلى القيام بدين الله، فلم ينقطع يوماً عن الإنذار والتبشير والوعظ والتذكير.

كان يدعو إلى الله على بينة وحجة يحصل بها الإدراك التام للعقل، حتى يصير الأمر المدرك واضحاً لديه كوضوح الأمر المشاهد بالبصر، فهو على بينة ويقين من كل ما يقول ويفعل، وفي كل ما يدعو من وجوه الدعوة إلى الله في حياته كلها، وفي جميع أحواله.

وكانت دعوته المبنية على الحجة والبرهان، مشتملة على الحق والبرهان، فكان يستشهد بالعقل، ويعتضد بالعلم، ويستنصر بالوجدان، ويحتج بأيام الله في الأمم الخالية، وما استفاض من أخبارها، وبقي من آثارها من أنباء الأولين، وما يمر الناس عليه ﴿مصبحين وبالليل﴾ [الصافات: ١٣٦].

على كل مسلم أن يكون داعياً إلى الله:

لقد كان في بيان أن الدعوة إلى الله هي سبيل محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ما يفيد أن على أتباعه ـ وهو قدوتهم ولهم فيه الأسوة الحسنة ـ أن تكون الدعوة إلى الله سبيلهم.

ولكن لتأكيد هذا عليهم وبيان أنه من مقتضى كونهم أتباعه وأن أتباعهم له لا يتم إلا به ـ جاء التصريح بذلك هكذا:

﴿أدعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ أنا ومن اتَّبعني﴾.

فالمسلمون أفراداً وجماعات، عليهم أن يقوموا بالدعوة إلى الله، وأن تكون دعوتهم على بينة وحجة وإيمان ويقين، وأن تكون دعوتهم وفقاً لدعوته، وتبعاً لها.

ماهية الدعوة:

١ ـ فمن الدعوة إلى الله: دروس العلوم كلها، مما يفقه في دين الله، ويعرف بعظمة الله وآثار قدرته، ويدل على رحمة الله وأنواع نعمته.

(١) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في المسند (٥/٤١١) من حديث أبي نضرة عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ.

فالفقيه الذي يبين حكم الله وحكمته، داع إلى الله.
والطبيب المشرح الذي يبين دقائق العضو ومنفعته داع إلى الله.
ومثلهما كل مبين في كل علم وعمل.

٢ ـ ومن الدعوة إلى الله: بيان حجج الإسلام، ودفع الشبه عنه، ونشر محاسنه بين الأجانب عنه ليدخلوا فيه، وبين مزعزعي العقيدة من أبنائه ليثبتوا عليه.

٣ ـ ومن الدعوة إلى الله: مجالس الوعظ والتذكير، لتعريف المسلمين بدينهم، وتربيتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم على ما جاء به، وتحبيبهم فيه، ببيان ما فيه من خير وسعادة لهم.

وتحذيرهم مما أدخل من محدثات عليه هي سبب كل شقاوة وشر لحقهم.

وبيان أنه ما من سبب مما تسعد به البشرية أفرادها وأممها إلا بيّنه لهم ودعاهم إليه، وما من سبب مما تشقى به البشرية أفرادها وأممها إلا بيّنه لهم ونهاهم عنه.

وبيان أنه لولا عقيدته المتأصلة فيهم، وبقاياه الباقية لديهم، ومظاهره القائمة بهم، لما بقيت لهم ـ وهم المجردون من كل قوة ـ بقية، ولتلاشت أشلاؤهم ـ وهم الأموات ـ في الأمم الحية.

٤ ـ ومن الدعوة إلى الله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة بدون استثناء، وإنما يتنوع الواجب بحسب رتبة الاستطاعة: فيجب باليد، فإن لم يستطع فباللسان، فإن لم يستطع فبالقلب، وهو أضعف الإيمان[1]، وأقل الأعمال في هذا المقام.

٥ ـ ومن الدعوة إلى الله: ظهور المسلمين ـ أفراداً وجماعات ـ بما في دينهم من عفة وفضيلة، وإحسان ورحمة وعلم وعمل وصدق وأمانة؛ فذلك أعظم مرغب للأجانب في الإسلام، كما كان ضده أعظم منفر لهم عنه، وما انتشر الاسلام أول أمره بين الأمم، إلا لأن الداعين إليه كانوا يدعون بالأعمال، كما يدعون بالقول، وما زالت الأعمال عياراً على الأقوال.

٦ ـ ومن الدعوة إلى الله: بعث البعثات إلى الأمم غير المسلمة، ونشر الكتب بألسنتها، وبعث المرشدين إلى عواصم الأمم المسلمة لهدايتهم وتفقيههم.

وكل هذا من الدعوة إلى الله ثابتة أصوله في سنة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وسنة السلف الصالح من بعده.

فعلى كل مسلم أن يقوم بما استطاع منه في كل وجه من وجوهه، وليعلم أن الدعوة إلى الله على بصيرة هي سبيل نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وسبيل إخوانه الأنبياء صلوات الله عليهم من قبله.

---

(١) وفيه الحديث عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان». رواه مسلم في الإيمان حديث ٧٨. وأبو داود في الصلاة باب ٢٤٢، والملاحم باب ١٧. والترمذي في الفتن باب ١١. وابن ماجة في الإقامة باب ١٥٥، والفتن باب ٢٠، والنسائي في الإيمان باب ١٧. وأحمد في المسند (٣/١٠، ٢٠، ٤٩، ٥٣، ٥٤، ٦٢).

فلم يكن المسلم ليدع من هذا المقام الشريف ـ مقام خلافة النبوة ـ شيئاً من حظه، وإذا كان هذا المقام ثابتاً لكل مسلم ومسلمة، وحقاً القيام به ـ بقدر الاستطاعة ـ على كل مسلم ومسلمة ـ فأهل العلم به أولى وهو عليهم أحق، وهم المسؤولون عنه قبل جميع الناس.

وما أصاب المسلمين ما أصابهم إلا يوم قعد أهل العلم عن هذا الواجب عليهم. وإذا عادوا إلى القيام به ـ وقد عادوا والحمد لله ـ أوشك ـ إن شاء الله ـ أن ينجلي عن المسلمين مصابهم.

تفرقة:

ليس كل من زعم أنه يدعو إلى الله يكون صادقاً في دعواه، فلا بد من التفرقة بين الصادقين والكاذبين. والفرق بينهما ـ مستفاد من الآية ـ بوجهين:

الأول:

أن الصادق لا يتحدث عن نفسه، فلا يستطيع أن ينسى نفسه في أقواله وأعماله.

وهذا الفرق من قوله تعالى: ﴿إلى الله﴾.

الثاني:

أن الصادق يعتمد على الحجة والبرهان، فلا تجد في كلامه كذباً ولا تلبيساً ولا ادعاء مجرداً، ولا تقع من سلوكه في دعوته على التواء ولا تناقض ولا اضطراب.

وأما الكاذب فإنه بخلافه: فإنه يلقي دعاويه مجردة ويحاول تدعيمها بكل ما تصل إليه يده، ولا يزال لذلك في حنايا وتعاريج لا تزيده إلا بعداً عن الصراط المستقيم.

وهذا الفرق من قوله تعالى: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾.

مباحث لفظية:

﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ يتعلق بـ ﴿أدعو﴾، واختيرت ﴿على﴾ لتدل على تمام التمكن و ﴿أنا﴾ تأكيد للضمير المستتر في ﴿أدعو﴾، ونكتته الإعلان بنفسه في مقام الدعوة، وشأن الداعي على بصيرة أن يجهر بدعوته ولا يستتر بها، واتصال اللفظ الدال عليه باللفظ الدال على اتباعه كما تتصل بدعوته. وشأن الصورة اللفظية مطابقة الصورة الخارجية والكلام تصوير للواقع.

﴿من﴾ تفيد العموم لكل تابع، وأكملهم في الاتباع أكملهم في الدعوة؛ لأن الموصول يفيد التعليل بصلته، فهم يدعون لأنهم متبعون.

تنزيه الله تعالى:

الاعتراف بوجود خالق للكون يكاد يكون غريزة مركوزة في الفطرة، ويكاد لا تكون لمنكريه ـ عناداً ـ نسبة عددية بين البشر.

ولكن أكثر المعترفين بوجوده قد نسبوا إليه ما لا يجوز عليه، ولا يليق بجلاله: من الصاحبة

والولد، والمادة والصورة، والحلول، والشريك في التصرف في الكون، والشريك في التوجه والضراعة إليه، والسؤال منه والاتكال عليه.

فأرسل الله الرسل ليبينوا للخلق تنزهه عن ذلك كله.

وكان من سبيل محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنه يدعو الخلق إلى الله، وينزهه عن كل ما نسبه إليه المبطلون وتخيله المتخيلون، وهو معنى قوله: ﴿وسبحان الله﴾.

فهو يدعوهم إلى الله الذي قد عرفوا وجوده بفطرتهم، وعرفوا أنه هو خالق الكون وخالقهم، لا يسميه إلا بما سمى به نفسه، ولا يصفه إلا بما وصف به نفسه، ويعرفهم بآثار قدرته، ومواقع رحمته، ومظاهر حكمته، وآيات ربوبيته وألوهيته، ووحدانيته في جلاله وسلطانه، وينزهه عن المشابهة والمماثلة لشيء من مخلوقاته لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

وهذا التنزيه ـ وإن كان داخلاً في الدعوة إلى الله فإنه ـ خصص بالذكر، لعظم شأنه؛ فإنه ما عرف الله من شبهه بخلقه، أو نسب إليه ما لا يليق بجلاله، أو أشرك به سواه. وإن ضلال أكثر الخلق جاءهم من هذه الناحية.

فمن أعظم وجوه الدعوة وألزمها، تنزيه الله تعالى عن الشبيه والشريك، وكل ما لا يليق.

والمسلمون المتبعون لنبيهم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في الدعوة إلى الله على بصيرة، متبعون له في هذا التنزيه: عقداً، وقولاً، وعملاً، وإعلاناً، ودعوة.

مباحث لفظية:

﴿**سبحان**﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره أسبح أي أنزه، والجملة معطوفة على جملة ﴿**أدعو**﴾، فهي من بيان القبيل.

البراءة من المشركين:

الأمة التي بعث منها النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهي أول أمة دعاها إلى الله، هي الأمة العربية، وهي أمة كانت مشركة تعرف أن الله خلقها ورزقها، وتعبد مع ذلك أوثانها: تزعم أنها تقربها إلى الله، وتتوسط لها لديه!!

فكان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما يدعو إلى الله وينزهه، يعلن براءته من المشركين، وأنه ليس منهم: براءة من عقيدتهم، وأقوال وأعمال شركهم. فهو مباين لهم في العقد، والقول، والعمل مباينة الضد للضد. فكما باين التوحيد الشرك، باين هو المشركين، وذلك معنى قوله: ﴿**وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾.

وهذه البراءة والمباينة ـ وإن كانت مستفادة من أنه يدعو إلى الله وينزهه ـ فإنها نص عليها بالتصريح، لتأكيد أمر مباينة المشركين، والبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره جلية وخفية.

في جميع مظاهر شركهم، حتى في صورة القول، كما «شاء الله وشاء فلان». فلا يقال: «وشاء فلان» كما جاء في حديث[1] بيناه في جزء من الأجزاء الماضية.

أو في صورة الفعل: كأن يسوق بقرة أو شاة مثلاً إلى ضريح من الأضرحة، ليذبحها عنده، فإنه ضلال كما قاله «الشيخ الدردير في باب النذر».

فضلاً عن عقائدهم: كاعتقاد أن هناك ديواناً من عباد الله يتصرف في ملك الله وأن المذنب لا يدعو الله وإنما يسأل من يعتقد فيه الخير من الأموات، وذلك الميت يدعو له الله!!

لتأكيد أمر المباينة للمشركين في هذا كله نص عليها بالتصريح كما قلنا، وللبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره وجليه وخفيه

والمباينة والتبري لازمة من كل كفر وضلال، وذلك مستفاد من الدعوة إلى الله وتنزيهه. وإنما خصص المشركين لما تقدم ولأن الشرك هو شرك الكفر وأقبحه.

ولما كانت هذه المباينة والبراءة داخلة في الدعوة إلى الله وتنزيهه، فالمسلمون المتبعون لنبيهم - صلى الله عليه وآله وسلم - كما يدعون إلى الله على بصيرة، وينزهونه؛ يباينون المشركين في عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم، ويطرحون الشرك بجميع وجوهه، ويعلنون براءتهم وانتفاءهم من المشركين. والحمد لله رب العالمين.

٢ - كيف تكون الدعوة إلى الله والدفاع عنها

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

[النحل: ١٢٥]

سبيل الرسل جل جلاله:

شرع الله لعباده - بما أنزل من كتابه، وما كان من بيان رسوله - ما فيه استنارة عقولهم، وزكاء نفوسهم، واستقامة أعمالهم.

وسماه سبيلاً ليلتزموه في جميع مراحل سيرهم في هذه الحياة، ليفضي بهم إلى الغاية المقصودة، وهي السعادة الأبدية في الحياة الأخرى.

وأضافه إلى نفسه، ليعلموا أنه هو وضعه، وأنه لا شيء يوصل إلى رضوانه سواه.

---

(١) الحديث رواه أبو داود في الأدب باب ٧٦، والدارمي في الاستئذان باب ٦٣، وأحمد في المسند (٥/٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨) من طريق حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان».

وذكر من أسمائه الرب؛ ليعلموا أن الرب الذي خلقهم وصوَّرهم[١]، ولطف بهم في جميع أطوار خلقهم ومراحل تكوينهم: هو الذي وضع لهم هذه السبيل لطفاً منه بهم، واحساناً إليهم، لينهجوها في مراحل حياتهم، فكما كان رحيماً بهم في خلقه، كان رحيماً بهم في شرعه، فيسيروا فيها عن رغبة ومحبة فيها ومع شكر له وشوق إليه.

وأمر نبيه ـ عليه السلام ـ أن يدعو الناس أجمعين ـ وحذف معمول «ادع» لإفادة العموم ـ إلى هذه السبيل، فقال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك﴾.

اهتداء:

أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يدعو إلى سبيل ربه، وهو الأمين المعصوم فما ترك شيئاً من سبيل ربه إلا دعا إليه، فعرفنا بهذا أن ما لم يدع إليه محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فليس من سبيل الرب جل جلاله؛ فاهتدينا بهذا ـ وأمثاله كثير ـ إلى الفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ودعاة الله ودعاة الشيطان.

فمن دعا إلى ما دعا إليه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فهو من دعاة الله، يدعو إلى الحق والهدى. ومن دعا إلى ما لم يدع إليه محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فهو من دعاة الشيطان يدعو إلى الباطل والضلال.

اقتداء:

فالمسلم المتبع للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا يألو جهداً في الدعوة إلى كل ما عرف من سبيل ربه، وبقيام كل واحد من المسلمين بهذه الدعوة بما استطاع، تتضح السبيل للسالكين، ويعم العلم بها عند المسلمين، وتخلو سبل الباطل على دعاتها من الشياطين.

أركان الدعوة:

١ ـ الداعي، وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ ـ والمدعو، وهم جميع الناس.

٣ ـ والمدعو إليه، وهو سبيل الرب جل جلاله. والدعوة إلى سبيله الموصل إليه دعوة إليه، فالمدعو إليه في الحقيقة هو الله تعالى.

٤ ـ والبيان عن الدعوة.

وتجيء الآيات القرآنية منها ما هو حديث وبيان عن الداعي، ومنها ما هو حديث وبيان عن المدعو إليه، ومنها ما هو حديث وبيان عن بيان الدعوة.

وتتضمن كل آية جاءت في واحد الذكر أوجه الإشارة للثلاثة الأخرى، وهذه الآية الكريمة

---

(١) تحرّفت في الأصل المطبوع إلى «وطورهم».

جاءت في بيان كيفية الدعوة، وبماذا تؤدى؟ وكيف يدافع عنها؟ مع ذكر الداعي والمدعو إليه؛ فقال تعالى: ﴿**بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾.

(الحكمة) هي العلم الصحيح الثابت، المثمر للعمل المتقن المبني على ذلك العلم.

فالعقائد الحقة والحقائق العلمية الراسخة في النفس رسوخاً تظهر آثاره على الأقوال والأعمال - حكمة.

والأعمال المستقيمة، والكلمات الطيبة التي أثمرتها تلك العقائد - حكمة.

والأخلاق الكريمة كالحلم والأناة - وهي علم وعمل نفسي - حكمة.

والبيان عن هذا كله بالكلام الواضح الجامع - حكمة؛ تسمية للدال باسم المدلول.

استدلال واستنتاج:

في سورة الإسراء ثمان عشرة آية، جمعت أصول الهداية، من قوله تعالى: ﴿**لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً**﴾ [الإسراء: ٢٢] إلى: ﴿**لا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً**﴾ [الإسراء: ٣٩].

وقد جمعت تلك الآيات كل ما ذكرنا من العقائد الحقة، والحقائق العلمية، والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة، والأخلاق الكريمة.

وسمى الله ذلك كله حكمة فقال تعالى: ﴿**ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة**﴾ [الإسراء: ٣٩].

وقال النبي ﷺ: «إن من الشعر حكمة»[1] وذلك لأن من الشعر ما فيه بيان عن عقيدة حق، أو خلق كريم، أو عمل صالح، أو علم وتجربة: كشعر أمية بن أبي الصلت، الذي قال فيه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - «كاد أن يسلم»[2].

وككلمة لبيد رضي الله عنه: * ألا كل شيء ما خلا الله باطل[3] * التي قال فيها - ﷺ - :

---

(١) أخرجه من حديث أبيّ بن كعب البخاري في الأدب باب ٩٠، وأبو داود في الأدب باب ٨٧، وابن ماجة في الأدب باب ٤١ حديث ٣٧٥٥، وأحمد في المسند (٣/٤٥٦ و٥/١٢٥). وأخرجه من حديث ابن عباس الترمذي في الأدب باب ٦٩ حديث ٢٨٤٥، وابن ماجة في الأدب باب ٤١ حديث ٣٧٥٦. وأخرجه من حديث عبدالله بن مسعود الترمذي في الأدب باب ٦٩ حديث ٢٨٤٤.

(٢) رواه في حديث أبي هريرة البخاري في الأدب باب ٩٠. ومسلم في الشعر حديث ١ و٣ و٤. وابن ماجة في الأدب باب ٤١. وأحمد في المسند (٢/٢٤٨، ٣٩١، ٣٩٣، ٤٧٠). ولفظ الحديث - كما عند البخاري -: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل؛ وكاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم».

(٣) هذا صدر بيت للبيد بن ربيعة؛ وعجزه:

وكلّ نعيم لا محالة زَائِلُ

وهو في ديوانه (ص ٢٥٦) وجواهر الأدب (ص ٣٨٢) وخزانة الأدب (٢/٢٥٥ - ٢٥٧) والدرر اللوامع على=

«أصدق كلمة قالها الشاعر»[(١)].

فالحكمة التي أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يدعو الناس إلى سبيل ربه بها، هي البيان الجامع الواضح للعقائد بأدلتها، والحقائق ببراهينها، والأخلاق الكريمة بمحاسنها، ومقابح أضدادها، والأعمال الصالحة: من أعمال القلب واللسان والجوارح بمنافعها ومضارّ خلافها.

وهكذا كان بيانه لهذه الأشياء كلها؛ بما صح من أحاديثه وجوامع كلمه، وهكذا هو بيان القرآن لها كلها، حيثما كانت من آياته. فآيات القرآن وأحاديثه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في بيان هذه الأشياء البيان المذكور ـ هما الحكمة التي كان يدعو إلى سبيل ربه بها.

وتلك الأشياء كلها هي أيضاً حكمة وهي التي كان يعلمها كما في قوله تعالى: ﴿**ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾ فصلى الله عليه وآله وسلم من داع إلى الحكمة بالحكمة، ومعلم للحكمة بالحكمة.

اهتداء واقتداء:

هدتنا الآية الكريمة إلى أسلوب الدعوة: وهو الحكمة، وتجلت هذه الحكمة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

فعلينا أن نلتزمها جهدنا حيثما دعونا، ونقتدي بأساليب القرآن والسنة في دعوتنا، فيها يحصل الفهم واليقين، والفقه في الدين والرغبة في العمل والدوام عليه.

وها نحن قد بلغ الحال بنا إلى ما بلغ إليه من الجهل بحقائق الدين، والجمود في فهمه، والإعراض عن العمل به، والفتور في العمل.

فحق على أهل الدعوة إلى الله ـ وخصوصاً المعلمين ـ أن يقاوموا ما بيَّنَّا من جهل وجمود وإعراض وفتور، بالتزام البيان للحقائق العلمية بأدلتها، والعقائد ببراهينها، والأخلاق بمحاسنها، والأعمال بمصالحها.

وقد وجد الأخذ بهذه الأساليب القرآنية ـ والحمد لله ـ وأخذ أثرها ـ بفضل الله ـ يظهر في

= همع الهوامع شرح جمع الجوامع في العلوم العربية (١/٧١) وديوان المعاني (١/١١٨) وسمط اللآلىء (ص ٢٥٣) وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك (١/١١) وشرح التصريح على التوضيح (١/٢٩) وشرح شذور الذهب (ص ٣٣٩) وشرح شواهد المغني (١/١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ٣٩٢) وشرح المفصل (٢/٧٨) والعقد الفريد (٥/٢٧٣) ولسان العرب (٥/٣٥١ ـ مادة رجز) والمقاصد النحوية (١/٥، ٧، ٢٩١) ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب (١/١٣٣) وهمع الهوامع (١/٣) وأسرار العربية (ص ٢١١) وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (٢/٢٨٩) ورصف المباني في شرح حروف المعاني (ص ٢٦٩) وشرح عمدة الحافظ (ص ٢٦٣) وشرح قطر الندى (ص ٢٤٨) واللمع في العربية (ص ١٥٤).

(١) راجع تخريجه في الحاشية (٢) في الصفحة السابقة.

الناس بقدر الأخذ بها، ويوشك أن تتجدد بذلك في المسلمين حياة إن شاء الله[١].

الموعظة الحسنة:

الوعظ والموعظة، الكلام الملين للقلب، بما فيه من ترغيب وترهيب فيحمل السامع ـ إذا اتعظ وقبل الوعظ، وأثر فيه ـ على فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه. وقد يطلق على نفس الأمر والنهي.

الاستدلال:

ففي حديث العرباض[٢] الذي رواه الترمذي وغيره:

«وعظنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موعظة وجلت[٣] منها القلوب، وذرفت[٤] منها العيون»[٥] فقد خطب فيهم خطبة كان لها هذا الأثر في قلوبهم، فهذه حقيقة الموعظة.

وقال تعالى: ﴿**ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به**﴾ [النساء: ٦٦] أي يؤمرون به. وقال تعالى: ﴿**يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً**﴾ [النور: ١٧] أي ينهاكم.

فهذا من إطلاق الوعظ على الأمر والنهي؛ لأن شأن الأمر والنهي أن يقترن بما يحمل على امتثاله من الترغيب والترهيب.

بماذا تكون الموعظة:

يكون الوعظ بذكر أيام الله في الأمم الخالية، وباليوم الآخر، وما يتقدمه، وما يكون فيه من مواقف الخلق وعواقبهم، ومصيرهم إلى الجنة أو النار، وما في الجنة من نعيم، وما في النار عن عذاب أليم، وبوعد الله ووعيده، وهذه أكثر ما يكون بها الوعظ.

ويكون بغيرها كتذكير الإنسان بأحوال نفسه، ليعامل غيره بما يحب أن يعامل به، وهو من أدق فنون الوعظ وأبلغها، مثل قوله تعالى وقد نهى أن يقال لمن ألقى السلام لست مؤمنا ـ ﴿**كذلك**

---

(١) يشير الإمام إلى دعوة جمعية العلماء المسلمين التي أنشأها وقامت بواجب الدعوة إلى الله، وكان ابن باديس رئيسها حتى لحق بربّه سنة ١٩٤٠ م. (حاشية المطبوع: ص ٥٣٦).

(٢) هو أبو نجيح وأبو الحارث العرباض بن سارية السلمي الفزاري القرشي المتوفى بعد السبعين للهجرة. صحابي جليل من أهل الصُفَّة. انظر ترجمته في تهذيب التهذيب (١٧٤/٧) وتقريب التهذيب (١٧/٢) وتاريخ البخاري الكبير (٨٥/٧) والجرح والتعديل (٣٩/٧) والثقات (٣٢١/٣) وأسد الغابة (١٩/٤) وتجريد أسماء الصحابة (٣٧٨/١) والإصابة (٤٨٢/٤) والاستيعاب (١٢٣٨) وسيرة أعلام النبلاء (٤١٩/٣) وحلية الأولياء (١٣/٢) وطبقات ابن سعد (١٦٥/٢، ٢٧١/٤).

(٣) وجلت: خافت وفزعت (المعجم الوسيط: ص ١٠١٤).

(٤) ذرف الدمع ذَرَفًا: سال (المعجم الوسيط: ص ٣١١).

(٥) رواه الترمذي في العلم باب ١٦. وأبو داود في السنّة باب ٥. وابن ماجة في المقدمة باب ٦. والدارمي في المقدمة باب ١٦. وأحمد في المسند (١٢٦/٤، ١٢٧).

كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم﴾ [النساء: ٩٤]. وقوله تعالى ـ وقد أمر بالعفو والصفح ـ **﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾** [النور: ٢٢].

تفريق بالتمثيل:

يقول تعالى: **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾** [الإسراء: ٣٤] هذه حكمة. ويقول تعالى: **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾** [النساء:١٠] هذه موعظة.

ويقول تعالى: **﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم﴾** [النساء: ٩] هذه أيضاً موعظة. **﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم﴾** [النحل: ٩٤]. هذه حكمة، **﴿فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم﴾** [النحل: ٩٤]، هذه موعظة.

﴿واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به﴾ [الحج: ٣٠] هذه حكمة. **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾** [الحج: ٣١] هذه موعظة.

وهكذا تمتزج المواعظ الحسنة بالحكم البالغة في آيات القرآن العظيم، فتتبعها في جميع سوره تجدها، وتدبرها تقع منها على علوم جمة، وأسرار غزيرة.

حسن الموعظة:

الموعظة التي تحصل المقصود منها: من ترقيق للقلوب، للحمل على الامتثال لما فيه خير الدنيا والآخرة هي الموعظة الحسنة.

وإنما يحصل المقصود منها إذا حسن لفظها؛ بوضوح دلالته على معناها، وحسن معناها بعظيم وقعه في النفوس، فعذبت في الأسماع، واستقرت في القلوب، وبلغت مبلغها من دواخل النفس البشرية، فأثارت الرغبة والرهبة، وبعثت الرجاء والخوف، بلا تقنيط من رحمة الله، ولا تأمين من مكره، وانبعثت عن إيمان ويقين، ونادت بحماس وتأثر، فتلقتها النفس من النفس، وتلقفها القلب من القلب، إلا نفساً أحاطت بها الظلمة، وقلباً عَمَى عليه الران[1].

عافى الله قلوب المؤمنين.

تطبيق واستدلال:

كل هذا تجده في مواعظ القرآن، وفيما صح من مواعظ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم. وكان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما جاء في الصحيح: «إذا خطب، وذكر الساعة اشتد غضبه

(١) الرَّانُ: الغطاء والحجاب الكثيف؛ والصدأ يعلو الشيء الجليّ كالسيف والمرآة ونحوهما؛ والدنس؛ وما غطّى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب (المعجم الوسيط: ص ٣٨٦).

وعلا صوته، واحمرت عيناه، وانتفخت أوداجه، كأنه منذر جيش يقول صبحكم، ومساكم، وكان يقصر خطبه في بلاغة وإيجاز»[١].

اهتداء واقتداء:

هدتنا الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها إلى أن من الموعظة ما هو حسن، وهو الذي تكون به الدعوة، ومنها ما هو ليس بحسن فيتجنب.

وبينت مواعظ القرآن، ومواعظ النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ذلك الحسن.

فعلينا أن نلتزمه؛ لأنه هو الذي تبلغ به الموعظة غايتها، وتثمر بإذن الله ثمرتها.

وعلينا أن نجتنب كل ما خالفه مما يعدم ثمرة الموعظة كتعقيد ألفاظها؛ أو يقلبها إلى ضد المقصود منها، كذكر الآثار الواهية التي فيها أعظم الجزاء على أقل الأعمال.

تحذير:

أكثر الخطباء في الجمعات اليوم في قطرنا يخطبون الناس بخطب معقدة، مسجعة طويلة، من مخلفات الماضي، لا يراعى فيها شيء من أحوال الحاضر وأمراض السامعين، تلقى بترنم وتلحين، أو غمغمة وتمطيط، ثم كثيراً ما تختم بالأحاديث المنكرات، أو الموضوعات.

هذه حالة بدعية في شعيرة من أعظم الشعائر الإسلامية، سد بها أهلها باباً عظيماً من الخير فتحه الإسلام، وعطلوا بها الوعظ والإرشاد وهو ركن عظيم من أركان الإسلام.

فحذار أيها المؤمن من أن تكون مثلهم إذا وقفت خطيباً في الناس.

وحذار من أن تترك طريقة القرآن والمواعظ النبوية إلى ما أحدثه المحدثون.

ورحم الله أبا الحسن ـ كرم الله وجهه ـ فقد قال: «الفقيه كل الفقيه، من لم يقنِّط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من مكره، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه».

الجدال بالتي هي أحسن:

لا بد أن يجد داعية الحق معارضة من دعاة الباطل، وأن يلقى منهم مشاغبة بالتشبهات، واستطالة بالأذى والسفاهة؛ فيضطر إلى رد باطلهم وإبطال شغبهم، ودحض شبههم، وهذا هو جدالهم ومدافعتهم الذي أمر به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ﴿**وجادلهم...**﴾[٢].

---

(١) لفظ الحديث بتمامه كما رواه مسلم في الجمعة حديث رقم ٤٣: عن جابر بن عبدالله قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرّت عيناه وعلا صوته واشتدّ غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: صبّحكم ومسّاكم، ويقول: «بُعثت أنا والساعة كهاتين» ويقرن بين أصبعيه السبَّابة والوسطى؛ ويقول: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهُدى هُدى محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة». ثم يقول: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه؛ ومن ترك مالاً فلأهله، ومن ترك دَيناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ». ورواه أيضاً النسائي في العيدين باب ٢٢، وابن ماجة في المقدمة باب ٧.

(٢) الآية ١٢٥ من سورة النحل: ﴿**وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾.

ولما كان أهل الباطل لا يجدون في تأييد باطلهم إلا الكلمات الباطلة يموهون بها، والكلمات البذيئة القبيحة يتخذون سلاحاً منها، ولا يسلكون في مجادلتهم إلا الطرق الملتوية المتناقضة، فيتعسفون فيها ويهربون إليها؛ لما كان هذا شأنهم، أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

أن يجتنب كلماتهم الباطلة والقبيحة، وطرائقهم المتناقضة والملتوية.

وأن يلتزم في جدالهم كلمة الحق والكلمات الطيبة البريئة.

وأن يسلك في مدافعتهم طريق الرفق والرجاحة والوقار، دون فحش ولا طيش ولا فظاظة.

وهذه الطريقة في الجدال هي التي هي أحسن من غيرها، في لفظها ومعناها، ومظهرها وتأثيرها، وإفضائها للمقصود من إفحام المبطل وجلبه، ورد شره عن الناس، وإطلاعهم على نقصه، وسوء قصده.

وهذه هي الطريقة التي أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالجدال بها في قوله: **﴿وَجَادِلْهُمْ بالتي هي أَحْسَنُ﴾** [النحل: ١٢٥].

اهتداء واقتداء:

هدتنا الآية الكريمة إلى الطريقة المحمودة المشروعة في الجدال.

وفي آيات القرآن بيان لهذه الطريقة البيان التام، فإنه كما لم يترك القرآن عقيدة من عقائد الإسلام إلا بينها وأوضح دليلها، ولا أصلاً من أصول أحكامه أو أصول آدابه إلا بينه واحتج له وذكر حكمته وثمرته، كذلك لم يترك شبهة من شبه الباطل إلا ردها بالطريقة الحسنة التي أمر بها.

وجاءت السنة النبوية الكريمة، والسيرة المحمدية الشريفة، مطبقة لذلك ومنفذة له.

فالكتاب والسنة، فيهما البيان الكافي الشافي للجدال بالتي هي أحسن، كما فيهما البيان الشافي الكافي للحكمة والموعظة الحسنة.

فعلينا أن نطلب هذا كله من الكتاب والسنة، ونجهد في تتبعه وأخذه واستنباطه منهما، ونداب على العمل بما نجده، والتحلي به، والالتزام له، من هذه الأصول الثلاثة في الدعوة والدفاع عنها.

أحكام وتنزيل:

أمر الله بالدعوة وبالجدال على الوجه المذكور، فكلاهما واجب على المسلمين أن يقوموا به. فكما يجب لسبيل الرب جل جلاله، أن تعرف بالبيان بالحكمة، وأن تحب بالترغيب بالموعظة الحسنة؛ كذلك يجب أن يدافع من يصدون عنها بالتي هي أحسن، إذ لا قيام لشيء من الحق إلا بهذه الثلاث.

غير أن الدعوة بوجهيها والجدال ليستا في منزلة واحدة في القصد والدوام: فإن المقصود بالذات هو الدعوة، وأما الجدال فإنه غير مقصود بالذات، وإنما يجب عند وجود المعارض بالشبهة،

والصادّ بالباطل عن سبيل الله؛ فالدعوة بوجهيها أصل قائم دائم، والجدال يكون عند وجود ما يقتضيه، ولهذا كانت الدعوة بوجهيها محمودة على كل حال، وكان الجدال مذموماً في بعض الأحوال؛ وذلك فيما إذا استعمل عند عدم الحاجة إليه، فيكون حينئذ شاغلاً عن الدعوة ومؤديًا[1] - في الأكثر - إلى الفساد والفتنة.

فإذا كان جدالاً لمجرد الغلبة والظهور، فهو شر كله. وأشد شراً منه إذا كان لمدافعة الحق بالباطل.

وفي هذه الأقسام الممنوعة جاء مثل قوله: ﴿**إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا**﴾ [فصلت: ٤٠]، ﴿**ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق**﴾ [الكهف: ٥٦].

وقوله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»[2] ثم تلا: ﴿**ما ضربوه إلا جدلاً بل هم قوم خصمون**﴾ [الزخرف: ٥٨].

تحذير:

المدافعة والمغالبة من فطرة الإنسان، ولهذا كان الإنسان أكثر شيء جدلاً. غير أن التربية الدينية هي التي تضبط خلقه، وتقوِّم فطرته، فتجعل جداله بالحق عن الحق.

فلنحذر من أن يطغى علينا خلق المدافعة والمغالبة، فنذهب في الجدل شر مذاهبه، وتصير الخصومة لنا خلقاً، ومن صارت الخصومة له خلقاً أصبح يندفع معها في كل شيء، ولأدنى شيء، ولا يبالي بحق ولا باطل، وإنما يريد الغلب بأي وجه كان، وهذا هو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«إن أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخصم»[3].

ومن ضبط نفسه وراقب ربه، لا يجادل إذا جادل إلا عن الحق وبالتي هي أحسن.

علينا الدعوة والجدال، وإلى الله الهدى والضلال، والمجازاة على الأعمال:

الدعوة بوجهيها يجب أن تكون عامة، والجدال على وجهه عام مثلها.

ثم يكون حظ كل أحد من الهدى والضلال على حسب استعداده وقابليته، وما سبق عليه

---

(١) تحرّفت في الأصل المطبوع إلى «ومؤيداً» بتقديم الياء على الدال.

(٢) رواه من حديث أبي أمامة الباهلي الترمذي في تفسير سورة ٤٣، وابن ماجة في المقدمة باب ٧، وأحمد في المسند (٥/٢٥٢، ٢٥٦).

(٣) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها البخاري في تفسير سورة البقرة باب ٣٧، والمظالم باب ١٥، والأحكام باب ٣٤، ومسلم في العلم حديث ٥. والترمذي في تفسير سورة البقرة باب ٢٣. والنسائي في القضاة باب ٣٤. وأحمد في المسند (٦/٥٥، ٦٣، ٢٠٥). والألَدُّ: شديد الخصومة؛ مأخوذ من لديدي الوادي، وهما جانباه؛ لأنه كلما احتجّ عليه بحجة أخذ في جانب آخر. والخَصِمُ: الحاذق بالخصومة؛ والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع حقّ أو إثبات باطل.

من أمر ربه، وتكون مجازاته على ذلك للخالق، الذي هو العالم بمن خرج عن طريقه وأعرض عن هداه، وبالذين قبلوا هداه فاهتدوا وساروا في سبيله.

والعدل الحقيقي التام في الجزاء، إنما يكون ممن يعلم السر والعلن، وليس ذلك إلا لله، فلا يكون الجزاء على الهدى والضلال من سواه؛ ولهذا ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: **﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾**.

ثمرة:

ثمرة العلم بهذا:

أن الداعي يدعو ولا ينقطع عن الدعوة ولو لم يتبعه أحد، لأنه يعلم أن أمر الهدى والضلال إلى الله، وإنما عليه البلاغ. وأنه يصبر على ما يلقى من إعراض وعناد وكيد وأذى، دون أن يجازي بالمثل، أو يفتر في دعوته من أذاه؛ لعلمه بأن الذي يجازي إنما هو الله.

جعلنا الله والمسلمين من الدعاة إلى سبيله كما أمر، الصابرين المحتسبين أمام من آمن وشكر، ومن جحد وكفر؛ غير منتظرين إلا جزاءه، ولا متكلين إلا عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٣ ـ دعوة أهل الكتاب

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهۡدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

[المائدة: ١٥ و١٦]

تمهيد:

أرسل الله محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لجميع الأمم؛ فكانت رسالته عامة، وكانت دعوته عامة مثلها.

وجاءت آيات القرآن بالدعوة العامة في مقامات، وبالدعوة الخاصة لبعض من شملتهم الدعوة العامة في مقامات أخرى.

ولما أرسل الله محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان الخلق قسمين: أهل كتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ وغيرهم. وكان أشرف القسمين أهل الكتاب؛ بما عندهم من النصيب من الكتاب الذي أوتوه على نسيانهم لحظ منه، وتحريفهم لما حرفوا. وكانوا أولى القسمين باتباع محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بما عرفوا قبله من الكتب والأنبياء. فلهذا وذاك كانت توجه إليهم الدعوة الخاصة بمثل قوله تعالى: **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا﴾** إلى آخر الآيتين.

وفي ندائهم ـ ﴿يا أهل الكتاب﴾ تشريف وتعظيم لهم بإضافتهم للكتاب، وبعث لهم على قبول ما جاء به محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لأنه جاء بكتاب وهم أهل الكتاب، واحتجاج عليهم بأن الإيمان بالكتاب الذي عندهم يقتضي الإيمان بالكتاب الذي جاء به لأنه من جنسه.

أدب واقتداء:

هذا هو أدب الإسلام في دعوة غير أهله، ليعلمنا كيف ينبغي أن نختار عند الدعوة لأحد أحسن ما يدعى به، وكيف ننتقي ما يناسب ما نريد دعوته إليه: فدعاء الشخص بما يحب مما يلفته إليك، ويفتح لك سمعه وقلبه، ودعاؤه بما يكره يكون أول حائل يبعد بينك وبينه، وإذا كان هذا الأدب عاماً في كل تداع وتخاطب، فأحق الناس بمراعاته هم الدعاة إلى الله، والمبينون لدينه سواء دعوا المسلمين أو غير المسلمين.

بيانه لهم حجته عليهم:

كانت كتبهم مقصورة على أحبارهم ورهبانهم، مخفية عندهم لا تصل إليها أيدي عامتهم؛ فكانوا لا يظهرون منها إلا ما يشاءون، ولا تعرف عامتهم منها إلا ما أظهروا، فجاءهم رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو أمي من أمة أمية، يبين لهم بما أنزله الله عليه، وأوحى إليه به، من آيات الله وحججه وأحكامه وكلمات رسله، فيما عندهم مما هو حجة عليهم مقداراً كثيراً، ويتجاوز عن كثير فيما عندهم من ذكر قبائح أسلافهم وذمهم، وما لقي رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من عنتهم[1] وشرهم وأذاهم.

فكان هذا البيان العليم وهذا الخلق الكريم من هذا النبي الأمي كافياً أن يعرفهم بنبوته وصدق دعوته ونهوض حجته؛ ولهذا ذكر الله هذا البيان وهذا التجاوز في أول صفاته، لما أخبرهم بمجيئه إليهم بقوله: ﴿يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير﴾.

تمثيل:

في أول الإصحاح العشرين من سفر اللاويين التصريح برجم الزناة، فأبطل أحبارهم هذا الحكم وعوضوه بغيره من التخفيف، وكتموا النص؛ فبينه لهم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والقصة مشهورة في كتب السنن.

جاءت صفات النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ التي لا تنطبق على غيره فكتموها، مثل قول عيسى ـ ﷺ ـ في الفقرة الثانية عشرة وما بعدها في الإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا:

«إن لي أموراً أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن إمامتي، جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلي جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم».

صرح عيسى عليه السلام بأن الله هو الإله وحده، وأن عيسى رسوله، فكتموها وقالوا فيه ما قالوا.

---

(١) العَنَتُ: المكابرة عناداً (المعجم الوسيط: ص ٦٣٠).

وجاء في الفقرة الثانية من الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا، قول عيسى عليه السلام:

«وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته».

وأمثال هذا فيما عندهم كثير.

أدب واقتداء:

على الداعي إلى الله والمناظر في العلم، أن يقصد إحقاق الحق وإبطال الباطل، وإقناع الخصم بالحق وجلبه إليه؛ فيقتصر من كل حديثه على ما يحصل له ذلك، ويتجنب ذكر العيوب والمثالب، ولو كانت هنالك عيوب ومثالب؛ اقتداء بهذا الأدب القرآني النبوي في التجاوز مما في القوم عن كثير، وفي ذكر العيوب والمثالب خروج عن القصد وبعد عن الأدب، وتَعَدٍّ على الخصم وإبعاد له، وتنفير عن الاستماع والقبول، وهما المقصود من الدعوة والمناظرة:

نعمة الإظهار والبيان بالرسول والقرآن

ولقد كان الناس: أهل الكتاب وغيرهم، قبل بعثة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في ظلام من الجهل وبأنبيائه وبشرعه، ومن الجهل بآيات الله في أنفسهم وفي الكون، ومن الجهل بنعم الله عليهم[1] في أنفسهم بالعقل والفكر والاستعداد للخير والكمال، وفي العالم المسخر لهم بما أودع فيه من مرافق العيش والعمران والحياة، ومن الجهل بقيمة أنفسهم الإنسانية وكرامتها وحريتها.

فلما بعث الله محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان بقوله وبفعله وبسيرته معرفاً للخلق بما كانوا يجهلون؛ فكان نوراً سطع في ذلك الظلام الحالك فبدده عن البصائر.

وكما أن النور الكوني يجلو الموجودات الكونية للأبصار فكذلك كان محمد ﷺ ذلك النور الرباني، يجلو تلك الحقائق للبصائر.

وكما أن الور الكوني يظهر الموجودات الكونية، فلا يحرم منها إلا معدوم البصر، فكذلك كان محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ذلك النور الرباني، مجلياً للحقائق للبشرية كلها، ولا يحرم من إدراكها إلا مطموسو البصائر، الذين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم.

وكما كان محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ نوراً تنبعث من أقواله وأفعاله وسيرته الأشعة الكاشفة للحقائق ـ كذلك كان الكتاب الكريم الذي أنزله الله عليه، يبين بسوره وآياته وكلماته تلك الحقائق أجلى بيان.

فبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكتابه، تمت نعمة الله تعالى على البشرية كلها، بإظهار

---

(١) كانت في الأصل المطبوع: «عليه».

وبيان كل ما تحتاج إلى إظهاره وبيانه. ولما دعا الله إلى تصديق رسوله بالحجة العلمية الخُلقية من بيانه وتجاوزه ذكّر بهذه النعمة العظمى في قوله: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ [المائدة: ١٥].

* * *

محمد ﷺ والقرآن نور وبيان:

في هذه الآية وصف محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بأنه نور، ووصف القرآن بأنه مبين، وفي آيات أخرى وصف القرآن بأنه نور، كقوله: ﴿**فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا**﴾ [التغابن: ٨] ووصف الرسول بأنه مبين كقوله: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾ [النحل: ٤٤].

وهذا ليبين لنا الله تعالى أن إظهار النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وبيانه وإظهار القرآن وبيانه واحد.

وقد صدقت عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلق النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقالت: «كان خلقه القرآن[1]»[2].

نستفيد من هذا ـ أولاً ـ أن السنة النبوية والقرآن لا يتعارضان، ولهذا يُرَدُّ خبر الواحد إذا خالف القطعي من القرآن.

وثانياً ـ أن فقه القرآن يتوقف على فقه حياة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وسنته، وفقه حياته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يتوقف على القرآن، وفقه الإسلام يتوقف على فقههما.

اقتداء:

هذا نبينا ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ نور وبيان، وهذا كتابنا نور وبيان؛ فالمسلم المؤمن بهما المتبع لهما له حظه من هذا البيان: فهو على ما يسر له من العلم ولو ضئيلاً يبينه وينشره، يعرف به الجاهل ويرشد به الضال، وهو بذاك وبعمله الصالح كالنور يشع على من حوله، وتتسع دائرة إشعاعه وتضيق بحسب ما عنده من علم وعمل.

فعلى المسلم أن يعلم هذا من نفسه، ويعمل عليه، ويضرع إلى الله دائماً في دعواته أن يمدّه بنوره، وليدع بدعاء النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذي كان يدعو به في ذلك وهو:

«اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن

---

(١) «كان خلقه القرآن» معناه العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بآدابه والاعتبار بأمثاله وقصصه وتدبّره وحسن تلاوته.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها حديث ١٣٩. وأبو داود في التطوع باب ٣٦. والترمذي في البرّ باب ٦٩. والنسائي في قيام الليل باب ٢. وابن ماجة في الأحكام باب ١٤. والدارمي في الصلاة باب ١٦٥. وأحمد في المسند (٦/٥٤، ٩١، ١١١، ١٦٣، ١٨٨، ٢١٦).

يساري نوراً، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، واجعل لي نوراً»[1].

* * *

الهداية نوعان:

قد دل الله الخلق برسوله وبكتابه على ما فيه كمالهم وسعادتهم، ومرضاة خالقهم.

وهذه هي هداية الدلالة، وهي من فضل الله العام للناس أجمعين، وبها وبما يجده كل عاقل في نفسه من التمكن والاختيار قامت حجة الله على العبد.

ثم يسر من شاء ـ وهو الحكيم العدل ـ إلى العمل بما دل عليه من أسباب السعادة والكمال، وهذه هي دلالة التوفيق، وهي من فضل الله الخاص بمن قبلوا دلالته، وأقبلوا على ما آتاهم من عنده؛ فآمنوا برسوله والنور الذي أنزل معه، كما قال تعالى: ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**﴾ [محمد: ١٧].

أما الذين أعرضوا عن ذكره وزاغوا عما دلهم عليه، فأولئك يخذلهم ويحرمهم من ذلك التيسير، كما قال تعالى: ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ [الصف: ٥].

فالمقبلون على الله القابلون لما أتاهم من عنده هدوا دلالة وتوفيقاً.

والذين أعرضوا قامت عليهم الحجة بالدلالة، وحرموا من التوفيق جزاء إعراضهم.

بماذا تكون الهداية:

كما أنعم الله على عباده بالهداية إلى ما فيه كمالهم وسعادتهم، كذلك أنعم عليهم فبين لهم ما تكون به الهداية حتى يكونوا على بينة فيما به يهتدون؛ إذ من طلب الهدى في غير ما جعله الله سبب الهدى كان على ضلال مبين فلذا بين تعالى أن هدايته لخلقه إنما تكون برسوله وكتابه، فيتمسك بها من يريد الهدى، وليحكم على من لم يهتد بها بالزيغ والضلال.

ولما كانا في حكم شيء واحد في الهداية يصدق كل واحد منهما الآخر ـ جاء بالضمير مفرداً في قوله تعالى: ﴿**يهدي به الله**﴾.

لمن تكون الهداية:

أما هداية الدلالة والإرشاد وحدها، فهي كما تقدم عامة. وأما هداية الدلالة والإرشاد مع التوفيق والتسديد، فهي للذين اتبعوا ما جاء من عند الله: من رسوله وكتابه، وكانوا باتباعهم لهما

---

(١) من حديث عبدالله بن العباس رضي الله عنهما، رواه البخاري في الدعوات باب ٩. ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها حديث١٨١ و١٨٧ و١٨٩. وأبو داود في التطوع باب ٢٦. والترمذي في الدعوات باب ٣٠. وأحمد في المسند (١/ ٢٨٤، ٣٤٣، ٣٥٢، ٣٧٣).

متبعين لرضوانه، المقتضي لقبوله مثوبته وكرامته لهم، ولم يتبعوا أهواءهم ومألوفاتهم وما ألفوا عليه آباءهم ولا أهواء الناس ورضاهم، فكان اتباعهم لرضوان الله سبباً في دوام إرشادهم وتوفيقهم، وبقدر ما يكون ازدياد اتباعهم، يكون توفيقهم؛ إذ قوة السبب تقتضي قوة المسبب، والخير يهدي إلى الخير والهدى يزداد بالاهتداء.

وهذا الربط الشرعي بين التوفيق والاتباع، يقتضي الربط ما بين ضديهما: الإعراض والخذلان، وأنه بقدر ما يكون الإعراض عن الهدى، يكون الخذلان والحرمان، والشر يدعو بعضه إلى بعض، والسيئة تجر السيئة.

وقد أفاد تخصيص التوفيق بأهل الاتباع، وجعل التوفيق مسبباً عنه ـ بما في صلة الموصول من التعليل ـ قوله تعالى: ﴿**من اتبع رضوانه**﴾.

إلى ماذا تكون الهداية؟

فشؤون الشخص في نفسه، وشؤونه فيما بينه وبين أهله، وفيما بينه وبين بنيه، وفيما بينه وبين أقاربه، وفي بيته، وبين جيرانه، وفيما بينه وبين من تربطه به علاقة من علاقات الحياة ومصالحها، وشؤون الجماعات وشؤون الأمم فيما بينها.

كل هذه الشؤون سبل وطرق في الحياة، تسلك ويسار عليها؛ للبلوغ إلى الغايات المقصودة منها مما به صلاح الفرد والمجموع؛ وكلها إن سلكت بعلم وحكمة وعدل وإحسان، كانت سبل سلامة ونجاة، وإلا كانت سبل هلاك، فيحتاج العبد فيها إلى إرشاد وتوفيق من الله تعالى.

وقد منّ الله ـ بفضله ـ على العباد بهذا النبي الكريم، والكتاب العظيم، فمن آمن بهما واتبعهما ففيهما ما يهديه إلى كل ما يحتاج إليه في كل سبيل من تلك السبل في الحياة. وباتباعهما ـ واتباعهما اتباع لرضوان الله ـ يوفقه الله ويسدده في سلوك تلك السبل ـ الفردية والجماعية والأممية ـ إلى ما يفضي به إلى السلامة والنجاة. وتكون تلك السبل كلها له سبل سلام، أي سلامة ونجاة، لأنها أفضت به بإرشاد الله وتوفيقه، جزاء لاتباعه وتصديقه إليها، كما قال تعالى: ﴿**يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام**﴾ [المائدة: ١٦].

* * *

الإخراج من حالات الحيرة إلى حالة الاطمئنان:

تمر على العبد أحوال يكون فيها متحيراً مرتبكاً كمن يكون في ظلام؛ منها حالة الكفر والإنكار، وليس لمنكر الحق المتمسك بالهوى والمقلد للآباء من دليل يطمئن به ولا يقين بالمصير الذي ينتهي إليه.

ومنها حالة الشك، ومنها حالة اعتراض الشبهات، ومنها حالة ثوران الشهوات. وكما أن الله يرشد ويوفق من اتبعوا رضوانه طرق السلامة والنجاة بالرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والقرآن، كذلك يخرجهم بهما باتباعهما والاهتداء بهما من ظلمات الكفر والشك والشبهات

والشهوات، وما فيها من حيرة وعماية إلى الحالة التي تطمئن فيها القلوب، كما تطمئن في النور عندما يسطع فيبدد سدول الظلام.

فباتباعهما فقط تطمئن القلوب بالإيمان واليقين، فتضمحل أمامها الشبهات، وتكسر سلطان الشهوات، فتلك الأحوال العديدة الظلمانية التي يكون فيها من أعرض عنهما، أو خالفهما، يخرج منها إلى الحالة النورانية الوحيدة، وهي حالة من آمن بهما واتبعهما كما قال تعالى: **﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور﴾** [المائدة: ١٦].

على العبد أن يقبل ما فيه كماله وسعادته، ومرضاة خالقه، مما هداه الله إليه برسوله وكتابه، وجعل قبوله له سبباً في توفيقه وإخراجه من الظلمات إلى النور، وعليه أن يعتقد أنه لا ينال شيئاً من التوفيق وحظًّا من النور إلا بإذن الله، أي إرادته وتيسيره، فلا يعتمد على نفسه ولا على أعماله، وإنما يكون اعتماده على الله، فيحمله ذلك على الاجتهاد في العمل، وعدم العجب به، ودوام التوجه إلى الله، وصدق الرجاء فيه، والخوف من عقابه، ودوام المراقبة له.

ولأجل لزوم هذا الاعتماد على الله الميسر للأسباب، الذي لا يكون في ملكه إلا ما أراد ـ قرن قوله: **﴿يهدي﴾** و **﴿يخرجهم﴾** بقوله: **﴿بإذنه﴾**.

الإسلام هو السبيل الجامع العام:

ما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والقرآن العظيم، هو دين الله الاسلام، فكل ما دل الله عليه الخلق بهما، وما وفق إليه العلم والعمل باتباعهما، فهو من الاسلام. ولهذا لما ذكر ـ تعالى ـ إرشاده وتوفيقه للذين اتبعوا رضوانه، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ذكر إرشاده وتوفيقه لهم إلى الطريق المستوي، الموصل إلى الكمال والسعادة، ومرضاة الله الجامع لذلك كله بقوله تعالى: **﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾**.

الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسول الله لازم دائماً:

إن الحاجة إلى إرشاد الله وتوفيقه دائمة متجددة، فكل عمل من أعمال الإنسان وكل حالة من أحواله هو محتاج فيه إلى هداية الله ودلالته؛ ليعرف ما يرضاه الله منه مما لا يرضاه.

وهو محتاج فيه إلى توفيق الله وتيسيره ليقوم بما يرضاه منه، وشرّعه له ودلّه عليه، ولن يزال العبد ـ غير المعصومين (صلوات الله وسلامه عليهم) ـ تغشاه ظلمات الشبهات والشهوات، فيحتاج إلى دلالة الله وتوفيقه، ليخرج منها إلى نور الإيمان والاستقامة.

فالعبد محتاج دائماً إلى الرجوع إلى كتاب الله، وما ثبت من سنة نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ليهتدي إلى ما يرضي الله، مما شرّعه له من أحواله وأفعاله، وإلى ما يدفع عنه شبهاته، وينقذه من شهواته.

ومحتاج إلى التوسل بذلك الرجوع إليهما وذلك الاتباع لهما إلى الله، ليفتح له أبواب المعرفة، ويمد له أسباب التوفيق، وهذا هو القصد من صيغة المضارع، المفيدة للتجدد، في قوله تعالى: **﴿يهدي﴾** و **﴿يخرجهم﴾** و **﴿يهديهم إلى صراط مستقيم﴾**.

جعلنا الله من المتبعين لرضوانه، الرجاعين لكتابه وسنة رسوله، الفائزين منهما بالهداية لخير غاية، بإذنه وفضله، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

٤ ـ الاجتماع العام للأمر الهام وارتباط الجماعة بأمر الإمام

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

[النور: ٦٢ و٦٣]

(الأمر الجامع) هو الحادث الذي يتطلب الاجتماع بطبيعته، فيجمع الإمام الناس من أجله، من ذوي الرأي والمعرفة بمثله، والخبرة والتجربة فيه، من كل ما يعم نفعه أو ضرره، من أمور السلم والحرب، وشؤون الحياة والاجتماع، ليتشاوروا فيما بينهم، ويستضيء بعضهم برأي بعض.

و (الاستئذان) هو طلب الإذن من الإمام بمفارقة الاجتماع لعذر قاض بالمفارقة.

المعنى:

يأمر الله المؤمنين إذا كانوا مع رسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على أمر جامع ألا يفارقوا مجلسه كلهم أو بعضهم إلا بإذنه. وأكد هذا الأمر بما وطأ له من ذكر الإيمان بالله ورسوله، تنبيهاً على أنه من مقتضاهما. وبقرنه بهما، وجعله ثالثاً لهما، تعظيماً لشأنه، وتنبيهاً على ملازمته لهما ممن صدق فيهما؛ حتى كأن غير المستأذنين لا إيمان لهم.

وبإعادته في الجملة الثانية، ببيان أن الذين يستأذنون هم دون غيرهم الثابتون في إيمانهم، المستمرون عليه، تعريضاً بالذين لا يستأذنون وتقبيحاً لحالهم بأنهم لا ثبات لهم في الإيمان، ولا استمرار منهم على العمل به، فليسوا بالمؤمنين، ولا بالذين يؤمنون.

ثم جعل الخيار لرسوله في الإذن وعدم الإذن لهم إذا استأذنوه لبعض شأنهم، تعظيماً لأمر الاجتماع، وتعظيماً للصالح العام، وتوكيداً لحق الإمام على الجماعة لحفظ الاجتماع وتتميم الأعمال.

ثم أمره أن يستغفر لهم، فقد يكون العذر دون الاضطرار، وقد يكون ما فاته من بركات الاجتماع، وحسنات المشاركة فيه بالرأي والاهتمام، وتكثير السواد ـ بسبب ذنب كان منهم في أمر غير الاجتماع، وأكد هذا الأمر بأنه الكثير المغفرة لعباده الدائم الرحمة بهم.

الأحكام:

لما كان الاجتماع شرع للمصلحة، والذهاب بدون استئذان حرم للمفسدة؛ فالمشروعية والتحريم دائمان بدوام المصلحة والمفسدة.

فأحكام الآية مستمرة الأحكام عامة للمسلمين، في كل زمان وكل مكان، مع أئمتهم وقادتهم المقدمين منهم فيهم، في كل ما يعرض من اجتماع لصالح عام.

فمن أحكام الآية الكريمة:

١ ـ أن على أئمة المسلمين وذوي القيادة فيهم، إذا نزل بهم أمر هام أن يجمعوا جماعة المسلمين الذين يرجى منهم الرأي والعمل فيما نزل، فلا يجوز لهم أن يهملوا أمرهم ولا أن يستبدوا عليهم.

٢ ـ وأن على المسلمين أن يجتمعوا إليهم ويكونوا معهم، يظاهرونهم ويؤيدونهم، وينصحون لهم، فلا يجوز لهم أن يتخلفوا عنهم، ولا أن يخذلوهم.

٣ ـ وأن على المجتمعين ألا يذهب واحد منهم إلا بإذن.

٤ ـ وألا يستأذن إلا لعذر ببعض الشأن.

٥ ـ وأن على الإمام أن ينظر في الإذن وعدمه، فيفعل ما هو أولى.

بيان مراد ودفع اغترار واعتراض:

تجد في آيات القرآن العظيم أخباراً ووعوداً من الله ـ تعالى ـ للمؤمنين. ولربما حسب ـ من لا يعلم ـ أنها تشمل كل من كان على أصل الإيمان، من اعتقاده مع بعض أعماله، وإن فرط في كثير من أصول الأعمال.

فيبين الله تعالى في هذه الآية وأمثالها مراده بالمؤمنين عند إطلاق لفظ المؤمنين في تلك الأخبار والوعود، حتى لا يغتر المفرطون ولا يعترض الجاهلون.

توجيه وإرشاد:

إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كان لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآزر وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة؛ ولهذا قرن الله في هذه الآية بين الإيمان بالله ورسوله، والحديث عن الجماعة وما يتعلق بالاجتماع، فيرشدنا هذا إلى خطر أمر الاجتماع ونظامه، ولزوم الحرص والمحافظة عليه، كأصل لازم للقيام بمقتضيات الإيمان وحفظ عمود الإسلام.

موعظة:

ما أصيب المسلمون في أعظم ما أصيبوا به إلا بإهمالهم لأمر الاجتماع ونظامه: إما باستبداد أئمتهم وقادتهم، وإما بانتثار جماعتهم بضعف روح الدين فيهم، وجهلهم بما يفرضه عليهم، وما

ذاك إلا من سكوت علمائهم وقعودهم عن القيام بواجبهم: في مقاومة المستبدين وتعليم الجاهلين، وبث روح الإسلام الإنساني السامي في المسلمين.

فعلى أهل العلم ـ وهم المسؤولون عن المسلمين بما لهم من إرث النبوة فيهم ـ أن يقوموا بما أرشدت إليه هذه الآية الكريمة؛ فينفخوا في المسلمين روح الاجتماع والشورى، في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم، حتى لا يستبد بهم مستبد، ولا يتخلف منهم متوان، وحتى يظهر الخاذل لهم ممن ينتسب إليهم، فينبذ ويطرح ويستغنى عنه بالله وبالمؤمنين.

موازنة وترجيح:

هنالك المصلحة العامة وهنالك المصلحة الخاصة، ومحال أن تساوى هذه بتلك: انظر إلى الذكر الحكيم كيف عبر عن الأولى بالأمر الجامع، وفي هذا ما فيه من تفخيم. وعبر عن الثانية ببعض الشأن، وفي هذا ما فيه من التحقير والتقليل.

وفي قرنها بالاستغفار تنبيه على ترجيح الأولى على الثانية، وأنها ما كانت تعتبر إلا على وجه الرخصة، والاستغراق في الاهتمام والتدبير للمصلحة العامة أحق وأولى.

امتثال ورجاء:

لنجعل المصلحة العامة غايتنا والمقدمة عندنا، حتى لا يكون ـ إن شاء الله ـ في مصالحنا الخاصة ما يصرفنا أو يشغلنا عنها، راجين من الله تعالى أن يعيننا على ما قصدنا، وأن يوفقنا إلى استعمال كل مصلحة خاصة لنا في مصلحة عامة لنا ولإخواننا، إنه نعم الموفق ونعم المعين.

* * *

﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ [النور: ٦٣].

لما بينت الآية السابقة وجوب الاستئذان عند إرادة الانصراف من مجلسه، عليه الصلاة والسلام، بينت هذه الآية وجوب تلبية دعوته إذا دعا، وفضحت حالة الذين يتسللون غير مستأذنين، وحذرت من فعلهم، وأوعدت الوعيد الشديد للمخالفين أمثالهم.

(الدعاء) النداء وطلب الإقبال للحضور. **﴿بينكم﴾** في اعتقادكم ومعاملتكم.

﴿يتسللون﴾ يذهبون قليلاً قليلاً من الجماعة متخفين.

﴿لواذاً﴾ ملاوذة، بأن يلوذ هذا بهذا ويلوذ هذا بهذا متستراً به حتى لا يرى عند خروجه.

﴿فليحذر﴾ فليتيقظ وليتحرز؛ وذلك باجتناب المخالفة.

﴿يخالفون عن أمره﴾ يصدون ويعرضون عن طريقته وسنته ومنهاجه، وما كان عليه من سير في الحياة.

(الفتنة) البلاء بأنواع النقم أو بنعم تستدرج إلى النقم. هذا معنى الفتنة هنا لأنها ذكرت في مساق الوعيد.

﴿عذاب أليم﴾ في الآخرة.

المعنى:

لا تنزلوا دعاء الرسول لكم إذا دعاكم إلى الحضور عنده، منزلة دعاء بعضكم بعضاً للحضور؛ فتحسبون أنفسكم مخيرين إن شئتم أجبتم وإن شئتم تخلفتم! فتارة تجيبون وتارة تتخلفون. فإجابة دعوته، والإسراع إليه واجب محتم عليكم، والتخلف أو التباطؤ ـ لغير عذر واضح ـ محرم عليكم؛ ذلك لأنه إذا دعاكم لا يدعوكم إلا لمصلحة قطعية وخير محقق يعود عليكم في أمر الدين أو أمر الدنيا، ففي تخلفكم أو تباطؤكم تفويت، أو تعطيل أو تثبيط.

وإذا حضرتم مجلسه فابقوا كلكم عنده ولا تذهبوا من مجلسه واحداً واحداً، أو اثنين اثنين، يتستر بعضكم ببعض عند الخروج حتى لا يراه الناس، ولا يراه الرسول، فإن الله يعلم قطعاً أولئك الذين يخرجون متسللين متسترين بعضهم ببعض، فإذا نجوا من ملام الرسول، فإنهم لا ينجون من عذاب الله.

وإذا كان الله عالماً بصنعهم ومفارقتهم لمجلس رسوله، وثلمهم لجماعته وصدهم وإعراضهم عما هو عليه هو ومن معه ـ فهو معاقبهم على ما ارتكبوا بالبلايا، يصبّها عليهم في الدنيا، أو العذاب الأليم ينزله بهم في الأخرى، أو يجمع لهم ما بينهما.

فليجتنب أولئك المخالفون لأمره هذه الفتنة وهذا العذاب، وليحذروا منهما، وما ذلك إلا بترك المخالفة والإقلاع عنها، والرجوع إلى الموافقة والاتباع.

تنظير وتعميم:

أمراء المسلمين وقادتهم، ومن يتولون أمراً من أمورهم العامة، تجب دعوتهم إذا دعوا لأمر عام وشأن مما يرتبط بما في عهدتهم من أمر الناس، ويسرع إليهم، ولا يتسلل من مجالسهم، ذلك لما لهم من حق الخلافة عن الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيما كان يقوم به من أمر الناس، وتدبير شؤونهم، وضبط نظامهم، ورعاية مصالحهم.

ميزان:

كل الأقوال والأعمال توزن بأقواله وأعماله، وكل الأحوال والسير توزن بسيرته وحاله: فما وافقها فهو الحق والخير والهدى، وهو الذي يقبل من كائن من كان، وما خالفها فهو الباطل والشر والضلال، وهو الذي يرد على صاحبه كائناً من كان.

وقد ثبت أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[1].

(١) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها البخاري في الصلح باب ٥. ومسلم في الأقضية حديث ١٧ و١٨. وأبو داود في السنّة باب ٥. وابن ماجة في المقدمة باب ٢. وأحمد في المسند (١٤٦/٦).

وجوه الفتنة وسببها:

مخالفة السنة النبوية والهدي المحمدي، وما كان عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في تنفيذ شرع الله وتطبيق أحكامه، وتمثيل الإسلام تمثيلاً عملياً ـ تلك المخالفة هي سبب كل بلاء لحق المسلمين حتى اليوم، بحكم صريح هذه الآية. وقد ذكر المفسرون في تفسير الفتنة أشياء على وجه التمثيل لا على وجه الحصر والتحديد، فذكروا الكفر، والقتل، والاستدراج بالنعم، وقسوة القلب من معرفة المعروف والمنكر، والطبع على القلب حتى لا يفقه شيئاً.

وكل هذا قد أصاب المسلمين بسبب مخالفتهم.

أعظم الفتنة:

غير أن أعظم الفتنة ـ فيما نرى ـ هو ما قاله الإمام جعفر الصادق: «أن يسلط عليهم سلطان جائر» فإنه إذا جار السلطان ـ وهو من له السلطة في تدبير أمر الأمة والتصرف في شؤونها ـ فسد كل شيء: فسدت القلوب والعقول والاخلاق والأعمال والأحوال، وانحطت الأمة في دينها ودنياها إلى أحط الدرجات، ولحقها من جرائه كل شر وبلاء وهلاك.

ثم يتفاوت ذلك الفساد بحسب ذلك الجور في قدره وسعته ومدة بقائه. هذا إذا كان ذلك الجائر من جنسها ويدين ـ بحسب ظواهره ـ دينها، فكيف إذا لم يكن من جنسها ولا دينها في شيء!!

حقاً إن أعظم ما لحق الأمم الاسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على السلاطين الجائرين منها ومن غيرها.

وهذا ما يشهد به تاريخها في ماضيها وحاضرها.

فما أصدق كلمة جعفر الصادق، وما أعمق نظره فيها!!

ومن أحق بمثلها من بيت النبوة ومعدن الحكمة؟! عليهم الرضوان والرحمة.

تطبيق وتحذير:

من أبين المخالفة عن أمره وأقبحها الزيادة في العبادة التي تعبد لله بها على ما مضى من سنته فيها، وإحداث محدثات على وجه العبادة في مواطن مرت عليه ولم يتعبد بمثل ذلك المحدث فيها.

وكلا هذين زيادة وإحداث وابتداع مذموم، يكون مرتكبه كمن يرى أنه اهتدى إلى طاعة لم يهتد إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسبق إلى فضيلة قصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها. وكفى بهذا وحده فتنة وبلاء، دع ما يجرّ[1] إليه من بلايا أخرى.

وقد طبق الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ هذه الآية الكريمة على هؤلاء المتزيدين، أحسن تطبيق وأبلغه وأردعه، لمن كان له فهم وإيمان.

---

(١) كانت في الأصل المطبوع: «يجري» وهو خطأ طباعي.

روى الإمام ابن العربي ـ رحمه الله ـ بسنده المتصل إلى سفيان بن عيينة رحمه الله، «قال: سمعت مالك بن أنس ـ وأتاه رجل ـ فقال:

يا أبا عبد الله من أين أحرم؟ قال: من ذي الحليفة(١)، من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد. فقال: لا تفعل.

قال: إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة.

قال وأي فتنة في هذا؟ إنما هي أميال أزيدها.

قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟! إني سمعت الله تعالى يقول: ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾».

فليتأمل المسلمون ـ وخصوصاً المتنسبين إلى مذهب مالك ـ في فقه هذا الإمام العظيم، ووقوفه عند حدود الله، وليحذروا من عاقبة المتزيدين المتغالين.

بوارق أمل:

لقد شعر المسلمون عموماً بالبلايا والمحن التي لحقتهم، وفي أولها سيف الجور المنصب على رؤوسهم، وأدرك المصلحون منهم أن سبب ذلك هو مخالفتهم عن أمر نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم، فأخذت صيحات الإصلاح ترتفع في جوانب العالم الاسلامي في جميع جهات المعمورة، تدعو الناس إلى معالجة أدوائهم بقطع سببها واجتثاث أصلها. وما ذلك إلا بالرجوع إلى ما كان عليه محمد عليه الصلاة والسلام، وما مضت عليه القرون الثلاثة المشهود لها منه بالخير في الإسلام(٢).

وقد حفظ الله علينا ذلك بما أن تمسكنا به لن نضل أبداً ـ كما في الحديث الصحيح ـ «الكتاب والسنة»(٣) وذلك هو الإسلام الصحيح الذي أنقذ الله به العالم أولاً، ولا نجاة للعالم مما هو فيه اليوم إلا إذا أنقذه الله به ثانياً.

---

(٢) ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، ومنها ميقات أهل المدينة (معجم البلدان: ٢/٢٩٥).

(٢) جاء في الحديث من طريق جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ قال: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». رواه البخاري في الشهادات باب ٩، وفضائل أصحاب النبي ﷺ باب ١، والرقاق باب ٧، والأيمان باب ١٠ و٢٧. والترمذي في الفتن باب ٤٥، والشهادات باب ٤، والمناقب باب ٥٦. وابن ماجة في الأحكام باب ٢٧. وأحمد في المسند (١/٣٧٨، ٤١٧، ٤٣٤، ٤٣٨، ٤٤٢، ٢/٢٢٨، ٤١٠، ٤٧٩، ٤/٢٦٧، ٢٧٦، ٢٧٧، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٦، ٤٤٠، ٥/٣٥٠).

(٣) في الموطأ (كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر، حديث ٣) عن مالك: أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنّة نبيه».

وقد أخذ المسلمون يصيخون أسماعهم ويستجيبون ـ أفواجاً أفواجاً ـ لداعي الإصلاح أينما دعاهم. وفي ذلك ـ والحمد لله ـ ما يقوي الرجاء والأمل، ويبعث على الجد والعمل: **﴿الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** [التغابن: ١٣].

٥ ـ الود من إكرام الله لأولياء الله

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾

[مريم: ٩٦]

سبب النزول، ووعد السابقين:

كان السابقون الأولون من المؤمنين في أول الاسلام بمكة مبغوضين من أهل مكة المشركين، مهجورين منهم، مزهوداً فيهم.

ومن أشد الآلام على النفس وأشقها أن يعيش الانسان بين قومه مبغوضاً مهجوراً، مزهوداً فيه، خصوصاً مثل تلك النفوس الحية الأبية.

فأنزل الله هذه الآية تأنيساً لأولئك السادة، ووعداً لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنه سيجعل لهم وداً، فيصيرون محبوبين مرغوباً فيهم.

وقد حقق الله وعده: فكان أولئك النفر بعد، السادة المقدمين من أقوامهم وعشائرهم، لسبقهم وفضلهم. وكانوا ـ وهم قادة الجيوش في الفتوحات الاسلامية ـ المحبوبين هم وجيوشهم، المرغوب فيهم من الأمم التي فتحوها؛ لعدلهم ورحمتهم، ورفعهم لنير الاستعباد الديني والدنيوي، الذي كانت تئن تحته تلك الأمم.

وأثبت التاريخ أن بعض الأمم الأجنبية دعتهم إلى إنقاذها من أيدي رؤسائها.

فكانت هذه الآية من آيات الإعجاز بالإعلام بما يتحقق في الاستقبال مما هو كالمحال في الحال فكان على وفق ما قال.

عموم الوعد لعموم اللفظ:

الإيمان، وهو التصديق الصادق المثمر للأعمال. والأعمال الصالحة، وهي المستقيمة النافعة المبنية على ذلك الايمان ـ هما اللذان جعلهما الله سبباً في تحقيق جعل هذا الود، لما قال تعالى: **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدّاً﴾** فيعم ذلك كل أهل الايمان والعمل الصالح، وهم أولياء الله و**﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾** [الأنفال: ٣٤].

سبب الود وسبب الجعل:

تكسب مودة الناس بأسباب متعارفة بينهم منها القرابة، ومنها الصداقة، ومنها صنائع المعروف، ومآثر الإحسان.

أما هذا الود الذي وعد الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فسببه جعل من الله له في قلوب العباد لهم، دون تردد منهم ولا توقف على تلك الأسباب، فيودهم من لم يكن بينه وبينهم علاقة نسب أو صداقة، ولا وصل إليه منهم معروف، فهذا نوع من الود خاص يكرمهم الله به، وينعم عليهم به الرحمن من جملة نعمه التي يحدثها ويجددها لهم، زيادة على ما يقتضيه الإيمان والعمل الصالح ـ ومنه الإحسان ـ من مودة القلوب.

أما سبب هذا الجعل والوضع والايجاد من الله لهذا الود والإكرام به، فهو الإيمان والعمل الصالح، وهما سبب لإكرامات كثيرة من الله تعالى، هذا الجعل للود منها.

بشارة وتثبيت:

في الآية من سبب نزولها بشارة لدعاة الحق، وأنصار السنة، ومرشدي الأمم، عندما يقومون بدعوة القرآن في عشائرهم، ويلقون منهم النفور والإعراض والبغض والإنكار، ويجدون أنفسهم غرباء بينهم يعاديهم من كانوا أحبابهم، ويقاطعهم أقرب الناس قرابة إليهم، ويصبح يؤذيهم من كان يحميهم ويدافع عنهم.

في الآية بشارة لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنهم سيكون لهم على كلمة الحق مؤيدون، وفي الله محبون، وسيكون لهم ود في القلوب، ممن يعرفون وممن لا يعرفون.

وفيها أيضاً تثبيت لهم في تلك الغربة ووحشة الانفراد بما يكون لهم من أنس الود، وأي ود هو!! ود يكون من جعل الرحمن.

دفع إشكال:

الآية منظور فيها إلى مجموع الذين آمنوا وعملوا الصالحات وغالبهم، فلا يشكل علينا أن منهم من يموت في غربة الحق، قبل أن يكون له على الحق أنصاره، ومنهم من يموت غير معروف من الناس.

كما أن الود الذي يجعل لهم غير منظور فيه للعموم.

فلا يشكل ببغض من يبغضهم تعصباً لهوى، أو تقليداً لضال، أو حرصاً على منفعة، ومحافظة على جاه أو منصب أو مال.

تفسير نبوي:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل. ثم ينادى في السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً؛ دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل. ثم ينادي (جبريل) في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»[1].

---

(١) من حديث أبي هريرة رواه مالك في الموطأ (كتاب الشعر، باب ما جاء في المتحابين في الله، حديث ١٥). والبخاري في التوحيد باب ٣٣، ومسلم في البر والصلة والآداب حديث ١٥٧.

رواه بهذا اللفظ مسلم ورواه البخاري وغيرهما.

وزاد الطبراني: ثم قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًّا**﴾.

فارتبط الحديث بالآية بزيادة الطبراني. وبيّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقراءة الآية أن هذا القبول الذي يجعل لمن أحبه الله في أهل الأرض ـ والمراد بهم من يعرفونه منهم ـ هو نوع الود المذكور في الآية، وبيّن أن أهل القبول في الأرض محبوبون في أهل السماء قبل أهل الأرض، وبين أن سبب ذلك القبول هو محبة الله لهم؛ فمن أحبهم حببهم لعباده.

ولما كان سبب القبول محبة الله لهم بيّن ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن بغض الله سبب في بغض الخلق لهم، إذ ما تسبب عن أحد الضدين يتسبب عن الآخر ضده.

ولما كانت محبة الله مسببة عن الإيمان والعمل الصالح، فبغض الله مسبب عن ضدهما؛ إذ ما تسبب عنه أحد الضدين يتسبب عن ضده الضد الآخر.

وكما كان ذلك الود والقبول يكون شيئاً زائداً على ما تقتضيه أسباب الود بين الناس، كذلك تكون هذه البغضاء التي يهين الله بها ويعاقب من يشاء، زيادة على ما تقتضيه أسباب البغضاء بينهم؛ فيكون هذا الذي وضعت له البغضاء ـ والعياذ بالله ـ مبغوضاً حتى ممن لم يكن منه إليه شيء من أسباب البغض.

تبيين وتعيين:

قد يكون الأتباع والمحبون والراغبون لأهل الحق ولأهل الباطل، لأئمة الهدى ولرؤوس الضلال، لدعاة الاتباع ولدعاة الابتداع.

ولكن أهل المحبة من الله والود والقبول من العباد، هم أهل الحق، وأئمة الهدى، ودعاة الاتباع للكتاب والسنة، وما كان عليه السلف الصالحون، لا لأنفسهم والتحزب لهم، وجلب النفع لهم، والذي يعينهم لهذه الكرامة دون غيرهم هو اتباعهم للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في سيرته ودعوته، وما كانت دعوته إلا للقرآن وبالقرآن، دون أن يسأل على ذلك من أجر.

وهذا لأن الود والقبول عند العباد مسببان عن محبة الله للعبد، ومحبة الله لا تكون إلا للمتبعين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، لقوله تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ [آل عمران: ٣١] فكرامة الود والقبول إنما هي للمتبعين له ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فأما غيرهم فما يكون لهم من قبول[١] عند أمثالهم، فهو فتنة وبلاء عليهم.

إرشاد:

أفادت الآية الكريمة والحديث الشريف، أن على المسلم أن يتمسك بالإيمان والعمل

(١) كانت في الأصل: «قبل» وهو خطأ طباعي.

الصالح، والاتباع للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولو كان في قوم انفرد بينهم بذلك وحده.

ولا يستوحش من انفراده بينهم؛ فحسبه رضى الله ومحبته، وكفى بهما أنسًا.

وليثق بأنه ـ إن صدق وأمد الله في عمره ـ يكون له ود وقبول في عباد الله، وأنس بمن يحبهم ويحبونه لله، وتلك المحبة النافعة الدائمة والصلة المتينة الجامعة، التي تجمع بين أهلها في الدنيا والآخرة.

جعلنا الله والمسلمين من العاملين له المتحابين فيه.

٦ ـ حسن التلقي وطلب المزيد

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤]

من أدب المتعلم:

لا حياة إلا بالعلم، وإنما العلم بالتعلم، فلن يكون عالماً إلا من كان متعلماً، كما لن يصلح معلماً إلا من قد كان متعلماً.

ومحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذي بعثه الله معلماً كان أيضاً متعلماً: علمه الله بلسان جبريل، فكان متعلماً عن جبريل عن رب العالمين، ثم كان معلماً للناس أجمعين.

أرأيت أصل العلم ومن معلموه ومتعلموه؟
ثم أرأيت شرف رتبة التعلم والتعليم؟!

لا جرم كان لرتبة التعلم آدابها ولرتبة التعليم آدابها. وكان محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أكمل الخلق في آدابها؛ بما أدبه الله، وأنزل عليه من الآيات فيهما، مثل آيتنا اليوم وغيرها.

لزوم الصمت عند السماع:

كان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذا أنزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ بالوحي وقرأه عليه، قرأ معه وساوقه[1] في القراءة. وكان ذلك منه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لحرصه على حفظه وعدم نسيانه، حتى يبلغه كما أنزل عليه.

ولأن تعلق قلبه بما يسمع من جبريل، وامتلاءه به، واستيلاء ذلك المسموع على لبه، يدعوه إلى النطق به، لما بين القلب واللسان من الارتباط؛ ولأن شوقه إلى ذلك المسموع ومحبته ورغبته فيه، تبعثه على التعجل بقراءته.

---

(١) ساوقه: تابعه وسايره وجاراه (المعجم الوسيط: ص ٤٦٤).

غير أن القراءة عند السماع، وقبل تمام الإلقاء، تمنع تمام الوعي؛ لأن عمل اللسان بالنطق يضعف عمل القلب بالوعي والحفظ، فلذا نهى الله تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ عن أن يعجل بقراءة القرآن عند سماعه من جبريل، من قبل أن يقضى ويتمم إليه وحيه، فقال تعالى: ﴿**ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه**﴾.

تأكيد الصمت بكف اللسان:

لا يتم تفرغ القلب للوعي إلا بسكون اللسان، فلا يكفي في تفرغه ترك القراءة الجهرية عند السماع حتى ينكف اللسان عن الحركة، فلا تكون قراءة لا جهراً ولا سراً، فلذا أكد الله تعالى طلب ترك القراءة بالنهي عن تحريك اللسان فقال تعالى: ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به**﴾ [القيامة: ١٦].

ثم بين أن الله يجمعه في قلبه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالحفظ، وأنه يطلق بقراءته لسانه بقوله: ﴿**إن علينا جمعه وقرآنه**﴾ [القيامة: ١٧] أي قراءتك إياه.

ثم أمره أن يتبع قراءة جبريل إذا قرأه عليه، فيقرأه كما قرأه بعد فراغه، بقوله: ﴿**فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**﴾ [القيامة: ١٨] أي فإذا قرأه جبريل وفرغ منه فاتبع قراءته فاقرأه كما قرأه. وأنه تعالى يبينه بأقوال نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأفعاله بقوله: ﴿**ثم إن علينا بيانه**﴾ [القيامة: ١٩].

هذا الأدب أدب عام:

إنما المقصود من الكلام البيان عن المراد، وإنما المقصود من السماع وعي الكلام ليفهم المراد.

فكما كان على المتعلم أن يسكت حتى يفرغ معلمه من القدر المرتبط بعضه ببعض، مما يلقيه إليه المعلم، حتى يفرغ المعلم من لقائه، كذلك على المناظر أن يستمع لمناظره حتى يستوفي دعواه وحجته.

وعلى كل قارىء لكتاب أن يستوفي ما يرتبط بعضه ببعض منه، ثم يبدي رأيه فيه.

وعلى كل مستمع لمتكلم كذلك.

فبهذا الأدب يتم وعي المتعلم فيحفظ، وفهم المناظر فيرد ويقبل، وفهم القارىء فيعرف ما يأخذ ويترك، وفهم السامع لتحصل فائدة الاستماع.

وبترك هذا الأدب كثيراً ما يقع سوء الوعي أو سوء الفهم، وفوات القصد من المناظرة والقراءة أو الكلام.

دوام العلم للازدياد من العلم:

يتعلم الإنسان حتى يصير عالماً ويصير معلماً، ولكنه مهما حاز من العلم وبلغ من درجة فيه، ومهما قضى من حياته في التعليم وتوسع فيه وتكمل، فلن يزال بحاجة إلى العلم، ولن تزال أمامه فيما علمه أشياء مجهولة يحتاج إليها.

فعليه أبداً أن يتعلم، وأن يطلب المزيد، ولذا أمر الله نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو المعلم الأعظم - أن يطلب من الله - وهو الذي علمه ما لم يكن يعلم - أن يزيده علماً فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي علماً﴾ [طه: ١١٤].

تحذير واقتداء:

ما أكثر ما رأينا من قطعهم ما حصلوا عليه من علم، عن العلم؛ فوقف بهم عند ما انتهوا إليه، فجدوا وأكسبهم الغرور بما عندهم، فتعظموا وتكلموا فيما لم يعلموا، فضلوا وأضلوا، وكانوا على أنفسهم وعلى الناس شر فتنة وأعظم بلاء.

فبمثل هذه الآية الكريمة يداوي نفسه من ابتلى بهذا المرض، فيقلع عن جموده وغروره، ويزداد مما ليس عنده علم ما لم يعلم. ويحذر من أن يقف على طلب العلم ما دام فيه زمن من الحياة ويقتدي بهذا النبي الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - فلن يزال يطلب من الله تعالى أن يزيده علمًا[1] بما ييسر له من خزائن رحمته، وما يلقيه في قلبه من نور، وما يجعل له من فرقان، وما يوفقه الله إليه من أصل ذلك كله، وهو تقوى الله، والعمل بما علمه.

نسأل الله لنا والمسلمين العلم النافع، والعمل الصالح. فهو ولي الهداية والتوفيق.

٧ - من وعد الله للصالحين

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾
[الأنبياء: ١٠٥]

لما مضى في السورة ذكر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وأممهم، وختم الحديث عنهم بذكر الساعة وقربها ومقدّماتها، وأحوال الخلق يوم القيامة - جاء في هذه الآية ذكر الأمة التي جاءت بعد تلك الأمم كلها، وهي أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنما كانت هذه الآية في أمة محمد؛ لأنه لما تكلم على الأمم الخالية لم يسبق الكلام إلا عليها؛ فخوطبت بما قضاه الله وكتبه من إرث الصالحين الأرض.

والمخاطبون بهذه الآية المكيّة هم المؤمنون بالله، الموحدون له، المتبعون لرسوله - محمد صلى الله عليه وآله وسلم - المصدق لجميع الرسل صلوات الله عليهم، وهم أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهم الصالحون الموجودون يوم ذاك على وجه الأرض، فكانت الآية إعلاماً بما كتبه الله لهم، ووعداً بإرثهم الأرض.

﴿**الزبور**﴾ بمعنى المزبور أي المكتوب، والمراد به جنس ما أنزله الله من الوحي على رسله

---

(١) روى الدارمي في مسنده (المقدمة، باب ٣٢) عن رسول الله ﷺ قال: «منهومان لا يشبعان: طالب العلم، وطالب الدنيا».

عليهم الصلاة والسلام، وأمر بكتابته. وقرأ حمزة: «الزُّبُور» جمع زُبُر، أي كتاب؛ فعينت هذه القراءة أن المراد بالزبور في القراءة الأولى الكتب المنزلة، لا خصوص زبور داود عليه السلام.

﴿الذكر﴾ المراد به هنا اللوح المحفوظ، الذي كتب الله فيه كل شيء قبل أن يخلق الخلق. وجاءت تسميته بالذكر، فيما رواه البخاري في مواضع من صحيحه، عن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال:

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض»(١).

ومما كتبه في الذكر ما أنزله على رسله عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى:

﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

﴿الأرض﴾ جنس الأرض الدنيوية، لأن هذا اللفظ موضوع لها، فإذا أطلق انصرف إليها، وبهذا فسرها ابن عباس من طريق علي بن [أبي](٢) طلحة وهي أصح طرقه(٣).

﴿يرثها﴾ تنتقل إليهم من يد غيرهم، وأصل الإرث الانتقال من سالف إلى خالف، وقد يطلق في غير هذا الموضع على أصل التمليك مجازاً.

﴿الصالحون﴾ الصالح من كل شيء هو ما استقام نظامه، فحصلت منفعته. وضده الفاسد، وهو ما اختل نظامه فبطلت منفعته، ويظهر هذا من تتبع مواقع الاستعمال:

فإذا قالوا: هذه آلة صالحة، عنوا أنها محصلة للمنفعة المرادة منها؛ لانتظام أجزائها.

وإذا قالوا: آلة فاسدة، عنوا أنها لا تحصل المنفعة لاختلال في تركيبها. والصالح في لسان الشرع ـ قرآناً وسنة ـ لم يخرج عن هذا المعنى حيثما جاء: فالصالح هو من استنار قلبه بالإيمان والعقائد الحقة، وزكت نفسه بالفضيلة والأخلاق الحميدة، واستقامت أعماله وطابت أقواله؛ فكان مصدر خير ونفع لنفسه وللناس: استقام نظامه في عقده وخلقه وقوله وعمله، فعظمت وزكت منفعته، وهذا هو معنى الصالحين حيثما جاء، كما في قوله تعالى: **﴿والشهداء والصالحين﴾**(٤)، وكما في حديث التشهد «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»(٥).

---

(١) رواه البخاري في بدء الخلق باب ١. والترمذي في تفسير سورة ٥ باب ٣، وسورة ١١ باب ٩. وأحمد في المسند (٤/٤٣١).

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من تفسير الطبري. انظر الحاشية التالية.

(٣) انظر تفسير الطبري (٩/٩٨ ـ الأثر رقم ٢٤٨٧٦) وهو من طريق أبي صالح، عن معاوية، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٤) الآية ٦٩ من سورة النساء: **﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين﴾**.

(٥) رواه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مالك في الموطأ (كتاب النداء، حديث ٥٤، ٥٥) و(كتاب =

وقد بين القرآن من هم الصالحون بياناً شافياً كافياً بذكر صفاتهم، مثل قوله تعالى: ﴿**من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين**﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

المعنى:

يخبرنا الله تعالى أنه كتب في الكتب، التي أنزلها على رسله من بعد ما كتب في اللوح المحفوظ، الذي هو أصل تلك الكتب، أن الأرض يرثها ويملكها عباده الصالحون أهل العقائد الصحيحة، والأخلاق الكريمة، والأعمال المستقيمة، الذين ينفعون العباد والبلاد.

تطبيق:

خاطب الله بهذه الآية المؤمنين بمكة، وهم في قلة عَدَدٍ وعُدَدٍ، يعدهم بذلك ـ لا بطريق صريح ـ أنهم يرثون الأرض ويكون لهم فيها القوة والنفوذ، ويبعثهم بتعليق الوعد بوصف الصلاح على التمسك به والازدياد منه والاستمرار عليه.

ثم صرح لهم بالوعد بعد في سورة النور، وهي مدنية، بقوله تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون**﴾ [النور: ٥٥].

وقد حقق الله لهم هذا الوعد: ففتح لهم الفتوح، وأورثهم ملك كسرى وقيصر، ومد ملكهم في الشرق والغرب، وأولئك الذين كانوا في قلة وخوف يوم نزلت الآية المكية هم الذين شاهدوا ذلك النصر وتلك الفتوح وترأسوا ذلك الملك العريض.

تعميم وتقييد:

علق الوعد بالوصف وهو الصلاح؛ ليعلم أنه وعد عام، ولتعلم كل أمة صالحة أنها نائلة حظها ـ ولا محالة ـ من هذا الوعد.

واقتضى هذا التعليق بالوصف أيضاً تقييده بأهله، فإذا زال وصف الصلاح من أمة زال من يدها ما ورثت.

= السلام، حديث ٨) وأحمد في المسند (١/٣٧٦، ٣٨٦، ٤٠٨، ٤١٣، ٤١٤، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣١، ٤٣٧، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٥٠، ٤٥٩، ٤٦٤) والبخاري في الأذان باب ١٤٨ و١٥٠، والعمل في الصلاة باب ٥٤، والاستئذان باب ٣ و٢٨، والدعوات باب ١٦، والتوحيد باب ٥، ومسلم في الصلاة حديث ٥٦ و٦٠ و٦٢. والترمذي في الصلاة باب ٩٩ و١٠٠، والنكاح باب ١٧. والنسائي في التطبيق باب ٢٣ و١٠٠ و١٠١ ـ ١٠٤، والسهو باب ٤١ و٤٣ ـ ٤٥ و٥٦. وابن ماجة في الإقامة باب ٢٤، والنكاح باب ١٩. والدارمي في الصلاة باب ٨٤ و٩٢.

ونظير هذا التقييد قوله في آية النور: **﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾**.

تنظير:

مثل هذه الآية فيما تضمنته من الوعد الذي يقوّي به قلوبهم، ويثبت إيمانهم، ويظهر به صدق نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، بما أعلمه به من غيب، أحاديث صحيحة كقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لخبّاب[1] رضي الله عنه وقد لقي الصحابة من المشركين شدة، فسأله أن يدعو. فقال له النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه. وليُتمّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله»[2].

وكقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لعدي بن حاتم رضي الله عنه: «فإن طالت بك حياة لترين الظغينة[3] ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى»[4].

وقد امتدت به الحياة حتى رأى ذلك. ومثل هذا أحاديث أخرى في الصحيح، فقد تطابقت الآيات والأحاديث في هذا الوعد.

وقد صدق الله وعده لعباده الصالحين، وصدق نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، بما لم يكن يعلمه أحد، ولا يرى شيئاً من أسبابه، بل لا يرى إلا ما هو مناف له؛ ولكن العاقبة للمتقين.

إشكال وحله:

قال أناس: إن أرض الدنيا كما يستولي عليها الصالحون، ويستولي عليها غيرهم. والأرض التي لا يرثها إلا الصالحون هي أرض الجنة؛ فيجب تأويل الآية بها.

---

(١) هو الصحابي الجليل خباب بن الأرتّ بن جندلة بن سعد المتوفى سنة ١٩ أو ٣٧ هـ. انظر ترجمته في الإصابة (٢/٢٥٨) وأسد الغابة (٢/١١٤) وتجريد أسماء الصحابة (٢/١٥٥) وأسماء الصحابة الرواة (ترجمة ٨٩) وحلية الأولياء (١/١٤٣، ٣٥٩) وشذرات الذهب (١/٤٧) وسير أعلام النبلاء (٢/٣٢٣) والثقات (٣/١٠٦) وتهذيب التهذيب (٣/١٣٣) وتقريب التهذيب (١/٢٢٢) وخلاصة تهذيب الكمال (١/٢٨٧) وتاريخ البخاري الكبير (٣/٢١٥) وتاريخ البخاري الصغير (١/٧٨) والجرح والتعديل (٣/١٨١٧).

(٢) رواه البخاري في المناقب باب ٢٥، والإكراه باب ١. وأبو داود في الجهاد باب ٩٧. وأحمد في المسند (٥/١٠٩).

(٣) كانت في الأصل المطبوع: «الضغينة». والصواب ما أثبتناه من مسند الإمام أحمد. انظر الحاشية التالية. والظعينة: الراحلة يرتحل عليها. والظعينة أيضاً: الزوجة.

(٤) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في المسند (٤/٢٥٧، ٣٧٨).

والجواب:

أن هذا التأويل إنما يحتاج إليه أن لو كانت الآية هكذا: «إن الأرض لا يرثها إلا عبادي الصالحون» بطريق الحصر فيهم.

أما لما كانت الآية لا حصر فيها فلا حاجة إلى هذا التأويل، بل في لفظ الإرث وربطه بوصف الصلاح دلالة على أنها كانت لغيرهم فانتقلت إليهم، وأنها تزول مع زوال وصف الصلاح. وقد جاء التنبيه على أن الأرض يرثها الصالحون وغيرهم، في قوله تعالى: ﴿**إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فيرثها الصالحون نعمة، ويرثها غيرهم فتنة ونقمة، كل ذلك حسب مشيئة الحكيم الخبير.

إيراد وجوابه:

قد يقال: فما هي الفائدة إذاً في تخصيص الصالحين بالذكر في الآية؟.

والجواب:

١ ـ إن هذه الآية خوطب بها أول الناس الصحابة بمكة، وهم الصالحون في الأرض؛ ليعلموا ما وعدهم الله به، وليعلموا أن قوة الباطل إلى ضعف وأن ضعف الحق إلى قوة.

٢ ـ ولأن شأن الصالحين ـ إذا كانوا ـ أن يكونوا قليلاً سيما أول أمرهم، فهم بحاجة إلى أن يعلموا هذا الوعد، ليزدادوا إيماناً وقوة وثباتاً.

٣ ـ ولأن الخلق مفتونون بالكثرة في العدد والعدة غافلون عن القوة الروحية والأخلاقية، وما ينشأ عنهما من استقامة، لا يحسبون لذلك حساباً؛ فيحتاجون إلى العلم بأن الصالحين نائلون حظهم من هذا الوعد، وإن كانوا قلة في الناس. و﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾ [البقرة: ٢٤٩].

تحذير من تحريف:

رأى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة اليوم على الأرض ـ وهي مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها، فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان ـ فقالوا: إن رجال هذه المدينة هم الصالحون الذين وعدهم الله بإرث الأرض، وزعموا أن المراد بـ﴿**الصالحون**﴾ في الآية: الصالحون لعمارة الأرض.

فيالله للقرآن، وللإنسان، من هذا التحريف السخيف!! كأن عمارة الأرض هي كل شيء؛ ولو ضلت العقائد، وفسدت الأخلاق، واعوجت الأعمال وساءت الأحوال، وعذبت الإنسانية بالأزمات الخانقة، وروعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة، وهددت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية من أصلها والمدنية من أساسها.

هذه هي بلايا الإنسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمرت الأرض وأفسدت

الإنسان، ثم يريد هذا المحرف أن يطبق عليها آية القرآن: كتاب الحق والعدل والرحمة والإحسان، وإصلاح الإنسان ليصلح العمران.

فأما الصالحون، فهو لفظ قرآني كما قدمناه، وقد شرف أهله بإضافتهم إلى الله في قوله ﴿عبادي﴾ فحمله على الصالحين لعمارة الأرض تحريف للكلم عن مواضعه أبشع التحريف وأبطله، فليحذر المؤمن منه ومن مثله من تحريفات المبطلين والمفتونين.

موعظة وإرشاد:

فعلى الأمم التي تريد أن تنال حظها من هذا الوعد، أن تصلح أنفسها الصلاح الذي بينه القرآن. فأما إذا لم يكن لها حظ من ذلك الصلاح فلا حظ لها من هذا الوعد وإن دانت بالإسلام.

ولله سنن نافذة بمقتضى حكمته ومشيئته في ملك الأرض وسيادة الأمم: يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء. من أخذ بنوع من تلك السنن بلغت به وبلغ بها إلى ما قدر له من عز وذل وسعادة وشقاء وشدة ورخاء، وكل محاولة لصدها عن غايتها ـ وهو آخذ بها ـ مقضي عليها بالفشل.

سنة الله، ومن ذا يبدلها أو يحولها؟ **﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾** [الأحزاب: ٦٢]، **﴿ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾** [فاطر: ٤٣]، **﴿لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾** [يونس: ٤٩].

٨ ـ دفاع الله عن المؤمنين

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الحج: ٣٨]

دفع الشيء، صده ورده، والدفاع عن الشرع، حمايته بصد ما يؤذيه عنه. وقرىء في المتواتر «يدفع»، وقرىء ﴿يدافع﴾، وهو بمعنى يدفع، ولكنه أريد قوة الدفع فجيء بـ«يفاعل»، الذي يقتضي المغالبة في أصله؛ لأن دفع المغالب أقوى وأبلغ، أو لأن ما يهيئه الله من أسباب الدفع التي يباشرونها، مقابلة لما يقصدهم به أضدادهم؛ فكان الدفع من الجانبين.

(خان) إذا ضيع ما جعل في حفظه وعدته، والخوّان الكثير التضييع لما استحفظ.

و (الكفور) الكثير الجحود للنعم، فلا يعترف بها أو لا يؤدي شكرها.

عندما يكون المؤمنون في قلة وضعف، وأعداؤهم في كثرة وقوة ـ كالحالة التي كان عليها المؤمنون يوم نزلت الآية بعد الهجرة ـ تشك النفوس في سلامتهم من كيد عدوهم؛ فلذا جاء هذا الخبر مؤكداً بـ«إنّ».

ولكون هذا الدفع متجدداً جيء بالفعل مضارعاً.

ولبيان سبب الدفع جيء بالجملة المستأنفة بعد الجملة الأولى، وأكدتا بـ«إنّ»، لأن الأولى تحمل المخاطب على أن يسأل سؤال المتردد: هل هؤلاء المدفوعون أعداء مبغوضون؟ فأجيب بالتأكيد.

وحذف مفعول يدافع، ليعم كل ما يدفع؛ فشمل كيد جميع الكائدين.

التفسير:

هذا من الله ـ تعالى ـ خبر حق ووعد صدق للمؤمنين، بأنه يرد عنهم كيد أعدائهم، ويبطل مكرهم، ويكف شرهم، وإن عظم ذلك منهم وكثر.

وإن هذا منه لهم متكرر متجدد؛ ذلك لأنهم بإيمانهم حافظوا على أمانة الله عندهم، وعهده لديهم، واعترفوا بنعمه وشكروها، فأحبهم الله ورضي عنهم، فأيدهم ونصرهم، ودافع عنهم.

ولأن أعداءهم ضيعوا أمانة الله عندهم، بارتكاب المنهيات، وترك المأمورات، وجحدوا وحدانيته أو نبوة نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أو ما جاءهم به من شرعه، فأبغضهم ورد كيدهم مغلوبين مدحورين.

تحرير في التعليل:

إن الحب من الله والبغض كسائر أفعاله لا تقع إلا على وجه الحق والعدل والسداد، وهذا أمر واجب لأفعال الرب الحكيم.

فالمؤمنون أحبهم ونصرهم لإيمانهم، وأعداؤهم أبغضهم وخذلهم لخيانتهم وكفرهم.

واقتضت هذه المقابلة أن الخيانة والكفر من صفات أضدادهم، وليست من صفاتهم.

فإيمانهم مستلزم لأمانتهم بحفظ عهد الله عندهم: في نفوسهم، وعقولهم، وأبدانهم، وجميع ما لديهم على جميع أحوالهم، ومستلزم لاعترافهم بنعم الله وشكره عليها، باستعمالها في طاعته وطلب المزيد من بره.

وأمانتهم هذه وشكره هي مظهر إيمانهم الذي يميزهم عن أضدادهم، ويدل على صدقهم في ذلك الإيمان، ورسوخه في قلوبهم.

فإذا عدمت منهم الأمانة فخانوا الله والرسول وخانوا أماناتهم، وفشت الفواحش والمناكر والبدع فيهم، وصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه، وإذا بطروا نعم الله عندهم فعطلوا منها ما عطلوا بجهلهم وكسلهم وقعودهم عن الخير، وأسباب الحياة والسعادة، واستعملوا منها ما استعملوا في الشر والفساد واتباع الشهوات ـ إذا كانوا هكذا فقد استوجبوا غضب الله وبغضه ونقمته، وحرموا نصرته ودفاعه، وكانوا هم الظالمين.

خيانة دون خيانة وكفر دون كفر:

وإنما يخرج المرء عن أصل الإسلام بما كان في أصل العقيدة لا بما كان في الأعمال، إلا عملاً يدل دلالة ظاهرة على فساد العقيدة وانحلالها.

وعلى هذا عقد البخاري ـ رحمه الله ـ في الجامع الصحيح أبوابًا في ظلم دون ظلم[١]، وكفر دون كفر.

تطبيق:

لما كان المسلمون أهل الإيمان الصادق والشكر والأمانة، دافع الله عنهم، وقد شهد التاريخ بذلك من الله لهم فلما خانوا وكفروا تركهم ومَكَّنَ منهم.

ولكنه برحمته وعدله لم ينس لهم أصل إسلامهم، فأبقى لهم أصل وجودهم الذاتي، وهم لحم على وضم[٢] بين الأمم، لا يستطيعون دفعاً عن أنفسهم.

وأبقى لهم أصل وجودهم الروحي بكتابه المتلو بين ظهرانيهم، رغم إعراضهم عن تدبره وهجرهم لما فيه ـ عساهم يرجعون.

تنبيه وتحذير:

كل عمل لا يحل فهو خيانة، وإن كان بأدنى إشارة، وقد نبه الله على هذا بقوله **﴿يعلم خائنة الأعين﴾**، [غافر: ١٩] وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل والإشارة بطرف العين فيما يحرم.

وأعظم الخيانة بعد الكفر خيانة العامة، لأن الذنب يعظم بعظم أثره وانتشار ضرره. ولهذا جاء ما جاء من الوعيد الشديد فيمن ولي أمراً من أمور المسلمين فغشهم ولم ينصح لهم.

فحق على المسلم أن يحذر من الخيانة دقيقها وجليلها، وخصوصاً ما اتصل بالناس منها، ويتنبه من أقل كلمة وأدنى إشارة توقعه في خطرها.

سؤال وجوابه:

فإن قيل: قد نجد من عباد الله المؤمنين من يصيبه البلاء والشدة، فيعذب وقد يقتل: **«وكأين من نبي قتل»**[٣].

وقد أصاب المؤمنين يوم أحد ويوم حنين ما أصابهم؟

فالجواب:

إن دفع الله يكون بأسباب وأنواع، وعلى وجوه تختلف بحسب الحكمة، ولا تخلو كلها من دفاع، فإن ما يصيب المؤمنين من البلاء في أفرادهم وجماعتهم هو ابتلاء يكسبهم القوة والجلد،

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الإيمان، باب ٢٣ ـ ظلم دون ظلم) وأورد فيه حديثاً عن عبدالله بن مسعود قال: لما نزلت: **﴿والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾** قال أصحاب رسول الله ﷺ: أينا لم يظلم نفسه؟ فأنزل الله: **﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾**.

(٢) الوَضَمُ: كل ما يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير أو نحو ذلك يوقى به من الأرض (المعجم الوسيط: ص ١٠٤).

(٣) كذا جاء في الأصل المطبوع «قُتل». والصواب «قاتل» كما في الآية الكريمة: **﴿وكأيّن من نبيّ قاتل معه ربّيون كثير فما وهنوا لما أصابهم﴾** [آل عمران: ١٤٦].

ويقوي فيهم خلق الصبر والثبات وينبههم إلى مواطن الضعف فيهم أو ناحية التقصير منهم، فيتداركوا أمرهم بالإصلاح والمتاب، فإذا هم بعد ذلك الإبتلاء أصلب عوداً، وأطهر قلوباً، وأكثر خبرة، وأمنع جانباً.

وإن في صبر الصابر منهم وقد نزل به البلاء الذي لا يقدر على دفعه، والظلم الذي لا يقدر على إزالته ـ لبعثًا للقوة في نفس غيره ممن يأتسي به، وضعفاً في قلب ظالمه، وفي كليهما دفع من الله عن المؤمنين.

مشاهدة وتوصية:

نعرف في حياتنا مواطن ما نجونا فيها إلا بدفع الله، وبطل كيد الكائدين فيها بمحض صنع الله، وقد كنا فيها ـ فيما نرى ـ على شيء من العمل لله. فكيف بمن كانت أعمالهم كلها لله؟

وهذه المشاهدة التي شاهدنا ـ ولا نشك أن من غيرنا من شاهد مثلنا أو أكثر منا ـ توجب علينا أن نوصي بالإيمان بالله والمحافظة على عهده والثقة به، فإن ذلك يحقق وعد الله بالدفع، وينيل أهله العزة والحفظ.

فعلى المسلم أن يعمل لذلك، ويعتد به ثقة بالله وصادق وعده. والله لا يخلف الميعاد.

٩ ـ أكل الحلال والعمل الصالح

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

[المؤمنون: ٥١]

(الطيب) ما صلح واعتدل في نفسه، وسلم من كل ما يفسده ويخرجه عن اعتداله وأصل خلقته، فكان مستلذاً للنفوس، سواء أكان مما يدرك بالسمع، أو بالبصر، أو بالذوق، أو بالشم، أو باللمس، أو بالعقل.

فالطيب هو اللذيذ لذة حسية أو عقلية، ويقابله الخبيث وهو المستقذر حساً أو عقلاً، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿**ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث**﴾ [الأعراف: ١٥٧] فما أحل الله إلا الطيب المستلذ، وما حرم إلا الخبيث المستقذر.

فلهذا صار الطيب في لسان الشرع يجيء كثيراً بمعنى الحلال، ويكون ضده الخبيث بمعنى الحرام، ومنه ﴿**كلوا من الطيبات**﴾ أي المحللات، فملك غيرك وإن كان مستلذاً في الحس، فإنه ليس طيباً لك شرعاً؛ وذلك لأنه مستقذر من العقل بما فيه عند تناوله بدون إذن صاحبه من التعدي المستقبح في العقل.

وقد يجيء الطيب بمعنى الجيد والخبيث بمعنى الرديء وعليه قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون**﴾ [البقرة: ٢٦٧].

(الصالح) هو المستقيم النافع وهو فعل المأمورات وترك المنهيات، وتناول المباحات من حيث أنها مباحات، أو وسائل لفعل المأمورات وترك المنهيات.

للاهتمام بالمأمور به قدمت قبل الأمر جملة النداء، ولأن هذا المأمور به مما يجب عليهم تبليغه نودوا بلفظ الرسل.

ولأن كل واحد منهم أوحى الله إليه بهذا النداء والأمر في زمانه كان النداء والأمر للجميع.

وقد دخل في الجمع عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي كان الحديث عليه في الآية التي قبل هذه وهي: **﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾** [المؤمنون: ٥٠].

كما دخل في الجمع محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذي نزلت عليه هذه الآية.

ولأن المقصود من الأكل ـ وهو الغذاء واللذة ـ يحصل ببعض قيل «من الطيب» بـ «من» التبعيضية.

ولما كان المخاطب بأكل الحلال والعمل الصالح شأنه أن تستشرف(١) نفسه لتعيين ثمرة ذلك، جاء الخبر مؤكداً بـ «إنّ» في **﴿إني بما تعملون عليم﴾**.

وعلم الله مستلزم لجزائه للعاملين، فكان كناية عن الجزاء وفي الكناية عن الجزاء بالعلم تفخيم لهذا الجزاء وتعظيم، فهو جزاء الله العليم وكفى به.

التفسير:

خلق الإنسان مركباً من روح وبدن، وإنما بقاء بدنه بالغذاء وإنما كمال روحه بالعمل.

فأمر الله بالأكل لبقاء البدن، واشترط أن يكون من الطيبات، لأنها هي التي تغذي ولا تؤذي، أما الخبائث ففيها الأذى ويتفه أو يعدم منها الغذاء.

وأمر بالعمل الصالح الذي فيه ذكاء للنفس ونفع لها في العاجل والآجل وخير للعباد والبلاد.

وأخبر بعلمه بعمل العاملين؛ ليجتهدوا في العمل ويخلصوا له فيه، وينتظروا جزاءهم من عنده.

والدين كله عمل صالح وتوحيد خالص، وقد انتظمتها الآية تصريحاً في العمل واستلزاماً في التوحيد، وبين ـ تعالى ـ بهذه الآية أن هذا الذي اشتملت عليه هو دين الله لجميع الأمم، أوصى به رسلهُ ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ليبلغوه لخلقه، فهو حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه.

---

(١) تستشرف: تتطلّع.

توجيه الترتيب:

تتوقف الأعمال على سلامة الأبدان، فكانت المحافظة على الأبدان من الواجبات، ولهذا قدم الأمر بالأكل على الأمر بالعمل.

فليس من الإسلام تحريم الطيبات التي أحلها الله كما حرم غلاة المتصوفة اللحم.

وليس من الإسلام تضعيف الأبدان وتعذيبها كما يفعله متصوفة الهنادك، ومن قلدهم من المنتسبين للإسلام.

والميزان العدل في ذلك هو ما كان عليه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأصحابه رضي الله عنهم، وقد بين ذلك أئمة السنة والأثر رحمهم الله، وقد جوده مالك رضي الله عنه في كتاب الجامع[1] من الموطأ.

وفي تقديم الأكل من الطيبات على العمل الصالح تنبيه على أنه هو الذي يثمرها لأن الغذاء الطيب يصلح عليه القلب والبدن، فتصلح الأعمال، كما أن الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن، فتفسد الأعمال.

بيان نبوي:

خرج مسلم في صحيحه من طريق أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أيها الناس، ان الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً. وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم**﴾ [المؤمنون: ٥١]. وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم**﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»[2].

فبين الحديث الشريف أن الله طيب أي منزه عن النقص في ذاته وصفاته وأفعاله، تنعم العقول والأرواح بمعرفته ـ كما يليق به ـ ومحبته.

وأنه لا يقبل من الأعمال إلا طيباً أي صالحاً في نفسه خالصاً من شوائب المخالفة والرياء والشرك.

وبين أن الشرع عام للرسل وللأمم، ولا يستثنى من هذا إلا ما دل الدليل على اختصاصه بالرسل.

وبين أن أكل الحلال هو الذي يثمر قبول الدعاء «الدعاء هو مخ العبادة»[3]، فإذا رُدّ عليه

---

(١) وهو الكتاب رقم ٤٥ من الموطأ.

(٢) صحيح مسلم (كتاب الزكاة، حديث رقم ٦٥). وأخرجه أيضاً الترمذي في تفسير سورة البقرة باب ٣٦، والأدب باب ٤١. والدارمي في الرقاق باب ٩. وأحمد في المسند (٢/٣٢٨).

(٣) حديث عن النبيّ ﷺ أخرجه الترمذي في الدعوات باب ١ حديث رقم ٣٣٧١ من طريق أنس بن مالك.

فقد ردت عليه عبادته، فكان هذا البيان النبوي على مقتضى ما أفاده ترتيب الأمرين في الآية.

تكميل:

في آية الرسل[1] الأمر بالأكل من الطيبات، والأمر بالعمل الصالح، واستلزام الأمر بالإخلاص.

وفي آية المؤمنون[2] الأمر بالأكل من الطيبات والأمر بالشكر، والتصريح بلزوم توحيده تعالى في العبادة، لأن تمامها هكذا: ﴿**واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون**﴾ [البقرة: ١٧٢].

واقتصر في الحديث على الأمر بالأكل من الطيبات، إما لأن الكلام كان في الحث على أكل الحلال، وإما لأن الراوي اختصر الرواية.

الاهتداء:

على المؤمن أن يتحرى في مأكله ومشربه ـ وكل ما به قوام ذاته ـ الحلال الطيب، يمتثل بذلك أمر الله، ويقصد التوصل به إلى العمل الصالح.

وعليه أن يتحرى في فعله وتركه أمر الله ونهيه، حتى يكون عمله عملاً صالحاً طيباً متقبلاً.

يمتثل بذلك أمر الله، ويقصد قبول عبادته ودعائه لديه.

والمتحري للحق والخير جدير بالتوفيق إليه وكثرة إصابته.

رزقنا الله والمسلمين التحري لطاعته، والتوفيق لمرضاته، والتأدب بكتابه آمين.

١٠ ـ الفرار إلى الله

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

[الذاريات: ٤٧ ـ ٥٠]

تمهيد:

المقصود الأساسي من الآيات هو تحذير الخلق من الهلاك، وترغيبهم في النجاة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالفرار إلى الله، فمهد لذلك بالآيات الثلاث الأول للترغيب فيه، وختم بالخامسة لبيان الفرار الصحيح المنجي عند الله.

الآية الأولى:

﴿**والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون**﴾.

---

(١) الآية ٥١ من سورة المؤمنون. (٢) الآية ٧٢ من سورة البقرة.

﴿**السماء**﴾ هي الجرم الأعظم الذي أحاط بالأجرام السابحة في الفضاء كلها، وعلا عليها.

﴿**بنيناها**﴾ ضممنا أجزاءها بعضها إلى بعض بغاية الدقة والإحكام، فكانت كالقبة فوق الجمع.

﴿**بأيد**﴾ بقوة.

﴿**لموسعون**﴾، لمقتدرون ومطيقون؛ على احتمال أن يكون من الوسع بمعنى القدرة والطاقة، أو لموسعون ومبعدون بين أرجائها على احتمال أن يكون من السعة.

وقدمت السماء، لأنها المشاهد المحسوس الذي تقوم به الحجة، وليقع البناء عليها مرتين: على لفظها وعلى ضميرها، لأن الأصل: وبنينا السماء بنيناها، لتحقيق أنها مبنية، وأن بناءها لم يكن إلا من الله القادر الحكيم، ولذلك علق بالفعل قوله: ﴿**بأيد**﴾.

والجملة الحالية تدل على أن الإيساع ثابت له عند البناء، فذلك البناء العظيم لم ينقص من قدرته، أو يمنع من توسيعه.

المعنى:

إن هذه القبة التي أحاطت بكم من جميع الأرجاء، نحن بنيناها بقدرتنا ذلك البناء المحكم المتقن، بنيناها ونحن على قوتنا وقدرتنا نقدر على بناء أعظم منها لو شئنا، ونحن على قدرتنا وطاقتنا في إفاضة الخيرات والبركات منها عليكم.

هذا على أنه من الوسع.

أو بنيناها وقد وسعنا أديمها حتى أحاطت بهذه الاجرام السابحة التي منها ما لا يكون معه جرم الكرة الأرضية إلا كحمصة فوق مائدة كبيرة.

هذا على أنه من السعة.

تحقيق آية كونية من الآيات القرآنية:

السماء في اللغة هي كل ما علاك؛ فكل ما علا الأرض من سحب وطبقات هواء وكواكب تسبح في الفضاء، وما وراء ذلك من القبة المحيطة الكبرى هو للأرض سماء، وكل هذه متقنة الصنع محكمة الوضع متلاحمة الأجزاء، مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً مقدراً بالمسافات المدققة التي لا يكون معها تصادم ولا ارتخاء. ووضعها على هذه الصورة المنظمة المحكمة هو البناء، وعليها كلها ينبغي أن يحمل لفظ الآية المتقدمة.

وقد جاء لفظ السماء في القرآن مراداً به القبة المحيطة في مثل:

﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح**﴾ [الملك: ٥]، ﴿**إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب**﴾ [الصافات: ٦].

وجاء مراداً به السحاب في مثل ﴿**والذي نزل من السماء ماء بقدر**﴾ [الزخرف: ١١] فإن

المطر ينزل من السحاب لقوله تعالى: ﴿**ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله**﴾ [النور: ٤٣].

وجاء مراداً به طبقات الجو في مثل: ﴿**وينزل من السماء من جبال فيها من برد**﴾ [النور: ٤٣] والبرد يتكون في طبقات الجو.

والمتتبع لمواقع لفظة السماء من الكتاب العزيز يتحقق هذا.

* * *

الآية الثانية:

﴿**والأرض فرشناها فنعم الماهدون**﴾.

﴿**الأرض**﴾ هي هذه الكرة التي نعيش عليها.

﴿**فرشناها**﴾ بسطناها بزينتها ومنافعها.

﴿**الماهدون**﴾ من مهد الشيء وضعه وسواه وهيأه للنوم والجلوس والراحة.

ويجري في تقديم الأرض ما تقدم في تقديم السماء.

ومن يسير على هذا البساط المفروش[1]، ويطلع على ما هي فيه من أسباب الحياة لكل ما فيه من حيوان لا يتمالك أن ينطق بالمدح والثناء على من هيأ هذه التهيئة، ومهد هذا التمهيد، ولذا قرنت الجملة الأخيرة بالفاء فقيل: ﴿**فنعم الماهدون**﴾.

ولا يعني فرش الأرض عن مهدها؛ لأن المهد يتضمن ما حصل فيها من مرافق ومواد وأسباب للعيش على أديمها والتنعم بخيراتها.

المعنى:

إن الأرض التي أنتم متمكنون من الوجود على ظهرها، والسير في مناكبها والانتفاع بخيراتها، نحن فرشناها لكم، وهيأنا لكم أسباب الحياة والسعادة فيها، على أكمل وجه وأنفعه وأبدعه، مما نستحق به منكم الحمد والثناء.

دقيقة كونية في الآية القرآنية:

شأن الفراش أن يكون ما تحته لا يصلح للجلوس والنوم عليه. وما تحت وجه الأرض هو كذلك لا يصلح للحياة فيه؛ فإن تحت القشرة العليا من الأرض، المواد المصهورة، والمياه المعدنية، والأبخرة الحارة، مما تنطق به البراكين المنتشرة على وجه الأرض في أماكن عديدة؛ فكانت القشرة العليا من الأرض مثل الفراش تماماً.

---

(١) كانت في الأصل: «المفروض» وهو خطأ طباعي.

الآية الثالثة:

﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾.

﴿من كل شيء﴾ من كل جنس من الأجناس .

﴿خلقنا﴾ كونا .

﴿زوجين﴾ فردين متباينين، يكمل أحدهما الآخر، في عالم الحيوان، وعالم النبات، وعالم الجماد.

﴿تذكرون﴾ تذكرون ما أودع في فطرته من المعرفة، لما تنظرون بعقولكم في عجائب الخلق؛ فتدركون ما له جل جلاله من الألوهية والربوبية والوحداينة.

وقدم **﴿من كل شيء﴾** لأن الأشياء هي المستبدل بها، ولبعث الهمم على النظر فيها.

المعنى:

إنا خلقنا الأشياء التي تشاهدونها على الزوجية والتركيب من شيئين متضادين، لتكونوا بحيث يرجى منكم أن تعلموا أن النقص والعجز عَمَّ المخلوقات كلها، لحاجة كل شيء منها إلى ضده، وقصوره بنفسه.

فالقدرة والكمال للخالق وحده، فلا يستحق العبادة سواه، فاعبدوه ووحدوه.

توسع في التذكر:

النظر في الأزواج مُفْضٍ للعلم بما ذكرنا، وللعلم بأن الخلق غير صادر عن طبيعة الأشياء: فإن النار ـ مثلاً ـ لا يصدر عنها التبريد والتسخين؛ لأن السبب لا ينتج الضدين.

فالمخلوقات كلها صادرة بطريق الخلق عن فاعل مختار.

وللعلم بوجوه كثيرة من إحاطة علمه، وشمول حكمته، وعموم نعمته.

إذا نظر العاقل في هذه الأزواج وفكر انكشفت له وجوه سر دلائل الربوبية والألوهية والتوحيد، وإذا حصل الانكشاف الأول تبعته انكشافات، فإذا حصل منه التذكر أفضى به إلى تلك الوجوه الكثيرة. ولهذا نزل الفعل منزلة اللازم لا يراد منه إلا حصول الحدث.

* * *

آية كونية في الآية القرآنية:

من الأزواج ما هو ظاهر مشاهد معلوم من قديم مثل السماء والأرض، والليل والنهار، والحر والبرد، والذكر والأنثى في الحيوان وبعض النبات.

ومنها ما كشفه العلم بما مهد الله له من أسباب كالجزء الموجب والجزء السالب في القوة الكهربائية وفي الذرة التي هي أصل التكوين، فلا فردية إلا لخالق هذه الأزواج كلها، الذي أنبأنا

بها قبل أن تصل إلى تمام معرفتها العقول، فكان من معجزات القرآن العلمية التي يفسرها الزمان بتقدم الإنسان في العلم والعمران.

لما كانت السماء متلاحمة الأجزاء في العلاء، ثابتة على حالة مستمرة في هذه الدنيا على البقاء، ناسبها لفظ البناء.

ولما كانت مظهر العظمة[1] والجلال، ناسبها لفظ القوة[2].

ولما كانت الأرض يطرأ عليها التبديل والتغيير بما ينقص البحر من أطرافها، وبما قد يتحول من سهولها وجبالها، وبما يتعاقب عليها من حرث وغراسة وخصب وجدب، ناسبها لفظ الفراش الذي يبسط ويطوى، ويبدل ويغير.

ولما كانت أسباب الانتفاع بها الميسرة ضرورية للحياة عليها وكلها مهيأة، وكثير منها مشاهد، وغيره معد يتوصل إليه بالبحث والاستنباط ناسب ذكر التمهيد.

ولما كانت الأزواج مكونًا بعضها من بعض ناسبها لفظ الخلق.

ولما كان النظر في الزوجين هو نظر في أساس التكوين لتلك المذكورات السابقة ـ وهو محصل للعلم الذي يحصل من النظر فيها ـ قرن بلفظ التذكر.

* * *

الآية الرابعة:

﴿ففرُّوا إلى الله إني لكم منه نذير مبين﴾.

(الفاء) للترتيب، لأن ما قبلها على ما فيه من عظمة وكمال وجمال، فهي مخلوقة موسومة بسمة العجز والنقصان، فلا يصلح شيء منها للتعويل عليه، فلم يبق إلا الخالق القادر ذو الجلال والإكرام، فهو الذي يفر إليه دون جميع المخلوقات.

(فروا) اهربوا. (النذير) المعلم بما فيه هلاك لتجنب الأسباب المؤدية إليه.

(المبين) الذين يوضح ما أنذر منه والأسباب المؤدية إليه، والوسائل المنجية منه، مع إقامة الحجة على صدقه ونصحه.

وقدم ﴿لكم﴾ ليفيد اهتمامه بهم، وذلك ليجلبهم إليه فيستمعوا لنصحه، وبعده ﴿منه﴾ ليبين مصدر رسالته، وذلك ليبين لهم أنه مأمور، فلا يستكبروا عن قبول دعوته.

وأكد الجملة[3] لأنهم في مقام التردد أو الإنكار.

---

(١) كانت في الأصل: «معظمة» وهو خطأ طباعي.

(٢) المستفاد من قوله تعالى: ﴿بأيد﴾.

(٣) بلفظة: «إني».

المعنى:

هذه المخلوقات كلها عاجزة في نفسها مفتقرة ـ ابتداء ودواماً ـ إلى خالقها، فاهـربوا من شرها إلى خالقها، فهو الذي ينجيكم من شرها ويهديكم إلى خيرها، ولا تغتروا بشيء منها، فإنها لا تملك حفظاً لنفسها فكيف تملكه لغيرها.

إنني أحذركم الهلاك إذا اغتررتم بها، وقطعتكم عن خالقها ولم تهربوا إلى الله منها، وقد أبنت لكم مصدر الهلاك وطريق النجاة.

نكتة التنويع:

جاءت الثلاث آيات الأول كما يكون قولها من الله.

وجاءت هذه الآية كما يكون قولها من النبي ـ ﷺ ـ تنويعاً للخطاب وتفنناً، فإنه لما كان في هذه الآية، هو المقصود حول أسلوب الكلام من الإخبار إلى الأمر؛ تجديداً لنشاط السلع، وبعثاً لاهتمام المخاطبين، وحَثًّا لهم وتوكيداً عليهم.

وفيه تنبيه على أن ما يقوله النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مثل ما يقوله الله في وجوب الإيمان والامتثال.

بيان وتوحيد:

هذا العالم بسمائه وأرضه وأزواجه، هو فتنة للإنسان بما فيه من لذائذ ومن جمال، وما فيه من قوة وما فيه من سلطان.

وقد ركبت في الإنسان شهواته وأهواؤه، وسلط عليه الشيطان يغويه ويزين له.

فكل هذا العالم إذا ذهب فيه الإنسان مع أهوائه وشهواته تحت إغواء الشيطان وتزيينه، فإنه يحط إلى أسفل سافلين، ويصير عبداً لأهوائه وشهواته وشيطانه، ولكل ما فتنه من العالم وذهب بلبه، وقد ينتهي به ذلك إلى عبادته من دون خالقه.

فالعالم بهذا الاعتبار شر وبلاء وهلاك يجب الفرار والهروب منه، ولا يكون هذا الفرار منه إلا إلى خالقه بالإيمان به، والتصديق لرسله، والدخول تحت شرعه، فبذلك يعرف الإنسان كيف يجعل حداً لأهوائه وشهواته، وكيف يضبطها بنطاق الشرع وزمامه، وكيف يدفع عنه كيد شيطانه، وكيف يتناول سماء العالم وأرضه وأزواجه بيد الشرع، فيعرف ما فيها من نعمة وحكمة، فيستغلها بهداية الشرع مفرقاً علمياً وعملياً بين منافعها ومضارها، فيعظم بها انتفاعه ويزداد فيها اطلاعه واكتشافه، فتتضاعف عليه منها الخيرات والبركات، ويزداد علمه وعرفانه، ويقوى يقينه وإيمانه، ويعظم لله بره وشكرانه.

فيكون له ذلك العالم جنة الدنيا، وقنطرة لجنة الأخرى، ويفوز من الدارين بالمبتغى. كل هذا بفراره من المخلوقات إلى خالقها، فسلم من شرها، وفاز بخيرها.

فمن هرب من المخلوقات إلى خالقها نجا، ومن فر من الخالق إلى شيء من مخلوقاته كان من الهالكين.

إرشاد وتعميم:

كل ما يصيب الإنسان من محن الدنيا ومصائبها وأمراضها وخصوماتها ومن جميع بلائها، لا ينجيه من شيء منه إلا فراره إلى الله.

ففي العدالة الشرعية ما يقطع كل نزاع، وفي المواعظ الدينية ما يهون كل مصاب، وفي الهداية القرآنية والسيرة النبوية ما ينير كل سبيل من سبل النجاة والسعادة في الحياة.

يعرف ذلك الفقهاء القرآنيون السنيون.

واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

تنبيه على وهم:

ليس الفرار من الأمراض بمعالجتها ومن المصائب بمقاومتها فراراً من الله؛ لأن الأمراض هو قدّرها والأدوية هو وضعها، ودعا إلى استعمالها، والتعالج بها.

وكذلك المصائب وما شرع من أسباب مقاومتها، فكلها منه بقدره، والإنسان مأمور منه بأن يعالج ويقاوم، فما فر من قدره إلا إلى قدره.

ولهذا لما قال أبو عبيدة لعمر ـ رضي الله عنهما ـ في قصة الوباء: «أفراراً من قدر الله يا عمر؟ قال عمر: نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله»[1] وفي الحقيقة كان الفرار من شر في مخلوق إلى الله يرجو منه الخير في غيره.

تحذير من جهالة:

ليس المقصود بالفرار من الدنيا ترك السعي والعمل، وتعاطي الأسباب المشروعة لتحصيل القوت، ورغد العيش، وتوسيع العمران، وتشييد المدنية.

بل المقصود الفرار من شرورها وفتنتها، وتناول ذلك كله على الوجه المشروع هو من الفرار إليه، والدخول تحت شرعه كما قدمناه.

وقد ضل قوم فزعموا ذلك طاعة وعبادة، فعطلوا الأسباب، وخالفوا الشريعة، وحادوا عما ثبت من السنة، وفيهم سئل إمام الحديث والسنة أحمد بن حنبل رحمه الله؛ سئل عن القائل: أجلس لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال: «هذا رجل جهل العلم: أما سمع قول النبي ـ

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مالك في الموطأ (كتاب الجامع باب ما جاء في الطاعون، حديث ٢٢) والبخاري في الطب باب ٣٠، ومسلم في السلام حديث ٩٨.

صلى الله عليه وآله وسلم ـ : إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي»(١)؟ وقوله: «تغدو خماصًا وتروح بطانًا»(٢).

وكان الصحابة يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم وبهم القدوة.

تطبيق:

إذا رأينا طائفتين من المؤمنين تنازعتا فأما إحداهما فالتجأت إلى السلطان تستغيثه، وتستعين به، وتحطب في حبله، فأغاثها وانتقم لها، وأمدها وقربها وأدناها.

وأما الأخرى فلم تستغث إلا بالله ولم تستنصر إلا به، ولم تعتمد إلا عليه، ولم تعمل إلا فيما يرضيه من نشر هداية الإسلام، وما فيها من خير عام لجميع الأنام، وتحملت في سبيل ذلك كل ما تسببت لها فيه الطائفة الأخرى ومن تولته وهربت إليه.

إذا رأينا هاتين الطائفتين عرفنا منهما ـ يقيناً ـ الفارة من الله، والفارة إليه؛ فكنا ـ إن كنا مؤمنين ـ مع من فر إلى الله.

الآية الخامسة:

﴿ولا تجعلوا مع الله إلَهاً آخر إني لكم منه نذير مبين﴾.

﴿ولا تجعلوا﴾ ولا تضعوا من عند أنفسكم ما لا وجود له.

﴿إلَها﴾ معبوداً تخضعون له، وترجون منه التصرف في الكون، ليجلب لكم النفع ويدفع عنكم الضر. وتقدمت ألفاظ ما بَعْدُ في الآية السابقة.

المعنى:

ولا تجعلوا في فراركم إلى الله شيئاً معه من مخلوقات تعتمدون عليه، وتلتجئون إليه، فتكونوا قد أشركتم به سواه. فإنني أحذركم ما في ذلكم من هلاككم بالشرك الذي لا يقبل الله معه من عمل، وإنني قد أبنت لكم لزوم توحيده في الفرار إليه، كما بينت لكم لزوم ذلك الفرار.

أعاد **﴿إني لكم منه نذير مبين﴾** مع الآية الخامسة، ليبين لهم أن عبادة الله مع الإشراك به كتعطيل عبادته؛ فهلاك المشرك كهلاك الجاحد، والنجاة أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً لا في ربوبيته ولا في ألوهيته.

---

(١) رواه البخاري في الجهاد باب ٨٨، وأحمد في المسند (٢/٥٠) من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظلّ رمحي، وجُعل الذلّة والصغار على من خالف أمري؛ ومن تشبَّهَ بقوم فهو منهم».

(٢) رواه الترمذي في الزهد باب ٣٣، وابن ماجة في الزهد باب ١٤، وأحمد في المسند (١/٣٠، ٥٢) من حديث عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال: «لو أنكم تتوكلون على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانًا».

تنبيه وتحذير:

جاء في الحديث فيما رواه أصحاب السنن: «أن الدعاء هو العبادة»[(١)]، فمن دعا غير الله فقد عبده ومن دعا مخلوقاً مع الخالق فقد أشرك.

فإذا دعوت فادع ربك ولا تدع معه أحداً.
وكيف تدعو من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً؟!

وإذا توسلت فتوسل بأعمالك بإيمانك وتوحيدك، وباتباعك لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومحبتك فيه، واعتقادك ما له عند الله من عظيم المنزلة وسمو المقام عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

بيان نبوي قولي:

قال عليه الصلاة والسلام فيما يقال عند النوم:

«لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك»[(٢)].

والملجأ هو المهرب الذي يهرب إليه، والمنجى هو مكان النجاة؛ فبين لنا أنه لا يكون الهرب إلا إلى الله، ولا تكون النجاة إلا بالهرب إليه، فمن هرب لغيره كان من الهالكين.

كما بين لنا أن كل ما يجري في هذا العالم، فهو بخلقه بقدره؛ فلا مهرب ولا نجاة مما خلق وقدر إلا إليه.

بيان نبوي عملي:

روى أحمد وابن جرير عن حذيفة بن اليمان، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان إذا حزبه أمر صلى وفزع للصلاة[(٣)]؛ يعني إذا نزل به مهم أو أصابه غم فزع للصلاة.

فبين لنا بالفعل أن الفرار إلى الله بالتلبس بطاعته، وصدق التوجه إليه والدعاء والتضرع والخشوع له، والاستسلام لدينه وشرعه والإخلاص في عبادته والاعتماد عليه.

وذلك كله موجود على أكمله في الصلاة التي هي عمود الدين، ومظهر كماله.

جعلنا الله والمسلمين من الفارين إليه والمقبولين لديه. آمين.

---

(١) رواه من حديث النعمان بن بشير الترمذي في تفسير سورة البقرة باب ١٦، وابن ماجة في الدعاء باب ١، وأحمد في المسند (٤/٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦).

(٢) رواه من حديث البراء بن عازب البخاري في الوضوء باب ٧٥، والدعوات باب ٦ و٧ و٩، والتوحيد باب ٣٤. ومسلم في الذكر حديث ٥٦ و٥٧. وأبو داود في الأدب باب ٩٨. والترمذي في الدعاء باب ١٦ و٣٢ و١١٦. وابن ماجة في الدعاء باب ١٥. والدارمي في الاستئذان باب ٥١. وأحمد في المسند (٤/٢٨٥، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٢).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/٣٨٨).

القسم السادس

تفسير المعوذتين

في هذا القسم:

١ ـ استهلال، وتمهيد.
٢ ـ من المعوذات.
٣ ـ فضل المعوذتين، وسر الختم بهما.
٤ ـ رب الفلق.
٥ ـ الشر وأقسامه.
٦ ـ الغاسق وقيده. والنفاثات في العقد.
٧ ـ الحاسد والحسد.
٨ ـ لفظ الناس ولم اختير.
٩ ـ الخناس ضعيف.
١٠ ـ شيطان الإنس وشيطان الجن.
١١ ـ الوسوسة، ومحلها.

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الفلق]

استهلال:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، إن الحمد لله نحمده ونشكره ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يضلل الله فلا هادي له ومن يهد فما له من مضل.

ونشهد أن لا إله إلا الله، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

تمهيد:

بني هذا الكون الدنيوي على أن يقترن فيه الخير بالشر، وأن يتصلا، وأن يشتبها، وأن يحيطا بالإنسان من جميع جهاته، فتكون أعماله الكسبية في الحياة مكتنفة بهما، دائرة بينهما، موصوفة بأحدهما. ولا بد في ذلك من قدر الله، ومن سننه العامة في هذا العالم الإنساني.

وحكمته المبينة في وحيه: هي ابتلاء خلقه، ليجازوا على ما يكونُ من كسبهم وسلوكهم، بعد أن وهبهم العقل والتمييز، وأكمل عليهم نعمته بهداية الدين عدلاً منه تعالى ورحمة.

وحكمة أخرى: وهي تمرين هذا الإنسان في حياته، العلمية والعملية، وتدريب فكره على اختيار الأنفع على النافع، والنافع على الضار، ثم سوق الجوارح إلى العمل على ذلك الترتيب وترويضها عليه.

والإنسان يكتسب القوة والدربة بتمرسه على ما يلقاه من الخير والشر بعمله وبفكره.

وللفكر الإنساني عمل سابق لأعمال الجوارح المجترحة، وسائق لها ومهيىء لما يظهر أنه من بدواتها.

وهذا العمل الفكري تظهر قوته في نواح: منها ـ وهو أهمها ـ التمييز بين الخير والشر، وأدق منه التمييز بين خير الخيرين، وشر الشرين؛ فإن الخير درجات وأنواع؛ والشر كذلك دركات وأنواع.

والإنسان في هذا الخضم الذي تلاطمت أمواجه، وفي هذا الفضاء الذي تشابهت أفواجه، محتاج إلى معونة إلٰهية في تمييز الخير من الشر، وقد أمده الله بهذه المعونة من دينه الحق. ومحتاج إلى تأييد إلٰهي يعصمه من الشر ويقيه من الوقوع فيه عن جهالة أو عمد.

وقد هداه الله إلى أسبابه ووسائله بما شرع له من المنبهات عند طروق الغفلة، والمبصرات عند عروض الشبهة، والمعوذات المحصنات عند إلمام لمة الشيطان، وطواف طائفة.

ومن هذه المعوذات:

عقائد تدفع عن صاحبها الشكوك، وهي شر.
وحقائق تقي صاحبها الوهم، وهو شر.
وعبادات تربي مقيمها على الخير، وتنهاه عن الفحشاء والمنكر.
وأعمال تثبت فاعلها على الحق.

وأقوال يمليها القلب ـ العامر بتقوى الله والخوف من مقامه ـ على الألسنة لتكون شهادة لها، أو عنواناً عليها، والألسنة تراجمة القلوب.

فكان مما شرع الله لنا في كتابه وعلى لسان نبيه التعوذ باللسان من الشر والباطل.

وأنزل الله عليه هاتين السورتين وفيهما الاستعاذة بالله من أنواع من الشرور هن أمهات لما عداهن.

وكان نبينا عليه السلام يكثر التعوذ باسم الله وكلماته من أنواع أخرى من الشرور مفصلة في صحاح السنة.

فضل المعوذتين:

أما السورتان فيكفي في فضلهما ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر الجهني، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير خير منهن قط؟ قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس»[1].

وفي رواية أخرى في مسلم[2] عنه تسميتهما بالمعوذتين، وفي رواية أبي أسامة في مسلم أيضاً وصف عقبة ابن عامر، بأنه كان من رفعاء أصحاب محمد ﷺ[3]؛ فتسمية هاتين السورتين بالمعوذتين تسمية نبوية مأثورة، كأسماء جميع سور القرآن.

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ٢٦٤.
(٢) في صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ٢٦٥.
(٣) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ٢٦٥.

وقد يقال: المعوذات ويراد بها ما يشمل سورة الإخلاص.

وكفى بما فيها من أصول العقائد معاذاً من الشرك، وهو أصل الشرور كلها.

وحديث مسلم هو أصح ما ورد في نزولها.

وأما ما يذكر في نزولها في قصة سحر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فإن ذلك لم يصح سبباً لنزولها. وإن كان لقصة السحر وصاحبها لبيد بن الأعصم أصل ثابت في الصحيح. وقد تساهل كثير من المفسرين في حشر هذا السبب في تفسيرهما وفي حشر كثير مما لم يصح في فضائلهما، ولنا فيما صح غنية فيما لم يصح.

وهذه الخيرية التي أثبتها لهما حديث عقبة عند مسلم هي خيرية نسبية في ناحية مخصوصة، وهي ناحية التعوذ بهما من الشرور العامة والخاصة المذكورة فيها.

ودليل هذه النسبية ما أخرجه النسائي في سننه عن ابن عابس الجهني أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال له: «يا ابن عابس، ألا أدلك (أو ألا أخبرك) بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: قل: أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس هاتين السورتين»(١).

فبين - صلى الله عليه وآله وسلم - أن خيريتهما وأفضليتهما من جهة ما تشتملان عليه من معنى التعوذ وهو من المعاني الداخلة في دائرة ما كلفنا الله به.

سر الختم بهما:

ولهاتين السورتين خصوصية غير المناسبات التي يذكرونها في ارتباط بعض السور بالبعض، ويستخرجون منها بالتدبر ما لا يحصى من الأنواع، وهذه الخصوصية هي ختم القرآن بهما. وترتيب السور توقيفي، ليس من صنيع جامعي المصحف كما ذكره السيوطي في الإتقان وجماعة.

يستطيع دارس القرآن ومتدبره ومتقلبه، بالذهن المشرق والقريحة الصافية، أن يستخرج من الحكم في هذا الختم بهما أنواعاً.

ولكن أجلاها وأوضحها: أنهما ختم على كنوز القرآن في نفس المؤمن، وتحصين لهذه النعم المنشأة له من القرآن عليه - أن يكدرها عليه كيد كائد، أو حسد حاسد، فإن من أوتي الشيء الكريم، ورزق النعمة الهنية، هو الذي تمتد إليه أيدي الأشرار وألسنتهم بالسوء، وتقذفه عيونهم بالشرر، وتتطلع إليه نفوسهم بالحسد البغضاء، ويشتد عليه تكالبهم، سعياً في سلبه منه، أو تكديره عليه.

وبقدر النعمة يكون الحسد، وعلى مقدار نفسه ما تملك، تكون هدفاً لمكائد الكائدين، وتأتيك البلايا من حيث تدري ولا تدري.

---

(١) أخرجه النسائي في الاستعاذة باب ١، وأحمد في المسند (٤١٧/٣).

ومن أوتي القرآن فقد طوي الوحي بين جنبيه، وأتي الخير الكثير، فهو لذلك مرمى أعين الحاسدين، ومهوى أفئدة الكائدين؛ فكان حقيقاً، وقد ختم القرآن حفظاً أو مدارسة أو تلاوة، أن يلتجىء إلى الله طالباً منه الحفظ والتحصين من شر كل كيد وحسد يصيبه على هذا الخير العظيم، الذي كمل له هذه النعمة الشاملة التي تمت عليه.

هذه حكمة.

ب ـ والأخرى: هي أن من أوتي القرآن وتفقه فيه، فقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وأحاط بالعلم من أطرافه، وملك كنزه الذي لا ينفد.

وأن من آفات العلم اغترار صاحبه به، وقد يتمادى به الغرور حتى يسول له أن ما أوتيه من العلم كافٍ في وقايته من الأضرار، ونجاته من الأشرار، فكان من رحمة الله بصاحب القرآن، ولطف تأديبه له، وحسن عنايته به، أن ختم بهاتين السورتين كتابه؛ لتكونا آخر ما يستوقف القارىء المتفقه، وينبهه إلى أن في العلم والحكمة مسألة لم يتعلمها إلى الآن، وهي: أنه مهما امتد في العلم باعه، واشتد بالحكمة اطلاعه: فإنه لا يستغني عن الله، ولا بد له من الالتجاء إليه، والاعتصام به؛ يستدفع به شر الأشرار، وحسد الحاسد. وكفى بهذه التربية قامعاً للغرور، وإنه لشر الشرور.

هذه هي المناسبة العامة بين جميع القرآن مرتباً ترتيبه التوقيفي، وبين هاتين السورتين في اتحاد موضعهما.

وأما المناسبة الخاصة بين السورتين وبين سورة الاخلاص، فهي:

أن سورة الإخلاص قد عرفت الخلق بخالقهم بما فيها من التوحيد والتنزيه والتمجيد؛ فإذا قرأت القرآن وتدبرته على ترتيبه، ووجدت توحيد الله منبثاً في آياته وسوره، متجلياً ذلك التجلي الباهر بما عرضه وصوره، ساداً ببراهينه على النفوس كل ثنية وكل مطلع ـ كانت آخر مرحلة يقطعها فكرك من مراحل التوحيد في القرآن، هذه السوة المعجزة على قصرها، فكأنها توكيد لما امتلأت به نفسك من معاني التوحيد، وكأنها وصية مودع مشفق بمهم يخشى عليك نسيانه؛ فيعمد فيها من الكلام إلى ما قل ودل ولم يمل.

ومن صدقك في توحيدك لله في ربوبيته وإلهيته أن تنقطع عن هذا الكون وتكون منه وكأنك لست منه بصدق معاملتك لله، وإخلاص توحيدك إياه، فأنت وقد آمنت وصدقت، وخرجت من سورة الإخلاص متشبعاً بمعانيها، ومنها معنى الصمد ـ تستشعر أن العالم كله عجز وقصور، وأن خيراته مكدرة بالشرور، وأن لا ملجأ إلا ذلك الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فتجيء المعوذتان بعد الإخلاص مبينتين لذلك الالتجاء الذي هو من تمام التوحيد.

ولأجل هذه المناسبة والارتباط بين السور الثلاثة جمع بينهن في التسمية:

ففي الصحيح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ «أن النبي ـ ﷺ ـ كان ينفث عن نفسه بالمعوذات»[١].

وسياق النسائي[٢] لحديث عقبة بن عامر المتقدم: «أن رسول الله ﷺ قرأ وقرأت معه في الإخلاص، ثم: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس. فلما ختمهن، قال: ما تعوذ بمثلهن أحد».

وكما جمع ﷺ بينهن في التسمية والتعوذ، جمع بينهن عملياً في قراءة الوتر.

هذا إجمال المناسبة الخاصة بين السور الثلاث.

* * *

رب الفلق:

قال تعالى: ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾.

الأمر المفرد للنبي عليه السلام.

ومن حسن الأدب في مقدرات القرآن، أن تقدر في مثل هذا الأمر: أيها الرسول، أو أيها النبي؛ لأنهما الوصفان اللذان نطق بهما القرآن في نداء النبي عليه الصلاة والسلام، وأن لا نقدر يا محمد كما هو جار على الألسنة وفي التصانيف؛ فإن القرآن لم يخاطبه باسمه.

والأمر لنبينا أمر لنا، لأننا المقصودون بالتكليف، ولا دليل على الخصوصية، فهو في قوة: **قل** أنت، وقل لأمتك يقولون.

و ﴿**أعوذ**﴾ أستجير وألتجىء، ويتعدى هو وجميع تصاريفه بالباء كـ«أستجير». والعوذ والعياذ مصدران منه كالصوم والصيام. وفي القرآن مما جاء على المعنى اللغوي: ﴿**يعوذون برجال من الجن**﴾ [الجن: ٦]. ومن كلام العرب: قد استعذت بمعاذ.

و (الرب) الخالق المكون المربي، ومواقع استعمال هذه الكلمة في القرآن هي التي تكشف كل الكشف عن معناها الكامل.

و ﴿**الفلق**﴾ الفجر المفلوق المفري.

ومن لطائف هذه اللغة الشريفة: أن الفتح، والفلح، والفجر، والفلق، والفرق، والفتق، والفرى والفأ، والفقأ، والفقه... كلها ذات دلالات واحدة، وتخصيصها بمتعلقاتها باب من فقه اللغة عظيم.

---

(١) أخرجه مالك في العين حديث ١. والبخاري في فضائل القرآن باب ١٤. ومسلم في السلام حديث ٥١. وأبو داود في الطب باب ١٠. وابن ماجة في الطب باب ٣٨. وأحمد في المسند (٦/١٠٤، ١١٤، ١٢٤، ١٨١، ٢٥٦، ٢٦٣).

(٢) في كتاب الاستعاذة باب ١.

ومما وصف به ربنا نفسه في القرآن ﴿فالق الإصباح﴾ [الأنعام: ٩٦]، و﴿فالق الحب والنوى﴾ [الأنعام: ٩٥]، فهما من أسمائه تعالى.

ومواقع هذه الألفاظ التي تضاف إلى كلمة رب في القرآن، كمواقع أسماء المخلوقات التي أقسم بها الله؛ كلاهما عجيب معجز.

فكل لفظة تستعمل في المقام الذي يناسبها وتناسبه، وكل لفظة تبعث في الأسلوب الذي وقعت فيه متانة وقوة، وفي معناها وضوحاً وجلاء.

وسر إضافة الفلق إلى «رب» هنا: أن الفجر بمعناه العرفي هو تشقق الظلمة عن النور، فإن الليل يكون مجتمع الظلمات مسدول الأوراق، فإذا جاء الصبح حصل الانفراق، والذي يبقى بعد ذلك الانفلاق هو النور الذي نفى الظلمة، ولا ينفي ظلمات الشر والضلال والباطل إلا أنوار الخير والهدى والحق من خالقها وفالق أنوارها.

وكما أضيف الفلق بمعنى الفجر إلى كلمة «رب» هنا، أقسم به في آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿والفجر﴾.

* * *

الشر:

﴿من شرِّ ما خلق﴾.

من كل مخلوق فيه شر، فلا يدخل في عمومه إلا كل شرير من أي العوالم كان، كما يدخل في عموم المناطق كل ذي نطق، أو من شر كل مخلوق.

ومن مخلوقات الله ما هو خير محض كالأنبياء والملائكة.

ومعلوم أن المخلوقات كلها خلقت بحق ولحكمة، فهي في نفسها خير. فإن كان لا ينشأ من أعمالها أو آثارها إلا الخير فهي الخير المحض، وإن كان ينشأ عنها الشر أحياناً أو دائماً، فعملها هو الشر، وهو المستعاذ منه.

وتصبح نسبة هذا القسم إلى الله من حيث الخلق والحكمة، ونسبة أعماله إليه من حيث التقدير والتكوين؛ لا من حيث الرضا والتكليف؛ فالله لا يرضى بالشر ولا يكلف به.

وقصارى إبليس وهو مادة الشر في هذا الوجود، أن يزين الشر ويلبسه بالخير. فالشر بيد الله خلقة وحكمة، لا رضا وتكليفاً. والخير بيد الله خلقة وحكمة ونعمة وأمراً.

وقد يكون الشر ذاتياً لا ينفك، وقد يكون نسبياً: باعتبار حالة تعرض واتجاه بقصد.

ونعم الله على عباده قد تنقلب عليهم شراً وبلاء بسبب سوء تصرفهم فيها:

كالمال الذي سماه الله خيراً في القرآن ـ يكسبه صاحبه من الوجوه المشروعة، ويتحرى رضا الله في جمعه وتفريقه؛ فيكون خيراً بذاته وبعمل صاحبه.

ويتصرف فيه بعكس ذلك فيكون شراً لا من ذاته، بل من عمل صاحبه.

وهذا العالم الإنساني المكلف، هو الذي يتجلى الخير والشر في أعماله، ويتصلان بحياته اتصالاً وثيقاً.

وإنما عيب عليه وقبح منه، لأنه قادر على تمييزه واجتنابه، ومكلف بذلك. وقد وضح له الدين قوانين ثابتة للخير والشر، وأوضح له أن الخير ما نفع، وأن الشر ما أضر. ولكنه وإن أوتي قوة التمييز لم يؤت قوة الاستعصام، ابتلاءً من الله. فأما المخذول فيأتي الشر عامداً متعمداً وهو يعلم أنه شر، وأما الموفق فيواقع الشر في مواقف يشتبه عليه فيها الخير بالشر ويعسر التمييز.

والخير والشر لا يوزنان بميزان حسي يستوي الناس كلهم في إدراكه، وقد تدق الفوارق بينهما حتى تخفى.

وفي هذه المواقف يجب الالتجاء إلى الله ليرينا الخير خيراً، ويكشف لبصائرنا عن حقائق الشر فلا يلتبس علينا شيء بشيء.

وبعد أن يوجه الاضطرار نفوسنا هذا التوجيه الصحيح، تندفع ألسنتنا وتقول: «أعوذ برب الفلق من شر ما خلق» وبهذا تظهر المناسبة الدقيقة بين «ربّ» و «الفلق».

١ ـ فإن رب الناس ومربيهم وسائقهم إلى ما يكمل وجودهم، هو الذي تنكشف لعلمه سرائرهم، والفلق نور يكشف للعيان كل المبصرات فترى على حقائقها ومقاديرها، لا يزيغ البصر في شيء منها ولا يطغى، والإنسان مهما يكن عالماً فقد تخفى عليه حقائق من المعقولات فيزيغ فكره ويطغى.

٢ ـ ومناسبة أخرى، وهي أن الشر ظلام، وقد أجرى الله في فطر البشر تصور الشر كالظلام، وأجرى على ألسنتهم تشبيه الشر بالظلام: ذلك أن ما يلابس إحساسهم من الأنس بالنور والبشاشة له، هو عين ما يلابسه من الأنس والبشاشة للخير، وأن ما يضايقهم من وحشة الظلام وتوقع الهلاك فيه، هو عين ما يضايقهم من ذلك الشر.

هذا كله في الشر على عمومه، ثم خصص تعالى من هذا العموم ثلاثة أنواع من الشر، لشدة تعلقها بحياة الإنسان وكثرة عروضها له، ويجيء أكثرها من أخيه الإنسان، ورتبها ترتيباً بديعاً لا يستغرب في جنب بلاغة القرآن، ودقته في رعاية المراتب وتنسيقها في عرض الأذهان.

هذه هي الثلاثة:

الغاسق إذا وقب.
والنفاثات في العقد.
والحاسد إذا حسد.

و (الغاسق) الليل المظلم، والمراد هنا المصيبة تطرق ليلاً وعلى غرة.

و ﴿وقب﴾ دخل في الوقب وهو النقرة في الشيء.

و ﴿النفاثات﴾ السواحر ينفثن الريق، واللفظ جمع نفاثة كثيرة النفث.

و ﴿العقد﴾ جمع عقدة بيان لعادة السواحر المعروفة، من عقد الخيوط ونفث الريق عليها.

والجامع بين الثلاثة هو اشتراكها في الخفاء: فإن الغاسق ظلام تخفى فيه الشرور، والنفاثات مبني أمرهن على الاخفاء تحيلاً وإيهاماً، والحسد داء دفين.

فالثلاثة كما ترون شرها خفي، وكل شر يخفى عمله أو يخفى أثره يجل خطبه ويعظم خطره، فيعسر التوقي منه والاحتياط له، لأنك تتّقي ما يظهر ويستعلن، لا ما يخفى ويستتر، لا جرم كانت الثلاثة جديرة بالتخصيص.

أما نكتة الترتيب: فإن الليل ليس شراً في نفسه، ولا الشر من عمله، وإنما هو ظرف للشرور، والعلاقة بين الشيء وظرفه مكينة في النفوس قوية في الاعتبار، مسببة للحكم على أحدهما بحكم الآخر.

بخلاف النفاثات والحساد، فإن الشر من عملها ومن وصفها، ولانطباعهما عليه صار ذاتياً لهما، ولا شك أن الشر الذاتي أمكن من العرضي.

كما أن بين الاثنين تفاوتاً في ذاتية الشر وقوته، وعسر التوقي منه:

فالنفاثات وإن كن يتحرين إخفاء عملهن، ولكنه مما يمكن ظهوره وافتضاحه ـ بخلاف الحاسد فإنه يخفي شره ويبالغ فيظهر بمظهر الخير فشره أشد، والتوقي منه أعسر، ففي الترتيب بين الثلاثة ترق من الأخف إلى الأشد.

ومن جهة أخرى نجد التناسب ظاهراً بين الثلاثة: الغاسق والنفاثات والحاسد؛ فإن الجميع ظلام: ظلام الزمن، وظلام السحر، وظلام الحسد.

وفي تقييد الغاسق بالوقوب احتمالان كلاهما صحيح مفيد المراد:

الأول: أن وقوب الغاسق عبارة عن اعتكار الظلم وتكاثفها فكأن بعض أجزائها يدخل بعضاً. والظلام يبدأ خفيفاً مشوباً بأسفار من الشفق، أو من طبيعة الأرض، ثم يشتد ويَحْلَوْلِكُ حتى يغطي على كل شيء، فتلك التغطية هي الوقوب.

والوقوب على هذا الاحتمال منظور فيه إلى ظرفه الزماني.

وفائدة القيد حينئذ، أن تلك الحالة المصورة بهذه الجملة، هي التي تقع فيها الشرور من الآدميين وغيرهم، فالطارق يطرق، والسارق يسرق، والحيات تنهش، والضواري تفترس، وظلام الليل يستر ذلك كله، ويعين عليه، ويعوق عن الاستصراخ والاستنجاد.

والعرب تقول فيما يشير إلى هذا: «الليل أخفى للويل».

فالمستعاذ منه على هذا الاحتمال: شر يقع في زمان.

والاحتمال الثاني: أن الوقوب في حقيقته هو دخول شيء في شيء دخولاً حسياً، فيقتضي ظرفاً مكانياً، وما هذا الظرف إلا الأبنية والمساكن، والظلام حين يهجم يدخل المساكن فيملأها، ويكون دخوله فيها أبين من دخوله في الفضاء، وملؤه إياها أشد.

فالوقوب على هذا منظور فيه إلى ظرفه المكاني، لأن الشرور التي ترتكب في البيوت حين يغمرها الظلام أكثر مما يرتكب منها في الفضاء، خصوصاً من الآدميين، والمستعاذ منه على هذا الاحتمال شر يقع في مكان.

وعلى الاحتمالين لما كان الليل معواناً لذوي الشر على شرهم، أضيف الشر إليه واستعيذ بالله منه.

النفاثات:

و (النفاثات) صفة إما للنفوس فتشمل الرجال والنساء، وتكون الاستعاذة من شر كل من يتعاطى هذا الفعل رجلاً كان أو امرأة، وإما للنساء. وخصصن بذلك لأن وقوع هذا الفعل منهن أكثر، وهن به أشهر.

والنفث إخراج الهواء من الفم مدفوعاً بالنفس بدون بصاق، أو مع قليل منه تتطاير ذراته وهو دون التفل.

والنفث وإن كان عاماً لكنه اشتهر فيما يفعله السحرة، يعقدون خيطاً ويتمتمون عليه برقى معروفة عندهم، وينفثون على عقدة منه بقصد إيصال الشر من نفوسهم الخبيثة إلى نفس المسحور، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله.

وما أمرنا الله بالاستعاذة من شره إلا لأنه يؤثر في بعض النفوس القابلة للتأثر به حاشا النفوس المعصومة، كنفوس الأنبياء فإن شرور الدنيا وأسواءها لا تعدو أبدانهم إلى أرواحهم.

ولا يتعاصى على هذه القاعدة ما ورد في سحر لبيد بن الأعصم اليهودي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما يوهمه لفظ الرواية، فإن ذلك كله لا يخرج عن التأثر البدني.

الاعتقاد الصحيح:

ونحن نعتقد ديناً أن تأثير المؤثرات هو من وضع الله وحده.

ونقطع علماً وتجربة أن للقوى النفسية تأثيراً أعظم من تأثير القوى الجسمانية.

وأن من مظاهر هذا التأثير النفساني تأثير العين في المعيون، وتأثير التنويم في المنوم.

وأن التأثير والتأثر النفسانيين، يختلفان باختلاف النفوس الفاعلة والمنفعلة قوة وضعفاً.

وأن تأثير العين ليس من ذاتها، وإنما هو من النفس التي من وراء العين.

ولو كان التأثير من ذات العين لكانت كل عين ناظرة تحدث ذلك الأثر، وأن هذا التأثير لون من ألوان النفس: فإن كانت خيّرة كان تأثيرها خيراً، وإن كانت شريرة كان شراً.

فالنفث المذكور في الآية إن أثر فإنما يؤثر بالقوة النفسية التي من ورائه. والساحر لا ينفث من نفسه الخبيثة إلا نفث الشر؛ لأن الشر هو صفته الطبيعية، كالحية لا تنفث الترياق، وإنما تنفث السم، وكالعدو يلقاك بطعن الأسل لا بطعم العسل؛ إذ كان ذلك من طبيعة العداوة.

هذا نفث الشر من النفوس الشريرة كنفوس السحرة.

وأما النفوس الخيرة الطيبة، كنفوس المؤمنين فإنها تنفث الخير للخير.

وفي الصحيح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أوى إلى فراشه جمع بين كفيه ثم نفث فيهما وهو يقرأ المعوذتين ثم مسح بهما ما استطاع من بدنه يبدأ برأسه ووجهه يفعل ذلك ثلاث مرات»[١]. فهذا نفث الخير من خير نفس خلقها الله.

ثم قالت في تمامه: «فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك»[٢].

وفي رواية: «كان يقرأ بالمعوذات فلما ثقل كنت أنفث عليه بهذا، وأمسح بيد نفسه رجاء بركتها»[٣].

وفي رواية مسلم[٤] عنه «أنه كان يفعل ذلك إذا مرض أحد أهله».

فهذه الأحاديث ـ ثابتة صحيحة ـ تثبت أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقرأ المعوذات، وينفث حين القراءة نفث الخير قطعاً.

وتبين لنا أن كل نفس تنفث ما وقر فيها.

وأن النفث إيصال للقوة الروحانية إلى ما يراد وصول الأثر إليه، وهي دليلنا على ما أسلفنا من أن في النفث خيراً وشراً، ولولاها لما كان النفث إلا من فعل السحرة.

والنفوس إذا استفزها شيء من ملابستها، تتفشى فيها الروحانية وتضطرب، فكأنها بذلك النفث تنفض جزءاً من روحانيتها على نفس أخرى، أو على بدن.

وكأن تحريك اللسان بقراءة أو غيرها إثارة لتلك الروحانية، واستدعاء لها، حتى تتصل بالريق الذي ينفث، كما يتصل السيال الكهربائي بشيء مادي.

وقد علمنا أن السحرة لا ينفثون نفثاً مجرداً، بل يغمغمون برقى شيطانية وأسماء أرواح خبيثة.

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٦٧ حاشية (١).

(٢) كذا في الأصل؛ ولفظه كما في مصادر تخريجه: «فلما اشتكى جَعلت أقرأ عليه وأمسحه بكفّه رجاء بركة يده».

(٣) لفظ البخاري في فضائل القرآن باب ١٤.

(٤) في السلام، حديث ٥٠.

ومن الشواهد لنفث الريق، ما أخرجه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها:

أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان إذا إشتكى الإنسان الشيء منه، أو كانت به قرحة، أو جرح، قال النبي بإصبعه هكذا: ـ تعني وضعها على الأرض كما فسرها سفيان بالعمل[١] ـ ثم رفعها، وقال:

«بسم الله تربة أرضنا بريقة[٢] بعضنا ليشفى به سقيمنا بإذن ربنا»[٣].

* * *

(بعد رواية الأستاذ لهذا الحديث، سكت لحظة كمن يستجمع خواطره، ثم اندفع فقال ما معناه بتوسع)[٤]:

إن القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة، فلا يستقل بتفسيره إلا الزمن.

وكذلك كلام نبينا ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ المبين له، فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع، لم تفهم أسرارها ومغازيها إلا بتعاقب الأزمنة، وظهور ما يصدقها من سنن الله في الكون. وكم فسرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن، ومتون الحديث، وأظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين، وأرتنا مصداق قوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في وصف القرآن: «لا تنقضي عجائبه»[٥].

والعلماء القوامون على كتاب الله وسنة رسوله لا يتلقونها بالفكر الخامد والفهم الجامد، إنما يترقبون من سنن الله في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقهما، ويكلون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم.

وقد أثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم في بعض هذه الآيات: لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد؛ يعنون أنه آت، وأن الآتي به حوادث الزمان، ووقائع الأكوان، وكل عالم بعدهم فإنما يعطي صورة زمنه بعد أن يكيف بها نفسه.

---

(١) لفظ مسلم: «ووضع سفيان سبابته بالأرض ثم رفعها».

(٢) قال جمهور العلماء: المراد بأرضنا هنا جملة الأرض، وقيل: أرض المدينة خاصة لبركتها. والريقة: أقل من الريق. ومعنى الحديث أنه يأخذ من ريق نفسه على أصبعه السبابة، ثم يضعها على التراب فيعلق بها منه شيء فيمسح به على الموضع الجريح أو العليل ويقول هذا الكلام في حال المسح.

(٣) صحيح مسلم (كتاب السلام، حديث رقم ٥٤). وأخرجه أيضاً البخاري في الطب باب ٣٨، وأبو داود في الطب باب ١٩، وابن ماجة في الطب باب ٣٦، وأحمد في المسند (٩٣/٦).

(٤) ما بين القوسين من كلام العلامة البشير الإبراهيمي رحمه الله (حاشية المطبوع: ص ٦٣٦).

(٥) روى الإمام أحمد في المسند (٩١/١) من طريق علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه عن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد! إن أمتك مختلفة بعدك. قال: فقلت له: فأين المخرج يا جبريل؟ قال: فقال: كتاب الله تعالى، به يقصم الله كل جبّار، من اعتصم به نجا ومن تركه هلك ـ مرتين ـ قول مفصل وليس بالهزل، لا تختلقه الألسن ولا تفنى أعاجيبه، فيه نبأ ما كان قبلكم وفصل ما بينكم وخبر ما هو كائن بعدكم».

هذا الخبر عند الناس:

ولو أننا عرضنا حديث التربة والريقة على طائفة من الناس مختلفة الأذواق متقسمة الحظوظ في العلم وسألناهم: أية علاقة بين الشفاء وبين ما تعاطاه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من أسبابه في هذا الحديث؟

فماذا تراهم يقولون؟

١ - يقول المتخلف القاصر: تربة المدينة بريق النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - شفاء ما بعده من شفاء.

٢ - ويقول الطبيب المستغرب: هذا محال، في التراب مكروب، وفي الريق مكروب، فأنى يشفيان مريضاً أو ينفسان عن مكروب؟!

ويقول الكيماوي: ها هنا تفاعل بين عنصرين، ودعوا التعليل، فالقول ما يقول التحليل.

٤ - ويقول ذوو المنازع القومية والوطنية، ولو كانوا يدينون بالوثنية: آمنا بأن محمداً رسول الله، فقد علم الناس من قبل أربعة عشر قرناً أن تربة الوطن معجونة بريق أبنائه، تشفي من القروح والجروح، ليربط بين تربته وبين قلوبهم عقداً من المحبة والإخلاص له، وليؤكد فيها معنى الحفاظ له والاحتفاظ به، وليقرر لهم من منن الوطن منّة كانوا عنها غافلين، فقد كانوا يعلمون من علم الفطرة أن تربة الوطن تغذي وتروي، فجاءهم من علم النبوة أنها تشفي فليس هذا الحديث إرشاداً لمعنى طبي، ولكنه درس في الوطنية عظيم.

ولو أنصف المحدثون لما وضعوه في باب الرقى والطب، فإنه بباب «حب الوطن» أشبه.

وما نرى رافع العقيرة بقوله:

أَلاَ لَيْتَ شِعْـري هـل أبيتنَّ لَـيلَةً بـوَادٍ وحـولي إذْخِـرٌ وجَـليـلُ
وهـل أرِدَنْ يـومًـا مِيَـاهَ مَجَنَّـةٍ وهـل تَبْـدُوَنْ لي شَـامَـةٌ وَطَفيلُ[1]

إلا سائرًا على شعاعه.

وما ترى ذلك الغريب المريض الذي سئل فيم شفاؤك؟

---

(١) هذان البيتان تمثّل بهما بلال رضي الله عنه. ورد في الصحاح عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وُعك أبو بكر وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرىء مصبّحٌ في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته يقول: ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة... البيتين.

رواه البخاري في فضائل المدينة باب ١٢ (وهذا لفظه). ومناقب الأنصار باب ٤٦، والمرضى باب ٨ و٢٢؛ ومسلم في الحج حديث ٤٨٠. وأحمد في المسند (٦/٦٥، ٨٣، ٢٢٢، ٢٤٠، ٢٦٠). وهو في موطأ الإمام مالك (كتاب الجامع، حديث ١٤).

فقال: شمة من تربة إصطخر، وشربة من ماء نهاوند، إلا من تلامذة هذا الدرس.

ولقد زادنا[1] إيماناً به بعد إيمان أنه يقول: تربة أرضنا، بريقة بعضنا. ولم يقل: تربة الأرض بريق بني آدم فليس السر في تربة وريق ومرض. ولكن السر في أرضنا وبعضنا ومريضنا ـ فهذه ـ والله ربنا ـ صخرة الأساس في بناء الوحدة الوطنية والقومية، لا ما يتبجح به المفتونون.

٥ ـ ويقول الروحانيون: إن هناك روحاً طاهرة تتصل بتربة الأرض التي خلق المريض منها، وتغذى بنباتها ومائها، وتنفس كبده في جوها وهوائها، من ريقه منفوثة نفث الخير، من نفس مؤمنة قوية الروحانية طيبتها، فيكمل التكوين بين الريق والتربة مع اسم الله الذي قامت به السموات والأرض، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، فيحصل الشفاء بهذا العمل النفساني. وإذا تجلت النفس بعجائبها لم يبق في الوجود عجيب.

٦ ـ ويقول غير هؤلاء ما يقول، وهذه المتون كاسمها متون، وهذه الأصول كاسمها أصول.

وهكذا، تأتي بعض المتون من كلام الله، وكلام رسوله، معجزة للعقول فتتطاير من حولها الفهوم والآراء تطاير الشعراء، ويظن كل عقل أن حرفته آلة لتفسير تلك المتون ـ والعلوم حرف العقول.

والزمان من وراء الكل يصيح: أن انتظروا....

* * *

الحاسد والحسد:

﴿ومن شرِّ حاسد إذا حسد﴾.

الحاسد، الذي قامت به صفة الحسد، وهو الذي يحب أن تسلب النعم من غيره، وقد تلج به هذه الصفة الذميمة فتزيد له سلب النعم حتى من نفسه إذا توقف على ذلك سلبها من غيره، فهو لا يحب الخير لأحد ويتمنى ألا يبقى على وجه الأرض منعم عليه.

وإنما ينشأ الحسد من العجب وحب الذات، فتسول له نفسه أن غيره ليس أهلاً لنعم الله، وكفى بهذا معاداة للمنعم.

والحسد شر تلازمه شرور: العجب، والاحتقار، والكبر. وقد جمع إبليس هذه الشرور كلها:

حسد آدم عجباً بنفسه فقال: «أنا خير منه».

ورآه لا يستحق السجود احتقاراً له، فقال: **﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي﴾**؟! [الإسراء: ٦٢]

---

(١) لا يزال الكلام للوطنيين والقوميين.

ثم تكبر ولم يسجد ورضي باللعنة والخزي.
ولا أشنع من صفة يكون إبليس فيها إماماً!!

والحسد شر على صاحبه قبل غيره، لأنه يأكل قلبه، ويؤرق جفنه، ويقضّ مضجعه ولا يكون شراً على غيره، إلا إذا ظهرت آثاره بأن كان قادراً على الإضرار، أو ساعياً فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿إذا حسد﴾ والمتمني للشيء لا يمنعه من إتيانه إلا العجز.

وأعظم ما ينمي الحسد ويغذيه امتداد العين إلى ما متع الله به عباده من متاع المال والبنين ونعمة العافية والعلم والجاه والحكم.

وقد نهى الله نبيه عن مد العين إلى ما عند الغير فقال: **﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾** [طه: ١٣١].

وفي هذه الآية مع النهي إرشاد إلى علاج الحسد، فإن الحسد مرض نفساني معضل، ولكنه كغيره من الأمراض النفسية يعالج.

وقد وصف الحكماء له أنواعاً من العلاج، فصلتها كتب السنة وكتب الفقه النفسي ككتاب الإحياء(١) للغزالي.

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾

[سورة الناس]

تمهيد:

قال تعالى: **﴿قل أعوذ برب الناس﴾** قد علمنا أن الصفة الجامعة بين هذه السورة وبين التي قبلها (هي المعوذتان)، وعلمنا أنها تسمية نبوية، وقد جرت هذه الصفة مجرى الاسم لهما.

أما الاسم الخاص بهذه السورة فهو (الناس) كما أن الاسم الخاص بالسورة الأولى (الفلق).

والمناسبة بين السورتين يرشد إليها اشتراكهما في الوصف، وهو التعوذ بهما من الشرور المذكورة فيهما، وفي السورة الأولى الاستعاذة من الشر العام، ومن ثلاثة أنواع(٢) منه ذكرنا الحكمة في تخصيصها بالذكر. وفي هذه السورة الاستعاذة من شر واحد لكنه سبب في شرور كثيرة.

---

(١) كتاب «إحياء علوم الدين».
(٢) هي: شرّ ما خلق، وشر الفاسق إذا وقب، وشرّ النفّاثات في العقد.

النفوس الشريرة :

والمناسبة القريبة بين السورتين هي أن النفوس الشريرة ثلاثة أقسام :

١ ـ قسم يصدر عنه الضرر ويعمله .

٢ ـ وقسم لا يريد الخير فيسعى في سلبه وانتزاعه ، وهو شر من الأول .

٣ ـ وقسم يعمل إلى إيصال الشر إلى سلطان الجوارح ، ومالك هديها ، وهو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله[1] .

فهو يحسن له الأشياء القبيحة ويأتيه من جميع النواحي على وجه النصح وإرادة الخير.

ويزين للإنسان كل ما يرد به من القبائح ، ويأتيه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله قريباً منه متصلاً بهواه ، وهذا القسم الأخير هو الذي يوسوس بكلمة السوء مزينة الظاهر مغطاة القبح ، حتى تستنزل صاحبها إلى الهلاك .

ولما كان هذا القسم الثالث أعظم خطراً ، وأكثر شراً ، وأخسر عاقبة ، خصص التعوذ منه بسورة كاملة .

﴿رب الناس﴾ هو مربيهم ومعطيهم في كل مرتبة من مراتب الوجود وما يحتاجون إليه لحفظها ، وهاديهم لاستعمال ما مَنَّ به عليهم فيما ينفعهم : **﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾** [طه : ٥] .

وأصله من رَبَّهُ يَرُبُّهُ رَبًّا إذا قام على نشأته وتعهده في جميع أطواره إلى التمام والكمال ، ولفظه لفظ المصدر ، ولكن معناه معنى اسم الفاعل : كالعدل يراد به العادل .

و **﴿وملك الناس﴾** هو الذي يملك أمر موتهم وحياتهم ، ويشرع لهم من الدين ومن الأحكام ما يوافق حياتهم الدنيوية والأخروية .

و **﴿إله الناس﴾** هو الذي يدينون له بالعبادة والعبودية .

وبلاغة الترتيب ، إنما تظهر جلية عند استعراض أطوار الوجود الإنساني .

فالأول : طور التربية والإعداد وهما من مظاهر الربوبية .

والثاني : طور القوة والتدبير وهما من مظاهر الملك .

والثالث : طور الكمال والقيام بوظائف العبودية ، وهو من مظاهر الألوهية .

---

(١) ألا وهو القلب ، كما جاء في الحديث من طريق النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ قال : « . . . إلا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » . رواه البخاري في الإيمان باب ٣٩ ، ومسلم في المساقاة حديث ١٠٧ ، وابن ماجة في الفتن باب ١٤ ، والدارمي في البيوع باب ١ .

المستعاذ منه:

المستعاذ منه تارة يوسوس للإنسان بما يفسد عليه صلته بربه، وتارة بما يفسد عليه تدبيره وما شرع له لمنفعته وصلاحه، وتارة بما يفسد عليه عبوديته له وهي أشرف علائقه به وأقوى صلاته.

وجماع ذلك أن يبعده عن الله بالوسوسة بواحدة من هذه أو بكلها، وبما يتفرع عنها مما تضمنته الآيات المبينة لأفعال أصل هذه القوة الموسوسة.

مثل قوله تعالى: **﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾** [البقرة: ٢٦٨].

أو لذلك الشأن الجاري مجرى الحوار بين إبليس وبين خالقه، كقوله تعالى: **﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾** [ص: ٨٢].

وكقوله تعالى: **﴿قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾** [الإسراء: ٦٢].

وكقوله: **﴿ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾** [النساء: ١١٩].

فهو جاهد في أن يبعد الناس عن الله؛ بإفساد العقيدة الصحيحة فيه أو بالصرف عن شرع الله، أو بالحمل على عبادة غيره، فلذلك كله جاء الترتيب على هذا النمط المذكور بتلك العلائق القوية التي يريد الشيطان أن يقطعها.

و (الرب) رب الناس وغيرهم، بل رب العالمين. وإنما خص الناس بالذكر:

١ - لأنهم هم هدفه ومرمى وسوسته، ولأنهم هم المأمورون بالاستعاذة منه، ولأن عالم التكليف أشرف، فإليهم يوجه الخطاب، وإليهم يساق التحذير.

وهذه الوسوسة نتيجة للعداوة بين أصليهما؛ فأمر الله بالاستعاذة منها هو تصليح إلهي لبني آدم، لتثبيت سنة التعمير التي هي حكمة الله من وجودهم.

٢ - ونكتة أخرى في تخصيص الناس بالذكر دون بقية أفراد المربوبين، وهي أنهم هم الذين ينطبق عليهم ناموس الهداية والضلال.

وقد ضلوا بالفعل في ربوبية الله وفي ألوهيته:
ضلوا في الربوبية باتخاذ المشرعين، ليشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، ويصدونهم بذلك عما شرع الله.

وضلوا في الألوهية بعبادة غير الله بما لا يعبد به أحد غيره كالدعاء.

واختير لفظ الناس، من بين الألفاظ المشاركة له في الدلالة كالبشر والبرية، لأنه ينوس ويضطرب وينساق. وهي صفات يلزمها التوجه، ويسهل التوجيه، فلا غنى لصاحبها عن توفيق

الله للوجهة الصالحة، والتسديد فيها، ما دام لا يملك لنفسه ذلك، وما دام محاسباً عليه، وما دامت هناك قوة مسلطة تنزع به إلى الشر.

ففي تخصيص الناس بالذكر، تنبيه إلى أنهم أحوج المربوبين إلى تأييد الله وأحقهم بطلب ذلك منه؛ وقد أرشدهم إلى ذلك وله الحمد.

ولو تفقه الناس في معنى اسمهم واشتقاقه، لعلموا بفطرتهم أنهم مخلوقات ضعيفة لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، ولأيقنوا أنه لا بد لهم من رب يربيهم ويحميهم، ومالك يدبر أمورهم، وإله يعبدونه ويتخذون العبودية له جُنّة من استعباد الأقوياء.

ويجوز ـ إذا راعينا الأدب وكمال التنزيه في حمل الألفاظ التي تضاف إلى كلمة رب على أشرف معانيها ـ أن تحمل كلمة (الناس) على معنى أخص مما يتناوله عموم الجنس، وهو الأماثل والأخيار منهم الجامعون لمعاني الإنسانية الفاضلة، وهذا المعنى تعرفه العرب: فإنهم كثيراً ما يطلقون اسم الجنس على الفرد، أو الأفراد الكاملين في حقيقته، وإن كان هذا من المجاز في كلامهم؛ وقد حملوا على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿آمنوا كما آمن الناس﴾ [البقرة: ١٣].

نكتة الإعادة والإظهار للفظ الناس توضيح المعنى، وإلفات النفس إليه، وإيقاظ شعورها به، والتسجيل على الناس بأن لهم ربًّا هو مالكهم وإلههم.

من شر الوسواس:

﴿من شر الوسواس﴾.

(الوسواس) هنا صفة الموسوس، وإن خالف المعهود في أبنية الصفات أو هم اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال والزلزلة.

وأصل هذه الكملة دائر على معنى الخفاء والعرب تسمي حركة الحلي وسواساً[1] وهذا المعنى واضح في المراد هنا؛ فإن الموسوس من الجن في نهاية الخفاء هو وعمله، والموسوس من الإنس يتحرى الإخفاء ما استطاع ويحكم الحيلة في ذلك، ولا يرمي رميته إلا في الخلوات.

وإن الناس ليعرفون عرفاناً ضرورياً من الفرق بين المصلحين والمفسدين:

أن الأولين يصدعون بكملة الحق مجلجلة، ويرسلون صيحته داوية، ويعملون أعمالهم في وضح النهار ومحافل الخلق.

وأن الآخرين يتهامسون إذا قالوا، ويستترون إذا فعلوا، ويعمدون إلى الغمز والإشارة والتعمية، ولو وجدوا السبيل لكانت لهم لغة غير اللغات، ولكان الزمن كله ظلمات، والأرض كلها مغارات.

---

(١) ومنه قول الأعشى:

تسمعُ للحَلْي وسواسًا إذا انصرفت ... كما استعان بريح عشرقٌ زَجِلُ

(انظر لسان العرب: ٦/٢٢٥ ـ مادة وسس).

الخناس:

«الخناس» وصف مبالغة في الخانس من الخنوس، وهو التأخر بعد التقدم، ومن ملابسات هذا المعنى ومكملاته في المحسوس: أنه يذهب ويجيء ويظهر ويختفي إغراقاً في الكيد، وتقصياً في التطور، حتى يبلغ مراده. فالله تعالى يرشدنا بوصفه بهذه الصفة إلى أن له في عمله كراً وفراً، وهجوماً وانتهازاً. واستطراداً على التصوير الذي صوره إبليس في ما حكى الله عنه: **﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾** [الأعراف: ١٧]. يرشدنا بذلك لنعد لكل حالة من حالاته عدتها، ولنضيق عليه المسالك التي يسلكها.

كما أن وصفه بهذه الصفة يشعر بأنه ضعيف الكيد، لأن الخنوس ليس من صفات الشجاع المقدام، وإنما هو كالذباب: تذبه بذكر الله من ناحية فيأتيك من ناحية، ثم دواليك حتى تمل أو يمل.

وأما التهويل في وصفه بما يأتي بعد، فهو مبالغة في التحذير منه؛ لأن وصفه بالضعف مظنة لاحتقاره والتساهل في أمره.

* * *

الوسوسة ومحلها:

﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾.

قال: «يوسوس» بالمضارع إشعاراً بعد إشعار بتجدد الوسوسة منه وعدم انقطاعها.

وقال: «في صدور الناس» والصدر ملتقى حنايا الأضلع ومستودع القوى التي كان الإنسان إنساناً بها، ومجمع المُضَغ[1] التي تحمل تلك القوى، والقلب واحد منها، فالقلب غير الصدر، وإنما هو فيه، ولذلك قال: **﴿ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾** [الحج: ٤٦].

ومواقع استعمال القرآن لكلمة الصدر مفرداً وجمعاً ـ فالحكم عليها بالشرح، والحرج، والضيق، والشفاء، والإخفاء، والإكناد ـ ترشدنا إلى أنه ليس المراد منه الصورة المادية، ولا أجزاءها المادية، إنما المراد القوى النفسية المستودعة فيه، وأن الوسواس الخناس، يوجه كيده ووسوسته دائماً إلى هذه القلعة التي هي الصدر؛ لأنها مجمع القوى.

وقال: «في صدور الناس»، ولم يقل في قلوب الناس؛ لأن القلب مجلى العقل ومقر الإيمان، وقد يكون محصناً بالإيمان فلا يستطيع الوسواس أن يظهره ولا يستطيع له نقباً.

﴿من الجنة والناس﴾.

﴿الجنة﴾ جماعة الجن وهم خلاف الإنس، والمراد هنا أشرار ذلك الجنس، لأن منهم المسلمين ومنهم القاسطين[2].

---

(١) المضغ: جمع مُضْغة، وهي القطعة التي تمضغ من لحم وغيره (المعجم الوسيط: ص ٨٧٥).

(٢) كما قال تعالى في الآية ١٤ من سورة الجن: **﴿وأنّا منّا المسلمون ومنّا القاسطون﴾**.

واستعمل لفظ الجنة في القرآن بمعنى المصدر الذي هو الجنون، في قوله تعالى: **﴿ما بصاحبكم من جنة﴾** [سبأ: ٤٦].

ولما كان الموسوسون فريقين متعاونين على الشر، ذكرهما الله تعالى في مقام الاستعاذة من شر الوسوسة، ليلتئم طرفا الكلام، ويحصل التقصي الوصفي المستعاذ به والمستعاذ منه.

وقد قسم القرآن الشياطين، وهم القائمون بوظيفة الوسوسة إلى قسمين:

شياطين الإنس، وشياطين الجن. وذكر بعضهم يوحي إلى بعض زخرف القول. وشياطين الجن ميسر للشر. فكل من يعمل عمله من الإنس فهو مثله. ومن شياطين الإنس بطانة السوء، وقرين السوء.

القرين:

وورد في الآثار أن لكل إنسان قريناً من الجن[1]. وقال تعالى: **﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾** [الزخرف: ٣٦]. وقال: **﴿وقيضنا لهم قرناء﴾** [الزخرف: ٦٧]. وهو من باب توزيع الجمع على الجمع: أي لكل واحد قرين.

فهذا الإنسان الضعيف يلازمه قرين من الجن، ثم لا يخلو من قرين أو قرناء من الإنس، يزينون له ما بين يديه وما خلفه، ويصدونه عن ذكر الله. فماذا يصنع؟ ما عليه إلا أن يلتجيء إلى الله، ويستعيذ به ويتذكر، فإنه لا يؤخذ وهو ذاكر مستيقظ، وإنما يؤخذ إذا كان غافلاً، قال تعالى: **﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾** [فصلت: ٣٦] وقال تعالى: **﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾** [الأعراف: ٢٠١].

دقائق بلاغية:

ومن دقائق القرآن ولطائفه في البلاغة، أنه يقدم أولاً الاسمين المتلازمين في آية، لسر من أسرار البلاغة يقتضيها ذلك المقام، ولا يؤخر ذلك المقدم في آية أخرى، لسر آخر: فيقدم السماء على الأرض في مقام، ويؤخرها عليها في مقام آخر.

ومن هذا الباب تقديم الإنس على الجن في آية الأنعام[2]، لأن معرض الكلام في عداوتهم للأنبياء، وهي من الإنس أظهر، ودواعيها من التكذيب والإيذاء أوضح.

وفي آية «الناس» قدم الجنة على الناس، لأن الحديث عن الوسوسة، وهي من شياطين الجن

---

(١) في صحيح مسلم(كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ٦٩) عن عبدالله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكل به قرينه من الجنّ». قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإيَّاي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير». وأخرجه أيضاً أحمد في المسند (١/٣٨٥، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٦٠) والدارمي في مسنده (كتاب الرقاق، باب ٢٥).

(٢) الآية ١١٢: **﴿وكذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدوًّا شياطين الإنس والجن﴾**.

أخفى وأدق، وإن كانت من شياطين الإنس أعظم وأخطر وأدهى وأمر: فشيطان الجن يستخدم شيطان الإنس للشر والإفساد، فيربى عليه ويكون شراً منه، لأنه بمثابة السلاح الذي يفتك به؛ ورب كلمة واحدة صغيرة يوحيها جني لإنسي، ويوسوس إليه بتنفيذها، فتتولد منها فتن، ويتمادى شرها من قرن إلى قرن ومن جيل إلى جيل.

وهذا النوع الإنساني المهيأ لقابلية الخير وقابلية الشر، إذا انحط وتسفل كان شراً محضاً، وإذا ترقى وتعالى شارف أفق الملأ الأعلى، وأوشك أن يكون خيراً محضاً، لولا أن العصمة لم تكتب إلا لطائفة منه، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فالإنسان إذا انحط يكون شراً من الشيطان، وإذا ارتقى يكون أفضل من الملك ـ أعني جنس الإنسان ـ ومن هذا الجنس، كان محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أكمل الخلق الذي ليس لمخلوق رتبة مثله في الكمال.

وأخيراً «سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين».

القسم السابع
العرب في القرآن

في هذا القسم:

وفي هذه المحاضرة[1] القيمة:

١ ـ واجب المسلمين العناية بتاريخهم ومدنيتهم.
٢ ـ خصائص الطبيعة العربية.
٣ ـ السر في اختيار العرب للرسالة.
٤ ـ معلومات مغلوطة عن العرب.
٥ ـ إرم ذات العماد وحضارتها.
٦ ـ أمة ثمود وحضارتها.
٧ ـ قصة ملكة سبأ، والعبرة منها.

---

(١) العرب في القرآن: محاضرة ارتجلها الإمام عبد الحميد بن باديس في نادي الترقي بالعاصمة الجزائرية في غرة ربيع الأول سنة ١٣٥٨ هـ (إبريل سنة ١٩٣٩ م). ونشرت في مجلة الشهاب في المجلد الخامس عشر (حاشية المطبوع: ص ٦٥٧).

واجب المسلمين العناية بتاريخهم ومدنيتهم

حق على كل من يدين بالإسلام ويهتدي بهدي القرآن أن يعتني بتاريخ العرب ومدنيتهم، وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام، وذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الاسلام، ولعناية القرآن بهم، ولاختيار الله لهم لتبليغ دين الإسلام، وما فيه من آداب وحكم وفضائل إلى أمم الأرض.

فأما أنهم قد ارتبط تاريخهم بالاسلام، فلأن العرب هيئوا تاريخياً لأجل أن ينهضوا بأعباء هذه الرسالة الإسلامية العالمية، ولأن الله ـ الحكم العدل الذي يضع الأشياء في مواضعها بحكمة، ويأمرنا أن ننزل الناس منازلهم في شريعته ـ ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة: إذ لا ينهض بالجليل من الأعمال إلا الجليل من الأمم والرجال، ولا يقوم بالعظائم إلا العظام من الناس.

وأما عناية القرآن بالعرب، فلأجل تربيتهم، لأنهم هم الذين هيئوا لتبليغ الرسالة، فيجب أن يأخذوا حظهم كاملاً من التربية قبل الناس كلهم، ولهذا نجد كثيراً من الآيات القرآنية في مراميها البعيدة.. إصلاحاً لحال العرب، وتطهيراً لمجتمعهم، وإثارة لمعاني العزة والشرف في نفوسهم.

ومن هذا الباب: الآيات التي يذكر بها العرب أن القرآن أنزل بلسانهم مثل:

﴿إنا جعلناه قرآنًا عربياً﴾ [الزخرف: ٣]، **﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾** [يوسف: ٢].

والذين يعقلون القرآن قبل الناس كلهم هم العرب. ومن أول القصد إلى العرب والعناية بلسانهم، وتنبيههم إلى أن القرآن أنزل بلسانهم دون جميع الالسنة ـ جلبًا لهم، حتى يعلموا أنه أنزل لهم وفيهم، قبل الناس كلهم.

إن العرب قوم يعتزون بقوميتهم، وهم قوم ذوو عزة وإباء، خصوصاً في الجاهلية؛ فكان من حكمة القرآن أن يجلب نافرهم، ويقرب بعيدهم؛ بأن هذا القرآن أنزل بلسانهم.

ومن هذا الباب توسعة الله في قراءة القرآن على سبعة أحرف، وهي اللهجات التي تجتمع على صميم العربية، وتختلف في غير ذلك. وسع عليهم في ذلك لتشعر كل قبيلة أن هذا القرآن قرآنها؛ لأن اللسان الذي نزل به لسانها. وهذا هو ما يقصده القرآن.

ومن هذا الباب أيضاً إشعارهم بأن صاحب الرسالة منهم:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [التوبة: ١٢٨].

خصائص الطبيعة العربية

فمن الطبيعة العربية الخالصة: أنها لا تخضع للأجنبي في شيء، لا في لغتها ولا في شيء من مقوماتها.

ولذلك نرى القرآن يذكرها بالشرف، ويحدثها كثيراً عن أمة اليهود التي لا يناديها إلا بيا بني إسرائيل؛ تذكيراً لها بجدها الذي هو مناط فخرها كل ذلك لأنها أمة تحيا بالشرف والسمو والعلو.

ويذكرها بالذكر وهو في لسانها الشهرة الطائرة والثناء المستفيض، يقول تعالى لنبيه وهو يعني القرآن:

﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤].

والأنبياء لم يبعثوا إلا في مناسب الشرف، ومنابع القوة، ومنابت العزة ليبنى المجد الطريف من الدين على المجد التليد من أحساب الأمة وأنسابها وشرفها وعزتها، وما كان لها من مناقب تلتئم مع أصول الدين.

فقوله تعالى: **﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾** [الزخرف: ٤٤]، ليشعرهم أن عليهم من الواجبات في مقابلة هذا الشرف الذي أعطوه ما ليس على غيرهم، ولا شك أن ثمن المجد غال!!

وهذا الشرط الذي ذكره الله، وذكر به العرب هو شرط واجب الاعتبار والتنفيذ، لأن الأمة التي لا تؤدي ثمن المجد لا تحافظ عليه، ثم هي أمة لا يعتمد عليها في النهوض بنفسها ولا بغيرها.

وإنما ذكرهم الله بذلك لينهضوا بالأمم على ذلك الأساس، وهو إحياء الشرف الإنساني في نفوسها، وليعاملوها على ذلك الأساس بالعدل والرحمة والتكريم.

وما ذكر القرآن العرب بتكريم بني آدم وخلقهم في أحسن تقويم، إلا ليعاملوهم على هذه القاعدة التي وضعها الخالق.

وإن أعداء البشرية اليوم وقبل اليوم، يعمدون إلى قتل الشرف من النفوس، ليستذلوا من هذا النوع ما أعز الله، ويهينوا منه ما كرم الله.

والخلاصة:

أن عناية القرآن بإحياء الشرف في نفوس العرب ضرورية لإعدادهم لما هيئوا له من سياسة البشر.

وبهذا نستعين على فهم السر والحكمة في اختيار الله للعرب للنهوض بهذه الرسالة الاسلامية العالمية، واصطفائه إياهم لإنقاذ العالم مما كان فيه من شر وباطل.

وهذا السر هو أن ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها هو الذي هيأهم لذلك، ولو كانوا أذلاء لما تهيأوا لذلك العمل العظيم.

الفروق بين العرب وإسرائيل:

وانظروا واعتبروا ذلك، بحال أمة هي أقرب أمة إلى العرب، وهي أمة إسرائيل: فإنها لم تُهيّأ لانقاذ غيرها، وإنما هيئت لإنقاذ نفسها فقط؛ لأن مقوماتها النفسية لم تصل بها إلى الدرجة العليا؛ ولذلك عانى موسى ما عانى مما قصه القرآن علينا؛ لنعتبر به في الحكم على الأمم.

ولا حاجة إلى التطويل في الحديث عن بني إسرائيل، فإن القرآن قد فصل لنا شؤونهم تفصيلاً، وإنما أنبهكم على هذا الفارق الجوهري بين الأمتين.

وقد تقولون: إن بني إسرائيل اختارهم الله وفضلهم على العالمين.

والجواب الذي يشهد له الواقع أنه اختارهم لينقذوا أنفسهم من استعباد فرعون، وليكونوا مظهراً للنبوة والدين في أول أطوارهما، وأضيق أدوارهما؛ وهذا هو الواقع. فإن الأمة العربية استطاعت أن تنهض بالعالم كله، وأن تظهر دين الله على الدين كله. وأما بنو إسرائيل فإنهم ما استطاعوا أن ينهضوا بأنفسهم إلا بعد موسى بزمن، مع اتصال حبل النبوة ومعاداة الوحي الإلهي ومراوحته لهم.

فالأمتان العربية والاسرائيلية متمايزتان بالأثر، ومتمايزتان بحديث القرآن عنهما.

وإذا تلمسنا الحكمة المقصودة من اختيار الله لبني إسرائيل مع أنهم غير مستعدين للقيام بنهضة عالمية عامة، وجدنا تلك الحكمة في القرآن مجلوة في أبلغ بيان، في قوله تعالى:

﴿ونريد أن نمنَّ على الَّذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكِّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ [القصص: ٥، ٦].

فالسر المتجلي من هذه الآية: هو أن الله أراد بما صنع لبني إسرائيل وبما قال لهم أن يعلم هذا الإنسان من سنن الله في كونه ما لم يكن يعلم، وهو إخراج الضد من الضد، وإخراج الحي من الميت، وإنقاذ الأمة الضعيفة التي لا تملك شيئاً من وسائل القوة الروحية، ولا من وسائل القوة المادية ـ من استعباد الأقوياء المتألهين.

فهو مثل عملي ضربه الله لخلاص أضعف الضعفاء من مخلب أقوى الأقوياء.

وجعل المستضعفين أئمة وارثين، وسادة غالبين. والتمكين لهم في الأرض، وإرادة الأقوياء المستعلين في الأرض عاقبة باطلهم، لكيلا ييأس المستضعفون في الأرض من روح الله.

وقد قال موسى لبني إسرائيل تمكيناً لهذا المعنى في نفوسهم:

﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وإلى هذا المثل العملي تشير الآية:

﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله: موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ [البقرة: ٢٤٣].

السر في اختيار العرب للرسالة العامة

وأما العرب فإنهم اختيروا لوظيفة عالمية عامة لما فيهم شرف متأصل، واستعداد كامل، وصفات مهيأة.

ولهذا كان منبع الرسالة بمكة، وشأنها عند العرب هو شأنها!! فهم مجمعون على تقديسها.

ولأنها في وسط الجزيرة وصميمها، ووسط الجزيرة بعيد كل البعد عن المؤثرات الخارجية في الطباع والألسنة، تلك المؤثرات التي يجلبها الاحتكاك بالأجانب والاختلاط بهم.

وكل أطراف الجزيرة لم تخل من لوثة في الطباع، وعجمة في الألسنة جاءت من الاختلاط بالأجنبي، ولا أضر على مقومات الأمم من العروق الدساسة.

فاليمن دخلتها الدخائل الأجنبية من الحبشة والفرس على طباع أهلها وألسنتهم. والشام ومشارفه كانت مشرفة على الاستعجام. والعراق والجزيرة لم يسلما من التأثر بالطباع الفارسية.

فكانت هذه الأطراف تنطوي على عروبة مزعزعة للمقومات، ولم يحافظ على الطبع العربي الصميم إلا صميم الجزيرة ومنه مكة التي ظهر فيها الإسلام.

وهذا الوسط وان كان عريقاً في الصفات التي تسمى العصر لأجلها جاهلياً؛ ولكنه كان بعيداً عن الذل الذي يقتل العزة والشرف من النفوس؛ والجاهل يمكن أن تعلمه، والجافي يمكن أن تهذبه.. ولكن الذليل الذي نشأ على الذل يعسر أو يتعذر أن تغرس في نفسه الذليلة المهينة عزة وإباء وشهامة تلحقه بالرجال.

هذا توجيه موجز مقرب لاختيار الله تعالى العرب للنهوض بالرسالة العامة.

وشيء آخر يرتبط بهذا:

وهو أن الله كما اختار العرب للنهوض بالعالم كذلك اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة، وترجمان هذه النهضة، ولا عجب في هذا؛ فاللسان الذي اتسع للوحي الإلهي لا يضيق أبداً بهذه النهضة العالمية مهما اتّسعت آفاقها وزخرت علومها.

وهذا جانب لا أتحدث عنه فقد كفانا مؤنته أخونا الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي في محاضرته التي سمعتموها بالأمس[1].

معلومات مغلوطة عن العرب

قلنا في أول كلمتنا: إن العناية بالعرب حق على كل مسلم لارتباط تاريخهم بتاريخ الاسلام. فما هو حظ العرب من القرآن من الناحية التاريخية بعد أن سمعتم هذه التوجيهات العامة؟

العرب مظلومون في التاريخ، فإن الناس يعتقدون ويعرفون أن العرب كانوا همجاً لا يصلحون لدنيا ولا دين حتى جاء الاسلام فاهتدوا به، فأخرجهم من الظلمات من النور.

هكذا يتخيل الناس العرب بهذه الصورة المشوهة، ويزيد هذا التخيل رسوخاً، ما هو مستفيض في آيات القرآن من تقبيح ما كان عليه العرب؛ ليحذرنا من جاهلية أخرى بعد جاهليتهم.

حقيقة العرب:

والحقيقة التي يجب أن أذيعها في هذا الموقف هي:

إن القرآن وحده هو الذي أنصف العرب، والناس بعد نزول القرآن قصروا في نظرتهم التاريخية إلى العرب، فنشأ ذلك التخيل الجائر عن القصد.

والتاريخ يجب ألا ينظر من جهة واحدة، بل ينظر من جهات متعددة وفي العرب نواح تجتبى ونواح تجتنب، وجهات تذم وتقبيح، وجهات يثنى عليها وتمدح.

وهذه هي طريقة القرآن بعينها: فهو يعيب على العرب رذائلهم النفسية كالوثنية، ونقائصهم الفعلية كالقسوة والقتل، وينوّه بصفاتهم الإنسانية التي شادوا بها مدنياتهم السالفة، واستحقوا بها النهوض بمدنية المدنيات.

١ ـ أمة عاد

ولنذكر عاداً: فهي أمة عربية ذات تاريخ قديم، ومدنية باذخة ذكرها القرآن، فذكرها بالقوة والصولة وعزة الجانب، ونعى عليها الصفات الذميمة التي تنشأ عن القوة، قال تعالى:

﴿وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشدُّ منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوة﴾ [فصلت: ١٥].

---

(١) نشرت هذه المحاضرة للعلامة الإبراهيمي في الجزء الأول من المجلد الخامس عشر من مجلة الشهاب الصادرة في غرة المحرم سنة ١٣٥٨ هـ (حاشية المطبوع: ص ٦٦٦).

فالنظرة التاريخية المجردة في هذه الآية وفيما ورد في موضوعها ترينا أن عاداً بلغت من القوة والعظمة مبلغاً لم تبلغه أمة من أمم الأرض في زمنها. حتى أن الله جل شأنه لم يتحدى قولهم: «من أشد منا قوة» إلا بقوته الالهية، التي تذعن كل مخلوق ولو كانت في أمم الأرض إذ ذاك أمة أقوى منهم... لكان الأبلغ أن يتحداهم بها.

وإن أمة تقول هذه الكلمة بحالها أو مقالها.. لهي أمة معتدة بقوتها وعظمتها!!

ومن هذه الآية وحدها نستفيد أن عاداً كانت أشد الأمم قوة، وأنها ما بلغت هذه الدرجة من القوة إلا بمؤهلات جنسية طبيعية للملك، وتعمير الأرض، وأن تلك المؤهلات فيها وفي غيرها من شعوب العرب هي التي أعدتهم للنهوض بالرسالة الإلهية.

وإن القرآن لا ينكر عليهم هذه المؤهلات، وإنما ينكر عليهم لوازمها ولا ينكر عليهم القوة والعظمة، وإنما ينكر عليهم أن يجعلوها ذرائع للباطل والبغي ومحادة الله؛ بدليل قوله لهذه الأمة: **﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾** [هود: ٥٢]؛ فهو يضمن لهم أنهم إن آمنوا وعملوا الصالحات يزيد قوتهم تمكيناً وبقاء.

ومحال أن ينكر القرآن على الناس القوة وهو الداعي إليها والمنفر من الضعف، وإنما شرع القرآن بجنب الدعوة إلى القوة أن تكون للحق وللخير وللرحمة والعدل.

وكذلك قوله تعالى: **﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلّكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبّارين فاتّقوا الله وأطيعونِ﴾** [الشعراء: ١٢٨ - ١٣١].

فإن هذه الآية - زيادة عن إفادتها لمعنى ما قدمناه - تكشف لنا نواحي من تاريخ هذه الأمة العربية، ومبلغ مدنيتها وتعميرها: فهي تدل على أنهم كانوا بصراء بعلم تخطيط المدن والأبنية، وهو علم لا يستحكم إلا باستحكام الحضارة في الأمة، ومأخذ هذا من قوله: «بكل ريع...».

والآية في قوله: «آية» هي بناء شامخ، يدلّ على قوتهم، أو هي آية هادية للسائرين؛ وهي على كل حال بناء عظيم يدل على عظمتهم وقوتهم، وما زالت عظمة البناء تدل على عظمة الباني.

ولم ينكر عليهم نبيهم نفس البناء الذي هو مظهر القوة، وإنما أنكر عليهم الغاية المقصودة لهم من ذلك البناء الشامخ. فمحط الإنكار قوله: «تعبثون».

ولا شك أن كل بناء شامخ لا يكون لغاية شريفة محمودة، فهو عبث ولهو باطل.

و (المصانع) يقول المفسرون: إنها مجاري المياه، أو هي القصور، وعلى القولين فهي دليل معرفتهم بفن التعمير علماً وعملاً، وبلوغهم فيه مبلغاً عظيماً، فهي من شواهدنا على ما سقنا الحديث إليه.

ولكن ليت شعري، ما الذي صرف المفسرين اللفظين عن معنى (المصنع) اللفظي الاشتقاقي؟!

والذي أفهمه ولا أعدل عنه، هو أن المصانع جمع مصنع من الصنع، كالمعامل جمع معمل من العمل، وأنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران.

وهل كثير على أمة أن توصف بما وصفت فيه في الآية ـ أن تكون لها مصانع بمعناها العرفي عندنا؟ بلى؛ وإن المصانع لأول لازم من لوازم العمران، وأول نتيجة من نتائجه.

ولا أغرب من تفسير هؤلاء المفسرين للمصانع، إلا تفسير بعضهم للسائحين والسائحات: بالصائمين والصائمات!

والحق: أن السائحين هم الرحالون والرواد للاطلاع والاكتشاف والاعتبار.

والقرآن الذي يحث على السير في الأرض والنظر في آثار الأمم الخالية.. حقيق بأن يحشر السائحين في زمرة العابدين والحامدين والراكعين والساجدين. فربما كانت فائدة السياحة أتم وأعم من فائدة بعض الركوع والسجود.

ولا يقولن قائل: إذا كانت المصانع ما فهمتم.. فلماذا يقبحها لهم وينكرها عليهم؟

والجواب:

فإنه لم ينكرها عليهم لذاتها، وإنما أنكر عليهم غاياتها وثمراتها، فإن المصانع التي تشيد على القسوة لا تحمد في مبدأ ولا غاية. وأي عاقل يرتاب في أن غالبية المصانع اليوم هي أدوات عذاب لا رحمة، ووسائل تدمير لا تعمير؟؟

فهل تحمدها على عمومها؟ وإن كانت دلائل حضارة ومدنية؟؟!!

ومن محامد المصانع أن تشاد لنفع البشر ولرحمتهم، ومن لوازم ذلك أن نراعي فيها حقوق العامل على أساس أنه إنسان لا آلة!!

* * *

﴿وإذا بطشتم بطشتم جبَّارين﴾

لا بد لكل أمة تسود وتقوى من بطش.

ولكن البطش فيه ما هو حق، بأن يكون انتصافاً وقصاصاً، وإقامة لقسطاس العدل بين الناس.

وفيه ما هو بطش الجبارين، والجبار هو الذي يجبرك على أن تعمل بإرادته لا بإرادتك، فبطشه إنما يكون انتقاماً لكبريائه وجبروته وإرضاء لظلمه وعتوه، وتنفيذاً لإرادته الجائرة التي لا تبنى على شورى، وإنما تبنى على التشهي وهوى النفس؛ لذلك لم ينقم منهم البطش لأنه بطش... وإنما نقم بطش الجبابرة الذي كله ظلم.

٢ ـ إرم ذات العماد وحضارتها

وفي القرآن ما هو كالتتمة لبحثنا عن حضارة العرب، وكالعلاقة لحضارة عاد بعينها، وهي حكاية عاد إرم ذات العماد.

فهذا الوصف البليغ الذي تقرؤه في سورة الفجر صريح بألفاظه ومعانيه في أنه وصف لحضارة عمرانية لا نظير لها: فالعماد لا تكون إلا في القصور والأبنية الباذخة والمدن المخططة على نظام محكم.

وقد قال تعالى وهو العالم بكل شيء إنه لم يخلق مثلها في البلاد.

ومدينة هذا وصفها لا تشيدها إلا أمة لا نظير لها في القوة وآثار الحضارة، يتبع بعضها بعضاً في الضخامة والعظم والوصف القرآني لها، وإن سيق للاتعاظ بعاقبتهم، يدل البحث التاريخي على أنهم بلغوا في الحضارة غاية لا وراءها.

وهم أمة عربية، فهذه المدينة شيدت في جزيرة العرب لا محالة.

وإن الأقرب في التذكير بهم والاتعاظ بمصيرهم أن تكون الرؤية في قوله تعالى: «ألم تر» علمية؛ لأن التذكير عام لمن تتيسر له رؤية العين ولمن لم تتيسر له.

ولو ائتمرت الأمم الاسلامية بأوامر القرآن، لنشأ فيها رواد يرودون الجزيرة، ويجوبون مجاهلها، ولو فعلوا لأمكن أن يعثروا على آثار هذه المدينة في أرض عاد، وهي معروفة، ويجمعوا بين الرؤية البصرية، والرؤية العلمية، وبين العلم والاتعاظ.

وإننا لا نعبأ في مقام البحث العلمي بما حف هذه الحكاية من أساطير، ولا بما وقع فيه شيخ المؤرخين ابن خلدون حينما تعرض لنقض تلك الأساطير.

٣ ـ أمة ثمود وحضارتها

وأمة أخرى من الأمم العربية، وهي (ثمود)، وهي أمة عربية، نلعنها بلعن القرآن لها، ولكننا نذكرها بما ذكرها به القرآن من قوة وتعمير وحضارة.

فصالح رسول هذه الأمة ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول في دعوتها إلى الله وتعريفها بنعمه: **﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم آعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره هو أنشأكم من الأرض وآستعمركم فيها﴾** [هود: ٦١].

فأية أمة لا تعمر الأرض إلا إذا ملكت وسائل التعمير وهي كثيرة، ومجموعها هو ما نسميه الحضارة أو المدنية.

وقد كشفت لنا عن هذا الاستعمار الثمودي عدة آيات بليغة الوصف، ولكن أبلغها وصفاً وأدقها تصويراً قوله تعالى:

﴿أتتركون فيما ها هنا آمنين في جنَّات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾؟ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩].

أما المغزى الذي سبقت هذه الآية لأجله فهو الإنكار عليهم:
كيف يستعينون بنعم الله التي يسرها لهم على الكفر به؟.
وإنذارهم أن الكفر بها وبمؤتيها.. سيكون سبباً في زوالها.

وفي ضمن هذا عرفنا حالتهم التي كانوا عليها في تعمير الأرض: وهي حالة أمة بلغت النهاية في الحضارة المادية وفنونها.

من زرع الأرض وتلوينها بأصناف الشجر منظمة.

وتقسيم المياه على تلك الغروس إلى ما يستلزمها كل ذلك من علم بحال الأرض وطبائعها.
وأحوال الأشجار المغترسة وطبائعها.

وأحوال الفصول الزمنية، وأحوال الجو، وأحوال التلقيح والآبار والجَنَى.
وعلم بأصناف التمتع من مناظر، ومجالس، ومقامات ومآكل.
ثم القيام على حفظ ذلك العمران من إفساد الايدي السارقة.

وكل هذا مما يستلزمه وصف القرآن لحالهم، لأجل تذكيرهم والتذكير بهم.

وقد ذكرهم القرآن في مواضع بإتقانهم لنحت الحجر والشجر آيتا الحضارة المبصرتان. ومن يعرف الحضارة الرومانية بهذا الوطن يعرف أنها ما قامت إلا على نحت الحجر وغرس الشجر.

وإن نحت الحجر ليستدعي حاسة فنية خاصة، ويستدعي مع ذلك قوة بدنية؛ وقد نعتهم القرآن في نحتهم للحجر بحالة ملابسة:

فوصفهم مرة بأنهم «آمنون» ومرة بأنهم «فرهون» والفاره هو الذي يعمل بنشاط وخفة، ولا يأتيه ذلك إلا من خبرته بما يعمل، وعلمه بدقائقه واعتياده له. ومعنى هذا أن أصول هذه الصناعة التي اشتهر بها المصريون القدماء، والرومان، قد رسخت فيهم.

ولكن التاريخ المنقول ظلم العرب وبخسهم حقهم كما قلت لكم!!

هاتان أمتان من الأمم العربية أثبت القرآن حالهما، فكان لنا مصدراً تاريخياً معصوماً في إثبات حضارة الشعوب العربية التي برزت فيها الأمم.

* * *

حضارة اليمن

ولننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحي الجزيرة، وهي اليمن التي عرفها اليونان وغيرهم، وعرفوا المدنيات التي قامت فيها، فسموها بالعربية السعيدة.

وإننا إذا انتقلنا إلى هذه الناحية من الجزيرة: نجد العز القُدموس[1]، والمجد الباذخ، والماضي الزاهر لهذه الأمة التي نفتخر بالانتساب إليها، ونباهي الأمم بمدنياتها بالحق والبرهان.

وإننا في حديثنا عن اليمن لا نخرج عن شواهد القرآن:

قال تعالى: ﴿**لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنَّتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربِّكم واشكُروا له بلدة طيبة وربٌّ غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدَّلناهم بجنتيهم جنَّتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلاَّ الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدَّرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأيَّاماً آمنين فقالوا ربَّنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزَّقناهم كل ممزَّق إنَّ في ذلك لآيات لكل صبَّار شكور**﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٩].

ليس المقام مقام تبسط في وجوه البلاغة المعجزة التي تنطوي عليها هذه الآيات:

فقد استوعبت تاريخ أمة في سطور، وصورت لنا أطواراً اجتماعية كاملة في جمل قليلة أبدع تصوير، ووصفت لنا بعض خصائص الحضارة والبداوة في جمل جامعة، لا أظن غير اللسان العربي يتسع لحملها: كقوله ﴿**قرى ظاهرة**﴾، وكقوله: «﴿**وقدرنا فيها السير**﴾، وكقوله: ﴿**باعد بين أسفارنا**﴾. حتى إذا وصل القارىء إلى مصير الأمة التي سمع ما هاله من وصفها، واجهه قوله تعالى: ﴿**فجعلناهم أحاديث**﴾. وأدركه الغرق في لجج البلاغة الزاخرة.

اللهم إن السلامة في الساحل، وإننا لا نعدو موضوعنا، وهو تصوير حضارة العرب مما يحكيه القرآن عنها في معرض بيان مصائرها حين كفرت بأنعم الله وبرسله.

الآيات صريحة في أن مدنية سبأ كانت مدنية زاهرة مستكملة الأدوات.

ومن قرأ القرآن بعقله فهم ما نفهم من آياته، وعلم ما نعلم أن مدن سبأ كانت عامرة بالبساتين عن يمين وشمال. ويمين من؟ وشمال من؟ إنه ولا شك يمين السائر في تلك المدن أو الأراضي وشماله.

ومعنى هذا: أن طرق السير كانت منظمة تبعاً لتنظيم الغروس عن يمينها وشمالها. والاكتشافات الأثرية اليوم التي كان لليمن حظ ضئيل منها ـ وإن كان على غير يد أهلها ـ تشهد بأن أمم الحضارات اليمنية كانت من أسبق الأمم إلى بناء السدود المنيعة، لحصر المياه والانتفاع بها في تعمير الأرض، وإقامة السدود لا تتم بالفكر البدوي، والعمل اليدوي، بل تتوقف على علوم

---

(١) القُدْمُوس والقُدموسة: الصخرة العظيمة. وجيش قدموس: عظيم. والقدموس: الملك الضخم. وقيل: هو السيد. والقدموس: القديم. وعز قدموس وقدماس: قديم، يقال: حسب قدموس أي قديم. والقدموس: المتقدم. وقدموس العسكر: مقدّمه. والقدموس والقُدامس: الشديد. انظر لسان العرب (١٧٠/٦ ـ مادة قدمس).

فكرية.. منها الهندسة، والهندسة تتوقف ثمراتها على علوم كثيرة، وعلوم العمران كعروق البدن يمد بعضها بعضاً، فهي مترابطة متماسكة متلاحمة، فما يكون السبئيون بلغوا في الهندسة مبلغاً أقاموا به سد مأرب؛ حتى يبلغوا في غيره من علوم العمران ذلك المبلغ.

ولكن لما كفروا بأنعم الله واستعملوها في ما يسخطه، سلط الله عليهم من الأسباب ما خرب عمرانهم، وأباد حضارتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿**فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم**﴾. ويقول في وصف عمرانهم: ﴿**وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة**﴾ يعني أن عمرانهم لم يكن محدوداً وإنما كان متصلاً بعضه ببعضه.

فالقرى والمدن يظهر بعضها من بعضها لقربها وتلاحمها، فلا يكاد المسافر يبرح مدينة حتى تبدو له أعلام الأخرى، ولا يكون هذا إلا إذا كان العمران متصلاً، وهذا هو معنى الظهور في الآية فهو ظهور خاص.

وتقدير السير هو أن يكون منظماً ومن لوازمه أن تكون الأوقات مضبوطة بالساعات والطرق، محدودة بالعلامات التي تضبط المسافة.

وقوله تعالى: ﴿**سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين**﴾ يرشدنا إلى امتداد العمران مسافة الليالي والأيام، وأن الأمن كان ماداً رواقه على هذا العمران ولا يتم العمران إلا بالأمن.

ولكن فات القوم أن يحصنوا هذه المدنية الزاخرة بسياج الإيمان، والشكر، والفضيلة، والعدل - وكل مدنية لم تحصن بهؤلاء فمصيرها إلى الخراب.

والناس من قديم مفتونون بعظمة المظاهر، يحسبون أنها خالدة بعظمتها باقية بذاتها؛ فالقرآن يذكر لنا كثيراً من مصائر الأمم، حتى لا نغتر بمظاهرها، وحتى نعلم أن سنة الله لا تتخلف في الآخرين، كما لم تتخلف في الأولين.

وأما قوله تعالى: ﴿**قالوا ربنا باعد بين أسفارنا**﴾ فإن المفسرين السطحيين يحملونه على ظاهره وأي عاقل يطلب بعد الأسفار؟!

والحقيقة أنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم، وإنما هو نتيجة أعمالهم، ومن عمل عملاً يفضي إلى نتيجة لازمة؛ فإن العربية تعبر عن تلك النتيجة بأنها قوله، وهذا نحو من أنحاء العربية الطريفة.

ولا زال الناس - على عاميتهم - يقولون فيمن عمل عملاً يستحق عليه الضرب أو القتل: إنه يقول اقتلني أو اضربني وهو لم يقل ذلك، وإنما أعماله هي التي تدعو إلى ذلك.

فالمعنى: أن أعمالهم هي التي طلبت جزاءها اللازم لها المرتبط بها ارتباط اللازم بالملزوم والدال بالمدلول، فكأن ألسنتهم قالت ذلك، ويؤيد هذا في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿**سيجزيهم**﴾ [الأنعام: ١٣٨، ١٣٩]؛ لأن الجزاء أثر للفعل فهو مرتبط به.

ولا يقولن قائل: إن القول يقع مدلوله في القلب حالاً، ولا كذلك العمل، فقد يتأخر

جزاؤه طويلاً ؛ لأن الجزاء إذا كان محقق الوقوع يصير كأنه حاصل بالفعل، وكل عاقل يقطع بأنه إذا وقع الظلم من الظالم. . . فقد استحق عليه الجزاء، ولا يلاحظ مسافة ما بين الظلم وجزائه.

أما المباعدة بين أسفارهم التي اقتضاها كفرهم بأنعم الله فهي كناية عن محو العمران، وخراب القرى التي كانت ظاهرة متقاربة، حتى لا يبقى منها إلا القليل فيتباعد ذلك القليل بالطبع بخراب الكثير.

وأين العمران المتلاحم الذي يرتاح فيه المسافر لضبط المسافة، وتعدد المشاهد. . . من الخراب الذي يوحش النفس فيزيد المسافة بعداً على بعد؟؟!!.

* * *

قصة ملكة سبأ والعبرة منها

وملكة سبأ وعرشها العظيم وملكها، وما قصه القرآن من نبئها أعظم وأروع.

فمخبر سليمان ـ عليه السلام ـ يقول عنها: **﴿وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾** [النمل: ٢٣] وما وصف عرش ملكة سبأ بالعظيم عند سليمان نبي الله الذي سخر له الجن والريح، إلا وهو في نفسه عظيم.

العبر من القصة:

إن في قصة ملكة سبأ في القرآن لدرساً تتفجر منه ينابيع العظة والعبرة وإرشاداً إلى ما تقوم به الأمم.

ولولا أن هذا الخطاب قد طال. . . لآثرنا منها العبر وأثرنا بها العبر. ولكن لا يفوتنا أن نختلس منها إرشادات، وما عليكم بعد ذلك إلا أن تتدبروا الآية، ففيها:

١ ـ نظام الشورى صريحاً لا مواربة فيه.

٢ ـ وأن بناء الأمم إنما يعتمد على القوة، وقد تكون مؤنثة فلا بد أن يسندها بأس شديد.

٣ ـ وأن الملأ هم الأشراف وأهل الرأي، وهم أعضاء المجالس الشورية ولعلهم كانوا بالانتخاب الطبيعي أو الوراثي، وهو لا يكون إلا في الأمم التي شبت عن طرق البداوة.

ولعل كاتباً من كتابنا يتناول هذا البحث، بحث الانتخاب في الاسلام، ولئن استرشد القرآن في هذا الباب ليرشدنه.

أيها الإخوان:

هذه مدنيات ضخمة، غَبَرَتْ في هذه الأمة التي أهلها الله لحمل الرسالة الإلهية إلى العالم.

وهذه بعض خصائص هذه الأمة، التي هيّأها الله للنهوض بالعالم، وانقاذه من شرور الوثنية وبنيانها، ومن ضلال العبودية بجميع أصنافها.

وإن القومية العربية موضوع متسع الأطراف، وليس من الممكن الإحاطة به في مثل هذا الخطاب.

وحسبي أن أكون قد خدمتها من هذه الناحية التي هي خدمة للاسلام والقرآن.

وعليكم السلام.

«سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين».

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهـــــرس
تفسـير ابن بـاديس

الفهـــرس

حفظ النفوس بحفظ النسل وحفظ الفرج وعدم العدوان

حفظ الأموال باحترام الملكية

العلم والأخلاق

نجاة المعبودين بهداهم، وهلاك العابدين بضلالهم

الطور الأخير لكل أمة وعاقبته

التكريم الرباني للنوع الإنساني

الصلاة لأوقاتها

نافلة الليل وحسن عاقبتها

القرآن شفاء ورحمة

صفتان من صفات النوع الإنساني
الإعراض عن النعمة واليئوس من الرحمة

القسم الثاني
في سورة الفرقان

كلام الظالمين في الكتاب الحكيم
والرسول الكريم ورد رب العالمين

منزلة الرسالة العلمية والضروريات البشرية

فتنة العباد بعضهم لبعض

ندامة الظالم على تركه السبيل القويم، وصحبته للمضلين

شكوى النبي ﷺ وتسليته وتثبيته

التسلية والتثبيت

تثبيت القلوب
بالقرآن العظيم

الحق والبيان في آيات القرآن

حشر الكفار إلى النار

من إكرام الله تعالى عبده وتحميله
أعباء الرسالة وحده

عدم طاعة الكافرين والجهاد بالقرآن العظيم

تعاقب الليل والنهار للتفكير والعمل

القرآن يصف عباد الرحمن

الوعيد على فعل هذه الموبقات

استثناء التائبين من المذنبين

بشارة التائبين إلى رب العالمين

الآيـة الخامسة

الفصـل الرابـع

الآيـة السادسـة

الآيـة السابـعة

الفصـل الخـامس

الآيـة الثامنـة

الفصـل السـادس

الآيـة التاسعـة

تابع المرسل والرسول والمرسل إليهم

الوحي مصدر الإسلام

لا يؤمن من سبق في علم الله
عدم إيمانه

الحياة بعد الموت

القسم الخامس
آيـات بيِّنـات

١ ـ سبيل السعادة والنجاة

٢ ـ كيف تكون الدعوة إلى الله والدفاع عنها

٣ ـ دعوة أهل الكتاب

٤ ـ الاجتماع العام للأمر الهام وارتباط الجماعة بأمر الإمام

٨ ـ دفاع الله عن المؤمنين

٩ ـ أكل الحلال والعمل الصالح

١٠ ـ الفرار إلى الله

القسم السادس
تفسير المعوذتين
تفسير سورة الفلق

تفسير سورة الناس

القسم السابع
العرب في القرآن